جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

صورة الخيل في شعر أبي تمّام والمتنبي
دراسة مقارنة

إعداد
إيمان زهير حسين شريم

إشراف
د. عبد الخالق عيسى

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجيستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2013م

صورة الخيل في شعر أبي تمّام والمتنبي
دراسة مقارنة

إعداد

إيمان زهير حسين شريم

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2013/9/18م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
1. د. عبد الخالق عيسى / مشرفاً ورئيساً	.....
2. أ. د. مشهور الحبازي / ممتحناً خارجياً	.....
3. أ. د. وائل أبو صالح / ممتحناً داخلياً	.....

الإهـداء

إلى رمزيّ القوّة والجرأة، رمزيّ المحبّة والحنان، إلى من شجعاني وكانا سنداً لي دائماً،
أمي الغالية، ووالدي العزيز

إلى سندي ورفيق دربي، ومن كان خير عون لي في مواصلة دراستي، زوجي الغالي

إلى نور حياتي، وأمل المستقبل، وفلذة كبدي، عميد

إلى كل من وقف إلى جانبي، دون كلل أو ملل، أخواتي العزيزات

إلى من دعمني في مسيرتي العلمية والعملية، مدير مدرستي الفاضل

إلى كل من أحيا قلبي بمحبته

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل

الشكر والتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل من الدكتور الفاضل (**عبد الخالق عيسى**) الذي تفضّل وتكرم بالإشراف على رسالتي، وتابعني فيها حرفاً حرفاً، وسطراً سطراً، فبارك الله في جهوده، وحفظه من كل سوء، وأدامه ذخراً لجامعة النجاح الوطنية.

وأتقدم بالشكر والعرفان من الدكتور (**سامح العطعوط**) الذي لم يبخل عليّ بمساعدته، فجزاه الله عني كل خير، كذلك الدكتور (**جهاد شريدة**) الذي ساندني وشجعني، ولم يتوان في الجود عليّ بمعلوماته الوفيرة، وكل الشكر والتقدير إلى مكتبتي جامعة النجاح الوطنية، وبلدية قلقيلية اللتين أسعفتاني بكل ما احتجت إليه خلال مدّة دراستي، والشكر موصول إلى مكتبة الهدى للخدمات العامة على جهودهم.

فبارك الله في الجميع، وسدّد على طريق الخير خطاهم.

الباحثة

إيمان شريم

الإقرار

أنا الموقعة أدناه مقدمة الرسالة التي تحمل العنوان:

صورة الخيل في شعر أبي تمّام والمتنبي
دراسة مقارنة

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء مـــا تمـــت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة علمية أو بحث علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

is the ، unless otherwise referenced،The work provided in this thesis and has not been submitted elsewhere for any other ،researcher's own work degree or qualification.

اسم الطالبة: **Student's name:**

التوقيع: **Signature:**

التاريخ: **Date:**

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
الإقرار	هـ
فهرس المحتويات	و
الملخص	ن
المقدمة	1
الفصل الأول: صورة الخيل في شعر أبي تمّام	**4**
التمهيد	5
مواقف النقاد القدامى من شعره	6
المبحث الأول: صور الخيل المألوفة في شعر أبي تمّام	12
وصف الخيل في شعره	14
الخيل في قصيدة المديح	14
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	14
الفرس العائر	14
الفرس الحرون	16
ألفاظ الخيل في جماعات	17
الخيل الأعوجية	18
عَدْو الخيل	20
خيل النّصر	23
الخيل الضامرة	31
أدوات الخيل	35
أوصاف الخيل	36
ثانياً: الصّورة القائمة على اللون	42
اللون الأبيض	42
اللون الأبيض وألوان أخرى	43
اللون الأبيض والأسود	44

الموضوع	الصفحة
الخيل في قصيدة الفخر	46
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	46
الفخر بالنفس	46
الخيل في الحرب	47
الخيل السابقة	48
أوصاف الخيل	50
ثانياً: الصّورة القائمة على اللّون	53
اللون الأصفر	53
اللون الأحمر	54
اللون الأبيض	55
الخيل في قصيدة الرثاء	55
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	55
بعد غياب الممدوح	55
خيل الحرب الضامرة	57
ثانياً: الصّورة القائمة على اللون	58
الخيل في قصيدة الهجاء	59
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	59
الدعاء على المهجوّ	59
عَدْو الخيل	60
الصّورة في قصيدة الغزل	62
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	62
مشهد الفراق	62
الفرس الجموح	64
ثانياً: الصّورة القائمة على اللون	65
المبحث الثاني: صور الخيل المبتكرة في شعر أبي تمّام	66
التمهيد	66

الموضوع	الصفحة
الخيل في قصيدة المديح	72
الصّورة القائمة على الحركة	72
الخيل في قصيدة الفخر	73
الصّورة القائمة على الحركة	73
الخيل في قصيدة الرثاء	75
الصّورة القائمة على الحركة	75
الخيل في قصيدة الهجاء	75
الصّورة القائمة على الحركة	75
الخيل في قصيدة الغزل	76
الصّورة القائمة على الحركة	76
الصّورة القائمة على اللون	77
الفصل الثاني: صورة الخيل في شعر المتنبي	**78**
التمهيد	79
مواقف النّقاد من المتنبي وشعره	86
المبحث الأول: صور الخيل المألوفة في شعر المتنبي	90
الخيل في قصيدة المديح	91
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	91
خيل السفر	92
خيل العطاء	93
خيل الحرب	99
الخيل السريعة	100
الخيل الشرسة	103
الخيل المطيعة	109
الخيل المخلصة	110
الخيل الطويلة	111
الخيل الحامية المعينة	113
علوّ المكانة بالفروسية	116

الموضوع	الصفحة
خيل النّصر والشّجاعة	118
عَدْوِ الخيل	125
غبار الخيل	131
الخيل السابحة	134
راحة الخيل عند فارسها	136
مكاره في الخيل	140
الخيل ومظاهر الطبيعة	141
كثرة الخيل	143
الخيل في قمم الجبال	146
العلاقة بين الخيل والممدوح	147
ما نُقِل من الخيل وإليها	151
الخيل الضامرة	152
حكمة الخيل	155
ثانياً: الصّورة القائمة على اللون	155
اللون الأبيض	156
اللون الأبيض والأسود	157
اللون الأسود	159
اللون الأحمر	160
مزيج من الألوان	161
ثالثاً: الصّورة القائمة على الحواس	162
صوت الفرس	163
حاسة السّمع	165
حاسة النظر	166
الخيل في قصيدة الفخر	167
أولاَ: الصّورة القائمة على الحركة	167
الفخر بالنفس	167
الفخر بالممدوح	171

الموضوع	الصفحة
الخيل السابقة	172
الخيل الطويلة	175
الخيل ومظاهر الطبيعة	177
حكمة الخيل	179
ثانياً: الصّورة القائمة على اللون	180
اللّونان الأبيض والأسود	180
حكمة الخيل	182
اللون الأصفر	182
ثالثاً: الصّورة القائمة على الحواس	183
صوت الخيل	183
حاسة السمع	184
حاسة النظر	186
الخيل في قصيدة الرثاء	187
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	187
حُزْن الخيل ومظاهر الطبيعة	187
المرثي الفارس	188
الخيل الفقيدة	189
حكمة الموت	189
محاسن المرثي	191
ثانيا: الصّورة القائمة على اللون	192
اللون الأحمر	192
الخيل في قصيدة الهجاء	193
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	193
السرعة والفرار	193
التوعد والسخرية	197
ثانياً: الصّورة القائمة على اللون	199
ثالثاً: الصّورة القائمة على الحواس	199

الموضوع	الصفحة
الخيل في قصيدة الغزل	200
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	200
فراق المحبوب	200
الفخر بالنفس في الغزل	201
التغزل بالممدوح	202
التغزل بالخيل	202
حكمة الخيل	203
ثانيا: الصّورة القائمة على اللون	204
اللون الأسود	204
اللون الأبيض	205
ثالثا: الصّورة القائمة على الحواس	205
صوت الخيل	205
حاسة النطق والنظر	206
المبحث الثاني: صور الخيل المبتكرة في شعر المتنبي	207
الخيل في قصيدة المديح	209
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	209
باب العطاء والجود	209
خيل الحرب	210
الخيل والطبيعة	211
الخيل الشرسة	212
الممدوح وخيله	212
عَدْو الخيل	214
ثانياً: الصّورة القائمة على الحواس	215
حاسة السمع والنظر	215
الخيل في قصيدة الهجاء	216
الصّورة القائمة على الحركة	216
الخيل في قصيدة الغزل	216

الموضوع	الصفحة
الصّورة القائمة على الحركة	216
الفصل الثالث: السّمات الفنية عند الشّاعرين	**218**
المبحث الأول: اللغة والموسيقى والصّورة الفنية في شعر الشّاعرين	219
اللغة عند أبي تمّام	219
الموسيقى عند أبي تمّام	225
الصّورة الفنية عند أبي تمّام	227
اللغة عند المتنبي	231
الموسيقى عند المتنبي	235
الصّورة الفنية في شعر المتنبي	238
المبحث الثاني: صورة المتنبي المتأثّرة بصور أبو تمّام	244
الخيل في قصيدة المديح	244
أولاً: الصّورة القائمة على الحركة	244
خيل السّقر	244
الخيل المخلصة	244
الخيل الطويلة	246
علوّ المكانة بالفروسيّة	246
خيل النّصر والشّجاعة	247
عَدْو الخيل	249
غبار الخيل	250
مكاره في الخيل	250
الخيل الضّامرة	251
ثانياً: الصورة القائمة على اللّون	254
اللون الأبيض والأسود	254
اللّون الأحمر	255
ثالثاً: الصورة القائمة على الحواس	256
صوت الفرس	256

الموضوع	الصفحة
الخيل في قصيدة الفخر	257
أولاً: الصورة القائمة على الحركة	257
الفخر بالنّفس	257
الخيل السّابقة	259
الخيل ومظاهر الطبيعة	260
ثانياً: الصورة القائمة على الحواس	261
حاسة السّمع	261
الخيل في قصيدة الرثاء	261
أولاً: الصورة القائمة على الحركة	261
محاسن المرثي	261
الخيل في قصيدة الغزل	263
أولاً: الصورة القائمة على الحركة	263
فراق المحبوب	263
الخاتمة	**265**
قائمة المصادر والمراجع	**267**
Abstract	**b**

صورة الخيل في شعر أبي تمّام والمتنبي

دراسة مقارنة

إعداد

إيمان زهير حسين شريم

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

الملخص

تكتسب هذه الدراسة أهمية خاصة من كونها تناولت شاعرين كبيرين، شغلا الدارسين قديماً وحديثاً، ولم يلتفت أحد منهم إلى صورة الخيل عند أبي تمّام والمتنبي، وتعدّ هذه دراسة جديدة في موضوعها.

وقد تناول البحث صور الخيل في شعر أبي تمّام والمتنبي، ومن الصور الأهم فيها صورة الخيل في قصيدة المديح؛ ذلك أن غرض المدح كان من أهم الأغراض الشعرية الّتي امتاز بها الشّاعران.

إن تناول صورة الخيل في شعر أبي تمّام، شكّل فكرة واضحة عن الصّورة المألوفة لدى أبي تمّام، المتأثرة بأدب القدماء وأشعارهم، وفكرة عن الصّورة المبتكرة لديه، النابعة من فكر صافٍ، وصنعة لطيفة، خارجة عن المألوف والمتّبع.

وشكّل لدينا فكرة عن الصّورة المألوفة لدى المتنبي، المتأثرة بأشعار القدماء والثقافات المختلفة من جهة، والمتأثرة بصورة الخيل عند أبي تمّام في بدايتها من جهة أخرى، وتكوّنت لدينا فكرة عن الصّورة المبتكرة لدى المتنبي الصادرة عن روح متمردة، تعاني القهر والألم في معظم مراحل حياتها.

وبعد دراسة صور الشّاعرين، تجلّت أمّامنا بعض الملامح الفارقة بينهما، فقد اهتمّ أبو تمّام بصنعة البديع في حين لم يولها المتنبي القدر نفسه من الاهتمّام، وعشق الشّاعران الغريب الوحشيّ من الألفاظ وإن أضرّ بالمعنى. وقد تناولت الدراسة التفات الشّاعرين إلى الموسيقى

الداخلية والخارجية في الشعر، إذ أظهر المتنبي اهتمّأمّا أكبر بها من خلال ألفاظه القوية، وشدّة جرسها الذي يضعك في قلب المعركة عبر السنين، أمّا الموسيقى عند أبي تمّام فارتبطت في معظم الأحيان بألوان البديع من الجناس والتقسيم وغيرهما.

في حين كان منبع الصور الفنية عند الشّاعرين واحداً، إلا أنّ أبا تمّام استخدم ألوان البديع ممّا أثّر على صوره بشكل سلبيّ، أمّا المتنبي فمَالَ بصوره نحو المبالغة والتهويل، ويعود ذلك إلى طبيعة شخصيّته وحياته الصعبة.

المقدمة

اشتغل النّاس في شعر أبي تمّام والمتنبي اشتغالاً كثيراً، وهذا ليس بالأمر الغريب فقد كانا من أبرز شعراء عصريهما، وما هذا كلّه إلا لقوّة شعرهما، وكثرة حسّادهما، ولاتصالهما بعليّة القوم وارتباط ذكرهما بهم [1].

وقد تناول كثير من الباحثين أبا تمّام والمتنبي، وأمعنوا في دراسة قضايا كثيرة تتصل بهما [2]. فبرز أبو تمّام بشعره الذي يكشف عن قدرة شعرية متجدّدة، وثقافة واسعة، وابتكار وتجديد في اللفظ والمعنى، فانكبّ الدارسون على دراسة شعره وتحليله.

ومن يرغب في الصّورة الكاملة عن المتنبي فإنه لا يحصل عليها ولا يحدّدها إلا بتذوق شعره واستنباط معانيه، ممّا يجعل حركة وجدانه أشد ظهوراً[3]، والصّورة اللغوية الفنية النّاجحة تكون من تجميع عناصر كثيرة في وضع متحرك نابض بالحياة، ممّا يضفي على الصّورة إيقاعاً ببطن المعنى، ويبرزه غنياً بمشاعر متعددة[4]، وهذا ما أبدع فيه المتنبي، فشعره مثالٌ رائعُ للصّورة الفنية الموحية المتجدّدة، المتطورة مع الموقف، المندمجة مع الطّبيعة، والكاشفة عن حالات المتنبي النّفسية في مختلف أطوار حياته[5].

وأبو تمّام شاعرٌ تفنن في صنعة البديع ووضع لها أصولاً اتُّبعت بعده، فكان شاعراً ملهماً لغيره من الشّعراء، أمّا المتنبي فشاعر جمع ما بين صور الطبيعة الكاملة، وشرّع لنا مذهباً خاصاً في الحياة، ما أهّلهُ أن يكون شاعراً عظيماً[6]، لذلك قررت أن أجعل موضوع بحثي يتصل بهذيْن الشّاعريْن الكبيريْن، وفي جانب جديد لم يتحدث عنه أحد في كتاب أو دراسة هو: "**صورة الخيل عند أبي تمّام والمتنبي: دراسة مقارنة**".

([1]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، مصر، المطبعة التجارية الكبرى، 1924، ص132.

([2]) شاكر، محمود محمد: **المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**، القاهرة، مطبعة المدني، 1987، ص42

([3]) المصدر السابق، ص48.

([4]) سلطان، منير: **الصّورة الفنية في شعر المتنبي(التشبيه)**، الاسكندرية: منشأة المعارف، 2007، ص149.

([5]) المصدر السابق، ص90.

([6]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص139.

فكشف هذا الموضوع عن أوجه الشبّه والاختلاف بين الشّاعرين بعد عقد موازنة بين هذه الصّور تُفضي إلى علاقات وأفكار ورؤى كثيرة.

وتكمن أهمية البحث في كونه عقد موازنة لم يلتفت أحد إليها من قبل في صورة الخيل بين أبي تمّام والمتنبي، وكشف عن مدى تأثّر المتنبي بأستاذه أبي تمّام في هذا الجانب، وعليه فهذه دراسة جديدة في موضوعها على الرغم من الدّراسات الكثيرة الّتي دارت حول الشّاعرين.

وقد سعى البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- التعرف إلى أوجه الشبّه بين صورة الخيل عند أبي تمّام من جهة والمتنبي من جهة ثانية.
- التعرف إلى أوجه الاختلاف بين صورة الخيل عند أبي تمّام والمتنبي.
- تحديد مدى تأثر المتنبي بصورة الخيل عند أبي تمّام.
- تحديد التطور الذي أحدثه المتنبي على صورة الخيل.

واعتمدتُ المنهج الوصفي والتحليلي.

وقد حصرتُ الأشعار الّتي تظهر فيها صورة الخيل عند أبي تمّام والمتنبي، وعقدتُ موازنة بين أشعار كل منهما؛ وحددتُ نقاط التشابه ونقاط الاختلاف، ثمّ تعرّفتُ إلى بعض الظواهر الفنية عند كل منهما.

وفي نهاية الدراسة عرضتُ أهم النتائج الّتي توصلت إليها، ثمّ ذكرتُ المصادر والمراجع، وتكامل البحث في مقدمة، وثلاث فصول، تضمن كل فصل مبحثين.

الفصل الأول كان تحت عنوان " **صور الخيل في شعر أبي تمّام**" المبحث الأول بعنوان "**الصّورة المألوفة العامّة في شعر أبي تمّام**"، والثاني "**الصّورة المبتكرة في شعر أبي تمّام**"، والفصل الثاني تحت عنوان" **صور الخيل في شعر المتنبي**" المبحث الأول بعنوان"**صور الخيل المألوفة في شعر المتنبي**". والثاني بعنوان "**الصّور الجديدة المبتكرة في شعر المتنبي**"، أمّا

الفصل الثالث كان تحت عنوان "**السّمات الفنية عند الشّاعرين**"، المبحث الأول بعنوان "**الظواهر الفنية في شعر الشّاعرين**"، والثّاني بعنوان " **صور المتنبي المتأثّرة بصور أبي تمّام**".

وقد توصّلت الدراسة إلى تحديد أوجه التشابه بين أبي تمّام والمتنبي في اختيارهما للألفاظ والمعاني الغريبة، والاهتمّام بأغراض المدخ والفخر؛ لارتباطهما بطبيعة حياة الشّاعرين، واستفادتهما من أشعار القدماء وثقافات الأمم المعاصرة لهما.

كما توصّلت الدراسة إلى تحديد أوجه الاختلاف بين الشّاعرين، فاهتمّ المتنبي بالموسيقى أكثر من أبي تمّام، وفي جانب آخر، اعتمدت صور أبي تمّام على معانٍ عقلية وخيال بعيد، أمّا صور المتنبي فاعتمدت على المبالغة والتهويل، وارتباطها بشخصية الشّاعر وتجاربة الذاتيّة.

وهذا ما قادنا إلى لمس تأثّر المتنبي الشديد بأبي تمّام في العديد من الصور، ولكنّ المتنبي لم يكن مجرّد شاعر مقلد، بل تمكّن بأسلوبه الخاص من إدخال تطوّر على صورة الخيل، ما حقّق له مكانة شعرية مرموقة.

الفصل الأول

صورة الخيل في شعر أبي تمّام

الفصل الأول

صورة الخيل في شعر أبي تمّام

التمهيد

أبو تمّام حبيب بن أوس الطائي، شاعر لطيف الفطنة، دقيق المعاني، يغوص في ما يستصعب على غيره، وهو كغيره تناول معاني سبق إليها معظم الشّعراء، مع فضل الإكثار في الشعر، فمنه ما هو متوسط ومنه ما هو رديء[1].

أجمع المؤرّخون على ولادة أبي تمّام بقرية جاسم سنة 190، ونسبه إلى قبيلة طيء.[2] استقر أبو تمّام في الحاضرة منذ كان طفلاً، فقد أودعه والده عند حائك ثياب، يخدمه، ثم عمل في صناعة الحرير[3]، وقيل إنه قد نشأ بمصر، وهناك عمل سقاء في جامع عمرو بن العاص الذي كان بمثابة مدرسة، جالس العلماء وأخذ منهم[4].

وفي مصر اتّصل بالشّاعر يوسف السّرّاج وربطته به علاقة مهاجاة، ويبدو أنه قد أعجب بمنهجه في استخدام الغريب فقرّر أن يتبناه في شعره[5] ثم عاد إلى الشام، ثم زار العراق العراق وخراسان، وعاد إلى مصر، ولكثرة ترحاله شبّه نفسه بخليفة الخضر، يقول:

([1]) ينظر: الأصبهاني، أبو فرج علي بن الحسين: **الأغاني**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 16 /383.

([2]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، (د.ط)، بيروت، لبنان، دار الثّقافة،(د.ت)، 17/2 ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ط10، القاهرة: دار المعارف، (د. ت)،ص 219. البهبيتي، نجيب محمد: **أبو تمّام الطائي حياته وحياة شعره**، (د، ط)، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1945، ص 28–29.

([3]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 2 /17.ينظر: الأمين، السيد محسن: **أعيان الشيعة**، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1986، 392/4. البهبيتي، **أبو تمّام الطائي**، ص 62.

([4]) حسين، طه: **من حديث الشعر والنثر**، ط1، القاهرة: مطبعة الصاوي، 1936، ص166. ينظر فروخ، عمر: **تاريخ الأدب العربي**، ط6، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، 1997، 2/ 252. الأمين، السيد محسن: **أعيان الشيعة**، 392/4. البهبيتي، **أبو تمّام الطائي**، ص66.

([5]) الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري**، تح: السيد أحمد صقر، مصر، دار المعارف، 1961، 1/ 87.ينظر: البهبيتي، **أبو تمّام الطائي**، ص85–87.الأمين، السيد محسن: **أعيان الشيعة**، 526/4. مروّة، محمد رضا: **أبو تمّام عصره–حياته– شعره**، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1990، ص60. فروخ، عمر: **أبو تمّام**، ص 102.

خليفةُ الخِضْرِ مَنْ يَرْبَــع علــى وَطَــنٍ في بلــدةٍ فظُهُــورُ العِــيسِ أَوطــاني[1]

تنقّل أبو تمّام في البلاد، حتّى وصل أرمينية ومدح واليها خالد بن يزيد الشّيباني، ومنها إلى بغداد ومدح المعتصم بالله، واتّصل بعدد من كبار الدّولة وقادتها مثل: محمّد بن عبد الملــك الزيّات، والواثق، وأبي سعيد بن يوسف الثغري، وأبي دُلَف العجلي، ثمّ انتقل إلى خراسان مادحاً عبد الله بن طاهر، ومرّ بهمذان فأكرمه أبو وفاء بن سَلمة [2])، وكان لترحاله أثر كبير في تنوع ثقافته، وانتقال أثر ذلك إلى شعره[3].

ومن أشهر كتب أبي تمّام وآثاره كتب "الاختيارات"، حيث قام فيها بجمع أجمل أشــعار شعراء العرب، وهذا يدل على عنايته الشديدة بالشعر، واشتغاله به، فما من شــعر جــاهلي ولا إسلامي ولا معاصر إلا قرأه واطّلع عليه"[4]. فقد قيل له حين عاد من العراق " ما أقدمت فــي سفرتك هذه؟ قال: أربعمائة ألف درهم وأربعة أبيات شعر هي أحب إلي من المال ثــم أنشــدها وهي لأبي نواس."[5] لم يقتصر أبو تمّام على حفظ الشعر، إنّما أدام النّظر فيه، كأنّــه يعاشــر الشّعراء معاشرة متصلة[6]، توفي أبو تمام بالموصل عام 231. [7]

مواقف النقاد القدامى من شعره

يقول الصولي: "حدثني أبو بكر القَنْطري، قال: حدثني محمد بن يزيد المبرّد قــال: مــا سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمّام إلا قال: ذاك أبو التمّام، وما رأيت أعلمَ بكــلّ شــيء

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، شرح: الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عزام، (د، ط) مصر: دار المعارف، (د، ت)، 3/ 308.

([2]) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشّعر العربي**، ص 220-221.

([3]) بروكلمان، كارل: **تاريخ الأدب العربي**،ط3، مصر: دار المعارف، 2 /71.ينظر: فروخ عمر: **تاريخ الأدب العربــي**، ص 252 -253. حسين، طه: **من حديث الشعر والنثر**، ص 166.

([4]) الزركلي: **الأعلام**، ط5، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، 1980، 2/ 165. ينظر: الحاج حسن، حسين: **أعلام فــي الشعر العباسي**، ط1، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1993، ص 107.

([5]) الأمين، السيد محسن: **أعيان الشيعة**، 396/4. الشكعة، مصطفى، **رحلة الشعر من الأموية إلى العباســية**، بيــروت، لبنان: دار النهضة العربية، 1973، ص564.

([6]) حسين، طه: **من حديث الشعر والنثر**، ص163.

([7]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 17/2.

منه"[1] وقال فيه أيضاً: "ما رأيتُ أحداً قطُّ أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمّام". [2] ومما ومما يدل على مكانته الشعرية العالية قول البحتري عندما سُئل عن أبي تمّام وعن نفسه قال: جيّده خيرٌ من جيّدي، ورديئي خير من رديئه [3]. قال أبو بكر الصولي: "وقد صدق البحتري في في هذا، جيد أبي تمّام لا يتعلّق به أحدٌ في زمانه، وربما اختلّ لفظه قليلاً لا معناه، والبحتريُّ لا يختلُّ"[4] وكذلك قال البحتري: "والله ما أكلتُ الخبز إلا به" يقصد أبا تمّام[5]. وقد سُئل البحتري فقال: " كان أغوص على المعاني مني، وأنا أقْوَمُ بعمود الشعر منه". [6]

وقدّمه كذلك عمارة بن عقيل على الشّعراء حين قال عنه: " لئن كان الشعر بجودة اللفظ، وحسن المعاني، واطّراد المراد، واتّساق الكلام، فإن صاحبكم هذا أشعر الناس." يقصد أبا تمّام[7]. وإذا كان معظم الشّعراء يبدعون في بيت أو بيتين من القصيدة ويُستحسن منهم ذلك، فإن فإن أبا تمّام قد حاول أن يبدع في أكثر شعره وقد أحسن في ذلك أيّما إحسان[8]. وقال آخرون عنه: "إنما حبيب كالقاضي العدل: يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه، بعد طول النظر والبحث عن البينة، أو كالفقيه الورع: يتحرّى في كلامه ويتحرّج خوفاً على دينه"[9] وقد ذكر الأصبهاني تفضيل عدد كبير من كبار الرؤساء والشّعراء لأبي تمّام، بل يؤكد أنّ الدارس لن يجد لجيد أبي تمّام نظيراً ولا شكلاً، ولكن كثر ناقدوه وأفرط معادوه في التنبيه على رديئه. [10]

([1]) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: **أخبار أبي تمّام**، تح: خليل عساكر ومحمد عزام ونظير الإسلام الهندي، ط1، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937، ص171.

([2]) المصدر السابق: ص 118.

([3]) ابن المعتز: **طبقات الشعراء**، تح: عبد الستار فراج، ط4، القاهرة: دار المعارف، ص286.ينظر: الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص67. الآمدي: **الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري**، 1 /12.

([4]) الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص67.

([5]) المصدر السابق: ص 121. الشكعة، مصطفى، **رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية**، ص569.

([6]) الآمدي: **الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري**، 12/1.

([7]) الأصبهاني: **الأغاني**، 16/ 385. الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص61.

([8]) الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص38.

([9]) القيرواني، أبي علي الحسن ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط4، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، لبنان: دار الجيل للنشر والتوزيع، 1972، 1 / 133.

([10]) الأصبهاني: **الأغاني**، 384/16.

ممّا سبق نرى تفضيل كبار علماء اللغة وفحول شعرائها لأبي تمّام، وهذا خير دليل على علوّ شعره إلى مستوى يفوق غيره من شعراء عصره؛ ولعلّ ذلك مرجعه إلى عدة أسباب منها: التزامه صنعة البديع، الّتي أغرق فيها شعره، وميله إلى جزالة الأسلوب، وكثرة الإشارات التاريخية في شعره، وتأثُّره بثقافته الواسعة فضلاً عن ذكائه وحدّة خاطره. [1]

وفي المقابل يرى الباقلاني أنّ أبا تمّام قد "تصنّع لأبواب الصنعة، حتّى حَشَا جميع شعره منها، واجتهد أن لا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة" [2] وعاب عليه الشّعراء لاميته:

متى أنتَ عن ذُهليَّةِ الحَيّ ذاهلُ وقلبُكَ منها مُدَّةَ الدَّهْرِ آهلُ[3]

استخدم أبو تمام التّصريع بجعل شطريّ البيت منتهيان بحرف واحد، وهذا يضيف تغماً موسيقيّاً جميلاً يبرز براعة أبي تمام وحُسن اختياراته.

وقال الباقلاني: "قد أذهب ماء الشعر ورونقه وفائدته، اشتغالاً بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه"[4] ودارس كتاب الموازنة يرى تحامل الآمدي الشديد على أبي تمّام، حين ذكر أخطاءه في استخدام الألفاظ والمعاني والاستعارات، فهو يعدّ أبا تمّام مسرفاً، فقال: "إنما رأى أبو تمّام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارات متفرقةً في أشعار القدماء...، لا تنتهي في البعد إلى هذه المنزلة، فاحتذاها، وأحبَّ الإبداع والإغراب بإيراد أمثالها، فاحتطب، واستكثر منها." [5]

وقد روي عن ابن مهرويه عن أبيه: "أن أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، وأن أبا تمّام تبعه فسلك في البديع مذهبه فتحير فيه." [6] ووافقه في ذلك الجرجاني حين قال عن أبي تمّام: "حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير

([1]) هارون، عبد السلام محمد: **همزيات أبي تمّام**، ط2، مصر: دار المعارف، 1953، ص8-9.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 112/3.

([3]) المصدر السابق، 112/3.

([4]) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: **إعجاز القرآن**، تح: السيد أحمد صقر، ط5، القاهرة، دار المعارف، ص108-109.

([5]) الآمدي: **الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري**، 1 / 256.

([6]) الآمدي: **الموازنة**، ص 135.

اللفظ، فقبح في غير موضع من شعره...،وقد اجتلب المعاني الغامضة، وقصد إلى الأغـراض الخفيّة، فاحتمل كل غثّ ثقيل، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل، فصار هذا الجنس من شـعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكدّ الخاطر والحمل على القريحة... ولكنّي أراه قِبْلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع." [1]

ونظراً لاتصاله بثقافات عصره المتنوعة سواء أكانت العربية القديمة أو الإسلامية مـن (قرآن وحديث وفقه) أو فارسية أو يونانية أو هندية، أصبح شعره مستغلقاً صـعباً فـي بعـض جوانبه على أصحاب الثقافة البسيطة واحتاج إلى جهد كبير لفهمه[2]. حيث قال الصولي_ حـين تحدث عن شعر المحدثين كبشار و أبي نواس ومسلم _ إنّ أبا تمّام "أصعبهم شعراً"[3] وما يؤكد ذلك قول رجل لأبي تمّام:" يا أبا تمّام، لمَ لا تقولُ من الشعر ما يُعرف؟ فقال: وأنتَ لمَ لا تعرفُ من الشعر ما يُقال؟ فأفحمه ".[4] وفي هذا دعوة صريحة إلى الرقي بدرجات الإبداع، والارتفاع بذوق الجمهور من خلال استيعاب الفكر والثقافة. [5] فكان يأتي بأشياء لـم يتعـود النـاس أن يروها،ولا أن يصلوا إليها، فيدهشهم بما يظهره من المعاني[6] وقيل إنه كان يـأتي بالوَحشِـي الخشن ويتكلّف[7] فقد كان ثائراً طالباً للمعاني والألفاظ [8]

([1]) الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط3، دار إحياء الكتب العربية، ص19-20.

([2]) خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، (د.ط)، القاهرة: دار الثقافة للطباعـة والنشـر، 1981، ص112-113.

([3]) الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص15.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 /217. الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص 72. البديعي، يوسف: **هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمّـام**، تع: محمود مصطفى، (د، ط)، مصر: مطبعة العلوم، 1934، ص134. حسين، طه: **من حديث الشعر والنثـر**، ص96. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران: **الموشح في مآخذ العلماء على الشـعراء**، ط2، القـاهرة، 1385، ص 292. الأمين، السيد محيسن: **أعيان الشيعة**، 393/4. خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، ص120.(رويت فـي بعض الكتب تفهم).

([5]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، (د،ط)، القـاهرة: دار غريـب للطباعـة والنشـر، (د، ت) ص113. ينظر: التطاوي، عبد الله: **النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي**، (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعـة والنشر، 1999، ص96.

([6]) حسين، طه: **من حديث الشعر والنثر**، ص161.

([7]) ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 266/2.

([8]) البهبيتي، **أبو تمّام الطائي**، ص190.ينظر: الشكعة، مصطفى: **رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية**، ص573.

والحقيقة أن الغموض والتعقيد في شعر أبي تمّام لا يرجعان إلى غموض الفكرة أو التواء العبارة وإنما إلى الجمع بين العقل والعاطفة والثقافة والفن ممّا لم يألفه نقاد الشعر العربي[1]، ولكن أبا تمّام تميّز ببراعته في التصدير فقد كان" ينصب القافية للبيت، ليعلق الأعجاز بالصدور"[2] "فالقصيدة عند أبي تمّام كانت تحقق وحدتها عن غير طريق الوحدة المنطقية لأنها –كما تبدو لنا– قصيدة شعرية تعبيرية أخرجها الانفعال وولدها الخيال، وعن غير طريق الوحدة الحسية لأنّ عقلية صاحبها لم تعد عقلية بسيطة إنما أصبحت_ لما اكتسبته من ثقافة وحضارة– ناضجة بصيرة"[3]. وقد كان أبو تمّام أحد دعاة التجديد الذين لم يجدّدوا في مضمون الشعر، إنّما جدّدوا في التعبير الشعري عن طريق الزخارف اللفظية ممّا أدى إلى ظهور (علم البديع)[4] وقد كان هذا العلم موجوداً في أشعار من سبقوه فقد قيل: "إن بشاراً وأبا نواس ومسلماً بن الوليد... لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كَثُرَ في أشعارهم، فَعُرف في زمانهم، ثم إنّ الطائي تفرّع فيه وأكثر منه" ويقال إن أسلوب أبي تمّام إنما هو ذروة مدرسة شعرية بدأت في العصر الجاهلي[5]

وقارئ سيرة أبي تمّام يميل إلى رؤية أن الحياة عنده كانت شعراً يُعاش وحياة تكتب، وربّما كان للهوه وشربه الخمر الّتي كان مولعاً بها أثر في تقليل نتاجه وإلهائه عن الشعر، ولكن قد يكون انتشاؤه بالحياة وملاهيها هو سبب تميّزه في شعر التكسب أكثر من غيره، فقد كانت ألوان البيان تملأ شعره بشكل طبيعي بالرغم من إغرابه وجرأته في التشبيه والاستعارة الأمر الذي زاده رونقاً وجمالاً بالرغم من مبالغته في بعض الأحيان[6]. فقد عاب عليه بعضهم

([1]) خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، ص120.

([2]) ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 209/1. البهبيتي، **أبو تمّام الطائي**، ص191.

([3]) الرباعي، عبد القادر: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، (د، ط)، إربد، الأردن: نشر بدعم من جامعة اليرموك، 1980، ص190.

([4]) مندور، محمد: **فن الشعر**، (د، ط)، دار القلم، (د، ت)، ص129–130. ينظر: الشكعة، مصطفى: **رحلة الشعر**، ص635.

([5]) القط، عبد القادر: **مفهوم الشعر عند العرب**، (د، ط) القاهرة: دار المعارف، 1982، ص63.

([6]) شكري، عبد الرحمن: **دراسات في الشعر العربي**، جمع وتح: محمد رجب البيومي، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1994، 1415هـ، ص98–99.

استخدامه للغريب المصدود عنه من الألفاظ والمعاني[1] وخالفهم آخرون بقولهم: "خرج من قبيلة طيء ثلاثة، كل واحد مجيد في بابه: حاتم الطائي في جوده، وداود بن نضير الطائي في زهده، وأبو تمّام حبيب بن أوس في شعره "[2].

([1]) المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران: **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص280.

([2]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 17/2.

المبحث الأول

صور الخيل المألوفة في شعر أبي تمّام

الصّورة الفنية ليست شيئاً جديداً في عالم الشعر بل هي مصاحبة له منذ أن وجد، ولكن طريقة استخدامها تختلف من شاعر إلى آخر[1]. فهي وسيلة لشرح المعاني المرادة، وتوضيحها وتعميق الإحساس بها[2]، والتعبير عن نفسية شاعرها وما يتراءى له في الأحلام، ودراسة الصور مجتمعة تساعد على كشف معانٍ أبعد من المعاني الظاهرة في القصيدة[3]. و الصّورة" لا تكتفي بمجرد التنفيس، بل تحاول عامدة أن تنقل الانفعال إلى الآخرين، وتثير فيهم نظير ما أثارته التجربة من عاطفة في نفس الشّاعر"[4] ودراسة الصّورة بمعزل عن البناء الشعري تعدُّ دراسة ناقصة؛ لأن الصّورة مهما استقلت ستبقى منطوية تحت تكوين شامل[5].

لذلك اهتمّ شعراء العصر العباسي بالبحث عن المعاني الجديدة في ظل البيئة الثقافية الجديدة المنفتحة على ثقافات عديدة من أجل أن يأتوا بالجديد المبتكر من المعاني والصور الفنية اللافتة، وقد نجحوا في تحقيق ما طمحوا إليه.

وللصورة الشعرية أشكال متعددة، منها: الصّورة البسيطة، وهي إشارات ساذجة وتشابيه متناسبة الأجزاء، والصّورة المعقّدة، القائمة على الرموز والاستعارات الّتي توجد العلاقات المتناسبة الأجزاء بين الأمور المتنافرة المتضادة[6]، وظهرت الصّورة الفنية المعقّدة بعد اقتحام البراهين العقلية الشعر العباسي، وهذا ما دفع الشّاعر إلى الاستقصاء والتعمّق والتحليل، ثمّ

([1]) ينظر: عباس، إحسان: **فن الشعر**، دار بيروت، 1955، ص220.

([2]) ينظر: الساريسي، عمر: **الشعر في العصر العباسي المؤثرات والظواهر**، ط1، مكتبة الفلاح، دار حنين للنشر والتوزيع، 2006، ص159.

([3]) ينظر: عباس، إحسان: **فن الشعر**، ص227. ينظر: كبّابة، وحيد صبحي: **الصّورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس**، (د، ط)، اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص12.

([4]) المصدر السابق، ص9.

([5]) عبد الله، محمد حسن: **الصّورة والبناء الشعري**، (د، ط)، القاهرة: دار المعارف، ص19.

([6]) الرباعي، عبد القادر: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**،(د.ط) إربد الأردن: نشر بدعمن جامعة اليرموك، 1980، ص 15.

دخلت التشبيهات التمثيلية والضمنية على الشعر العباسي بصورة لم تُسبق في شعر العصور السابقة، كقول أبي تمّام:

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً إنّ السماء تُرجّى حين تَحتَجبُ[1]

فالحجاب لا يمنع الأمل، كالنّاس يأملون المطر عند احتجاب السّماء بالغيوم.

ومن حكمه واختراعاته في المعنى قوله الذي اكتسبه من ثقافته، فساقه في ألفاظ فصيحة وتراكيب سهلة، فاكتسب سيرورة على الألسن[2]:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُوِيتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جَاوَرَتْ ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[3]

يرى أبو تمّام حسد غيره له وما يجره عليه من ويلات نعمة؛ لأنه نال بسببه رضا الخليفة، مثل النار وما تجره من هلاك، إلا أنها قد تكشف عن رائحة العود الطيب. [4]

والصّورة عند أبي تمّام تسعى إلى مزج المتعدّد والبعد عن الأحادية كما قال:

تَرَيا نهاراً مُشمِساً قد شَابَهُ زَهْرُ الرُّبا فكأنَّما هو مُقمِرُ[5]

وتؤكد قدرة الشّاعر على اكتشاف النظام التقليدي للقصيدة، ومن ثم الانتقال به إلى طور الخلق والابتكار، فالشّاعر المجدّد يعيد صياغة العالم من حوله كما يحسّ ويشعر، وقد تميزت الصّورة لديه باعتمادها على العقل وأسلوب (التشخيص) [6] كقوله:

تُطِلُّ الطُّلولُ الدَّمعَ في كلِّ موقِفٍ وتَمْثُلُ بالصَّبرِ الدِّيَارُ المَوَاثِلُ[7]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 446/4.

([2]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله**، بيروت، 1964، ص140-141.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 397/1.

([4]) المصدر السابق، 1/ 397.

([5]) المصدر السابق، 194/2.

([6]) أبو الشوارب، محمد مصطفى: **شعرية التفاوت مدخل لقراءة الشعر العباسي**، (د، ط)، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (د، ت)، ص99 -103. التشخيص: أي خلع صفات البشر على الطبيعة ومخاطبتها كأنها كائن حي. **اللسان**، باب شخص.

([7]) أبو تمّام: **الديوان**، 113/3.

فهي صورة تذكره بالألم والأسى، وتشاركه الديار والأطلال نفس الإحساس، فهي تتألّم وتبكي فراق الأحبة، وتواسي الشّاعر على بعدهم.

وقد تعدّدت الأغراض الشعرية الّتي أبدع فيها أبو تمّام، وتعدّدت كذلك الصور الفنية في تلك الأبيات، مع التزامه النمط التقليدي لبناء القصيدة العربية في معظم أغراضه وبخاصة في المدح، فهو يقف على الأطلال، ويصف الراحلة، ويفخر بنفسه أو قومه، ويمدح الأمراء والخلفاء، ويذكر بعض الحكم أحياناً.

وصف الخيل في شعره

تعامل العرب منذ القدم مع الخيل، فهي مركوبهم في السّلم والحرب، الرفيقة في السّفر، فتباروا في وصفها والفخر بها في شعرهم، وبرز بعض شعرائهم كنعّات الخيل مثل: امرؤ القيس، وأبو دؤاد، وطفيل الغنوي، والنابغة الجعدي، والحطيئة والفرزدق[1]. أمّا أبو تمّام فقد اطّلع على الشعر العربي القديم وأفاد من مضامينه وصوره، فكان مقلّداً في شعره، مبتكراً يضيف إلى المضامين والصور القديمة ما يجعلها غريبة.

الخيل في قصيدة المديح

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

يعدّ عنصر الحركة من العناصر الأساسية في الصّورة الفنية عند أبي تمّام، لذا نراه يلحّ على هذا العنصر في شعره، فيجعل الحياة تدبُّ في صوره، فالرّاحلة عند أبي تمّام جوادٌ أصيل، ووسيلة توصله إلى غايته، وتعينه على متاعبها، لذلك اهتمّ بتفصيل الحديث عنها في شعره والفخر بها.

الفرس العائر

وأبو تمّام يستعير صفات الفرس ويسقطها على الممدوح ويصفه بها كقوله:

([1]) ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 296/2.

ذو نـــاظرٍ حَـــدِبٍ وسَـــمْعٍ عـــائرٍ نحـــو الطّريـــدِ الصّـــارخ المجهـــودِ[1]

فبعد هزيمة الممدوح لأعدائه، لاحقهم بنظرة مُشفِق، وسمع منتشر في كل جهة[2]، شـبّه سمع الخليفة بالفرس الّتي تذهب في الأرض وتبتعد عن صاحبها.

ويُضرب المثل في قوّة سمع الفرس، قيل: (أسمعُ منْ فَرَس)، يقول:

سَـدِكُ الكـفِّ بالنـدى عـائرُ السَّـمعِ إلـى حيـثُ صـرخةُ المَكْـرُوبِ[3]

فهو كريم، كفُّه مولعةٌ بالكرم، أمّا سمْعُه فمُتَنَاهٍ إلى موضع الصارخ المستغيث به. وفـي المعنى نفسه يقول:

فأتتـــه مَـــأْرُبَتِي فَـــأَدْرَكَ شَـــأْوَها قَـــرْمٌ بعـــائرةِ المكـــارمِ لاحـــقُ
مـــا أوّلُ السَّـــامينَ بالعَـــالي ولا كـــلُّ الجيـــادِ دُفِعْـــنَ قبـــلُ ســـوابقُ[4]

يقول: "هذه الحاجة الّتي قضيتها لي، هي أكبر قيمة عندي من الحاجـات الّتـي سـبق وقضيتها لي، كما يسابق قوم قوماً إلى العلا فينالها الثاني مع أنه متأخر عن الأول، وكـذلك إذا أطلقت خيلٌ قبل خيلٍ، فتكون الثانية سابقة، بالرغم من إطلاقها متأخرة، فهكذا حاجتي هذه مع ما تقدمها من الحاجات"[5]. ومن اعتذاراته ما قدّمه لابن أبي دؤاد حين غضب عليـه، لأنـه قـال قصيدة في أبي سعيد الثغري الطائي، فأخذ يستعطفه ويعتذر[6] قائلاً:

أتـــاني عـــائرُ الأنْبـــاءِ تَسْـــري عقاربُـــهُ بداهيـــةٍ نـــآد[7]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 145/2.

([2]) المصدر السابق 145/2. والعائر: أصلها من قولهم "فرس عائر. وعار الفرس إذا ذهب على وجهـه وتباعـد عـن صاحبه" ابن منظور: **اللسان**، باب عير.

([3])أبو تمّام: **الديوان**، 122/1. سدك: طعّان به رفيق سريع، خفيف اليدين في العمل. **اللسان**، باب سدك.
وذُكر أن هذا البيت مسروق من قول شاعر مدح يحيى البرمكي:

رأيـــت يحيـــى حـــين ناديتـــه متصـــل الســـمع بصـــوت المنـــاد

"وهو أجود من بيت الطائي وأسلم من التكلف وأمشى في الإحسان". المرزباني: **الموشح**، ص 286.

(4) أبو تمّام: **الديوان**، 453/2.

([5]) المصدر السابق: 453/2.

([6]) البديعي: **هبة الأيام**، ص225–228.ينظر: ضيف، شوقي: **العصر العباسي الأول**، ط6، مصر: دار المعارف،(د. ت)، ص287.

([7]) أبو تمّام: **الديوان**، 375/1.

فاستعار كلمة عائر للنبأ الذي انتشر وسار حتّى وصل إليه[1] ومثله قوله:

فَصَـــادَفَتْ مـــا لـــي بإقْبَالِـــهِ مَنِيَّـــةٌ مـــن أمَـــلٍ عـــائرِ [2]

فاستعان الشّاعر بالفرس لتكون رمزاً لقدرة الممدوح وانتشار عيونه، ومدّ يده لعون كلّ من يطرق بابه، وقد وصل حتّى لأعدائه.

الفرس الحرون

ومن أبرز مظاهر الحركة حرون الفرس، و قد استعاره أبو تمّام لإبراز معانيه الرائعة، شبّه أبو تمّام قصائده المتقنة الصّنعة بالفرس الحرون الّتي لا تُسلم قيادها إلّـا للممـدوح (أبـي دؤاد)، يقول:

شـــدادَ الأسْـــرِ ســـالمَةَ النَّـــواحي مـــن الإقـــواءِ فيهـــا والسِّـــنادِ
يـــذَلّلها بـــذكرك قـــرنُ فكْـــرٍ إذا حرنَـــتْ فتَسْـــلسُ فـــي القيـــادِ[3]

ولطالما كان الحصان الجموح تحدياً للفرسان، فمن تمكّن منه كان الأقوى، ولهذا شبّه أبو تمّام الخلافة بفرس جموح استطاع الواثق التمكن منه وهو أمر صعب على الكثيرين يقول:

والمَرْكـــبُ المُنْجـــي فمـــنْ يَعْـــدِل بـــهِ يركَـــبْ جَمُوحـــاً غيـــرَ ذاتِ لجـــامِ[4]

وقد شبّه كذلك الحرب بالفرس الجموح الّتي تركب رأسها؛ دلالة على اشتداد وطأتهـا، وفي مثل هذا الوقت يتهور الفرسان ويقلُّ التفكير بالعاقبة، ومن يتجنب ذلـك يسـتحقّ وصـف العاقل:

والحـــربُ تَعلـــمُ حـــينَ تَجهـــلُ غَـــارةٌ تغْلـــي علـــى حَطـــبِ القَنَـــا المَحْطُـــومِ
أنَّ المنايـــا طَـــوْعُ بأسِـــكَ والـــوَغَى ممـــزوجُ كأسِـــكَ مـــن رَدًى وكُلُـــومِ
والحربُ تركـــبُ رأسَـــها فـــي مَشْـــهدٍ عُـــدِلَ السَّـــفيهُ بـــه بـــألف حلـــيمِ [5]

([1]) أبو تمّام: **الديوان** ، 374/1. ينظر: البديعي، **هبة الأيام**، ص228.

([2]) وتروى عاثر، أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 163.

([3]) وفرس سلس القياد كان سهله. أبو تمّام: **الديوان**، 380/1–381. وحرون الفرس من خيل حُرُن: لا يُنْقاد، إذا اشتدّ به الجري وقف. ابن منظور: **اللسان**، باب حرن. "ويروى يهيجها بذكرك". البديعي، **هبة الأيام**، ص232.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 207/3.

([5]) المصدر السابق، 266/3.

وشبّه عزيمته بالخيل قائلاً:

ناوَشْـــنَ خيـــلَ عزيمتـــي بعزيمـــةٍ تركـــت بقلبـــي وَقْعَـــةً لـــم تُنْصَـــرِ[1]

شبّه حاجته بفرس جموحٍ لم يستطع أحدٌ تذليلها أو ركوبها إلا الحسن وسليمان ابنا وهب، فقد استطاعا قضاء حاجته لهذا قال:

ومَلَّكْتُمـــــاني صَـــــعبةً وخِشَاشَـــــها وأَمكنْتُمـــا مِـــنْ طـــامحٍ وعِنانِـــهِ[2]

ألفاظ الخيل في جماعات

ذكر أبو تمّام الإبل في القصائد الحربية، واهتمّ بإبرازها في هذا النّوع [3]، فجـــاء بهـــا على شكل جماعات كالقنابل، قال يمدح المعتصم:

لقـــد لـــبسَ الأفشـــينُ قَسْـــطَلَةَ الـــوَغَى مِحَشًّـــا بنصـــلِ السَّـــيْفِ غيْـــرَ مُوَاكِـــلِ
وســـارتْ بـــه بـــينَ القنابِـــلِ والقنـــا عـــزائمُ كانـــت كالقَنَـــا والقنابـــلِ[4]

أظهر الشّاعر الخيل متجمعةً تشقُّ طريق الممدوح في أرض المعركة بعزيمةٍ وقوةٍ غير مباليةٍ بنار الحرب واصطلائهم بها.

وفي موضع آخر يجعلها كراديس لها وقعٌ وثقلٌ على النفوس، وهذا واضحٌ في مدحـــه عيّاش ابن لهيعة الحضرميّ، وقد أراد تأكيد عدم خوف جيشه من الموت، والإقبال عليـــه فـــي أرض المعركة، ولهذا جعلهم يأتون جماعات على خيولهم، يقول:

الـــواردينَ حِيَـــاضَ المـــوتِ مُتْأَقَّـــةً ثُبـــاً ثُبـــاً وكرادِيســـاً كراديسًـــا[5]

وكذلك قوله:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**: 457/4.

([2]) المصدر السابق: 295/3.

([3]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص 134.

([4]) أبو تمّام: **الـــديوان**، 80/3–81. والقنابل: طائفة من الناس والخيل وهم ما بين الثلاثين والأربعين ونحوه. ابن منظور: **اللسان**، باب قنبل. المِحَشّ: ما تُحرك به النار من حديد، ومنه قيل للرجل الشّجاع: نِعم محشّ الكتيبة. **اللسان**، باب حشش.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 260/2. ينظر: الواد، حسين: **اللغة الشعر في ديوان أبي تمّام**، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997، ص21. والكراديس: كتائب الخيل. ابن منظور: **اللسان**، باب كردس.

جمعــتَ عُــرا أعمالهــا بعــد فُرقــةٍ إليــك كمــا ضَــمَّ الأنابيــب عامــلُ
فأضحتْ وقد ضُــمَّتْ إليــك ولــم تَــزَلْ تُضَمُّ إلــى الجــيشِ الكثيــفِ القنابــلُ[1]

أي ضُمت إليك أعمال الخلافة كما تضم قطع الخيل إلى الجيش[2]، والعلاقة بين أعمال الخلافة وقطع الجيش واضحة، فكلها مجتمعة تشكّل سيادة للخليفــة فــي الجــانبين السياســي والعسكري. والممدوح يملك من المطايا والخيل ما يعينه على حرب أعدائه، يقول:

حضَــرتُ فِنَــاءَ بابــك فــاعتَراني شَــجًى بــينَ المُخَنَّــق والوريــدِ
رأيْــتُ بِــهِ مطايَــا مُهْمَــلاتٍ وأفراســاً صَــوافِنَ بالوَصِــيدِ
وكُــنَّ عَتــادَ أمّــا فــكَّ عــانٍ وإمّــا قتــلَ طاغيــةٍ عنــودِ[3]

الخيل الأعوجية

والخيل الّتي يذكرها أبو تمّام في قصائده، والمتوجهة مع الممدوح إلى أرض المعركــة أصيلة، وكريمة، وقوية، وحسنة الصفات، يقول في خيل المأمون:

الشَّــرقُ غَــرْبٌ حــينَ تَلْحَــظ قَصْــدَه ومَخــالِفُ الــيَمَنِ القَصِــيِّ شَــآمُ
بالشَّــــدْقَمِيَّاتِ العِتَــــاق كأنَّمــــا أشــــباحُها بــــين الإكــــامِ إكــــامُ
والأعوَجِيَّــــاتِ الجيــــادِ كأنَّهــــا تَهْــوِي وقــدْ ونَــتِ الرِّيــاحُ سَــمَامُ[4]

فالمأمون واثقٌ كلَّ الثقةِ بخيله القوية وبسرعتها، فهي كالسهام لا يسبقها أحد، وهنا نرى تفاؤل أبي تمّام بوجود الخيل معه، ويرى فيها سبيلاً لتحقيق النّصر، وإعانةً فــي حربــه ضــد أعدائه، فبالخيل تزداد شجاعة الأبطال، و بها تتحقق أصعب الأمّاني، وكأنهم يستمدون قوّتهم من قوّتها، وعزمهم من عزمها. وفي طلبه للحمايةِ والأمّانِ، يقول:

غَــدَوْا وكــأنَّ الجَهْــلَ يَجْمَعُهُــم بــه أبٌ و ذَوُو الآدابِ فــــيهم نَوَاقِــــلُ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 122/3.

([2]) البديعي: **هبة الأيام**، ص 71.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 59/4.

([4]) المصدر السابق، 154/3. السمام: ضرب من الطير دون القَطا في الخِلْقَة، والناقة السريعة. ابن منظور: **اللسان**، باب سمم، والشدقميات: الشدقم: فحل من فحول العرب معروف، قيل للنعمان بن المنذر ينسب إليه الشَّــدقميّات مــن الإبــل. **اللسان**، باب شَذَمَ. الأعوج: فحل كريم تنسب إليه كرام الخيل، **اللسان**، باب عوج.

فَكُــنْ هَضْــبَةً نَــأْوِي إليهــا وَحَــرَّةً يُعَــرِّدُ عنهــا الأعــوجيُّ المُناقِــلُ[1]

يطلب من الممدوح أن يكون مأوى لهم من العدوّ كالهضبة العاليــة أو أرضــاً مليئــة بالحجارة لا يقطعها إلا أعوجي مُناقِل[2]، ومن خلال صورة الهضبة أو الأرض الصعبة نلاحظ نزعة أبي تمّام إلى إيثار الصّعب، وحبّ المعالي ونكشف مذهبه في القوة والعظمة[3]، وأبو تمّام يجعل ممدوحه ناقصاً، عندما جعله أرضاً لا يستطيع الأعداءُ اختراقها، ولكــن يســتطيع خيــلٌ أعوجيٌّ اختراقها بقوائمه المعتادة على التنقل بين الحجارة.

ثم يستمر في ذكر صفات خيل الممدوح فهي تامة السن والذكاء، فيقول معتذراً:

وإذ طيــرُ الحــوادث فــي رُباهَــا سَــواكنُ وهْــيَ غَنَّــاءُ المَــرَاد
مَــذَاكِي حَلْبــةٍ وشُــرُوبُ دَجْــنٍ وسَــامرُ فتْيــةٍ وقُــدُورُ صَــاد[4]

فالممدوح لم يُذل كما تذل الطيور عند وقوعها في الشبكة، إنما دياره فيها خيل قــد تــم ذكاؤها وسِنّها فأرسلت للرّهان تفاخراً بقوتها. [5]

ويستعير أبو تمّام صفة إجمام الفرس ليظهر قوة ممدوحه وعزمه ولينــه فــي بعــض الأحيان فيقول:

لا طــائِشٌ تَهْفُــو خَلائِقُــهُ ولا خَشِــنُ الوَقــارِ كأنَّــهُ فــي مَحْفِــلِ
فَكِــهٌ يَجِــمُ الجِــدَّ أحيانــاً وقــد يُنْضَى ويُهزَلُ عَيْشُ مَــنْ لــم يَهْــزِلِ[6]

فالممدوح يترك الجِدَّ ويهزل أحياناً، وإلا لقي عيشاً شديداً وأصابه الملل[7] ولكنه يمتلــك صفات الخليفة، فلسانه حِصْنٌ لا ينطقُ إلا عن حكمة، و أذنه صفوح لا تستمع إلى وشايةٍ أو ما

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/ 117-118.

([2]) المصدر السابق، 3/117-118. ينظر: البديعي، يوسف: **هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمّام**، ص69. أعــوجي مناقــل: فحل كريم تُنسب إليه كرام الخيل، ويتَّقي في عَدْوه الحجارة، ومُنَاقلة الفرس: أن يضَع يده و رجله على غير حجر لحســن نقْلِه في الحجارة. ابن منظور: **اللسان**، باب نقل.

([3]) كبّابة، وحيد، **الصّورة الفنية في شعر الطائيين**، ص148.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 370/1. المذكى: الخيل الّتي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان. ابن منظور، **اللسان**، باب ذكا

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 370/1.

([6]) والجم مستعار من إجمام الفرس. المصدر السابق، 3/ 37. "جَمَّ الفرسُ...وأَجَمَّ: تُرِكَ فلم يُرْكب "ابن منظور: **اللسان**، باب جمم.

([7]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/ 37.

لا يُستحب سماعه[1] فشبّه الجدّ بحصانٍ جُمَّ وتُرِك، فتحررَ الخليفة منه، وانطلق ليُلوّن حياته بقليلٍ من الهزل والضحك.

عَدْو الخيل

وحتّى تكون الخيل محرزة السبق لا بُدَّ أن تكون سريعة في عَدْوها، والعدوّ له عدة ضروب[2] واستفاد أبو تمّام من هذه الضروب للتعبير عن المعنى الذي أراده، فالتعتعة في عدو الخيل يُراد بها التوقف في العدوّ، فلما ردّ أبو سعيد أبا تمّام عن حاجة طلبها قال:

شهِدْتُ لقد لبسْتَ أبا سعيدٍ حلائقَ تبهرُ الشّرَفَ الطُّوالا
أُتَعْتِعُ في الحوائجِ إن خِفَاقاً غَدَوْتُ بها عليك وإن ثِقالا[3]

فإن أراد الشّاعر الكلام في حاجةٍ يعلم أنّها صعبة وثقيلة عند الممدوح، فإنّه يتعتع كالخيل لتردده وخوفه من أنْ يُردَّ خائباً.

ويقول:

إليكَ عن سيْلِ عارضٍ خَضِل الشُّ وْبُوبِ يَأْتِي الحِمَامُ مِنْ نَضَدِهْ
مُسِفِّهِ ثَرِّهِ مُسَحْسِحِهِ وابِلِهِ مُسْتَهِلِّهِ بَرِدِهْ[4]

أي انج بنفسك من سحاب يتصف بقربه من الأرض وسحّه للمطر[5] على فرسٍ كثيرة الجري قوية سريعة.

وتجاوز الطائي الوصف وتغنى بطريقة مشي فرسه، فهي إذا مشت كان سيرها من الارتجال الذي حاز إعجاب الجميع، فكأنَّما أصابها مَسّ أو أسكرتها الخمر، يقول:

([1]) الشكعة، مصطفى: **رحلة الشعر**، ص95.

([2]) وفي "ترتيب عدو الفرس: وأوّله الخبب، ثم التقريب، ثم الإحجاج، ثم الإحضار، ثم الإرخاء، ثم الإهذاب ثم الإهماج " النويري، شهاب الدين: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، (د. ط)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، (د. ت)، 9/ 375.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**: 3/ 149.

([4]) المصدر السابق، 1/438-439.

([5]) المصدر السابق، 1/438-439. السحاب الثر: أي كثير المطر، وكذلك الفرس إذا وصفت بكثرة الجري. ابن منظور. **اللسان**، باب ثرر.

فـــإنْ خَـــدَا يَرْتَجِـــلُ المَشْـــيَ فالـــــ مَوْكِـــبُ فـــي إحْسَـــانِهِ والخَمِـــيسْ
كأنَّمـــــــا خَـــــــامَرَهُ أوْلَـــــــقٌ أو غازَلَـــتْ هامَتَـــه الخَنْـــدَرِيسْ [1]

فاستطاع بروعة عباراته وألفاظه نقل الصّورة، وجعلنا نتخيل منظرها وهي متبخترةٌ في الساحة.

وقد يستخدم من جهة أخرى كلمات ومعانيَ من صفات الخيل وينقلها إلى غيرهـــا مـــن الحيوانات كالإبل، فالتقريب والخبب والمَرَطى من ضروب سير الخيل، يقول:

شِعَارُهَا اســـمُكَ وإنْ عُـــدَّتْ مَحَاسِـــنُها إذِ اســـمُ حَاسِـــدِكَ الأدْنَـــى لَهـــا لَقَـــبُ
وَزِيـــرُ حَـــقٍّ ووَالـــي شُـــرْطةٍ وَرَحَـــا دِيـــوانِ ملْـــكٍ وشِـــيعيٌّ ومُحْتَسِـــبُ
كـــالأرْحَبِيِّ المَـــذَكِّي سَـــيْرُه المَرَطَـــى والوَخْدُ والمَلْعُ والتَقريـــبُ والخَبَـــبُ [2]

فالممدوح (ابن الزيّات) يجمعُ إصلاحَ المُلْك كما يجمع الأرحبيّ بين ضـــروب الســـير المختلفة[3]

أمّا وصف عَدْو الإبل بالتقريب والمَرَطى فهو أمر غريب، وقد توصف به أجناس مـــن الحيوانات إلا الإبل "ما رأينا بعيراً قط يقرب تقريب الفرس... والمَرَطى... ولم أره في أوصاف سير الإبل ولا عدوها"[4]، وهذا ممّا يُحسب لأبي تمّام، لاستخدامه ألفاظاً على غير ما استعملتها استعملتها العرب.

ويصف عَدْوَ خيله الّتي يفخر بامتلاكها:

صَـــلَتانُ يَبْسُـــطُ إن رَدَى أو إن عَـــدَا في الأرضِ باعاً مِنْـــه لـــيسَ بضَـــيِّق [5]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/279-280

([2]) المصدر السابق، 1/ 246- 247.

([3]) المصدر السابق، 1/246-247. ينظر: ابن رشيق: **العمدة**، 2/ 230. والمَرَطى: ضرب من عدو الخيل سريع، قـــال الأصمعي: هو فوق التقريب ودون الإهذاب. **اللسان**، باب مرط. الأرحبي: قبيلة من همذان تنسب إليهم النجائب الأرحبية. **اللسان**، باب رحب.

([4]) الآمدي: **الموازنة**، 1/ 225-226.

([5]) المصدر السابق، 2 / 412.

فهو قصير الشعر أجرد، عدوه فيه ترجيم[1]

أمّا انجراد الفرس فهو اشتداد عَدوه، وهي لا تجري بقوة إلا مع الفرسان الأقوياء أمثال خالد بن يزيد الشيباني:

ولَّـــى مُعَاوِيَـــةُ عَـــنْهُم وقَـــدْ حكمَـــتْ فيـــهِ القَنَـــا فـــأبَى المِقْـــدَارُ والأَمَـــدُ
نَجَّاكَ في الرَّوعِ ما نَجَّـى سَـمِيَّك فـــي صِـــفِّينَ والخَيْـــلُ بالفُرْسَـــانِ تَنْجَـــرِدُ [2]

وحتّى ينال رضا الممدوح يرسل إليه الاعتذار والشكوى بسرعة كخبب الجواد:

بـــأنِّي نلـــتُ مـــن مُضَـــرٍ وخبَّـــتْ إليـــك شَـــكيّتي خَبَـــبَ الجـــوادِ [3]

وأبو تمّام وإن أعظم ممدوحه فإنه يلومه، ويعاتبه، إن أنقصه حقّه، ولم ينصفه يقول:

لـــولاك لـــم أخلَـــعْ عِنـــان مـــدائحي أبـــداً ولـــم أفـــتحْ رِتـــاجَ تَشـــكُّرِي
ولقلّمـــا عَبَّيْـــتُ خيـــلَ مـــدائحي إلّـــا رجعـــتُ بهـــنَّ غيـــرَ مُظَفَّـــرِ

فقد شبّه قصائده بخيل رجعت من المعركة غير ظافرة ؛ لأن الممدوح لم يكرمه[4]، أمّـا إن كان هو السبّاق في المدح، ويُكرَمُ غيره فإنه يقول:

لَمُضْـــمِرٌ غُلَّـــةً تخبـــو فيُضـــرمُها أني سبقتُ ويُعطَـــى غيـــريَ القَصَـــبَا[5]

في حين يعترف بأنّ من يسبق ينال الكرم والمكانة العالية:

كنـــتُ عـــن غرســـه بعيـــداً فأدنتْـــ ـــنِي إليـــه يـــداكَ عنـــد الجِـــدَادِ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 412/2. الصلتان: من الحمير: المنجرد القصير الشعر ومن الخيل الحَديدُ الفؤاد، والرجل: الماضي في الأمور. **اللسان**، باب صلت.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 14/2– 15.

([3]) المصدر السابق، 1/ 375.

([4]) المصدر السابق، 458/4–459.

([5]) "كانوا إذا أرسلوا الخيل في السباق أقاموا رجلاً عند الغاية ومعه قصبة أو قصبات معلمة فيعطي السابق قصـبته ثـم كذلك الذي يجيء بعده، ويقولون جواد مُقصَّب أي يعطي صاحبه قصبة السَّبق، المصدر السابق، 236/1. ومـن أسـماء السوابق في الحَلْبة عند العرب المجَلّي وهو المقصِّب، أي محرز قصب السبق وهو أول الخيل، ثم المصلِّي ثم المسلِّي ثـم التالي ثم المؤمَّل.
النويري، **نهاية الأرب**، ص373.

ســـاعةً لـــو تشـــاءُ بالنِّصْـــف فيهـــا لمنعْـــت البطـــاءَ خَصْـــلَ الجيـــادِ[1]

فمن يبطئ يستحق المنع، ولكنني سبقت غيري إليك؛ ولهذا فأنا أحقُّ منهم في نيل كرمك ووصلك، ويظهر أبو تمّام ثقته بعدل ممدوحه، وقدرته على كسب السـبق، ففـي قولـه مـدح للطرفين.

ويقول:

فكيـــف وعَتْـــبُ يـــومٍ منـــك فَـــذٍّ أَشَـــدُّ علـــيَّ مـــن حَـــرْب الفَســـادِ
وليســـتْ رغْـــوَتي مـــن فـــوق مَـــذْقٍ ولا جَمْـــرى كَمـــينٌ فـــي الرّمـــادِ
وكـــانَ الشُّـــكْرُ للكُرَمـــاءِ خَصْـــلاً ومَيْـــداناً كَميـــدانِ الجيـــادِ
عليـــهِ عُقِّـــدَتْ عُـــوَذي ولاحَـــتْ مَواســـمُهُ علـــى شـــيمي وعـــادي[2]

خيل النّصر

أحبَّ الفارس العربي الخيل الأصيلة، وتغنّى بها، وذكرها في الوقائع فهي تساعده على قهر عدوه والتمكن منه، وهنا يظهر الأسلوب القصصي في شعر أبي تمّام، فيصور أبـا سـعيد الثغري داهية نزلتْ على الروم، هو فتىً بهي الطلعة، له مكانته المرموقة بين أبطاله الشـجعان وهم يمتطون الجياد، يسقون كأس المنية ويستقون، مُدركون أن الجنة تنتظرهم برحيقها المختوم.

أمّا الخيول فقد داست نجاد الروم، ووطئت ذرا القَباذق، ونالت ما تبتغيه، ثم أطلق أبـو سعيد أعِنَّتها صوب البُقْلّار فلما تمكنت منها انطلقت نحو الإبسيق وسط سحابة من النقع[3]، يقول:

يقول:

رُميَتْ مِـنْ أبـي سـعيدٍ صَـفاةُ الـ ـرُّوم جَمْعـاً بالصَّـيْلمِ الخَنْفَقِيـق
بالأسـيلِ الغِطْريـفِ والـذَّهب الإبْـ ـريزِ فينَـا والأرْوعِ الغِرْنيـق
فـي كُمَـاةٍ يُكسَـونَ نَسـجَ السَّـلُوقِيِّ وتَغْـدُو بهـم كـلابُ سَـلُوق

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 361/1.

([2]) المصدر السابق، 376/1-377.

([3]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم** في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتّى نهاية القـرن الرابـع) ط1، عمّان: دار مكتبة الأقصى، 1977، ص157- 158.

يتســـاقونَ فـــي الـــوغى كـــأسَ مَـــوْتٍ وهـــيَ موصُـــولةٌ بكـــأسِ رَحيـــق
وَطِئَـــتْ هامَـــةَ الضَّـــوَاحي إلـــى أنْ أَخَـــذَتْ حقَّهـــا مـــن الفَيْـــذُوق
ألهبَتْهـــا السّـــياطُ حتّـــى إذا استَنَّـــ ـــتْ بإطلاقِهـــا علـــى النّـــاطلُوق
ســـنَّها شُـــزَّباً فلمَّـــا اســـتَباحَتْ بالقُبُلَّـــاتِ كُـــلَّ سَـــهْبٍ ونَيـــق
ســـار مُسْـــتَقْدِماً إلـــى البـــأْسِ يُزْجِـــي رَهَجـــاً باسِـــقاً إلـــى الإبْسِـــيق[1]

لقد جمع أبو تمّام بين المتنافرات ودمج بينها كالموت والرحيق ؛ لتخلق انسجاماً في الصّورة الّتي أبدعها ونسج حولها هالةً من الجمال. وقد ارتبطت الخيل بالإرادة القوية والثقة العالية بتحقيق المراد لدى الممدوح وفرسانه، فقد رمى العدوّ بخيلٍ سريعةٍ داهية، تحمل فرساناً دهاةً يتسابقون إلى الموت من أجل قائدهم، وهذه الخيل تزداد نشاطاً كلما حثّها فارسها، فكأنّها تستمد نشاطها وسرعتها منه، وظلّت على تلك الحال حتّى مكّنت الممدوح من أعدائه. أمّا قوله:

لـــولا جِـــلادُ أبـــي ســـعيدٍ لـــم يَـــزَلْ للثّغـــرِ صَـــدْرٌ مـــا عَلَيْـــهِ صِـــدَارُ
قُـــدْتَ الجيـــادَ كـــأنَّهُنَّ أجـــادِلٌ بِقُـــرَى دَرَوْليـــةٍ لهـــا أوْكَـــارُ
إلّا تَكُـــنْ حُصِـــرَتْ فقـــدْ أضـــحَى لهـــا مِنْ خَـــوْفِ قارِعَـــةِ الحِصَـــارِ حِصَـــارُ
لَـــوْ طَاوَعَتْـــكَ الخيـــلُ لـــمْ تَقْفُـــلْ بهـــا والقُفْـــلُ فيـــه شَـــباً ولا مِسْـــمَارُ
لَمَّـــا لَقَـــوكَ تَوَاكَلُـــوكَ وأعـــذَرُوا هَرَبـــاً، فلـــمْ يـــنْفَعهُمُ الإعْـــذَارُ
لَمَّـــا فَصَـــلْتَ مـــن الـــدُّروبِ إلـــيْهم بعرَمْـــرمٍ لـــلأرْضِ مِنْـــه خُـــوَارُ
هَيْهَـــاتَ جاذَبَـــكَ الأعِنَّـــةَ باسِـــلٌ يُعطِـــي الأسِـــنَّةَ كُـــلَّ مـــا تَختَـــارُ
غَادَرْتَ أرضَـــهُمُ بخَيْلِـــكَ فـــي الـــوَغَى وكـــأنَّ أمَنَعهـــا لهـــا مِضْـــمَارُ[2]

قام أبو سعيد الثغري بتحديد غايته وهي فتح (القفل)، ولم يردّه عن عزمه سوى عصيان الخيل[3] الّتي وصفها بالسرعة في انقضاضها على الأعداء، فلو أنها أطاعته لفتحها، فتعبير

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 433/2 –434. الفيذوق: موضع في الشعر. الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت، 1975، 4/ 283. الناطلوق: موضع في الشعر. **معجم البلدان**، 253/4، القبلات: موضع في الثغر. **معجم البلدان**، 278/4. صليم: الداهية.**اللسان**، باب صلم. استنت: النشاط في الجري. **اللسان**، باب سنن، الخنفقيق: الداهية. **اللسان**، باب خفق، الأسيل: السهل الليّن. **اللسان**، باب أسل، الغطريف: السيد الشريف السخيّ الكثير الخير. **اللسان**، باب غطرف، الغرنيق: الشاب الأبيض الناعم الجميل. **اللسان**، باب غرنق. السلوقي: أرض باليمن، مدينة تنسب إليها الكلاب السلوقية. **اللسان**، باب سلق: ينظر: ابن رشيق: **العمدة**، 232/2.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 168/2–180.

([3])عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص170.

الشّاعر عن تأبي الخيل وحرونها عن مطاوعة أبي سعيد هو في الأصل تعبير عن شكاة الفرسان أنفسهم من مخاطر المجازفة، واستطاع الشّاعر نقل ذلك في صورة شعرية صادقة، وقد أُتيحت له المبالغة في تصوير عزم الممدوح ومدى طموحه من خلال استخدام (لو) [1].

ولكن الروم من شدّة خوفهم ساروا خلف بعضهم كالفرس الوكال، يدفعون بعضهم بعضًا للاعتذار، ولكن لا فائدة فقد حاولوا الغدر بالهرب، ومنعهم الممدوح، وتبعهم فأدخل الهلع في قلوبهم بخيله القوية الّتي جعلت الأرض تصيح كخوار البقر من وقع حوافرها عليها، والروم يحاولون حثّ خيولهم، ولكنَّ إرادة الممدوح كانت أقوى وفرضت عليهم الهزيمة حتّى أصبحت ديارهم لخيل أبي سعيد كالمضمار[2] وقد رسم أبو تمّام للخيل صورتين متناقضتيْن، فمرةً كانت كانت رمزاً للممدوح بقوته وعزيمته على تدمير عدوه ونيْل رضا الله، ومرةً كانت رمزاً للعدوّ الذليل المتخاذل الفارّ من أرض المعركة.

وفي معنًى قريب يقول:

لمْ يَعُقْهُ بَعْدَ المَقَادير عَنْه غَيْرُ سِتْرٍ مِنَ البِلادِ رَقِيق
ولو أنَّ الجيادَ لم تَعْصِه كا نَ لَدَيْهِ غَيْرَ البَعيدِ السَّحِيق
وَوَحَقِّ القَنَا عليه يَمِيناً هِيَ أمضى مِنَ الحُسامِ الفَتيق
أنْ لَوَ أنَّ الذِّراعَ شَدَّتْ قُوَاها عَضُدٌ أو أُعِينَ سَهْمٌ بفُوق [3]

يظهر الشّاعر تعب الخيل وكلالتها وعصيانها لفارسها، الأمر الذي ردّه عن الرّوم، ففي الأبيات رمز من رموز الخذلان [4]، لأنّ الجياد والفرسان لم تشارك الممدوح طموحه وعزيمته وعزيمته في القضاء على العدوّ، بل استلسموا بإعياء.

([1]) خليل، ياسين: **الشعر في بلاد الشام والجزيرة من قيام الدّولة العباسية حتّى نهاية القرن الثالث الهجري**، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع، 1993، ص176.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/168–181. الفرس الوكال: الذي يتّكل على صاحبه في العدوّ. ابن منظور، **اللسان**، باب وكل، العرمرم: الجيش الكثير الشديد. **اللسان**، باب عرم، المضمار: الأيام الّتي تضمر فيها الخيل للسباق أو للركض إلى العدوّ. **اللسان**، باب ضمر.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/435– 436.

([4]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص132.

ومن جهة أخرى تراه لا يستطيع منع جياده عن الأعداء، فتلاحقهم من ميدانٍ إلى ميدان لا تكلّ ولا تتعب حتّى تنال منهم، يقول:

بَـــرَّ حتّـــى عَـــقَّ الأقـــارِبَ إنَّ البِـــرَّ بالـــدِّينِ تَحْـــتَ ذَاكَ العُقُـــوق
فَفَـــدَى نفسَـــه بِكُـــلِّ شَـــوَارٍ وصَـــهِيلٍ فـــي أرضِـــهِ ونَهِيـــق
مِنْ مَتَاعِ المُلْـكِ الَّـذِي يُمْتِـعُ العَيْـ ـــنَ بـــهِ ثُـــمَّ مِـــنْ رَقِيـــق الرَّقِيـــق
كَرُمَـــتْ غَزْوَتَـــاك بـــالأمسِ والخَيْـ ـــلُ دِقـــاقٌ والخَطْـــبُ غَيْـــرُ دَقِيـــق
حـــينَ لا جِلْـــدَةُ السَّـــماءِ بِخَضْـــرَا ءَ ولا وَجْـــهُ شَـــتْوَةٍ بِطَلِيـــق
أورَثَـــتْ (صَـــاغِرَى) صَـــغَاراً ورَغْمـــاً وقَضَـــتْ (أَوْقَضَـــى) قُبَيْـــلَ الشُّـــرُوق
كَمْ أفَـــاءَتْ مِـــنْ أرْضِ قُـــرَّةَ مِـــن قُـــرَّ ةِ عَـــيْنٍ ورَبْـــرَبٍ مَرْمُـــوق!
ثُـــمَّ آبَـــتْ وأنـــت خَـــوْفَ الغَمَـــامِ الغَـــطِّ ذُو فِكْـــرَةٍ وقَلْـــبٍ خَفُـــوق[1]

فبالرغم من الشّتاء والبرد فقد آبتْ غزواتك وخيلك حتّى حقّقت النّصر في أكبر قـريتين بالرّوم[2].

حتّى أنّ الرّوم افتدوا أنفسهم بأمتعة وخيول ضامرة وبرقيق من أغلى مـا يملكـون[3]؛ لأنّهم يدركون ألّا سبيل إلى الفرار، إذ ليس هناك ما يدفع الخيل عنهم، ولن يكون إلا ما قضـى الله.

فالخيل تصرّ على تحقيق النّصر، يقول:

يكادُ حـين يلاقـي القِـرْن مـن حَنَـقٍ قبـلَ السِّـنان علـى حوبائـه يَـرِدُ
فلّـوا ولكـنَّهم طـابُوا فأنجـدَهم جيشٌ من الصَّبر لا يُحصى لـه عـددُ[4]

ولكن سماحة الممدوح تتسع لهم أحياناً، فهو الرّحيم الرّفيق بهم على الرّغم من مقدرته:

بالخيـلِ فـوق متـونهن فـوارسٌ مثـلُ الصُّـقور إذا لقـينَ بُغَاثَـا

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/438-442.
([2]) المصدر السابق: 2/442.
([3]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص160.
([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/14.

لَكِــنْ قَــرَاكُم صَــفْحَهُ مَــنْ لــم يَــزَلْ وأبُـــوهُ فـــيكم رحمـــةً وغياثَـــا[1]

وفي موضع آخر يخرج الممدوح بخيله ورماحه الكثيرة كمن أخرج مالاً من بئر عميق، وهذه الخيل لقوتها وصبرها ومضائها كادت أن تقضي على العدوّ لولا أنه كفَّها عــنهم وأبقــى عليهم، رفقاً بهم، يقول:

ومُسْتَنْبِطٌ فــي كــل يــومٍ مــن الغِنَــى قَلِيبــاً رَشَــآها القنــا والسَّــنابكُ
ولــو لــم يُكَفْكِــفْ خيلَــه عَــرَكَتْكُم بأثقَالِهــا عَــرْكَ الأديــمِ المُعــارِكُ
أهــبَّ لكــم ريــحَ الصَّــفاء جَنَائِبــاً رُخــاءً وكانَــتْ وَهْــيَ نُكْــبٌ سَــوَاهِكُ
فَــرَدَّ القَنــا ظَمــآنَ عــنكم وأُغمِــدْتَ على حَرِّهــا بِــيضُ السُّــيُوفِ البَوَاتِــكُ
وآبَ علــى سَــعْدِ السُّــعُود برَحْلِــه عِتَاقُ المَــذَاكِي والقِــلاصُ الرَّواتِــكُ[2]

يقول:

يغشى الوَغَى بالقنــا والخيــلُ عابســةٌ والخيــلُ لا عــاجزٌ فيهــا ولا وَكِــلُ[3]

وصف خيله الّتي لا عيب فيها، عابسة في أرض المعركة، غير هازلةٍ مع العدوّ، تسير نحو هدف واحد هو تحقيق النّصر.

ويقول:

وغيضةِ الموتِ أعني البَــذَّ قُــدْتَ لهــا عَرَمْرَمَــاً لِحُــزُونِ الأرض مُعتسِــفَا
كانتْ هي الوسَــطَ الممنــوعَ فاســتَلبتْ ما حَوْلَها الخيلُ حتّى أصــبحَتْ طَرَفَــا[4]

فالممدوح لم يُصبْ بهلع أو جزع أو فتور نية، بل و مقدام شجاع لا يخشى شيئاً لأن معه خيل تضرب أرض الوغى ساعيةً لإذلال عدوه أينما كان[5]، يقول:

لــدى سَــنْدَبايا والهِضَــابِ و أَرْشَــقٍ ومُوقــانَ والسُــمْرُ اللِّــدَانُ تَزَعْــزَعُ

([1]) أبو تمّام: **الديوان** ، 318/1.

([2]) المصدر السابق، 462/2 –466. السنابك: طرف الحافر وجانباه من قُدُم. ابن منظور: **اللسان**، باب سنبك.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 125/4.

([4]) المصدر السابق، 2 / 374.

([5]) البديعي: **هبة الأيام**، ص297.

وأبْرَشـــتويمٍ والكَـــذَاجِ ومُلْتَقَـــى سَـــنابِكِها والخيـــلُ تَـــرْدِي وتَمْـــزَعُ
غَـــدَتْ ظُلَّعـــاً حَسْـــرى وغـــادرَ جَـــدُّها جُدُودَ أُناسٍ وهـــي حَسْـــرى وظُلَّـــعُ[1]

فكانت الخيل السلاح الذي يعتمد عليه، ويأمل من خلاله تحقيق النّصر.

ويقول:

غَنِيـــتُ بـــه عَمَّـــنْ سِـــوَاهُ وحُوِّلَـــتْ عِجَافُ رِكابي عن سُـــعَيْدٍ إلـــى سَـــعْدِ[2]

فهم يبعثون الحرب دون وجل كما انتقم ضبة لمقتل ولده سعيد دون أن يهمـــه شـــيء[3] ومن شدّة بأس الممدوح فإنَّ البلاد الّتي يفتحها تنال أعلى المكانة، وتكون خيلـــه منيعـــة قويـــة محرمة على العدوّ؛ لأنهم لا يَغْدُرون، إنما يقاتلون وجهاً لوجه، ويكون النّصر حليفهم:

بك اليَمَنُ اســـتعلَتْ علـــى كـــل مـــوْطنٍ فصـــارَ لِطَـــيٍّ تاجُهـــا وسَـــريرُها
مُحَرَّمَـــةٌ أكفـــالُ خيلِـــكَ فـــي الـــوَغَى ومكْلُومَـــــةٌ لبّاتُهـــــا ونُحُورُهـــــا
حـــرامٌ علـــى أرماحِنـــا طعـــنُ مُـــدبرٍ وتَنْدَقُّ في أعلى الصُّـــدور صُـــدُورها[4]

فالأبيات السابقة تؤكد عزم الممدوح ومساندة خيله الّتي كانت بمثابة جيشٍ يعتلـــي قمـــة النّصر معه وإلى جانبه، تواجه الموت والرّماح بصدورها لا تخشى شيئاً كصاحبها، في حـــين شبّه العلياء والحصول على المكانة الرّفيعة بركوب الخيل القوية، فهي لا تكون إلا لمن يستحقها:

وكِلاكمـــا اقْتَعَـــدَ العُلَـــى فَرَكِبْتَهـــا فـــي الـــذَّرْوَةِ العُلْيَـــا وجـــاءَ رَدِيفـــا[5]

ارتبطت الخيل عند أبي تمّام بالعلوّ والعظمة، ويكشف ذلك عن مكنونات نفسه وطموحها في الارتقاء والحصول على أعلى الدرجات، ومن عظمة هذا الممدوح أنّه رجل مـــاضٍ غلـــيظ على فرس غليظة كأن بها فزعاً لخفّتها وذكائها، وقد قيل فرس أروع كرجل أروع، يقول:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 332. أرشق: امتداد الأعناق وانتصابها. **اللسان**، باب رشق.اللّدان: اللينة. **اللسان**، باب لـــدن. ظلّع: عرج وغمز في مشيته. **اللسان**، باب ظلع. آبرشتويم: جبل بالبذّ من أرض موقان من نواحي أذربيجان. الحمـــوي: **معجم البلدان**، 1/ 50. سندبايا: موضع بأذربيجان بالبذّ. **معجم البلدان**، 277/3.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 65.

([3]) المصدر السابق، 2 / 65.

([4]) المصدر السابق، 222/2. وقد تكررت هذه المقطوعة في الديوان برواية مختلفة قليلاً (579/4)

([5]) المصدر السابق، 2/ 383.

بـــأروعَ مَضّـــاءٍ علـــى كـــلِّ أرْوَعٍ وأغلَـــبَ مِقـــدَامٍ علـــى كـــلِّ أغْلَـــبِ[1]

وهذا يكشف عن العلاقة العميقة الّتي تربط بين الممدوح وفرسه، فقد أسقط على الفرس بعض صفات فارسها، فأصبحت ماضيةً في الأمور، تتغلب على أعدائها مستعينة بإرادة الممدوح وثقته بنفسه وبها. والفرس تحب غناء صاحبها فيشجعها ذلك على السير، فإن أعطاها تعطيه:

تـــأَلَّفْ آل إدريـــسَ بـــنِ بَـــدْرٍ فتَسْـــبيبُ العَطـــاءِ هـــو العَطـــاءُ
وخُـــذْهُم بـــالرّقَى إنّ المَهَـــارِي يُهيِّجُهـــا علـــى السّـــيْرِ الحُـــدَاءُ[2]

وقد ارتبط سبق الجواد بجود الممدوح، يقول:

مـــا السّـــبق إلا سَـــبْقٌ يُحَـــازُ علـــى جَـــوادِ قـــومٍ لـــم يَجْـــرِ فـــي طَلَقِـــكْ

يقول: "ما السبق الذي يُعتدُّ به إلا كسَبْق جواد لم يَسرْ في الجود تابعاً لك، والقصـــد أن جياد القوم و عتاقهم إذا طلبوا شأوَ هذا الممدوح وجَرَوا في ميدانه افتضحوا" [3]

أمّا في حربه فيعلو غبار المعركة ليحيط بكلّ ما حوله، فتموج الخيل في أرض المعركة كالرّمل المتكسر من هبوب الرّيح عليه، فيساعد الممدوح على تحقيـــق النّصـــر، وردّ الأعـــداء مخذولين منهزمين:

ولّـــى بهـــا المَخْـــذُول يَعـــذِلُ نَفْسَـــهُ مُتَمطِّـــراً فـــي جَيْشِـــه المَهْـــزُومِ
رَامُـــوا اللّتَيَّـــا والّتـــي فاعتَـــاقَهُم ســـيفُ الأمّـــامِ ودعـــوَةُ المظلـــومِ
ناشـــدْتَهُمْ بـــالله يـــومَ لَقِيـــتَهُم والخيـــلُ تحـــتَ عَجَاجَـــةٍ كـــالنِّيمِ [4]

وهذا الممدوح يفوق أقوى الفرسان وأعتى الخيول الحربية، وسابقٌ لها إلى كـــل منهـــل عذب، ومعطاءٌ أكثر من كرماء العرب:

أو شـــاهدَ الحـــربَ المُمِـــرَّ مـــذاقُها لـــرآه أقمـــعَ للعُتَـــاةِ العُنَّـــدِ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 153/1.

([2]) المصدر السابق، 440/4.

([3]) المصدر السابق، 404/2– 405.

([4]) المصدر السابق، 3/ 265. النيم: الفرو القصير إلى الصدر، الدّرج الذي في الرمال إذا جرت عليه ريح. **اللسان**: باب نوم.

وأجَـرَّ للخيـل المُغيـرَةِ فـي السُّـرَى وأَذَبَّ منـــه باللّسَـــانِ و باليَـــدِ
أمّـــا الجيـــادُ فقـــدْ جَـــرَت فســـبقْتَها وشـــربتَ صَـــفْوَ زُلالِهـــا فـــي المَـــوْرِدِ
غـــادرْتَ طلحـــةَ فـــي الغُبـــارِ وحَاتِمـــاً وأبان حَسْـــرى عـــن مَـــدَاكَ الأبْعَـــدِ[1]

ثم يجعل مشية الممدوح بعد النّصر كمشية الخيل المتبخترة، يقول:

أخرجتمـــوه بِكـــرْهٍ مـــن سَـــجِيَّتِهِ والنَّارُ قد تُنتَضـى مـن ناضِـرِ السَّـلَمِ
أوطأتُموهُ علـى جَمْـرِ العُقُـوق ولـو لم يُحْرَجِ اللَّيثُ لـم يبـرحْ مـن الأجـمِ
قُـــذِعْتُم فمشَـــيْتُمْ مِشْـــيَةً أممـــاً كذاك يحسُنُ مَشْيُ الخيلِ فـي اللُّجُـمِ[2]

فقد تحقّق النّصر، واصطلى العدوّ بنار الهزيمة، وقد شبّه الممدوح الّذي حقق ذلك باللّيث في قوته وإخافته للأعداء، ثم بالخيل الفخورة بنفسها وبعتقها بعد أن حقّق النّصر للمسلمين.

ولشدّة حرص الممدوح على الدّفاع عن البلاد الإسلامية، كثرت وقائعه، فأهلك خيله في الغزو، ولم يقبل إلا بالنّصر، ولمّا حقّقه، توجه إلى الله شاكراً:

يَـرْدِي ويُرْقِـلُ نحـو المَـرْوَتَيْنِ كَمـا يَرْدِي ويُرْقِـلُ نحـو الفَـارِسِ البَطـلِ
تُقَبِّـلُ الـرُّكْنَ رُكْـنَ البيـتِ نَافِلَـةً وظَهْـرُ كَفِّـكَ مَعْمُـورٌ مـن القُبـلِ
لَمَّـا تَرَكْـتَ بُيُـوتَ الكُفْـرِ خَاويـةً بـالغَزْوِ آثَـرْتَ بيـتَ الله بالقَفَـلِ
والحَجُّ والغَـزْوُ مَقْرُونـانِ فـي قَـرَنٍ فاذهَبْ فأنتَ زُعـافُ الخيـلِ والإبِـلِ[3]

فقد جمع الشّاعر بين الحج والغزو، وكلاهما عمل من أجل إعلاء ذكر الله عز وجل.[4]

وجل.[4]

وفي كلا الأمرين ترافقه الخيل تُردي مسرعةً ملبيةً نداء الحرب ونداء الله، فلا يصـيبها كلل أو ملل، وهذا أمرٌ يدعو إلى التفاخر بامتلاك هذه الخيل القوية الكريمة.

وفي معنًى مشابه يقول:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/139-140.
([2]) المصدر السابق، 3/189.
([3]) المصدر السابق، 3/92-93.
([4]) الرباعي: عبد القادر: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص143.

فـــي طريـــقٍ قـــد كـــان قبـــلُ شِـــراكًا ثـــمَّ لمّـــا عَـــلاهُ صـــارَ أديمـــا
لـــم يُحـــدِّثْ نَفْسًـــا بمكَّـــةَ حتّـــى جـــازتِ الكهـــفَ خيْلُـــهُ والرَّقِيمَـــا
حـــرَمُ الـــدِّين زارَه بعـــد أنْ لـــم يُبْـــقِ للكفـــرِ والضَّـــلالِ حَريمَـــا
حـــين عَفَّـــى مَقَـــامَ إبلـــيسَ سَـــامَى بالمَطايـــا مَقَـــامَ إبرَاهِيمَـــا[1]

فبعد أن كانت بلاد العدوّ أرضاً محرَّمة صعبةً على أقوى الفرسان، استباحها الممـدوح بخيله، وصيّرها كالأديم، وطهّر البلاد من الكفار وأعداء الإسلام، ثمّ توجّه إلى العبادة وشكر الله بزيارة إلى الحرم المكيّ، وقد يكشف أبو تمّام عن السّبب الحقيقي لخوض الممدوح هذه الحروب المتتالية، وهو نيْل رضا الله وإعلاء كلمة الإسلام.

ويقول أيضاً:

كاللّيـــثِ ليـــثِ الغـــاب إلّـــا أنّ ذا فـــي الـــرَّوع بَسَّـــامٌ وذاك شـــتيمُ
طَحْطَحْتَ بالخيـلِ الجبـالَ مـن العِـدَا والكفـــرُ يَقْعُـــدُ بالهُـــدَى ويقـــومُ
بالسَّفح مـــن هَمَـــذان إذ سَـــفَحَتْ دَمًـــا رُوِيَـــتْ بجُمَّتِـــه الرّمـــاح الهِـــيمُ
يـــومٌ وســـمْتَ بـــه الزَّمـــان ووقعـــةٌ بَرَدَتْ علـــى الإســـلامِ وهـــي سَـــمُومُ[2]

وممّا سبق، نرى انعكاس الصّورة الحسنة للخيل، فكانت رمزاً للقوة والإرادة والعزيمـة مرةً، ورمزاً للخير والعطاء والفرج مرةً أخرى، وفي مرات قليلة كانت رمزاً للخذلان والفـرار والهزيمة.

الخيل الضامرة

من مظاهر الحركة الّتي ظهرت في كثير من أشعار أبي تمّام، جريُ الخيل الضـامرة، الذي تميّز عن جرْي غيرها من الخيول لسرعتها وقوّتها، فقد أحب العربي تضمير خيله[3].

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 226/3–227. الكهف: المذكور في القرآن. الحموي: **معجم البلـدان**، 496/4. والرقيم: اسم الجبل الذي كان فيه الكهف. **معجم البلدان**، 60/3. شراك: سير النعل. ابن منظور: **اللسان**، باب شرك.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 290/3. الطحطحة: تفريق الشيء إهلاكاً. ابن منظور: **اللسان**، باب طحح.

([3]) التّضمير هو "تقليل علفها مدة، وإدخالها بيتاً كنيناً وتجليلها فيه، لتعرق ويجف عرقها، فيصلب لحمها ويخفّ، وتقـوى على الجري"، ابن منظور، **اللسان**، باب ضمر.

"وقد كان" الرسول عليه السلام يأمر بإضمار خيله بالحشيش اليابس". عطّار، مصطفى حسين: **مواقف من السّيرة النبوية**، ط1، مكتبة مشهور الضامن بركات: مكّة المكرمة، 1980م، ص 124–125

فالفرس الضَّامر أكثر قوةً وسرعةً، لذلك نرى كثيراً من ممدوحي أبي تمّام لا يركبــون إلا الضّامرة، يقول أبو تمّام:

وليـــالي الحَشَّـــاك والثّرثـــار قـــد جلبُـــوا الجيـــادَ لواحِـــق الأقْـــرَابِ[1]

فهم يدفعون العدوّ بجياد ضامرة الخواصر. ويقول مادحاً أبا سعيد وقومــه فــي وقعــة الخُرَّمية:

وغـــادِهِ بســـيوفٍ طالمـــا شُـــهِرتْ فأخْلَفَتْ مُتْرَفًـا مـا كـان قبـلُ رَجَـا
وشُـــزَّبٍ مُضْـــمَراتٍ طالمـــا خَرقَـــتْ منَ القَتام الذي كـان الـوغى نَسَـجا[2]

فهم مقبلون على الحرب بخيل ضامرة دون خوف ولا اضطراب[3].

وقوله يمدح المعتصم بوقعة الخُرَّمية، حين لحق بخيله الضامرة القويــة عــدوّه الفــارّ (بابك):

ونجا ابــنُ خائنــةِ البُعُولَــةِ لَــوْ نَجَــا بمُهَفْهَـــفِ الكَشْـــحَيْنِ و الآطـــالِ[4]

ثم يظهر شجاعة خيله الضّامرة القويّة الّتي تحمل فرساناً مدججين بالسّــلاح والرّمــاح، حين تبعتهم، يقول:

لَبِسَـتْ لـــه خُـــدَعُ الحـــروبِ زَخارِفـــاً فَـــرَّقْنَ بـــين الهَضْـــبِ والأوعَـــالِ
ووردنَ موقانـــاً عليـــه شَـــوَازِباً شُـــعْثاً بِشُـــعْثٍ كالقَطَـــا الأرسَـــالِ
يَحمِلْـــنَ كـــلَّ مُـــدجَّجٍ سُـــمْرُ القنـــا بإهابـــه أوْلـــى مـــن السِّـــربَال [5]

فقد سالت غمامة الحرب بالرّماح والخيل الضّامرة حتّى أدرك (بابك) عواقب خروجــه عن الحق:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 /89. الحشّاك: نهر. **اللسان**، باب حشك. الثرثار: واد عظيم بالجزيرة سكنته قبائل بكر بن وائل وبنو تغلب، الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 75.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 336–337.

([3]) المصدر السابق، 1/336–337.

([4]) المصدر السابق، 3/ 142. مهفهف الكشحين: الخَمِيصة البطن الدقيقة الخصْر والكشح: جانبا البطن من ظاهر وباطن وهما من الخيل. ابن منظور: **اللسان**، باب هفف، كشح.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 / 137.

تَجلَّلْتَـــهُ بـــالرَّأْيِ حتّـــى أَرَيْتَـــهُ بـــهِ مِـــلْءَ عَيْنَيْـــهِ مَكـــانَ العَواقِـــبِ
بأَرْشَـــقَ إذْ ســـالَتْ علـــيهم غَمامَـــةٌ جَـــرَتْ بـــالعَوالي العِتـــاق الشَّـــوَازبِ[1]

وقد أجاد وأحسن ثم وصف الجيش وصفاً نادراً، فالجيش كالسَّيْل الكاسح يملأ الفضاء أمّا الخيل فعلى أهبة الاستعداد، دائمة الإسراج والإلجام، مضمرة، والفرسان شـجعان متحصـنون بسيوفهم مُنقضُّون على الموت[2] يقول:

مـــلأَ المـــلا عُصُـــباً فكـــادَ بَـــأن يُـــرَى لا خَلْـــفَ فيـــهِ ولا لَـــهُ قُـــدَّامُ
بسَـــوَاهِمٍ لُحُـــق الأياطـــلِ شُـــزَّبٍ تَعليقهـــا الإســـرَاجُ و الإلجَـــامُ
مُسْتَرْسِـــلينَ إلـــى الحُتُـــوفِ كأنَّمـــا بـــينَ الحتـــوف وبيـــنهم أرحَـــامُ[3]

ويقول:

اللهُ أعطـــــاكَ الهزيمـــــةَ إذْ جـــذَبتْكَ أســـبابُ الـــرَّدى جَـــذْبَا
لاقيـــتَ أبطـــالاً تحُـــثُّ إلـــى ضَـــنْكِ المَقـــامِ شَـــوازباً قُبَّـــا
فنزلـــتَ بـــين ظهـــورهم أشِـــراً فقـــروكَ ثَـــمَّ الطَّعْـــنَ والضَّـــرْبَا
من حيـــثُ تَلْقَـــى الـــرُّمُحَ يشـــرَعُ فـــي نُطَـــف الكُلَـــى والمُرْهَـــفَ العَضْـــبا
والخيـــلُ ســـانحةٌ وبارحـــةٌ والمـــوتُ يغشَـــى الشَّـــرقَ والغربـــا
وشُـــغِلتَ عـــن دَبْـــغِ الجُلـــودِ بمـــا نَشَـــرَ الـــبلاءَ وجَلَّـــلَ الخَطْبَـــا[4]

فشبّه الخيل بالطّيور في سرعتها وكأنها تحوم في المكان، تنشر الموت فـي أرجائـه، وتعين على التغلّب على العدوّ القوي الذي لا يصمد أبداً أمّام ممدوحه، فهو لا يركن إلى الدّعـة واللّهو، بل يواجه الذين عاثوا في البلاد فساداً وخراباً.

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 211. الشوازب: الشزب: الضامر من الخيل. **اللسان**، باب شسب

([2]) الشكعة، مصطفى: **رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية**، ص 609.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/155–156 السواهم: إذا غيّرها السفر. ابن منظور: **اللسان**، باب سهم. الأياطل: جمع أيطل وهو مُنْقطَع الأضلاع من الحَجَبَة وقيل القُرُب وقيل الخاصرة كلها. **اللسان**، باب أصل. وأشار الآمدي إلى أن أبا تمّام قد أخـذه من قول جرير:

حَـــراجِيجُ يُعْلفـــنَ الـــذّميل كأنهـــا معـــاطف نَبْـــعٍ أو حُنِـــيُّ الشَّـــرَاجِعِ

الآمدي: **الموازنة**، ج1، ص114–115. ينظر: الصاوي: محمد إسماعيل عبد الله: **شرح ديوان جرير**، (د، ط)، بيـروت، لبنان: الشركة اللبنانية للكتاب، دمشق، سوريا: مكتبية محمد حسين النوري، (د، ت)، ص360.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/321–322.

وقد بالغ أبو تمّام في وصف الأبطال وخيولهم القوية الضامرة الّتي تساعد في تحقيق النّصر، وتنشر الموت في كل الأنحاء، فقد جعل منهم قوة تخرس الدهر، فقال:

بخيلٍ لزيدِ الخيل فيها فوارسٌ إذا نطقوا في مَشْهَدٍ خَرِس الدَّهرُ
على كل طِرْف يَحْسُرُ الطَّرْفَ سابحٍ وسابحةٍ لكن سَباحتها الحُضْرُ
طوى بطنَها الإسآدُ حتّى لو أنّه بدا لك ما شَكَّكْتَ في أنّه ظَهْرُ
ضبيبيّةٌ ما إنْ تُحدِّثَ أنفُساً بما خلفها ما دام قُدَّامَها وِتْرُ[1]

ولّما كانت خيل الممدوح قوية وسريعة في نيلها من خصمها فقد شبّهها وفارسها الشّجاع بالصّقر الذي رأى فريسة فانقض عليها لا يسبقه إليها أحد، يقول:

بالرّاقِصَاتِ كأنَّها رَسَلُ القَطَا والمُقْرَبات بِهنَّ مثلُ الأفْكَلِ
من نَجْلِ كلِّ تليدةٍ أعراقُهُ طِرْفٍ مُعَمٍّ في السَّوابق مُخْوَلِ
كالأجدَلِ الغِطريفِ لاحَ لعينِهِ خُزَزٌ وأنتَ عليه مثل الأجْدَلِ
يَرْدِي بأرْوَعَ يَغتدِي ويَرُوحُ مِنْ زُوَّارِهِ وضيوفِهِ في جَحْفَلِ
حتّى تَقَرَّ عيونُنا وقلوبُنا بالماجدِ المُسْتَقبَلِ المستَقبِلِ[2]

وهنا استطاع أبو تمّام إظهار شخصيته التجديديّة من خلال الاستفادة من أفكار الكتّاب الذين سبقوه، ولكنه استعان بعبقريته ليخرج لنا صورة متقنة الصناعة، حافلة بالمحسّنات البديعية والصّور الفنية الجميلة.

أمّا في السّفر فإن الممدوح لا يركب إلا الضّامرة لقوتها على السير:

فناهِضْ بي من الأسفَارِ وَجْهاً مَهاريه ضوامِرُ كالحَنِيّ[3]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/576–577. الحُضر: ارتفاع الفرس في عدوه عن الثعلبية. **اللسان**، باب حضر، الإساد: آسد السير. **اللسان**، باب أسد، ضبيبية: فرس معروف من خيل العرب. **اللسان**، باب ضبب.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/43–44. المقربات، السوابق: الخيل. ابن منظور: **اللسان**، باب قرب، سبق، الأجدل: الصقر. **اللسان**، باب جدل، خزر: ذكر الأرنب. **اللسان**، باب خزز، يردى قيل الرّديان: عدو الفرس بين العدوّ والمشي السريع. **اللسان**، باب ردي. الأفكل: الرِّعدة من برد أو خوف. اللسان باب أفل.

([3]) وقد تروى مطاياه. أبو تمّام: **الديوان**، 3/357.

ولقرب الخيل من نفس أبي تمّام، وتعلّقه بصفاتها فقد شبّه نفسه بالجواد المضمر دلالة على شحوب الجسم والمرض، فقال:

نظرَتْ إليه فما استَتَمَّتْ لَحْظَها حتّى تمنّتْ أنّها لم تَنْظرِ
ورأَتْ شُحوباً رابَها في جسمهِ ماذا يُريبُكِ من جَوادٍ مُضمَرِ؟! [1]

الضمور في الخيل مدح، وفي الإنسان علّة ومرض.

ثم يطلب فرساً ضامرةً ليركبها، فيقول:

ومُجْفَرٌ لم يُصْطَلَم كَشْحُهُ فالضُّمرُ المُفْرِطُ فيها رَسِيسْ
إن زارَ مَيداناً مَضَى سابِقاً أو نادِياً قامَ إليهِ الجُلُوسْ[2]

ولكنّه يشترط عدم المبالغة في تضميرها، فإن دخلت ميداناً كانت السّابقة، فتُعجب من يراها.

أدوات الخيل

استخدم أبو تمّام أغراض الخيل وأدواته لإخراج صورٍ في غاية الدقة وروعة التّصوير، فالشّكيمة هي حديدة اللّجام الّتي توضع في فم الفرس، وإنسان شديد الشّكيمة إذا كان شديد النّفس، فرأى الشّاعر في سوء الخلق الذي ضمّن به قصيدته شكيمةً يتحكم بها الممدوح كيفما يشاء، فإن أراد أزالها، واستبدل بها غيرها، فيقول بعد أن حلّ الجفاء بينه وبين الممدوح:

وتظنُّ ظُنونَ السَّوءِ بي إنْ لَقيتَني لا وَتَرى فيما كَرِهْتَ ولا سَهْمِي
وتجزَعُ من مَزْحي وترضَى قصيدةً وقد أُخْرِجَتْ ألفاظُها مخرجَ الشَّتمِ
فإنْ تَكُ أحياناً شديدَ شكيمة فإنّك تمحوها بما فيك من شَكْمِ[3]

فوفق الشّاعر بين المعنييْن المتناقضين ليحصل على رضا الممدوح، فبشدّته وبأسه يستطيع أن يمحو أي سوء خُلُقٍ تشتمل عليه القصيدة. [4]

([1]) أبو تمّام: **الديوان** ، 4/ 451.
([2]) المصدر السابق، 2/276-278
([3]) المصدر السابق، 4/496.
([4]) المصدر السابق، 4/496.

والسّرج واللّجام لمن يعزم على السّفر إلى مكان بعيد أو الحرب، فكان ذلك قدَرُهم:

ومُعَـــرِّفُ الخُلفـــاءِ أنَّ حُظُوظَهـــا فـــي حَيِّـــزِ الإســـرَاجِ والإلجَـــامِ[1]

وللتعبير عن الثّورة والجموح استعار المسحل من الفرس، ونسبه للشّتاء الذي طغى على كل ناحية، فشبّه الشّتاء بفرس جموح لا يقدر عليها أحد، فيقول:

بِســـرَاجِ كُـــلِّ مُلِمَّـــةٍ فـــي لَوْنِهـــا كَلَـــفٌ ومَعْلَـــمِ كُـــلِّ أرضٍ مَجْهَـــلِ
فـــانهضْ وإنْ خِلْـــتَ الشِّـــتاءَ مُصَـــمِّماً حَزْنَ الخليقةِ جامحـــاً فـــي المِسْـــحَلِ[2]

أوصاف الخيل

ارتقت قصائد أبي تمّام إلى مستوى الشعر الملحمي، فقد وصـــف البطـــولات الفرديـــة والجماعية والمعارك الدّامية، ووصف الخيل وغيرها من التّفصيلات المرتبطة بإطار الحرب[3]، الحرب[3]، وقد تتجاوز صورة الخيل عند أبي تمّام حدود البيت الواحـــد أو الأبيـــات المعـــدودة لتشمل قصائد كاملة، يصف جسومها وألوانها وصفاتها، ومن ذلك قوله:

بـــأرض البَـــذِّ فـــي خيْشُـــوم حـــربٍ عَقَـــيمٍ مـــن وشـــيك ردىً ولـــود
تُقاسِـــمُنا بهـــا الجُـــرْدُ المَـــذَاكِي سِـــجَالَ الكَـــرِّ والـــدَّأبِ العنيـــد
فَتُمســـي فـــي سَـــوابِغ مُحكمـــاتٍ وتُمســـي فـــي السُّـــرُوجِ وفـــي اللُّبُـــود
حَـــذَوْناها الـــوَجَى والأيْـــنَ حتّـــى تَجَـــاوَزَت الرُّكـــوع إلـــى السُّـــجودِ
إذا خَرجـــتْ مـــن الغَمَـــرَاتِ قلنـــا خرجْـــتِ حَبائسًـــا إنْ لـــم تَعُـــودِي
فكـــم مـــن سُـــؤْدُدٍ أمكنْـــتِ منـــه بِرُمَّتِـــهِ علـــى أن لـــم تَسُـــودي
أهانَـــكِ للطّـــرادِ ولـــم تَهُـــوني عليـــه وللقيـــادِ أبـــو ســـعيدِ
بـــداكِ فكُنـــتِ أَرْشِـــيَةَ الأمّـــاني وبُـــرْدَ مســـافةِ المَجْـــدِ البعيـــد

([1]) أبو تمّام: **الديوان** ، 204/3.

([2]) المصدر السابق، 3 / 45. المسحل: اللجام وقيل: فأس اللجام، والمسحلان: حلقتان إحداهما مُدْخلة في الأخرى علـــى طرفي شكيم اللجام وهي الحديدة الّتي تحت الجحفلة السفلى.**اللسان**، باب سحل.

([3]) خليل، ياسين: **الشعر في بلاد الشام والجزيرة**، ص198.

وأرسَـــلَها علـــى مُوقَـــان رَهـــواً تُثيـــرُ النَّقـــعَ أكْـــدَرَ بالكَديـــدِ[1]

تقاسمه الخيول الجُرْد المَذاكي المكرَّة الشديدة المهلكة للعدو غمار الحرب، وهذه الخيل لا تتعثر ولا يصيبها ذل بالركوع، (لأن الركوع مستعمل في الانخفاض والذل)، فهو يُسقط علـى خيل الممدوح شيئاً من صفاته، فهي عزيزةٌ لا ترضى بالذّل، وهي لا تخرج إلا للجهاد والركض في سبيل الله والإسلام، عزيزة عليهم، لا يحبون خروجها عن أيديهم لكرمها علـيهم؛ لأنهـا إن صارت حبائس شاركها فيها غيرهم ولم يتمكنوا من أعنّتها، وخيلهم لها سيادة في أجناسها وذلك بسيادة أصحابها ورجالها في المعارك، فهم يقودونها إلى الوقائع متتابعة تثير النقع فـي الأرض الغليظة أو المطمئنة[2].

وقد مدح أبو تمّام الحسن بن وهب بصفات تتصف بها الخيل العتـاق الموقوفـة علـى الجهاد في سبيل الله:

يشـــتاقه مـــن كَمَالِـــه غَـــدُهُ ويُكْثِـــرُ الوَجْـــدَ نَحْـــوَهُ الأمْـــسُ
رَدِّي لِطَرْفِـــي عَـــنْ وجهِـــهِ زمـــنٌ وســـاعتِي مـــن فِراقِـــه حَـــرْسُ
أيَّامُنـــا فـــي ظلالِـــهِ أبـــداً فصـــلُ ربيـــعٍ ودَهرُنـــا عُـــرْسُ
لا كأُنـــاسٍ قـــد أصـــبحوا صـــدَأ الـــ ـــعَيش كـــأنَّ الـــدُّنيا بهـــم حَـــبْسُ
القربُ منهم بُعْـدٌ مـن الـرُّوحِ والـــ ـــوحْشَةِ مـــن مِـــثْلِهم هـــي الأنْـــسُ
تلـــك خِـــلالٌ وقـــفٌ عليـــك ابـــن وهـــب بـــن ســـعيد عِتاقُهـــا حُـــبْسُ[3]

وأبو تمّام يحبُّ أن يكرمَه الممدوح، فتراه يطلب الفرس، ويحدّد صفاتها لتعينه في سفره، وهو يعلم أن طلبه مُجاب، يقول:

([1]) خيشوم حرب: يقصد أولها، أبو تمّام: **الديوان**، 2/34-37. خيشوم: أقصى الأنف. ابن منظور: **اللسان**، باب خشـم. عقيم: شديدة لا يَلوِي فيها أحد على أحد، ويكثر فيها القتل: **اللســان**، باب عقم. الدؤوب: المبالغة في السير، وقيل السَّـوْق الشديد والطرد. **اللسان**، باب دأب. اللبود: من البُسُط: معروف وكذلك لِبْد السرج. **اللسان**، باب لبد. الـوَجَى: أن يشـتكي العير باطن خُفه والفرس باطن حافره. **اللسان**، باب وجا. الأيْن: الإعياء والتعب. **اللسان**، باب أين. أرشية: الحبال وقيـل الوُصْلَة إلى الحاجة، أو الذي يُتوصل به إلى الماء (الدلو). **اللسان**. باب رشا. رهو: الكثير الحركة وقيل: السريع، وجاءت الخيل والإبل رهواً: أي ساكنة أو متتابعة. **اللسان**، باب رها. الكديد: ما غَلُـظَ مـن الأرض، وقيـل: الأرض المكـدودة بالحوافر. **اللسان**، باب كدد.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 34-37..

([3]) المصدر السابق، 2/ 232.

قالـــتْ وعِـــيُّ النســـاء كـــالخَرَسِ وقد يُصِـبْنَ الفُصـوصَ فـي الخُلَـسِ
هـــل يَـــرْجِعَنَ غيـــرَ جانـــبٍ فرســـاً ذو ســـببٍ فـــي ربيعـــةِ الفـــرَسِ
كـــأنّني قـــد وَرَدْتُ ســـاحتها بمُســـمِحٍ فـــي قيـــاده ســـلسِ
مُبتـــلٌ مَـــتْنٍ وصَـــهوتيْن إلـــى حـــوافرٍ صُـــلَّبٍ لَـــهُ مُلـــسِ
فهـــو لـــدى الـــرَّوْعِ والحلائـــبِ ذُو أعلَـــى مُنـــدًّى وأسْـــفلٍ يَـــبَسِ
يُكْبِـــرُ أن يســـتَحِمَّ فـــي الحـــرِّ والقُـــرِّ حميمـــاً يزيـــدُ فـــي الـــنَّجسِ
مُخلّـــقٌ وجهُـــهُ علـــى السّـــبْق تَخْلِيـــ ـــقَ عـــروسِ الأبنـــاء للعُـــرُسِ
حُرٌّ لـــه سَـــوْرَةٌ لـــدى الزَّجْـــرِ والسَّـــوْ طِ وعَبْـــدُ العِنـــان والمَـــرَسِ
فهـــو يَسُـــرُّ الـــرُّواضَ بـــالنَّزَق السَّـــا كِـــن منـــه واللّـــين والشَّـــرَسِ
صَهصَـــلِقٌ فـــي الصّـــهيل تحسِـــبُه أُشْـــرِجَ حُلْقُومُـــه علـــى جَـــرَسِ
تَقتـــلُ عَشْـــراً مـــن النّعـــامِ بـــه بواحـــدِ الشّـــدِّ واحـــد الـــنَّفَسِ [1]

فقد زيّنت فرسه الساحات، فهي الريّانة من الأعلى إلى الأسفل، واسعة الصهوة، كثيـرة العرق في الميدان، ويبالغ أبو تمّام في وصفها، عندما عدُّ العرق ماءً حاراً يزيدها نجساً، وهـذه الفرس مزّينة إكرأمّا لها لسبْقِها كالعروس الشابة، خالصةٌ كريمةٌ ذات حدةٍ عند السوط والزجر، فإن داريتها كانت عبداً للعنان وأحسن للانقياد، فهي تجمع بين النزق واللين، ذات صوت شـديد كأنَّ في حلقها جرساً، وتستطيع وأنت عليها اصطياد عشر من النعام في المرةِ الواحدة.

وكلها صفات يطلبها أبو تمّام في فرسه حتّى يتفاخر بامتلاكها[2].

ثم يكرر طلبه وهو يمدح كرم الحسن بن رجاء ويطلب منه فرساً للخروج إلـى سـفر، يقول:

فامـــدُدْ عِنـــاني بِـــوَأْى ضِـــلعُه تَثْبُـــتُ والعُـــذْرَةُ منـــه تَنُـــوسْ
أُقاتِـــلُ الهَـــمَّ بإيجافِـــهِ فـــإنَّ حَـــرْبَ الهَـــمِّ حَـــرْبٌ ضَـــرُوسْ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/234– 239

([2]) المصدر السابق، 2/234– 239. صهصلق: شديد الصوت ابن منظور: **اللسان**، باب صلق، أي"هو مع شدّة صـوته طيّب الصهيل وهذا يستحب لأنه دالّ على سعة جوفه". أبو تمّام: **الديوان**، 2/234–239. ينظر: الـواد، حسـين: **اللغـة الشعر في ديوان أبي تمّام**، ص21.

إذا المَـــــذَاكِي خَطبَـــــتْ نَقْعَـــــهُ فَحظُّهـــا مِنْـــهُ اللَّفَـــاءُ الخَسِـــيسْ
تَـــرَى رِزَانَ القـــومِ قـــد أســـمَحَتْ أعيُـــنهُم فـــي حُسْـــنِهِ وهـــي شُـــوُسْ
كأنَّمـــــا لاحَ لَهـــــم بَـــــارِقٌ في المَحْـــلِ أو زُفَّـــتْ إلـــيهم عَـــرُوسْ
ســـــامٍ إذا استَعْرضْـــــتَهُ زَانَـــــهُ أعْلَـــى رَطِيـــبٌ وقَـــرارٌ يَبِـــيسْ
عَـــوَّذَهُ الحَاسِـــدُ بُخْـــلاً بِـــهِ ورَفْرَفَـــتْ خَوْفـــاً عليـــه النُّفُـــوسْ
ومِثْلُـــه ذو العُنُـــق السَّـــبْط قَـــدْ أمْطَيْتَـــهُ والكَفَـــلِ المَرْمَـــرِيسْ
غَادرْتَـــه وهْـــوَ علـــى سُـــؤْددٍ وَقْفٌ وفـــي سُـــبلِ المَعَـــالي حَبِـــيسْ[1]

فمن صفات فرسه الّتي يطلبها أنها طويلة الضلع لتسرع في جريها، متمكنةٌ شديدةٌ حين يُقاتل عليها في الحرب الضروس، وحولها نقع المعركة والخسيس من العدوّ.

أمّا نظرة إلى جسمها فتكشف عن طول عنقها، فهي ملساء كالصّخر، لهذا يُعجب بها من رآها من سادة القوم حتّى المتكبرين منهم، فقام الشّاعر يستعيذ بالله من الحاسدين الذين استكرهوا عليه أن يكون صاحبها، وإذا وهبه الممدوح هذه الفرس فإنه سيُذكَرُ به إلى الأبد[2].

تعتبر هذه الصّفات من مقاييس جمال الخيل عند العرب اليوم، حيث تعرض الخيول في مسابقات لتحديد الأكثر جمالاً من خلال امتلاكها لعددٍ من الصّفات.

وفي وصفه فرساً ركِبَ عليه يقول:

نَـــزْارا كمـــا اســـتَكْرهْتَ عـــائر نفحـــةٍ مـــن فـــارةِ المِســـك الّتـــي لـــم تُفتـــق
مـــا مُقْـــرَبٌ يختـــال فـــي أشْـــطانه مـــلآنُ مـــن صَـــلَفٍ بـــه وتَلَهْـــوق
بحَـــوافِرِ حُفْـــرٍ وصُـــلْبٍ صُـــلَّبِ وأشـــاعرٍ شُـــعْرٍ وخَلْـــقٍ أخْلَـــق
ذو أوْلَـــقٍ تحـــت العَجـــاج وإنّمـــا مِـــن صِـــحَّةٍ إفـــراطُ ذاكَ الأوْلَـــق
تُغْـــرَى العُيـــون بـــهِ ويُفلـــقُ شـــاعرٌ فـــي نَعْتِـــه عَفْـــواً ولـــيس بِمُفلِـــق
بِمُصـــعَّدٍ مـــن حُسْـــنه ومُصَـــوَّبٍ ومُجمَّـــع فـــي خَلْقِـــهِ ومُفَـــرَّق
وتُطَـــرِّقُ الغُلَـــوَاء منـــه إذا عَـــدَا والكبريـــاء لـــه بغيـــر مُطَـــرِّق

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/276–280. وأى: الشديد. **اللسان**، باب باب وأي. اللفاء: الخسيس من كل شيء. **اللسان**، بـاب باب لفا.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/276–280.

أهـــدى كُنـــارٌ جَـــدَّه فيمـــا مضـــى للمِثْـــل واستَصـــفَى أبـــاه لِيَلْبَـــق
صـــافي الأديـــمِ كأنّمـــا ألبَسْـــتَهُ مـــن ســـندسٍ بُـــرْداً ومِـــنْ إســـتبرق
إمليسُـــه إمليـــدُه لـــو عُلِّقـــتْ فـــي صَـــهوتيْه العَـــيْنُ لـــم تتَعَلَّـــق
يُرْقـــى ومـــا هـــو بالسّـــليم ويَغتـــدي دون السّـــلاح سِـــلاح أروعَ مُمْلَـــق
فـــي مَطْلَـــبٍ أو مَهْـــرَبٍ أو رَغبـــةٍ أو رَهبـــةٍ أو موْكـــبٍ أو فَيْلَـــق
أمطاكـــهُ الحســـن بـــن وهـــبٍ إنّـــه دانِي ثرى اليَدِ مـــن رَجـــاء المُمْلِـــق[1]

فقد جعل حصانه مثالياً في قوته وسرعته، وتعلّقه بصاحبه، وجسده المتناسق الجميـل، فلشدّة مرحه ونشاطه، أصبح كمن أصابه الجنون، يبقى مشدوداً قريباً من بيت صاحبه، و يُسمَع له حِسٌّ فيُحَادُ عن طريقه.

وحوافره قوية صلبة شديدة الوطء، كثيفة الشّعر، أمّا جسمه فأملس لاعيب فيـه، جلـده صافٍ كمن زيّن بالسّندس والإستبرق، وهو حصانٌ منتجٌ.

وفي الحرب فهو كالسّلاح لفارسه، يدرك عدوه إذا طلبه، ويعين صاحبه على حـوادث الدهر مهما كانت، فهو يُعجِب الشّاعر ويُعجِب غيره من النّاس بهذه الصّفات، فأبو تمّـام يثنـي على الممدوح لعطائه المتميز بهذا الفرس العظيم.[2]

وقد اعتمد أبو تمّام على "تراسل الحواس: أي وصف مدركات كل حاسة من الحـواس بصفات مدركات الحاسة الأخرى، فتعطى المسموعات ألواناً، وتصير المشمومات أنغامّا... مما يساعد على نقل الأثر النفسي كما هو"، [3] ويظهر ذلك حين جمع بين حاسة اللمس والنظر فـي قوله:

صـــافي الأديـــم كأنّمـــا ألبَسْـــته مـــن ســـندسٍ بُـــرْداً ومِـــنْ إســـتبرق

([1]) بين الأشعل والأبلق فرق كبير ولكن يُحمل على أنه أراد بالبلقة، صفة الصباح لا الفرس. أبو تمّام: **الديوان**، 408/2 – 417. السندس: رقيق الديباج ورفيعه وقيل ضربٌ من البُرود. ابن منظور: **اللسان**، باب سوس، استبرق: ديبـاج غلـيظ. **اللسان**، باب برق.أشعل: البياض في ذنب الفرس أو ناصيته من ناحية منها. **اللسان**، باب شعل.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 408/2–417.

([3]) كبّابه، وحيد: **الصّورة الفنية في شعر الطائييْن بين الانفعال والحسّ**، اتحاد الكتاب العرب، ص 140.

إمليسُـــــه إمليـــــدُه لـــــو عُلِّقـــــتْ فـــي صَـــهوتيْه العَـــيْنُ لـــم تتَعَلَّـــق [1]

"وأراد الشّاعر تصوير ملامسة الفرس، فأفاد من الحاسة البصرية للتعبير عن هذا الحس اللمسي، فجعل العين ترحل من فوق صهوته. وفي هذه الصّورة طرافة من جهة وإشراق انفعالي من جهة أخرى." [2]

وصف أبو تمّام حصانه بالصّلف والتّلهوق، والصّلف عند العرب: الذي لا خير عنـــده، والتلهوق: مثل التملّق، فقد استعملها على مذهب العامة، وهو مخالف لما تستعمله العرب. [3]

وإنه من العجيب حقاً أن نرى شاعراً اهتم بجزالة اللغة يستخدم كلمة عامية، وقد نبرر له و نقول إن الشّاعر وقت النظم كان يعبّر عن مواقف معينة تلائمها ألفاظ محـــددة دون غيرهـــا؛ لأنّها الأقدر على إخراج ما بنفسه، وقد يؤدي وضع الألفاظ العامية داخل الكل إلى رفع مستواها في القصيدة إلى مستوى الجدة والغرابة والقوة[4] ولكنه أفرط في الجناس المصـــطنع والطبـــاق، كأنَّه الهدف دون الشعر مع الإغراب في الصّورة والمعنى[5]. أمّا قوله: حافر حفر، فليس باللفظ باللفظ الشريف، "إلا أن الطائي كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ، حتّى لو تمّ له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها." [6] وقال أيضاً:

قـــل للأميـــر أبـــي ســـعيد ذي النَّـــدى والمجـــــدِ زادَ الله فـــــي إكرامِـــــه
يا واهـــب العـــيسِ الهَمـــوسِ برَحْلِهـــا والأعـــــوجيّ بســـــرجه ولجامـــــه
والحامـــلَ الأقـــوامَ فـــوق سَـــلاهبٍ والحـــاكي الرّئْبـــالَ فـــي إقدامِـــهِ[7]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/415-416

([2]) كبّابه، وحيد: **الصّورة الفنية في شعر الطائيين**، ص 140.

وقيل بأنه مسروق من بيت امرئ القيس: متى ما ترق العين فيه تسفل وبيت امرئ القيس أصح معنى لأنه أراد أن العـــين إذا صعدت فيه صوبت إشفاقاً عليه من أن تصيبه...وأراد الطائي أن العين لا تتعلق به من انتقال لونه وإملاسه فأفرط ولم يصنع شيئاً." المرزباني: **الموشح**: ص284-285.

([3]) الآمدي: **الموازنة**، ج1، ص234- 235.

([4]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبو تمّام**، ص303-304.

([5]) الشكعة، مصطفى: **رحلة الشعر**، ص629-630.

([6]) ابن رشيق: **العمدة**، 1/132.

([7]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/245. سلاهب: الطويل من الخيل والناس. ابن منظور: **اللسان**، باب سلهب. الهموس: الخفيّ من الصوت والوطء والأكل. **اللسان**، باب همس.

وهكذا رسم لنا أبو تمّام صورة لحصانه، من خلال وصف شكله وجسمه، وجلده وشعره، وقوته وعزمه، فاستطعنا رؤيته بكل سهولة. وهذا يدل على شدّة حبه للخيل، ممّا جعله يبدِي تجاهها أرق المشاعر، ويظهر لها الاهتمّام والرفق، فصور رجاءه بها قائلاً:

تـــواتَرتْ نَكبَـــاتُ الـــدَّهْرِ ترشُـــقُني مِنْ كُلِّ صَـــائبةٍ عَـــنْ قَـــوْسِ غَضْـــبانِ
مَـــدَّتْ عِنَـــانَ رَجَـــائِي فاســـتَقَدْتُ لـــهُ حتّى رمَتْ بيَ في بَحْرِ ابـــن حَسَّـــانِ[1]

"فرجاؤه فرس ألجمته النكبات وأعاقته حيناً من الدهر إلى أن نسيته لحظة فمدت له العنان، فانطلق يهدي الشّاعر إلى هذا الممدوح، فكانت الفرس رمز الأمل والرجاء وقت محنته ونكبات الأيام له، ورمزاً للإرادة القوية من ناحية أخرى، إنه الرفيق والصاحب المعين الذي لا ينسى. [2]

ثانياً: الصّورة القائمة على اللون

أسهم أبو تمّام في إبراز مهمة اللغة في إحياء الفكر، من خلال اتحاد الألفاظ بعضها ببعض مع احتفاظ كل لون بصورته.

اللون الأبيض

استعان بالتصوير لإيجاد هذا المزج في الطباق، فالبياض عنده ليس ما تراه العين، وإنما ما تحسه الروح من ارتفاع المكانة[3] أو انخفاضها الذي يدل عليه بالسواد، فيقول:

ومـــا يَلحـــظ العَـــافي جَـــداك مُـــؤمِّلاً سِـــوَى لحظـــةٍ حتّـــى يَـــؤُوبَ مُـــؤَمَّلاً
لقد زدتَ أوضاحي امتـــداداً ولـــم أكـــنْ بَهيماً ولا أرضَـــى مـــن الأرضِ مَجْهَـــلاً
ولكـــن أيـــادٍ صـــادفتني جِســـامُها أغـــرَّ فأوفـــتْ بـــي أغـــرَّ محَجَّـــلاً[4]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 312/3.

([2]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص67.

([3]) سليطين، فيصل: **أبو تمّام** في دائرة الضوء، ط1، دمشق: دار الينابيع،2007، ص134- 135.

([4]) لأنهم يصفون الفرس إذا كان أبلق بالشهرة لكثرة أوضاحه، والعرب لا يحمدون البلق كحمدهم المحجلة ويؤكد ذلك البيت الثالث. أبو تمّام:**الديوان**، 3/99-100. وقيل إن هذا المعنى أخذه أبو تمّام من أبي نُخَيلة في مَسْلمة بن عبد الملك:

ونَوَّهْتَ لـــي باســـمي، ومـــا كـــان خـــاملاً ولكـــنَّ بعـــض الـــذكر أنْبـــه مـــن بعـــض

الآمدي: **الموازنة**، 97/1. فكلاهما عزا السبب في شهرته بين الناس إلى الممدوح.

يقول الشّاعر للممدوح رفعتني بين الناس وشهرتني لمّا أكرمتني، وقد وجدتني أغرَّ فزدتني حُجولاً[1].

اللون الأبيض وألوان أخرى

حين طلب أبو تمّام خيلاً، فإنه لا يرغب إلا بالموضّح الخالي من العيوب، ثم يتنازل قائلاً فليكن أي لون إلا الأشهب فهو لون فيه شبّهةٌ _ في نظره _ فهذا اللّون بالنسبة للعربيّ فيه ميوعة وعدم وضوح ونفاق، وهي صفات مكروهة عند العرب، يقول:

مُوَضَّحٌ ليس بذي رُجلةٍ أَشْأَمَ والأرْجُل منها بَسوسْ
وكلّ لونٍ فليكن ما خلا الـ أشهب فالشُّهبَةُ لونٌ لَبيسْ[2]

ومعظم الخيل تكون بُهماً على لون واحد، لذلك كانت الخيل الغرّ والأوضاح مميّزة مفضلة، وكذلك معظم الناس جهلاء، لذا تميّز الفضلاء الحكماء عليهم وهذا ما قاله أبو تمّام:

لو لم تصادفْ شِياتُ البُهمِ أكثرَ ما في الخيلِ لم تُحمدِ الأوضاحُ والغُرَرُ[3]

ثم يصف فرساً ركب عليها، فيقول:

وبشُعلةٍ نَبْذٍ كأنَّ قليلها في صَهوتيْه بَدْءُ شَيْب المَفْرِق
مُسْوَدُ شطرٍ مثل ما اسودَّ الدُّجى مُبْيَضُّ شطرٍ كابيضاضِ المُهْرَق
قد سالتْ الأوضاحُ سَيْل قرارةٍ فيه فمفْترِقٌ عليه ومُلتقِي
وكأنّ فارسه يُصرِّفُ إذْ بدا في مَتْنه ابناً للصَّباح الأبْلَق[4]

([1]) البهم في الخيل "هو كل ذي لون واحد لا شية فيه إلا الأشهب...والأبلق: ما يكون لونه أو ما قارب النصف أبيض والنصف الآخر أسود أو أحمر". النويري، **نهاية الأرب**، 10/5-6، ص11. البهم: الأسود وقيل الذي لا شية فيه، والبهيم: ما كان لوناً واحداً لا يخالطه غيره سواداً كان أو بياضاً. **اللسان**، باب بهم، والأوضاح: البياض وقيل بالفرس وضح: إذا كانت به شيَة. ابن منظور: **اللسان**، باب وضح. والأغر: البياض في الوجه. **اللسان**، باب غرر، والحجول: البياض في قوائم الفرس، أو في ثلاث منها، أو في رجليه قلّ أو كثُر. **اللسان**، حجل.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 277/2. والقصد بالعيب الرُجلة: بياض في إحدى رجلي الدابة، لا بياض به في موضع غير ذلك. ابن منظور: **اللسان**، باب رجل.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 187/2.

([4]) المصدر السابق، 2 / 411-415

وهذه الفرس يُخالط البياضُ شَعْرَها وذَنَبَها بصورة مستحبة، أمّا وجهها فيختلط فيه اللّونان الأبيض والأسود، وقد شبّه فارسها وهو على ظهرها بابن الصّباح الأبلق. [1]

وبياض صهوة فرسه لونٌ غير صافٍ لأنّ ذلك الموضع يُنحَتْ شَعْرُه بسبب وجود السَّرْج عليه، كما جعله أبو تمّام شعلة، والشعلة لا تكون إلا في الناصية والذنب[2] وهذه استعمالات لألفاظ على غير عادة العرب.

ويقول واصفاً فرسه:

كأنّني قد وَرَدْتُ ساحتَها بمُسْمِحٍ في قِيادِه سَلِسِ
أَحْمَرَ منها مِثلَ السَّبِيكةِ أو أحْوَى به كاللَّمَى أو اللَّعَسِ
أو أدْهَمٍ فيه كُمْتَةٌ أَمَمٌ كأنّه قِطعةٌ مِنَ الغَلَسِ [3]

فهي تزين الساحات بألوانها الجميلة، ففيها الأحمر والأدهم والأحوى الذي يزيدها جمالاً فيُعجب بها من يراها. [4]

اللون الأبيض والأسود

يقابل أبو تمّام بين اللونين الأبيض والأسود في موضع آخر، فيقول:

لو كان في الدنيا قبيلٌ آخرٌ بإزائهم ما كان فيهم مُصرمُ
ولأنتَ أوضحُ فيهم من غُرَّةٍ شَدَختْ وفاز بها الجوادُ الأدهمُ [5]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 411-415.

([2]) الآمدي: **الموازنة**، 1 / 238-239.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 235 -236. الأحوى: الكُميْت الذي يعلوه سواد. ابن منظور: **اللسان**، باب حوا. اللمى واللعس سواد اللثة: **اللسان**، باب لما، باب لعس، وجعله أبو تمّام في ألوان الخيل.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 235 -236.

([5]) المصدر السابق، 3 / 216. المصرم: قليل المال. ابن منظور: **اللسان**، باب صرم، شدخت الغرة: اتسعت في الوجه. **اللسان**، باب شدخ. فالأدهم هو الأسود من الخيل. **اللسان**، باب دهم.

جعل القوم كالأدهم والممدوح غرة فيهم[1]، فمكانة الممدوح عالية بينهم، وقد أراد الشّاعر إبرازه، فجعلهم كحصان أسود والممدوح قطعةٌ من البياض في وجهه؛ وهكذا استخدم أبو تمّام اللّون لإعلاء مكانة الممدوح من خلال الألفاظ الّتي تسعف مراده بشكل موفق.

وقد استخدم الممدوح الخيل البهم في حربه فقال أبو تمّام:

قد كان يعلمُ إذ لاقى الحِمام ضُحىً لا طالباً وَزَراً منه ولا وحَجَا
أن سوف تُهْدِي إلى آثارِهِ بُهُماً يُمسي الرَّدى مُسْرياً فيها مُدَّلِجَا[2]

فقد علم المقتول أنك ستأخذ بثأره مرسلاً جيشاً من الفرسان بخيولهم الّتي يماثل لونها لون الليل، فاستسلم للموت مع قدرته على النجاة. [3]

وإذا كان للعَدْو أثر في رسم الصّورة عند أبي تمّام، فلون الخيل أيضاً كان له أثر في إبراز صور فنية غاية في الدّقة والجمال، فالخيل البُلْق الّتي في بطنها بياض عندما تعدو ينكشف هذا البياض ثم يختفي، فكان عند الشّعراء كظهور البرق واختفائه، فعندما تركض إناث الخيل مبتعدة عن ذكورها، يظهر بياض بطنها ثم يختفي كالبرق، يقول:

سُكُورٌ وتَجْلِي عن عَرانين مُزْنِه دُجًى مُدلهمَّاتِ الظَّلام صَبِيرُ
صَبيرُ كَرَمْحِ الخيلِ طافتْ بقُودِها أجفَلْنَ السِّمامِ ذكورُ[4]

يذكر أبو عبد الله أن الوصف لم يتم لأن أبا تمّام لم يذكر بلق الخيل، وتمّام الوصف إنما يكون بذكره البلق. [5]

وفي مدح علي بن جهم القرشي يذكر أن نسب الأدب هو ما يجمع بينهما، وليس نسب الأب:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 / 216.

([2]) المصدر السابق، 1 / 338– 339. حجا: ملجأ. ابن منظور: **اللسان**، باب حجا، مسرياً: سير الليل عامّته، **اللسان**، باب سرا، مدلجا: السير في آخر الليل، سير السَّحَر وقيل: سير الليل كله. **اللسان**، باب دلج، بُهم: الفارس الذي لا يدري كيف يُؤتى له من شدّة بأسه. **اللسان**، باب بهم.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 338– 339.

([4]) المصدر السابق، 4 / 659. القود: طول العنق. **اللسان**، باب قود.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 4 / 659.

لــو كنــتَ طرْفــاً كنــتَ غيــرَ مُــدافعٍ للأشْــــقَرِ الجَعْــــديِّ أو للذَّائــــدِ[1]

والأشقر فرس لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن العاص، سمي بمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم، وكان قتله يوم عيد، ويقال إنّ أشقره من نسل الذائد وهو فرس عند هشام بن عبد الملك، كان قد كَبُر وبان فيه العجز والتقصير. [2]

ومما نرئاه نجد أن أبا تمّام أبدع في استخدام اللون لإبراز ما أراد من صفات الخيل أو مكانتها ومكانة ممدوحه، بل ارتبط لديه اللون الأبيض بعلو المكانــة والجمــال والتميُّــز عــن الآخرين، أمّا اللّون الأسود فارتبط بالجمال مرةً وبالقوة والمــوت والجبــروت مــرةً أخــرى، وبانخفاض المكانة مراتٍ أخرى، فاستخدم دلالات الألوان ليعبّر عن أفكاره ومضمونها.

الخيل في قصيدة الفخر

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

الفخر: "هو المدح نفسه، إلا أنّ الشّاعر يخصّ نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن فــي الافتخار، وكل ما قبح فيه، قبح في الافتخار." [3] وفخر أبي تمّام الخالص قليــل وأكثــره فــي طيْء[4].

الفخر بالنفس

ومن أشعاره في الفخر بنفسه متحدياً عدوه فيقول:

سَــــــيَبْتَعِثُ الرِّكــــــاب وراكبيهــــــا فتــــىً كالسَّــــيْفِ هجعَتُــــهُ غِــــرَارُ[5]

ويقول:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 402.

([2]) المصدر السابق، 1 / 402.

([3]) ابن رشيق: **العمدة**، 2 / 143.

([4]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص123.

([5]) في البيت نحو من التورية لذكره السيف ثم الغرار، والسيف له غرار، فهذا المعنى الذي قصده الطــائي، أبــو تمّــام: **الديوان**، 2 / 155. والغرار النوم القليل، وغرار: حد السيف والرمح والسهم.**اللسان**، باب غرر.

خُطـــوبٌ إذا لاقيْـــتهنَّ رَددْنَنـــي جريحـــاً كـــأنَّي لقيـــتُ الكَتائبـــا[1]

ونرى هنا رجلاً مجاهداً جريحاً من مصائب الزمان، ولكنه لا يكترث لذلك، فكـل مـا يريده هو المجد والنّصر، وكأنه يتحدّى الدهر ويقول له: هل من مزيد؟! وتظهر الأنا واضـحة بشكلها النموذجي، فالأنا عند أبي تمّام صلبة جلدة شجاعة مغـامرة عارفـة بالمسـالك خبيـرة بالمخاطر مقارعة للدهر متحدّية له[2]

الخيل في الحرب

والخيل تعين في المعركة، فهي تساعد الأبطال على القتال، يقول:

إذا الخيلُ جابت قَسْطَلَ الحربِ صَـدَّعُوا صُدُورَ العوالي في صـدور الكتائـبِ [3]

فالفرسان على ظهور خيلهم يطعنون العدوّ بالرّماح حتّى يكسروها في صدورهم. [4]

والخيل كفارسها لا تخشى شيئاً بل ترتمي في أحضان الجحيم في سبيل طـرد العـدوّ وملاحقته:

وفي أرْشَقِ الهَيْجَـاءِ والخَيـلُ تَرْتمـي بأبطالهـا فـي جَـاحِمٍ مُتَوقِّـد
عطَطْتَ على رَغْـمِ العـدا عـزمَ بابـكٍ بصـبرِك عَـطَّ الأتْحَمِـيِّ المُعَضَّـدِ[5]

فالشّاعر كشف عن بطولة ممدوحه (أبي سعيد الطائي)، وهي بطولةٌ تستحق الإعجـاب وتنتزع الإكبار حتّى يكاد البطش يكون مقبولاً ما دام موجهاً ضد الأعداء، فسرد الشّاعر للوقائع يوهم القارئ بأن الأحداث وقعت كما وصفها هو، على نحو يجعل البطل كائناً خارقاً ليصبح مثلاً أعلى للأمة[6].

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 140

([2]) الواد، حسين: **اللغة الشعر في ديوان أبي تمّام**، ص 96.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 207.

([4]) المصدر السابق، 1 / 207.

([5]) المصدر السابق، 2 / 26. عطَّ: شقَّ. ابن منظور: **اللسان**، باب غضرفط من عطط. الأتحمي: ضرب مـن البـرود. **اللسان**، باب تحم. المعضد: المخطط على شكل العضد. **اللسان**، باب عضد.

([6]) الواد، حسين: **اللغة الشعر في ديوان أبي تمّام**، ص 111.

واستعان الشّاعر بالرّموز الإسلامية وضمنها في شعره، فإذا كانت الحرب للمسلم رمزاً للطريق إلى الجنة فالحرب للمشرك رمزٌ للطّريق إلى الجحيم[1] ولا يخفى على قارئ هذه الأبيات ما في ألفاظها من فخامة وقوة في التركيب، فتخيّر اللفظة وحاكَ حولها أقوالاً استعارها من قوى الطّبيعة كالنّار والحرب، ثم حَبَكها بحكمةٍ عُرفَ بها. [2]

وارتبطت هذه الخيل القوية بغمامة الموت؛ لأنها لقوتها في الجري توصلك إلى مرادك، وتنيلك من عدوك فتفخر ؛ لكونها معك و تساندك، يقول:

وربَّ يومٍ كأيَّامٍ تركْتَ به ... متنَ القناةِ ومتنَ القِرْنِ مُنْقصفاً
أزَرْتَ آبْرَشَتَويماً والقنا قِصَدٌ ... غيابةَ الموت المُقَوَّرَةَ الشُّسُفا
لمَّا رأوْك وإيّاهم مُلَمْلَمَةً ... يَظلُّ منها جَبينُ الدّهر منكسفاً[3]

ويقول:

إذا سِيلَ سُدَّ العُذْرُ عن صُلْب ماله ... وإن همَّ لم تُسْدَرْ عليه المسالكُ
ركوبٌ لأثباجِ المتالفِ عَالِمٌ ... بأنّ المَعَالِي دونهنَّ المَهَالكُ[4]

يفخر بكونه فارساً يركب فرسه ويخوض غمار الحرب ولا يرى أمّامه سوى النّصر والعلا.

الخيل السابقة

ثم يفخر بخيله في حلبات السّباق، فيقول:

بُدُورٌ قُيُولٌ لم تَزَلْ كلُّ حَلْبةٍ ... تمزّقُ منهم عن أغرَّ مُجبَّب[5]

([1]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص 150.

([2]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص 117-118.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 371. أزرت: أزاره: حمله على الزيارة. ابن منظور: **اللسان**، باب زور، الغيابة: غيابة كل شيء: قَعرُه، والغيابة من الأرض: الهَبْطة منها. **اللسان**، باب غيب، والشسف: القاحل الضامر، اليابس من الضُّمْر والهزال، **اللسان**، باب شسف. ململمة: مجتمعة. **اللسان**، باب لمم. المقورة: الخيل الضامرة. **اللسان**، باب قور. وتكون من صفات السمين وهو من الأضداد. أبو تمّام: **الديوان**، 2 /371

([4]) أبو تمّام: **الديوان** ، 2 / 460. الأثباج: ثبج كلِّ شيء: معظمه ووسطه وأعلاه. **اللسان**، باب ثبج

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 154. والمجبب من الخيل الذي بلغ تحجيله ركبتيه.**اللسان**، باب جبب. الحَلْبة: خيلٌ تُجمع للسباق من كل أوب، لا تخرج من موضع واحد. **اللسان**، باب حلب.

فهؤلاء ينزلون بالحَلْبة بخيول أصيلة[1].

وقال يفخر بقومه وقد شبّههم بالخيل الّتي تبلغ الهدف، فيضع رهانه عليها:

لِيُـــنْجِحْ بِجُـــود مـــن أرادَ فإنَّـــه عَوَانٌ لهـذا النّـاسِ وهْـوَ لنـا بِكْـرُ
جرى حاتمٌ من حَلْبــةٍ منــه لــو جَــرَى بها القَطْرُ شَأواً قيــل أيُّهمــا القَطْــرُ [2]

وقال فيهم:

إذا ما أغــارُوا فــاحتَوَوْا مــالَ مَعْشَــرٍ أغــارَتْ علــيهم فاحتَوتْــه الصّــنائعُ
فتُعطي الــذي تُعطِــيهم الخيــلُ والقنــا أكُـــفٌّ لإرْثِ المكْرُمـــاتِ مَوانِـــعُ[3]

فهم كرماء، ذوو حسب ونسب، يصونون مكارم الأخلاق، ولكنَّهم إذا ما جَدَّ الجدّ ركبوا الخيل وشقوا غمار الحرب. [4]

ويقول فيهم:

وكنـــتَ عَوْنـــاً إذا دَهـــرٌ تَخَوَّنَنـــا عَيْنـــاً علينـــا فأنـــتَ العَـــوْنُ بـــالعَيْنِ
إنَّ الجيـــادَ علـــى عِلاَّتهـــا صُـــبُرُ ما إنْ تَشَكَّى الوَجا فـــي حالـــةِ الأيـــنِ[5]

فيتفاخر بكونهم مثل الجياد من الخيل، يصبرون على ما هم فيه ولا يشتكون، كما تصبر الجياد المصابة بالإعياء، فلا تشتكي ما بها من تعب وعناء. [6]

ويقول:

قـــومٌ إذا جلبـــوا الجيـــاد إلـــى الـــوغى أيقنـــتَ أنّ السّـــوقَ سُـــوقُ ضِـــرابِ[7]

([1]) وَضَحُ القوائم (بياضها) يُقال له الخاتَم، الإنعال، التَّخديم، الصَّبَغ، والتّحبيب، والمُسَرول، والأخرج والتسريح وهي على درجات أمّا التجبيب إذا بلغ الركبتين والعرقوبين. النويري، شهاب الدين: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، 10 / 14 – 16، وقد قال الرسول عليه السلام: "... عليكم بكل كُمَيْتٍ أغَرَّ محجل..." المصدر السابق، 9 / 362

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 4 / 574. شأو: الطلق والغاية.**اللسان**، باب شأي.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 4 / 588 –589.

([4]) المصدر السابق، 4 / 588 –589.

([5]) المصدر السابق، 3/ 341.

([6]) المصدر السابق، 3/ 341. ينظر: ابن المستوفى: **النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمّام**، ط1، تح: خلـف رشـيد نعمان، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، 2 / 341.

([7]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 79.

ويقول:

كُمــاةٌ إذا تُــدْعى نَــزَالِ لــدى الــوَغى رأيْــتَهُمُ رَجْلَــى كــأنَّهم رَكْــبُ[1]

فالقوم لشجاعتهم قد ينزلون عن خيولهم ليحاربوا العدوّ على أرجلهم[2]. و يفخر أيضــاً بالممدوح الذي انقطع عن الأهل والعشيرة ليذهب بخيله إلى أرض المعركة واثقاً بالله، فيقول:

وقــد كانــت الأرمــاحُ أبصــرنَ قلبَــهُ فأرمَــدَها ســتر القضــاء المُمَــدَّدِ
ومُوقــان كانــت دار هِجرتــه فقــد تورّدَتْهــا بالخيــل أيَّ تــوَرُّدِ[3]

وعندما مدح حصاناً ركبه، بالغ في وصف سرعته، فكان سريعاً يمرُّ بالمكــان كلمــح البصر، ولشدّة سرعته، فإنّه يقطع في ليلةٍ ما يقطعه غيره في خمسة أيام، وهو كذلك منذ كــان مهراً، فقد كانت سرعته تتعدى الرّبع والسّدس، يقول:

لــيس بَــديعاً منــه ولا عَجبــاً أنْ يَطْــرُقَ المــاء وِردُه خِمْــسُ
يَتــرُكُ مــا مَــرَّ مُــذ قُبيْــلُ بــه كــأنّ أدنــى عهــدٍ بــه الأمْــسُ[4]

وهذه من مبالغاته العذبة الّتي يُظهر فيها اقتناصه للمعاني الشّاردة ليكشف عن ســرعة حصانه الذي تغلب على الزمن[5].

أوصاف الخيل

أظهر الطّائي مشاعر الإعجاب الخالص بالخيل القوية الّتي تجعلك تفتخر بامتلاكها وهي تشقُّ أرض الوغى دون وجلٍ، وتساعد في تحقيق النّصر. فأبرز مواصفاتها ؛ مفتخراً بامتلاكها، معجباً بها، والمتأمل في هذه الصّورة الفريدة سيعِدّ أبا تمّام من وصّافِي الخيل[6]، يقول:

نِعــم مَتــاعُ الــدُّنيا حَبــاك بــه أروعُ لا جَيْــدَرٌ ولا جِــبْسُ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 192 – 193. رجلى: عدم المركوب، ورُجّلة: المشي راجلاً.**اللسان**، باب رجل.
([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 192 – 193.
([3]) المصدر السابق، 2 / 26.
([4]) المصدر السابق، 227/2
([5]) شلبي، سعد إسماعيل: **مقدمة القصيدة عند أبي تمّام والمتنبي**، مكتبة غريب، ص75–76
([6]) المصدر السابق، ص75.

هادِيـــهِ جِـــذْعٌ مـــن الأراك ومـــا خَلْـــفَ الصَّـــلا منْـــه صَـــخْرةٌ جَلْـــسُ
هُـــذِّبَ فـــي جِنْســـهِ ونـــال المَـــدَى بنفســـه فهـــو وَحْـــده جِـــنْسُ
حَـــرَزَ آبـــاؤُه الفصـــيلة مُـــذ تَفَرَّسَـــت فـــي عُرُوقهـــا الفُـــرْسُ
وهـــو إذا مـــا ناجـــاه فارسُـــه يَفهـــم عنْـــه مـــا يَفهـــم الإنْـــسُ
وهـــو إذا مـــا رَمـــى بِمقلتِـــه كانـــت سُـــخَأمّا كأنهـــا نِقْـــسُ
وهـــو إذا مـــا أعَـــرْتَ غُرَّتَـــه عَيْنيـــكَ لاحـــتْ كأنّهـــا بِـــرْسُ
كـــلُّ ثمـــينٍ مـــن الثَّـــوابِ بـــه غيـــرُ ثَنـــائي فإنّـــه بَخْـــسُ
شَـــذّبَ هَمّـــي بـــه صـــقيلٌ منـــا الفتيـــان أقطـــارُ عِرْضِـــهِ مُلْـــسُ
ســـامي القَـــذَاليْنِ والجَبـــين إذا نَكَّـــسَ مـــن لـــؤْم فِعْلـــه الـــنِّكْسُ[1]

يتحدث أبو تمّام عن الغاية الممتعة، ثم يظهر الوسيلة للوصول إليها وهي الحصان، وقد بيّن أبو تمّام صفاته الكاملة من أجل الوصول إلى غايته المنشودة أو ممدوحه الذي يرمز للإنسان الكامل[2] فهو ليس قاصراً ولا خاملاً، طويل العنق كجذع نخلةٍ أملس، أمّا كتفيه فهما كصخرة صلبة ثقيلة، وهو كريم الجنس حتّى صار بنفسه جنساً تُنسب إليه الخيل، فقد اعْتُنِيَ بآبائه حتّى جاؤوا بمثله، أملس الجسم دلالة على سلامته من القروح والسَّلَع، لذلك مهما ألبسته من ثمين الثّياب كان قاصراً عما يستحقه هذا الفرس إلا أن الشّاعر أعطاه ما يستحق بالثّناء عليه وذكر صفاته العظيمة. [3]

لقد خلع أبو تمّام على حصانه صفات إنسانية، فجعله صديقاً له يناجيه، فيفهم أحدهما الآخر، فارتقى به إلى عالم الإنسان[4]. وقد أنكر أبو العباس أحمد بن عبيد الله قول أبي تمّام:

هادِيـــهِ جِـــذْعٌ مـــن الأراكِ ومـــا خَلْفَ الصّـــلا منْـــه صَـــخْرةٌ جَلْـــسُ[5]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 225 – 230.

([2]) علي، أسعد: **الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمّام**، ط2، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1 / 94–95.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 225/2–230.

([4]) شلبي، سعد إسماعيل: **مقدمة القصيدة عند أبي تمّام والمتنبي**، ص76.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 226.

لتشبيهه عنق الفرس بالجذع، وخالفه في ذلك الآمدي قائلاً: "وأخطأ أبو العباس في إنكاره على أبي تمّام أنْ شبّه عُنُق الفرس بالجذع، وتلك عادة العرب، وهو في أشعارها أكثر من أن يحصى[1]

وقد استخدم أبو تمّام كلمات هي في الأصل للخيل ولكن المجاز نقلها لتفيد معنى جديداً، كقوله:

لي من أبي جعفرٍ آخِيَّةٌ سببٌ إنْ تبقَ يُطلبْ إلى معروفيَ السّببُ[2]

فكلمة (آخيَّة) في الأصل دفن حبل في التراب وإخراج عروة منه يُشدّ فيها الفرس، ثم تطور المعنى، فقالوا: لي عنده آخِيَّة أي شيء أعتمد عليه من ود وخدمة، وقد وصل تطور المعنى ليصبح ما حول البناء، والمعنى:" إن بقيت لي هذه الآخيَّة فإني أستغني حتّى أفضل على الناس فيتوسل إليّ بوسائل "[3]

وأبو تمّام يحبُّ ثلاثاً: العطاء الفوري من الممدوح، والشعر، والمطايا، فهو لا يريد أملاكاً أو ضيعاً[4]، بل يراها خيراً من أيَ عقارٍ يمتلكه، يقول:

فدَع ذكرَ الضِّياعِ فبي شِماشٌ إذا ذُكِرَتْ و بي عنها نِفَارُ
وما لي ضيعةٌ إلا المطايا وشِعْرٌ لا يُباعُ ولا يُعارُ
وما أنا والعقارُ ولستُ منه على ثِقَةٍ وجُودُكَ لي عقارُ[5]

وفي باب العطاء والنماء، يصف غزارة المطر بالإبل غزيرة اللّبن، والجياد المُقْربة من بيوت أصحابها لكرمهم يقول:

ومِنْ دَواءٍ سَنَةَ جَمادِ وحَلَبتْ مِنْ رُوقِهِ العَتادِ
مِنَ القِلاصِ الخُورِ والجِلادِ والمُقْرَباتِ الضُّفُنِ الجِيادِ[6]

([1]) الآمدي: **الموازنة**، 1/ 137.
([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 243.
([3]) المصدر السابق، 1/ 243.
([4]) المصدر السابق: 2/ 160
([5]) المصدر السابق: 2/ 160.
([6]) المصدر السابق، 4/ 513.

وقوله:

وأرى الصّحيفةّ قد علَتْها فترةٌ فتَرتْ لها الأرواحُ في الأجسامِ
إنّ الجيادَ إذا علَتْها صَنْعةٌ راقتْ ذوي الألبابِ والإفهامِ[1]

والخيل بجمالها وشجاعتها تعجب الفرسان وكان امتلاكها نعمة من النّعم الّتي يفخرون بها:

لو أنَّ أعمارَنا تُطَاوِعُنا شَاطَرَه العُمْرُ سادَةُ اليَمَن
إن بقاءَ الجَوادِ أحمدَ في أعناقِنَا منَّةٌ من المِنَنِ[2]

شبّه بقاء الممدوح بصحة جيدة مثل الحصول على خيل جميلة قوية، وفي هذه الصّورة إعلاء لمكانة الخيل والرّغبة الشّديدة في امتلاكها حين قارنها بالصّحة الجيدة. ولا بدَّ أنّه أراد الإيحاء بشعور البهجة والإشراق الذي يصاحب رؤية مجموعة من الخيول الأصيلة الجميلة، فربط بينها وبين الصّحة والكرم والعطاء.

ومن هنا تظهر الحركة واضحةً في صورة خيل أبي تمّام ومعظمها خلال حربه مع أعدائه، فحركتها قوية تثير الإعجاب، وإقدامها في المعركة نحو النّصر أمر يثير فخر صاحبها، وقد ظهر ذلك باستخدام التّراكيب و التّعابير الجميلة الّتي تنقل للقارئ ما يدور في نفسه.

ثانياً: الصّورة القائمة على اللّون

إنَّ عبقرية أبي تمّام في إبراز فخره جعلت صورته غنية، فتداخل فيها عنصرا الحركة واللّون، فاقترب بها من الصّورة المثالية.

اللون الأصفر

يقول مفتخراً بحصانه الذي يملكه:

أصفرُ منْه كأنّه مُحَّةُ البيضةِ صَافٍ كأنّه عَجْسُ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 281/3.
([2]) المصدر السابق، 3/ 315.

ضُـــمِّخَ مـــن لونـــه فجـــاء كـــأنْ قـــد كَسَـــفَتْ فـــي أديمـــه الشّـــمسُ
يكـــادُ يَجـــري الجـــادِيُّ مـــن مـــاء عِطفَيْهِ ويُجْنَى مـــن متْنِـــهِ الـــوَرْسُ[1]

فهو أصفر فاقع صافٍ اللّون كالقوس المصقول، ومن شدّة جمال لونه ترى الشّمس كأنّما كسَفت جلده–لأنها توصف بشدّة الاصفرار في الكسوف _ أمّا عَرَقُه في أثناء الجـري فأصـفر كالزعفران[2]

ولا شكَّ في أنّ اللون الأصفر يعكس المعنى المشرق الذي تحمله نفس أبي تمّـام، فقـد قرن الصّفرة بعطاء الممدوح، بل حدد طبيعة اللّون فهو في صفائه كمحّة البيضـة ثـم بلـون الشمس، ولا يَخْفى علينا التشابه اللّوني والشّكلي بينهما، بل أكد على هذا الصّفاء اللّوني بأن جعل عرقه أصفر اللّون. [3]

اللون الأحمر

وفي باب العطاء تكون الخيل رمزاً للكرم والجود، يقول:

والخيـــلُ تستســـقي الرّمـــاح نُحورَهـــا مُسْـــتَكرَهاً كُعُصَـــارةِ الفِرْصَـــادِ
لـــم أبْـــقِ حَلْبَـــةَ مَنْطـــقٍ إلا وقـــد ســـبقَت ســـوابِقَها إليـــك جيـــادي
أبقـــيْنَ فـــي أعنـــاق جُـــودِك جَـــوْهراً أبقـــى مـــن الأطـــواق فـــي الأجيـــادِ
ومـــن العجائِـــبِ شـــاعرٌ قَعَـــدتْ بـــهِ هِمَّاتُـــه أو ضـــاعَ عنـــدَ جـــواد[4]

والشّاعر يفتخر بامتلاكه خيل سابقةٌ، تواجه الرّماح بنحورها لاتخشى شيئاً، كصـاحبها ذي العطاء الباقي بقاء الطّوق في الأجياد، فرجل كهذا يستحقّ الشّكر والعطاء على فعاله. وقـد كرّر أبو تمّام ألواناً عديدة منها اللّون الأصفر و الأحمر الذي أتى به، حـين شـبّهه بعصـارة الفرصاد[5] فكان لّلون الأحمر دلالته المرتبطة بالدّم والقتل والحرب.

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 225 – 228.

([2]) المصدر السابق، 2/ 225 – 228.

([3]) كبّابه، وحيد: **الصّورة الفنية في شعر الطائيّيْن**، ص 111.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 130–131.الفرصاد: الحُمرة، عصارة العنب أو التوت، وقيل حمله وهو الأحمر منه. **اللسان**، باب فرصد.

([5]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص186.

اللون الأبيض

وفي موضع آخر يقول:

أولـــى المـــديحِ بـــأَنْ يكـــونَ مُهـــذَّباً مـــا كـــان منـــه فـــي أغـــرَّ مُهـــذَّبِ[1]

يقصد الفرس، فأفضل المديح يكون فيها بلونها الأبيض الذي يزيدها إشراقاً وجمالاً.

فارتبط اللّون الأبيض بالصّفاء والنّقاء، ويُظهر ذلك أنّ اللّون عند أبـــي تمّـــام يعكـــس مشاعره وما تحمله نفسه من عواطف جيّاشة، فينقلها لنا بتراكيب تزيد فكرته إقناعاً.

الخيل في قصيدة الرثاء

رثاء أبي تمّام أقل تكلفاً من مدحه وأرق عاطفة، فنراه القاسي الجبار علـــى الخطـــوب، رقيق الإحساس، لا يفقد صوابه عند المصائب، وربما يبالغ في استعاراته وكناياته كما نراه يفعل في المدح، يُحافظ على هدوئه حتّى يستطيع طرق الأغراض المختلفة. [2] واستطاع برثائه تخليد تخليد ذكرى المرثي بصورهِ و ألفاظه الرقيقة الفخمة، فلما سمع أبو دلف العجلي قصيدة أبي تمّام (كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر)، قال: "والله وددت أنها فيّ، فقال أبو تمّام: بل أفـــدي الأميـــر بنفسي وأهلي، وأكون المقدّم، فقال: بل إنه لم يمت من رُثي بهذا الشعر" [3]

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

بعد غياب الممدوح

شغل الممدوح الناسَ في حياته، وملأها حركةً وجهاداً، وكثيراً ما أعدّ الجيش وعتاده خير إعداد، وأكسب ذلك الجيش هيبةً وقوةً لكونه قائداً له، ولكن بعد وفاته ترك فراغاً كبيـــراً عنـــد الجميع، فلا خير يرجى بعده، فقال يرثي عُمير بن الوليد:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 106.

([2]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص 125.

([3]) المصدر السابق، ص 125.

رأيـــتُ مُؤَمِّليـــكَ غَـــدَتْ علـــيهم عَـــوَادٍ أصـــعَدتْهُمْ فـــي كُـــؤُودِ
وكُلُّهـــم أعَـــدَّ اليـــأسَ وَقْفـــاً عليـــكَ ونـــصَّ راحلـــةَ القُعُـــودِ[1]

ومن روائع صوره في رثاء خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، قوله:

علـــى أيِّ عِـــرْنينِ غُلْبِنـــا ومـــارِنِ وأيَّـــةُ كَـــفٍّ فارقتنـــا وســـاعدِ
كأنَّـــا فقـــدْنا ألـــفَ ألـــفَ مُـــدجَّجٍ علـــى ألـــفِ ألـــفِ مُقـــرَبٍ لا مُباعَـــد
فيـــا وحشـــةَ الـــدُّنيا وكانـــت أنيسَـــةً ووحـــدَةَ مـــن فيهـــا لِمَصْـــرع واحـــدِ
مضَتْ خُيلاءُ الخيلِ وانصـــرفَ الـــرَّدى بـــأنفَسِ نَفْـــسٍ مِـــنْ مَعَـــدٍّ ووالـــد[2]

ففقدانه كفقد الآلاف من الفرسان على آلاف الخيول، فقد ترك غيابه فراغاً، ووحشة حتّى أنّ الخيل أحسّت بالذل بعدما أخذ الموت النفيس الغالي.

وفي رثاء عمير بن الوليد:

فيـــا بحـــر المنـــونِ ذهبـــتَ منـــه ببحر الجُـــودِ فـــي السَّـــنةِ الصَّـــلودِ[3]

أضحت الحياة بلا معنى، وأمّا السنوات فسنوات قحط وبؤس بعد أن غاب عنهـــا ابـــن الوليد، فقد شبّه السنة قليلة المطر بفرس صلود، وهذا دليل على الكرم والجود الذي عاشه أبـــو تمّام في ظلّ المرثي، وبرحيله رحل الهناء والسرور.

ثم تغنّى الشّاعر بأعمال المرثي في حياته، فكان القادر على أمور لا يستطيعها إلا هو، فمن إبداعه في رثاء إسحاق بن أبي رِبْعيّ، قوله:

كـــم حاجـــةٍ صـــارتْ رَكوبـــاً بـــه ولـــم تكـــنْ مـــن قبلـــه بـــالرّكوبِ

فالمرثي كان " يسهّل الحاجة الصعبة حتّى تلين وتركب "[4] فشبّه الحاجة بفرس حـــرون لم يستطع أحد ركوبها، ولكن المرثي تمكن منها في حياته.

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 59.

([2]) المصدر السابق، 4/ 69. المقرب من الخيل: الّتي تكون قريبة مُعدّة، الّتي تُدْنى وتُقرَّب وتُكرَم، وقيل: الّتي أُضْـمِرَت للركوب. **اللسان**، باب قرب.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 56. يُقال فرس صلود إذا كان بطيء العرق، وهو مذموم. **اللسان**، باب صلد.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 48. والركب قد يكون للخيل والإبل، وهي في الأصل للإبل ثم اتسع المعنى فأطلق على كل من ركب دابة، والركوب: هو ما يركب من كل دابة. **اللسان**، باب ركب.

ويتغنّى أيضاً بأعمال خالد الشيباني، فيرثيه قائلاً:

فَمَـــدَّ علـــى الثَّغْـــرِ إعصَـــارَها بِـــرَأْيِ حُسَـــامٍ ونَفْـــسٍ فَضَـــاءِ[1]

فقد كان يغزو بخيل تثير العجاج، وسيف قاطع، ونفسٍ فضاء، وهو معنى مـــا عُلِـــم أن أحداً قبله قاله (نفس فضاء)، "وكان هذا الفنُّ من الكلام غرضَه ودأْبه".[2]

خيل الحرب الضامرة

لم يجلب الشيباني إلى معاركه إلا الضامرة من الخيل، يقول:

ألـــــم يَـــــكُ أقـــــتَلَهُم للأُسُـــــودِ صَـــــبْراً و أوهَـــــبَهُمْ للظِّبـــــاءِ؟!
ألـــم يجلـــبِ الخيـــلَ مـــن بابـــلٍ شـــوازِبَ مثـــلَ قِـــدَاحِ السَّـــرَاءِ؟![3]

فهو من العظماء الذين لهم فضلٌ على الأمة بأفعالهم الكريمة وجهـــادهم المشـــرّف،وهو ممن يكرمون الخيل، يقول:

عليـــه دليـــلٌ مـــن يزيـــد وخالـــدِ ونُـــورانِ لاحَـــا مـــن نِجـــارٍ وشـــاهدِ
من المكرِمينَ الخيلَ فـيهم ولـم يكـنْ ليُكرِمَهـــا إلا كِـــرَامُ المحَاتـــدِ
أخُـــو الحـــربِ يكسُـــوها نَجيعـــاً كأنَّمـــا متونُ رُباهـــا منـــه مثـــلُ المجَاسِـــدِ[4]

فمن يُكرم خيله يكون من كبار القوم وأكرمهم، فتردّ الخيل على كرمهم بتمكيـــنهم فـــي المعركة.

وقد يكبر الناس بشخص فيكره أحدهم ذلك فيتسبب بمقتله، فيرثيه أبو تمّام قائلاً:

فتًى كان عذبَ الرُّوحِ لا مِـــنْ غَضاضَـــةٍ ولكـــنّ كِبْـــراً أن يُقـــال بـــه كِبْـــرُ
فتًى ســـلبَتْه الخيـــلُ وهـــو حِمًـــى لهـــا وبزّتهُ نارُ الحرب وهـــو لهـــا حَمْـــرُ[5]

([1]) تروى أعضادها: أي أعضاد الخيل، أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 17. والعضد: الساعد ما بين المرفق إلى الكتفين. **اللسان**، باب عضد.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 17

([3]) المصدر السابق، 4/ 15-16. السراء: شجر تُتَّخذ منه القسي. **اللسان**، باب سرا.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 72.

([5]) المصدر السابق، 4/ 82- 83.

والخيل تشبّه الكلب في وفائها،إن غاب عنها فارسها فإنها لا تنسى أيامها معه بالرغم من الخطر الذي كان محدقاً بهما، يقول:

إنْ طالَ يومُك في الــوغى فلقــد تُــرَى فيـــه ويـــومُ الهـــامِ منـــك طويـــلُ
فستذكُرُ الخيلُ انْصِــلاتك فـــي السُّــرى والقفُــر معــروفُ الــرَّدَى مجهــولُ[1]

رثاء أبي تمّام يعكس عاطفةً نابعةً من قلبه، تملؤها اللوعة والأسى[2]، فأمسك الممــدوح وشريكه بعنان النّفس في طيشها ونزقها، وتمكّنا منها حتّى غاب الشريك، وترك فراغاً لا يملؤه سواه، فشبّه النّفس البشرية بالدّابة الجموح الّتي تحتاج شخصين يتناوبان مراقبتهــا والإمســاك بعنانها حتّى تسير منضبطة وفق القوانين [3]، يقول:

وكانـــا جميعـــاً شـــريكيْ عِنـــانِ رضـــيعيْ لِبـــانٍ خليلـــيْ صَـــفاءِ
علـــى خالـــدِ بـــن يزيـــد بـــن مَـــز يـــدِ أمْـــرِ دُموعـــاً نجيعـــاً بمـــاء[4]

نرى ممّا سبق أنّ عنصر الحركة في صورة الخيل في قصيدة الرثاء يتمحــور حــول أرض المعركة وقتال المرثي إلى جانب خيله العزيزة الّتي لا تفارقه، وإن فارقته فهي حزينة لا تنسى أيامها معه، برحيله ترحل الحياة، وتغيب النعم.

ثانياً: الصّورة القائمة على اللون

استعان أبو تمّام باللون لإظهار عناصر الصّورة لخيله فقال:

أصـــبحتْ روضـــةُ الشّـــبابِ هَشـــيماً وغَـــدت ريحُـــهُ البَليـــلُ سَـــمُومَا
شُـــعلةٌ فـــي المفـــارق اســـتودعتْني فـــي صـــميمِ الفـــؤادِ ثُكـــلاً صَـــميماً
تســـتثيرُ الهمـــومُ مـــا اكـــتنَّ منهـــا صُـــعُداً وهـــي تســـتثيرُ الهمومـــا

([1]) أبو تمّام: **الديوان** ، 4/ 102 –103.

([2]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص 128–129.

([3]) النجار، الهادي عمر الفيتوري: **قصيدة الرثاء في العصر العباسي حتّى نهاية القرن الثالث الهجري**. رسالة دكتوراه. جامعة اليرموك.الأردن، 2004. ص 272.

([4]) رويت في الديوان (كانا) وقصد بها الممدوح وخالد بن يزيد، وعند عمر فروخ، رويت (كنا) ويقصد بها أبو تمّام وخالد بن يزيد. أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 10–11. مري الفرس: إذا استخرجتَ ما عنده من الجري بسوط أو غيره. **اللسان**، بــاب مرا

غـــرّةٌ بُهمـــةٌ أَلَـــا إنّمـــا كنـــــ ـــــتُ أغـــرَّاً أيّـــامَ كنـــتُ بهيمَـــا[1]

وشعلة الشّيب هذه تثير الهموم والأحزان، وقد جعلته يعيش حالة من القلق حتّى الممات، فشَعْره فيما مضى كان أسودَ خالياً من الشيب[2]، فقد ضاق بالشيب الذي أثقل قلبه بتلك المشاعر المشاعر السّلبية.

الخيل في قصيدة الهجاء

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

الدعاء على المهجوّ

رفع أبو تمّام المستوى الشّعري لهجائه، من حيث اللّغة والمعـــاني والصّـــور[3]، فمـــدحُ الخلفاء استدراراً لخيرهم، فإن قنط من نوالهم، انقلب إليهم يهجوهم، ومن ذلك قوله:

سار في الّتيـــه عقـــلُ مـــن ظـــنَّ أنّـــي بالأمـــــاني يســـــيرُ فيـــــك مـــــديحي
يا حَرُوناً في البُخـــل قـــدْ وأبـــى بُخـــــ ـــــلكَ عوقِبْـــتَ بالأصـــمِّ الجَمُـــوحِ[4]

ويدعو على القوم بنحر ركابهم فيبقون في الديار ويقضي هو وطره جزاء لومهم إياه:

نُحِـــرتْ ركـــابُ القـــومِ حتّـــى يَغبُـــرُوا رَجْلَى، لقـــد عَنُفـــوا علـــيَّ ولامُـــوا [5]

وقد حكم الآمدي عليه بالجودة والحسن. [6]

ويصف جُبْن عتبة بن أبي عاصم، و يقول لو اعتدى عليه خيل الممدوح لتمنى أن يكون وَتِداً، يقول:

بِحَسْـــب عُتْبَـــةَ دَاءٌ قـــد تَضَـــمَّنَهُ لو كان فـــي أَسَـــدٍ لـــم يَفْـــرِسِ الأســـدُ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/ 223-224.
([2]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص 95.
([3]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص 131 -132.
([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 333 – 334.
([5]) المصدر السابق، 3/ 150.
([6]) الآمدي: **الموازنة**، 1/ 518.

لو اعتَدَى أعــوجٌ يعــدو بــه المَرَطَــى أو لاحـــقٌ لتمنّـــى أنّـــه وتِـــدُ [1]

فلا حيلة بيد العدوّ ؛ لأنّ خيل الممدوح تنهب أرواحهم دون رحمةٍ، يقول:

وافتْـــكَ خيـــلٌ لـــو صَـــبَرْتَ لهـــا لنهـــبنَ روحـــك فـــي الـــوغى نهبـــا[2]

عَدْو الخيل

استخدم أبو تمّام أسلوب المفاضلة بين أنواع سير الخيل وعَدْوها، فالعَنَق أقل منزلة من التقريب، ولكي يظهر انزعاجه من المهجو قال له:

لـــو لـــم أكـــنْ مُشْـــبَعاً مـــن الحُمُـــق مـــا كنـــتَ ممّـــن أودُّ يـــا حَلَقـــي
إيّـــاك أرضـــى يـــا ابـــن البغـــيِّ لقـــد رضـــيتُ بعـــد التّقريـــبِ بـــالعنَق[3]

وقد تصاب الخيل أول جريها بداء، فيَعقل عن الجري، ومن جمال تصوير أبـــي تمّـــام إظهار العدوّ بالحصان المصاب وهو يحاول الهرب من المعتصم بالله:

فإنْ باشَـــرَ الإصـــحارَ فـــالبيضُ والقَنَـــا قِـــراهُ وأحـــواضُ المنايـــا مناهِلُـــهْ
وإن يَـــبْنِ حِيطانـــاً عليـــه فإنَّمـــا أولئـــك عُقَّالاتُـــهُ لا مَعَاقِلُـــهْ[4]

ومن إبداع أبي تمّام استخدامه أسلوب الاستطراد[5]، يقول:

وسَـــابِحٍ هَطِـــل التَّعْـــدَاءِ هَتّـــان علـــى الجِـــرَاءِ أمـــينٍ غَيْـــرِ خَـــوّانِ
أظْمَى الفُصـــوص ولـــم تَظْمَـــأْ قوائمـــهُ فخَـــلِّ عينيْـــك فـــي ظَمْـــآنَ ريّـــانِ
فلـــو تـــراهُ مُشـــيحاً والحَصَـــى فِلَـــقٌ تحتَ السَّـــنابك مـــن مَتْنًـــى و وُحْـــدانِ
حَلَفـــتَ إنْ لـــم تثبَّـــتْ أنَّ حـــافِرَه من صَخْر تدْمُرَ أو من وَجْـــهِ عُثمـــانِ[6]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 342. لاحق: قيل هو اسم فرس كان لمعاوية بن أبي سفيان. **اللسان**، باب لحق. وقيل: لاحـــق: فرس لبني أسد وقيل كان لغَنِيّ. النويري: **نهاية الأرب**، 10/ 40.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 322.

([3]) المصدر السابق، 4/ 404.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**،3/ 28. عقالات: داء في رجل الدابة، إذا مشى ظَلَعَ ساعة ثم انبسط. **اللسان**، باب عقل.

([5]) الاستطراد: " هو أن يرى الشّاعر أنه في وصف شيء وهو إنما يريد غيره فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيـــه فـــذلك استطراد.

مأمون الجنّان: **البحتري دراسة نقدية حول فنونه الشعرية**، ط1،بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1994م، ص 50.

([6]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 434. مشيحاً: هو الحَذِر أو الجادّ في الأمر أو المعرض عن الشيء. **اللسان**، باب شيح. هتّان: هطول المطر الضعيف الدائم. **اللسان**، باب هتن. التعداء: العدوّ: الحُضْر. **اللسان**، باب عدا.

فهو يوهمك أنه يريد حصاناً و هو يريد هجاء عثمان بن إدريس الشـــاميّ[1] " كمـــا أن الفارس يريك أنه يُولي وهو يريد أن يَحمل عليك"[2].

وأحياناً يضع أبو تمّام الفرس في المرتبة الثّانية ؛ لأنها تحتاج للراحة، ويجعـــل الإبـــل تسبقها إذا حثّها صاحبها على السير:

أذْرَاءُ أمطـــاءِ الغِنَـــى يَضْـــحَكْنَ عَـــنْ أذراءِ أمْطـــــاءِ المَطَايـــــا القُـــــودِ
فَظَلَلْتُ حَـــدَّ الأرضِ تحـــتَ العَـــزْمِ فـــي وَجْنـــــاءَ تُـــدْنِي حَـــدَّ كُـــلِّ بعيـــدِ
تَحْثُـــو إذا حَـــثَّ العِتـــاقَ الوَخْـــدُ فـــي غُـــــرَرِ العتـــــاق النّقْـــعَ بالتَّوْحيـــد
تَعْرِيسُـــها خَلَـــلَ السُّـــرَى تَقريبُهـــا حتّـــى أنَخْـــتُ بأَحْمَـــدَ المَحمـــودِ[3]

فالإبل الّتي يسافر عليها تسبق الخيل وتحثو الغبار والنّقع في وجوه الخيل، حتّـــى أنّـــه اضطر إلى تعريس الخيل بتقريبها، وهو ضرب من السّير كان لها بمنزلة الاستراحة[4] فهو يذمّ يذمّ كلالة الخيل ولا يرغب في أن تتباطأ فيسبقها غيرها، وهي المعوّدة على الحرب والسّـــفر، فهكذا تخذله وهو لا يحب ذلك.

ومن شدّة إعجاب أبي تمّام بشعره وقصائده، شبّهها بالخيل القوية وهذا دلالة على رفعة قدرها في نظره، يقول:

لمّا بَـــدا لـــي مِـــنْ صَـــمِيمكَ مـــا بَـــدا بل لم يُصَـــبْ لـــكَ_ لا أُصِـــيب صَـــميمُ
جَـــرّدتُ فـــي ذَمِّيـــكَ خَيْـــلَ قصـــائدٍ حَالَـــتْ بـــكَ الـــدُّنيا وأنـــتَ مُقِـــيمُ[5]

وهذه القصائد لا يجرؤ أحد على سرقتها، ولكن بالرغم من شدّة مناعتهـــا أقـــدم علـــى سرقتها أشجع فارسٍ، وانتفع بها عند الممدوح، قال يهجوه:

([1]) ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 2/ 40. ينظر: الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص 68-69

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 434.ينظر: مأمون الجنان: **البحتري دراسة نقدية**، ص 50. وقيل هو مأخوذ من قول الشّاعر:

لو أنّ حَافِر برْذَوْني كأوجُهِكم بني بديلٍ لما أنْعلْته أبدا

الآمدي: **الموازنة**، 1/ 120.

([3]) العتاق الأولى: الإبل، العتاق الثانية: الخيل. أبو تمّام: **الـــديوان**، 2/ 143 – 144.العتلق: النجائب من الإبل والخيـــل. **اللسان**، باب عتق.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 143 – 144.

([5]) المصدر السابق، 4/ 426.

إنّمـــا الضَّـــيْغمُ الهَصـــورُ أبـــو الأشـــــ ـــــبالِ مَنّـــاعُ كـــلِّ خِـــيس وغـــابِ
مَنْ غَدَتْ خَيْلُـــه علـــى سَـــرْحِ شِـــعْري وهـــو لِلحَـــيْنِ راتِـــعٌ فـــي كتـــابي[1]

فشبّه سارق شعره بفارس قوي فاق غيره في الشّجاعة و الفروسية، و يدل ذلـــك علـــى المكانة العالية الّتي يضع فيها أبو تمّام شعره، وإيمانه بقوة وجودة شـــعره حتّـــى أنّ غيـــره لا يستطيع أنْ يأتي بمثله، ويطمح أنْ يمتلك مثله حتّى لو اضطر لسرقته.

إنَّ أبا تمّام يتلاعب بالكلمات والتعابير الشّعرية بما يتلاءم وأغراضه، ويستطيع بأسلوبه وقدرته إقناعك بأفكاره وإيصالها إليك بكل سهولة.

الصّورة في قصيدة الغزل

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

مشهد الفراق

تسأم الرّوح من القتال والحرب، وبخاصة إن كان أسلوب حياةٍ تعيشه، لذلك تبدأ الـــنّفس بالبحث عن مكانٍ آمنٍ تجد فيه راحتها، فتبرز صورة الحب والألم والفراق، فراق المحبوبـــة أو فراق الممدوح، فأظهر أبو تمّام صورة الفراق الذي سابقَهُ إلى المحبوبة، فإذا بها تماشي المَطل كفرس تشكي كبدها متألمة، تسير وتبطئ في السّير لتبقى معه مدة أطول، يقول:

أتتِ النّوَى دون الهَوَى، فـــأتَى الأسَـــى دُونَ الأســـى بحـــرارةٍ لـــم تَبْـــرُدِ
جَـــارَى إليـــه البـــينُ وصـــل خريـــدةٍ ماشتْ إليـــه المَطْـــلَ مشـــيَ الأكبَـــدِ[2]

ويخالفه الآمدي في هذه الصّورة، فقد اتهمه بالخلط في الكلام بأن جعل البين والوصـــل يتجاريان إليه، كأن الوصل جرى إليه، فتبعه البين يريد منعه، ولما أرادت المحبوبة وَصْله مشت إليه مشياً وعزمها عزمَ متثاقل مماطل. [3] ولكن أبا تمّام لم يفعل سوى أنه أخذ البين والوصـــل كحدثين تسابقا أي أنه رجع إلى المعنى الأصلي، فقالوا " إن أكثر من يذهب عن طرائقه فإنمـــا

([1]) أبو تمّام: **الديوان** ، 4/ 308.

([2]) المصدر السابق، 2/ 44 -45.

([3]) الآمدي: **الموازنة**، 1/ 263- 264. ينظر: الواد، حسين: **اللغة الشعر في ديوان أبي تمّام**، ص 23.

يؤتى من سوء الفهم عنه " وقد يكون أبو تمّام قد عاد "إلى الأصول الّتي حلّت بها المعاني، أول ما حلّت، في الألفاظ لتعني ما وضعت للدلالة عليه" [1].

ومن يفارق يعاني الألم والوجد، فماذا يسليه غير الحرب والقتال والخيل، يقول:

تداوَ من شوقك الأعْصَى بما فعلَتْ خيلُ ابنِ يُوسُفَ والأبطالُ تَطَّرِدُ
ذاكَ السُّرُورُ الذي آلَتْ بَشَاشَتُهُ ألّا يجَاورَهَا في مُهْجَةٍ كَمَدُ
لَقِيتَهُمْ والمنَايَا غَيْرُ دافِعَةٍ لِمَا أمَرْتَ بِه والمُلتقَى كَبَدُ[2]

ومهما كانت بلاد المحبوب بعيدة فإن خيله العتاق قادرة على الوصول إليها[3]

ويقول أيضاً:

كِلا طَعميهِمُ سَلَعٌ وصَابٌ فأَيُّ مَذَاقَتيْهِمْ تستطيبُ !؟
وما فَضْلُ العتاق إذا ألظّتْ بها وتأَثَّلَتْ فيها العيوبُ؟![4]

فبعد الرحيل بات كل شيء مرّاً في فمه، ويرى نفسه خيلاً أصابتها العيوب فلا فضل فيها ولا فائدة، فأي صورة قد تعبر عن حسرته لرحيلها وأثر ذلك عليه أفضل من هذه؟!

و يقول:

ذرِني منك سافحةَ المآقِي ومِنْ سَرَعانِ عَبْرتك المُراق
وتخويفي نوًى عَرُضَتْ وطالَتْ فبُعْدُ الغَايِ من حظِّ العِتَاق[5]

العتيق من الخيل كلّما بُسِط له في الغاية تبيّن عتقه وصبره في الجَرْي، فمن عرف عتق خيْله طلبَ أنْ تُزادَ له الغاية.

([1]) الواد، حسين: **اللغة الشعر في ديوان أبي تمّام**، ، ص 48.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 12.

([3]) المصدر السابق، 2/ 424. العتيق: الكريم الرائع من كل شيء، وفرس عتيق: رائع كريم بَيّن العِتْق. **اللسان**، باب عتق

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 560- 561. سلع، وصاب: ضربان من الشجر مرّان. **اللسان**، باب سلع وباب صوب، ألظت: توقّدت و تلهّبت. **اللسان**، باب لظي، تأثلت: تأَصّلَ وكل شيء قديم مُؤَصّل. **اللسان**، باب أثل.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**: 2/ 423-424.غاي: مَدى الشي أو أقصى الشيء. **اللسان**، باب غوي.

يظهر الشّاعر ثقته بخيله وقدرتها على نقله إلى ديار المحبوب لأنّه جرّبها من قبل ويعرف إمكاناتها، لذلك خلا قلبه من الخوف والقلق لرحيل محبوبته. فكانت الخيل سبباً في راحة البال والاطمئنان وإبعاد المشاعر السلبية المصاحبة للفقدان، وهذا يدلّ على فارس مجرّب.

وفي حرصه على الوصول إلى المحبوب أراد أن يسرع الرّحل به لولا قبوله للنصيحة بالتمهل يقول:

تَغايَر الشِّعر فيه إذ سَهِرْتُ له حتّى ظَننتُ قوافيهِ سَتَقْتَتلُ
لولا قبُولي نُصْح العَزْم مُرتَحِلاً لراكضَاني إليهِ الرّحْلُ والجملُ[1]

وفي صورة رائعة لمنظر فرس غاية في الجمال ولكن خلف ذلك يخفي الداء والألم، يستخدم أبو تمّام هذه الصّورة مستعطفاً نوح بن عمرو لأخيه حويّ يسأله أن يَبَرَّه:

يَعلمُ أنّ الدّاء مُستَحلَسٌ تحت جَمَامِ الفَرَس الرَّائعِ[2]

الفرس الجموح

وعندما لامه المحبوب وتمنّع عليه، حذره من سورة قلبه وهواه، فشبّه نفسه بفرس جموح لا تطيع فارسها:

تَقِي جَمَحاتي لستُ طوعَ مُؤَنِّبي وليس جَنِيبي إنْ عَذَلْتِ بِمُصْحِبي[3]

يقول: "تجنبي ضجراتي بك واحذري امتناعاتي عليك، فأنا وقلبي لا نطيع لوّامنا عند العتاب"[4] يبدو الشّاعر مضطرباً يحاول إيجاد مكان للاستقرار بعد فقدانه الانسجام مع ما حوله، حوله، فهو ثائر لا يريد عذلاً، وهو يختار صوره وطريقه بحزم شديد[5] وقد حصل بها على خمسة آلاف درهم[6].

([1]) أبو تمّام: **الديوان:**، 3/ 10. راكضاني: رَمَحَ ذو الحافر برجله أو ركضَ بدلاً من رمحَ.**اللسان**، باب ركض

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 356. الحِلْس: من أحلاس الخيل، وهو الشيء يكون تحت السرج (كساء أو نحوه) **اللسان**، باب حلس.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 146.الجنيب: هواه ونفسه. **اللسان**، باب جنب

([4]) الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص121.

([5]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص 159.

([6]) الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص 121.

ويقول:

جَـرَّت لـــه أســماء حبــل الشَّــموس والوصـــل والهجـــرُ نعـــيمٌ وبُـــوس
أبـــا علـــيٍّ أنـــت وادي النـــدى الـــ أحـــوى ومَغنـــى المكرمـــاتِ الأنـــيس
يـــا بـــن رجـــاءٍ أفِـــدَتْ نِيّـــةٌ رُكوبهـــا مِنِّـــي خِـــيمٌ وســـوس[1]

فقد شبّه محبوبته الّتي نفرت منه بخيل شموس قد جرّت رسنها ومضت، وهنا يواجه أبو تمّام المستمع أو القارئ بالصّنعة اللّفظية بطباق مركب ومقابلة بديعة. [2]

وهكذا نجد تنوعاً في صور الخيل وحالاتها عند أبي تمّام وكذلك تنوعاً في الأساليب وإن كان هناك بعض الغموض والتعقيد في بعض معانيه، ما أعطى المتعـــة فـــي تتبعهـــا وفهمهـــا وإبرازها.

ثانياً: الصّورة القائمة على اللون

ومن شدّة الشّوق والحنين تعطي الفرس فارسها، فتضرب في سيرها في جـــنح الظّـــلام لتوصله إلى الممدوح بعد أن كان اللّقاء عابراً، يقول:

إليـــك هَتكنـــا جُـــنح ليـــلٍ كأنَّـــه قـــد اكتحَلـــتْ منـــه الـــبلاد بإثمـــدِ
تَقَلْقَـــلُ بـــي أُدْمُ المَهَـــارَى وشُـــومُها علـــى كـــل نَشْـــزٍ مُتْلَئِـــبٍ وفدْفـــد[3]

وكأنَّ الفرس أدركت حاجة صاحبها ومدى شوقه، فساعدته وأسرعت به حيـــث يوجـــد المحبوب، فوصفها أبو تمّام معجباً بها وهي تضرب الأرض بقوائمها، وحتّى شـــأمّات جســـدها شاركتهما المسيرة إلى المحبوب.

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/274–276. شموس: شَرَدتْ وجَمَحتْ ومَنَعتْ ظهرها. **اللسان**، باب شمس.

([2]) الشكعة، مصطفى: **رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية**، ص627.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 30. إثمد: حجر يُتخذ منه الكحل. **اللسان**، باب ثمعد. شومها: الذي به شامة، شامة تخالف لون الفرس على مكان يُكره وربما كانت في دوائرها. **اللسان**، باب شيم، تقلقل: تضرب في الأرض، وفرس قُلْقُل: جواد سريع. **اللسان**، باب قلل، متلئب: الطريق الممْتَدّ المستقيم وقيل المتنصب. **اللسان**، باب تلأب، فدفد: المكان المرتفع فيه صـــلابة، وفيه غِلظ وارتفاع. **اللسان**، باب فدفد. متفاقد: فقد القوم بعضهم بعضاً. **اللسان**، باب فقد.

المبحث الثاني

صور الخيل المبتكرة في شعر أبي تمّام

التمهيد

إنَّ المتأمل في شعر الإسلاميين يتبين ما فيه من الزيادات والإبداعات على معاني القدماء، أمثال جرير والفرزدق، تبعهما في ذلك بشار بن برد وأصحابه، فزادوا معاني ما مرّت بخاطر أحد من قبلهم، ومنهم أيضاً مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو تمّام وابن الرومي وغيرهم.[1]

ولكنَّ أبا تمّام لم يحمل سيف العداء للشّكل القديم للقصيدة، على الرغم من أنه عُرِفَ رمزاً للتجديد، فقد طوّع العناصر القديمة ليخرجها في صورة جديدة من خلال فنه، كما ظهر في قصيدته (فتح عمورية) من خلال صور البداوة الّتي التمسها من معاجم القدماء في مشهد الحلْب والمخضْ ليصور أصداء توالي السنين على عمورية، يقول:

يا يَوْمَ وقْعَةِ عَمُّوريَّةَ انْصَرَفَتْ مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولةَ الحَلَبِ
حتّى إذا مَخَّضَ اللهُ السِّنينَ لها مَخْضَ البَخيلَةِ كانتْ زُبْدةَ الحِقَبِ[2]

وكذلك صورة الخيمة الّتي شغله عمودها وأوتادها، يقول:

حتّى تَرَكْتَ عَمودَ الشِّرْكِ مُنْعَفِراً ولم تُعَرِّجْ على الأوْتادِ والطُّنُبِ [3]

وغيرها من المشاهد، فاستطاع عرض هذه المواد القديمة المورثة في نسق فني جديد من خلال عنصر التّشخيص جامعاً بين الفكر والوجدان[4]

ومن درجات الالتزام بالقديم تراه في كثير من قصائده يصوّر الأطلال، ثمّ ينتقل إلى الغزل وعرض ذكريات الشّباب، وتكرار شكوى الشيب في المدائح والمراثي، فالشّاعر إذن لم

([1]) ينظر: ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 2/ 238.

([2]) وهنا استعارة لم تُستعمل قبلَ الطائي. أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 46 – 49.

([3]) المصدر السابق، 1/ 64.

(4) التطاوي: **أبو تمّام صوت وأصداء**،(د.ط)، القاهرة: دار قباء للنشر والتوزيع، 1998، ص 39.

يخرج عن عمود الشّعر كما حاول بعض النقاد اتّهامه، ولكن ارتباطه بالموضـــوعات التّراثيـــة والشّكل العام للقصيدة العربية تطلب منه إبراز قدرته، إذ زاوج بين القديم والحديث بشـــكل زاد من قيمة حركته التّجديدية في الشعر[1] ثم أضاف حيوية مستقلة لشعره، وبعثه في دلالات جديدة جديدة بعيدة عن المألوف، فلم يحتج إلى أي عنصر خارجي ليولد تلك الطّاقة والحيوية[2]. فاقتحم فاقتحم أبو تمّام عالم الشّعر منطلقاً من فكرة أن الإبداع الأصيل يبقى حتّى بعد نهايـــة شـــاعره العظيم، فلا يموت بموت صاحبه، فهو من قال عن قصائده:

أبْقَـــيْنَ فـــي أعنـــاق جُـــودك جـــوهراً أبقـــى مـــن الأطـــواق فـــي الأجيـــاد[3]

لذلك حاول إيجاد شعر لا يُنسى على مرّ العصور عن طريق حركة التّجديد[4]، فهو يُعَدّ يُعَدّ شاعراً مجدداً ثائراً لم يقبل بالقديم فحسب، إنّما أدخل عليه ما استطاع من الجديد المبتكـــر، فقد كان مخترعاً يقول ابن رشيق: " وأكثر المولدين معاني وتوليداً فيما ذكر العلماء أبو تمّام[5]" تمّام[5]" والاختراع عنده، خلق المعاني الّتي لم يُسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط[6] ويذكر ويذكر ابن الأثير أنّ أبا تمّام أكثر الشّعراء المتأخرين اختراعاً للمعاني، و قد وجد له ما يزيـــد عن عشرين معنى مبتدعاً، وهذا مما يكبره أهل الصّناعة، ثم يقول بأنه قد عدّها وكانت أكثر من ذلك[7].

أمّا المرزباني فيذكر العديد من غريب ألفاظه و صوره، ثم يقول: " ولم نَعِب من هـــذه الألفاظ شيئاً غير أنها من الغريب المصدود عنه، وليس يَحسُن من المحدثين استعمالها لأنهـــا لا تجاور بأمثالها، ولا تتبع أشكالها، فكأنها تشكو الغربة في كلامهم" [8]

([1]) التطاوي: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، ص 113.

([2]) الواد، حسين: **اللغة الشعر في ديوان أبي تمّام**، ص 35.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 131.

([4]) التطاوي: **النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي**، ص 87.

([5]) ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 2/ 244.

([6]) المصدر السابق، 1/ 262. ينظر: عمر فروخ: **أبو تمّام**، ص 63

([7]) ابن الأثير، ضياء الدين: **المثل السائر في أدب الكاتب والشّـــاعر**، ط1، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مصر: مكتبة نهضة مصر، 1960، 2/ 22.

([8]) المرزباني: **الموشح**، ص 280.

ويرى ابن المعتز أنَّ "أكثر مَا لَه جيد، والرّديء الذي له إنّما هو شيءٌ يستغلق لفظه فقط، أمّا أنْ يكون في شعره شيءٌ يخلو من المعاني اللّطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا... فأمّا أنْ يشقّ غبار الطّائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات، بل يغرق في بحره، على أنَّ للبحتري المعاني الغزيرة، ولكنَّ أكثرها مأخوذ من أبي تمّام ومسروق من شعره." [1]، ولا غرابة غرابة في ذلك فهو شاعر استعان بالفكر وإعمال العقل والمنطق والفلسفة، شاعر أدام النظر في شعره، فلا بد أن يكون مخترعاً لِمعانٍ جديدة ومن ذلك قوله:

ليس الحجابُ بمقصٍ عَنْك لي أملاً إنّ السماء تُرَجَّى حين تَحْتَجِبُ[2]

ويُذكر أنّ أبا تمّام قد سمع هذا المعنى من أحدهم عندما سأله آخر: (قد جئتك أمس فاحتجبت عني فقال له: السماء إذا احتجبت بالغيم رُجيَّ خيرها)، فما كان من أبي تمّام إلا أن ضمّن المعنى في شعره، فمن الناس من يعدُّه سرقةً ومنهم من يعدُّهُ إبداعاً، وهو إلى الثانية أقرب. [3]

ولعلّ التّجديد لديه يعود لعدة أمور أهمّها: المزج بين العاطفة والعقل في الشّعر، فالشّعر ليس مجرد إحساس وانفعال، كما أنّه خفّف أثر الخيال واتّجه إلى الواقع والتّجربة الشّخصية، فالشّعر في نظر أبي تمّام موجهٌ للخاصة وليس للعامة، ويؤكّد ذلك ردّه حينما قال لأحدهم: (ولم لا تفهم ما يُقال؟)

ويظهر أنّ أبا تمّام لم يأبه لمواقف النقاد من صنعته وتجديده، فصرّح بمنهجه ودعا إليه مسجلاً فخره بصنعته البديعة:

أنا ذُو كَسَاكَ مَحَبَّةً لا خَلَّةً حِبرَ القصائِدِ فُوِّفَتْ تَفْوِيفَا
مُتَنَخِّلٌ حَلاّكَ نَظْمَ بَدائعٍ صارتْ لآذانِ المُلُوك شُنُوفاً

([1]) ابن المعتز: **طبقات الشعراء**، ص 285–286.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 4 / 446.

([3]) ابن الأثير: **المثل السائر**، 2/ 24.وينظر:البهبيتي، نجيب: **أبو تمّام الطائي _ حياته وحياة شعره**، ص 219. فروخ، عمر: **أبو تمّام**، ص 67. للتعرف إلى معانيه المبتدعة العودة إلى كتاب (ابن الأثير: **المثل السائر**، 2/ 22–24)

واف إذا الإحسانُ قُنِّعَ لم يَزَلْ وجهُ الصّنيعةِ عندَه مَكْشُوفاً[1]

فهو يزيّن شعره بألوان البديع، ويزخرفه بأروع العبارات والصور، ممّا جعل شعره يرتقي حتّى أسمع الملوك، فأعجبوا به. بل سعى دائماً إلى الجديد الذي شغفه مؤكداً ذلك بقوله:

وجَدِيدَة المَعْنَى إذا مَعْنَى الّتي تَشْقَى بها الأسْماعُ كان لَبِيسَا[2]

وقد أكّد ذلك ما رُوِيَ عن أبي تمّام، حيث كان يُكره نفسه على العمل حتّى يظهر ذلك في شعره، فقد ذكر أحد أصحابه أنه دخل عليه وهو منغمس في التّفكير يحاول إيجاد معنى لقول أبي نواس (كالدهر فيه شراسةٌ ولِيَانٌ) حتّى تمكّن من توليد معنى فقال:

شَرِسْتَ بلْ لِنْتَ بلْ قَانَيْتَ ذاك بِذَا فأنتَ لا شكَّ فيكَ السَّهْلُ والجَبَلُ[3]

فأبو تمّام لم يكن مجرد حافظ للشّعر أو راوية له، ولكنه كان كثير النظر في الشعر، ميالاً إلى الاختيار منه، يعاشر الشّعراء معاشرة متصلة، ويطيل النّظر في أشعارهم[4] فقد روي روي عن محمد بن قدامة اجتهاد أبي تمّام في التأمل والتروي في التّراث الشّعري طالباً التّفوق والتّجديد والتّوليد، فمن أبرز الكتب الّتي كان يديم النظر فيها ويميزها عن غيرها من الكتب، شعر مسلم بن الوليد وشعر أبي نواس، فقد سئل عما يشغله أكثر من غيره فقال: "أمّا الّتي عن يميني فاللّات وأمّا الّتي عن يساري فالعزّى، أعبدهما منذ عشرين سنة، فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد (صريع الغواني)، وعن يساره شعر أبي نواس"[5]، وقد ذكر أبو بكر الخراساني، عن الرّازي أنه شهد أبا تمّام ينشد حتّى وصل إلى قوله:

مُقيمُ الظّنِّ عندك والأمّاني وإنْ قَلقتْ رِكابي في البلاد[6]

فقال له: يا أبا تمّام، أهذا المعنى الأخير مما اخترعته أو أخذته؟ فقال: هو لي، وقد ألممت بقول أبي نواس:

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 385.

([2]) المصدر السابق، 2/ 273.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/ 11. ينظر: ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 1/ 209.

([4]) حسين، طه: **من حديث الشعر والنثر**، ص 98.

([5]) ابن المعتز: **طبقات الشعراء**، ص 283 –284.

([6]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 374.

وإن جَـــرَت الألفـــاظ منـــا بمِدحـــةٍ غيـــرك إنســـاناً فأنـــت الـــذي نَعنـــي[1]

فلا عَجَبَ أن نرى العديد من الألفاظ قد شاكلت ألفاظاً في أبيات غيره مـــن الشّـــعراء، ولكن العجب فيمن يَتهمه بالسرقة لذلك[2] ويرى الصّولي أنّ ما مـــن شـــاعر يعمـــل المعـــاني ويخترعها أكثر من أبي تمّام، وإن أخذ معنى زاد عليه وزيّنه ببديعه وتمم معناه فكان أحق به.[3] به.[3] فإن راقه معنىً فأخذه وجَلاه كان ذلك إبداعاً واختراعاً. [4]

كان أبو تمّام شاعراً طالباً للتّجديد والتّوليد والتّميز، وقد تحقّق له ذلك بما صـــنع مـــن روائع الشّعر العربي وبما امتلكه من أسلوب وخصائص فنية مميزة.

فقد زعم أحدهم " أن جميع ما لأبي تمّام من المعاني ثلاثة:

وإذا أرادَ اللهُ نشـــــــر فضـــــــيلةٍ طُوِيَـــتْ أتـــاح لهـــا لســـانَ حســـود
لـــولا اشـــتعالُ النّـــار فيمـــا جـــاوَرَت ما كانَ يُعرفُ طيـــبُ عَـــرْفِ العـــود[5]

والثاني قوله:

بَنِي مالـــكٍ قـــد نبّهـــتْ خامـــلَ الثَّـــرى قبـــورٌ لكـــمْ مُستَشْـــرفاتُ المعـــالمِ
رَواكِـــدُ قِـــيس الكـــفّ مـــن متنـــاولٍ وفيهـــاعُلاً لا تُرتقـــى بالسَّـــلالمِ[6]

والثالث قوله:

تَـــأْبَى علـــى التَّصـــريد إلا نـــائلاً إلّـــا يكُـــنْ مـــاءً قراحـــاً يُمْـــذَق
نَـــزْارا كمـــا اســـتَكْرَهْتَ عـــائر نفحـــةٍ مِنْ فَارَةِ المِسْـــك الّتـــي لـــم تُفْتَـــق"[7]

([1]) ابن المعتز: **طبقات الشعراء**، ص 283 –284. أبو الأنوار، محمد: **الشعر العباسي تطوره وقيمه**، ط2، مصـــر: دار المعارف، 1987، ص 310

([2]) فروخ، عمر: **أبو تمّام**، ص 68.

([3]) الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص 53.

([4]) فروخ، عمر: **أبو تمّام**، ص 68.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 397

([6]) المصدر السابق، 4/ 134.

([7]) المصدر السابق، 2/ 408.

فالمحبوبة مع وصلها إلا أنّها تأبى الوصل المشوب بالامتناع وتقليل النّوال، فنيلها قليل كأنّه عائر من ريح فأرة المسك فهو عطاءٌ لا غناء فيه كالرّائحة الّتي تفلت من فارة مسك لم تُفتق[1]

وعدَّ الآمدي هذا المعنى الذي جاء به أبو تمّام في " النائل النزر القليل ما هو فوق كل حسن وحلاوة"[2] وعارض من يقول إنّ لأبي تمّام ثلاثة معانٍ مخترعة فقط وذلك لأنّ لأبي تمّام تمّام مخترعات كثيرة وبدائع عديدة[3] وتبعه الشكعة في ذلك[4]

وقد تدخل الاستعارة باب التّجديد عند أبي تمّام، " فالاستعارة عنده ليست تشبيهاً حذف أحد طرفيه،....، وإنما هي معنى من المعاني القائمة في الذهن فلتُؤدَ بأي لفظ"[5]

فخرج على النّاس بلون جديد من الاستعارة، وخرج بالتالي _ في نظرهم _ على مذاهب العرب في صياغتها، وقد أنكر عليه عديد من نقاد الشّعر ذلك، ومن الأمثلة قوله:

راحَتْ غواني الحيِّ عنكَ غَوانياً يلبَسْنَ نَأْياً تارةً وصُدُودَا[6]

فأنكروا عليه أن النّأي والصّدود لا يلبسان، فلم يُعرف عن العرب تشبيههما بالثّياب.

وحينما طلب منه أحدهم شيئاً من ماء الملام لقوله:

لا تَسْقِني ماءَ الملامِ، فإنّني صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ ماءَ بُكائِي[7]

ردّ عليه أبو تمّام بقوله: حتّى تعطيني ريشة من جناح الذّل لقوله تعالى: (واخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة)" [8] وهي عند الآمدي ليست بعيب، فقد أراد مقابلة ماءٍ بماء لما أراد أن

([1]) أبو تمّام: **الديوان**،2/ 407 –408.

([2]) الآمدي: **الموازنة**، 2/ 132.

([3]) المصدر السابق: 1/ 134.

([4]) الشكعة، مصطفى: **رحلة الشعر**، ص 634.

([5]) الساريسي: **الشعر في العصر العباسي**، ص 133.

([6]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 408.

([7]) المصدر السابق، 1/ 22.

([8]) المرزباني: **الموشح:** ص 291. ينظر: خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، ص 130 – 131. الساريسي: **الشعر في العصر العباسي**، ص 133.

أن يقول (قد استعذبت ماء بكائي)، فجعل للملام ماء، وإن لم يوجد له ماء في الحقيقة، كقوله عزّ وجل(وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) وكان الملام مما يُستعمل فيه التّجرع على الاستعارة. [1]

الخيل في قصيدة المديح

الصّورة القائمة على الحركة

كما ذكرنا سابقاً، فإن أبا تمّام أراد تخليد شعره بتجديده، فأبرز صوره وتشابيهه الغريبة فكان منها ما رفضه النّقاد وعابوه، فمن استعاراته الّتي عابها النّقاد قوله:

فَضَـــرَبْتُ الشّـــتاء فـــي أخْدَعَيْـــهِ ضَـــرْبَةً غادَرَتْـــه عَـــوْداً ركوبـــا[2]

فقد عابوا عليه كلمة (أخدعيه) [3] وعدَّه الجرجاني من رديء شعره[4] وتبعه فـــي ذلـــك الباقلاني مرجعاً ذلك إلى غلوّ أبي تمّام في محبة الصّنعة وإسرافه في المطابق والمجانس ووجوه البديع. [5] وأيّدهما الآمدي وعدَّه من غثاثة ألفاظ أبي تمّام أن يجعل للدّهر أخدعاً. [6]

وفي ذلك ظلم لأبي تمّام وتقييد لخياله وابتكاره في رسم هذه الصّورة الطريفة، فقد شبّه الشّتاء بثلوجه فرساً جامحاً، والنّصر كأنّه ضربة سُدِّدت إليه، فقضت على جموحـــه وشراســـته وجعلته سهل القياد ذلولاً[7] فالجموح يحتاج إلى الصرامة والقوة كالفتنـــة الّتـــي قضـــى عليهـــا الممدوح.

ويرفض إحسان عباس التحامل على استعارة أبي تمّام معللاً ذلك أنّ فيها مـــن التّجديـــد والخيال الخلاّق من إبراز الحياة في صور جديدة ما لم يفطن إليه هؤلاء النّقاد[8]

([1]) الآمدي: **الموازنة**، 1/ 261.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 166

([3]) المرزباني: **الموشح**، ص 281-282.

([4]) الجرجاني: **الوساطة**، ص 70.

([5]) الباقلاني: **إعجاز القرآن**، ص 110.

([6]) الآمدي: **الموازنة**، ج1، ص 245-249.

([7]) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر**، ص 237.

([8]) عباس، إحسان: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ط4، لبنان: دار الثقافة، 1983، ص 170.

ثم استعمل أبو تمّام صفة للفرس ووضعها في موضع لم توضع فيه من قبل فقال:

يَرنُــو فيــثْلِمُ فــي القلــوبِ بطرْفــهِ ويَعِــنُّ للنَّظَــر الحَــرُونِ فَيُصْــحِبُ[1]

استعار الحرون للنّظر، فنظرةٌ من الممدوح تستميل نظر الحرون حتّى يتبعه، "ولعله لم يُوصَف قبل الطائي بهذا" [2]

أمّا المسافر، فيبحث عن الرّاحة له ولخيله، فلا يجد أفضل من ديار الممــدوح لجــوده وكرمه، يقول:

يَغــدُو مُؤَمِّلُــهُ إذا مــا حَــطَّ فــي أكنافِــهِ رَحْــل المُكِــلِّ المُلْغِــبِ[3]

ويذكر ابن المستوفى بأن هذا بيتٌ (مكتف بنفسه) لأنّ معناه قد تمّ، ولا يحتاج إلــى مــا بعده لإتمّام المعنى وهو معنى تفرد به أبو تمّام[4].

أمّا قوم الممدوح فقد تعرضوا لغضبه فطردهم ثم عادوا ليعتذروا منه فشفع لهم أبو تمّام، وذكّره بيوم الكُلَاب حين أعانوه بجيش كثير الخيل:

رَفَــدوك فــي يــوم الكُلَــاب وشَــقّقُوا فيــه المــزادَ بجحفــل غلّــاب[5]

"فقد شبّه الخيل لكثرتها بالحرّة ذات الحجارة السوداء"[6].

الخيل في قصيدة الفخر

الصّورة القائمة على الحركة

كانت الصّورة الفنية قديماً قريبة من الواقع لاتجاههم إلى القصد والاعتــدال، أمّــا فــي العصر العبّاسي فاتّجه إلى الغلو والمبالغة فأصبح هناك فرق بين الواقــع والصّــورة ؛ لأنهــم يهدفون إلى الجدّة

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 136.

([2]) المصدر السابق، 1/ 136.

([3]) المصدر السابق، 1/ 101.

([4]) ابن المستوفى، أبو بركات شرف الدين: **النظام في شرح شعر المتنبي و أبي تمّام**، 2/ 121

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 81 –82. ويوم الكلاب: وقعة لسلمة بن الحارث بن عمــرو المَقصُــور ومعــه بنــو تغلــب (المقصودين في البيت السابق) والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة والصنائع، حيث تغلّب فيها على أخيه شــرحبيل ابــن الحارث بن عمرو ومن معه. ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر**، 2/ 205 – 206

([6]) ابن المستوفى: **النظام في شرح شعر المتنبي و أبي تمّام**، 2/ 88.

والإبداع، فهم يحلقون في سماء الخيال إلى أقصى الحدود، ولعلّ انتشار العلوم والثّقافات المختلفة كان له أثر كبير في الشّاعر العباسي[1]. " فالتّجديد عند أبي تمّام لا يعني بالضّرورة تكسير القديم وإحلال جديد منفصل عنه... ولكن التّجديد عنده يعني: إعادة تركيب القديم تركيباً ذاتياً "[2]

وقد اتّكأ كثير من الشّعراء على الصّورة القديمة، واغترفوا منها صورهم إلا أن بعضهم لم ينقلها نقلاً كاملاً، إنّما أضاف إليها خيوطاً جديدة بحيث تصبح صورهم جديدة أو كالجديدة، وبعضهم الآخر أخذ الصّورة القديمة النّادرة، وأضاف إليها صورة أخرى كما فعل أبو تمّام في قوله:

واكتسَتْ ضُمّرُ الجيادِ المَذَاكي من لباس الهيجا دَمًا وحَميمًا
فهي مَكَرّ تلُوكُها الحربُ فيه وهي مُقْوَرَّةٌ تلوك الشّكيما[3]

وقد أبدع أبو تمّام في إعطائنا صورةً واضحةً للحرب، تصَدرتها الخيل بشجاعتها وقوتها، "فالجياد تخوض الغمار أمّام عينيك وقد ضاقت حومة الوغى بالفرسان وصَبَرَ الفريقان، والموت يتناول الأبطال غير آبه للنتيجة "[4]، "إذ جعل الحرب فيها تلوك الجياد"[5]، وقد عاب عاب بعض النّقاد جعله الحرب تلوك الجياد، وقوله تلوك الشكيم، لأنّ الخيل لا تلوك الشكيم في المكرّ وإنّما تلوكه واقفة، فاتُّهِم أبو تمّام بقلة خبرته بأمر الخيل [6]

([1]) الكفراوي، محمد عبد العزيز: **الشعر العربي بين الجمود والتطور**، ط2، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د. ت)، 169 – 171.

([2]) الرباعي: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، ص 224.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/ 229. والأبيات مأخوذة من قول أنس بن الرّيان:

أقودُ الجيادَ إلى عامرٍ عوالكَ لجمٍ تمج الدماء.

فأخذ الصّورة القديمة وأضاف إليها. عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص164.

([4]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص 134– 135.

([5]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 164.

([6]) **الموازنة**، 1/ 231. الشكيم: حديدة اللجام الّتي توضع في فم الفرس. **اللسان**، باب شكم

"فلوك الحرب للخيل مجاز عما يصيبها في الحرب، كما يقال: أكلتهم الحرب وضرّستهم بأنيابها ونحو ذلك، وكون الخيل لا تلوك الشكيم في المكر غير مُسلَّم، فهي في المكــرّ توقــف فتعلك الشكيم ؛ لأن المراد بالمكرّ مكان الكر لا ساعة الكر"[1]

أبدع أبو تمّام في هذه الصّورة الّتي أبرزت شراسة القتال، وقساوة الحرب، من خــلال انتقائه ألفاظاً نقلت تصوّره وإحساسه للمتلقّي.

الخيل في قصيدة الرثاء

الصّورة القائمة على الحركة

أبو تمّام في رثائه صادقٌ، يخرج الكلام من قلبه محملاً بمشاعر الحزن والأسى لفقــدان المرثي، فينقل ذلك الشّعور عن طريق شعره إليك، فيصيبك الأسى على مُصــابه، فيقــول فــي صورة جميلة ومعبرة عن فقدان المرثي:

أنزلَتْهُ الأيّــامُ عــن ظَهْرهــا مــن بَــــ ـــعدِ إثبــاتِ رِجْلــهِ فــي الرِّكــابِ[2]

شبّه أبو تمّام الأيّام بالمطيّة، ومن يموت كأنّما نزل عنها، وهي صورة غريبــة غيــر مألوفة عند العرب، فهم لم يشبّهوا الأيام بالمطايا [3]، لكنّها تعكس تجارب الشّاعر مــع المطايــا والخيول، فجعل النّزول عنها موتٌ واندثار، وهي صورة جميلة وواقعيّة إلى أبعد الحدود.

الخيل في قصيدة الهجاء

الصّورة القائمة على الحركة

استطاع أبو تمّام وضع لمسته الخاصة في باب الهجاء، فجدد فيه وأبدع، فمن صــوره الجميلة يهجو الأعداء المهزومين، يقول:

([1]) الأمين، السيد محسن، **أعيان الشيعة**، 4/ 410 – 411.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 46

([3]) خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، ص 129– 130.

سُــود الثّيــاب كأنمــا نَسَــجتْ لهــم أيْــدِي السَّــمُومِ مَــدَارعًا مــن قَــارِ
بكرُوا وأَسْــرَوْا فــي متــون ضــوامرٍ قِيــدَتْ لهــم مــن مَــرْبطِ النّجــارِ[1]

فأبرز أبو تمّام صورة المهزومين (الإفشين وبابك ومازيّار) بعد أن تمكّن منهم المعتصم وصلبهم ثم أحرقهم، فكانت الجذوع الّتي صلبوا عليها قد حملت من حــانوت النّجــار وشــبّهها بالأفراس الضّوامر[2]، وقد أشاد النّقاد والقدماء بهذا المعنى بخاصّة، وبمعانٍ كثيرة أبدع فيها أبو أبو تمّام في شعره بعامّة، وعدّوه من المعاني المبتدعة والحوادث المتجددة من غير كلفة[3].

الخيل في قصيدة الغزل

الصّورة القائمة على الحركة

بعيداً عن أجواء الحرب، يظهر أبو تمّام فرسه وينسج حولها هالة من الكمــال وكأنــه يتغزل به حتّى يُعجب بها الناظر، فيعشقها، يقول:

أنــا رَاجِــلٌ بــبلادِ مَــروٍ راكِــبٌ فــي جَــوْدةِ الأشْــعَارِ كــلَّ مُجيــدِ
تتنــزَّه اللحظــاتُ فــي حَركاتــه كتنزّهــي فــي ظلِّــك المَمْــدُودِ
فــإذا بَــدَا فــي مشْــهدٍ قامــتْ لَــهُ نُــبلاء صــدر المَحْفِــل المشــهودِ
يَجِــدُ السُّــرورَ الرَّاكِــبُ الغَــادِي بــه كسُــرورِهِ بِالفــارسِ المولــودِ
إنْ ســابَقَتْهُ الخيــلُ فــي مَيْــدانها قَــذَفَتْ إليــه الخيــلُ بالإقليــدِ
فيــرُوحُ بــين مُؤدِّبيــهِ مُخالِفــاً مُتعصِّــباً بِعصــابة التَّسْــويدِ
ومُشــيِّعُوه مُعــوِّذوه بكــلّ مــا عَرَفُــوه مــن عُــوَذٍ مــن التَّحميــدِ
يتعشَّــقُون نضــارةً فــي وجهــهِ عِشْــقَ الفتــى وَجْــهَ الفتــاةِ الــرُّودِ
أغضَــى عليــك جُفُــون شُــكْرِكَ إنّهــا ثَقُلَــتْ علــيَّ لِجــودك الموجــودِ[4]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 208.

([2]) المصدر السابق، 2/ 208.

([3]) ابن الأثير: **المثل السائر**، 2/ 7. ينظر: البهبيتي: **أبو تمّام الطائي**، ص 219. * للتعرف إلى ما ذكره البهبيتــي مــن معاني مبتدعة العودة إلى كتابه **أبو تمّام الطائي**، ص 218 – 219.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 146 –147.

فالشّاعر فخور بفرسه، ولهذا تغزّل بها وبصفاتها الّتي فاقت كل تصور، فهي المستوية المَقام، ومَن يركبها يجد السّرور لأنّها سابقةٌ بإقرار الخيل لها، فقد أعطتها (عصابة التّسويد)، والكل يفسح لها الطّريق، فإذا نظرتَ إليها عشقتها وأعجبك جمالها وتميّزها، لذلك استعاذَ الشّاعر بالله وبالقرآن لردّ عيون الحاسدين عنها [1] و لمّا أراد أبو تمّام التّجديد والفرار من التّكرار، شبّه شبّه عشق الخيل بعشق فتاة جميلة [2]. ثم شكر الممدوح لهذا العطاء المتميّز، الذي يكشف عن تقديره لأبي تمّام ورفعه لمكانته، فلم يستكثر عليه الحصول على فرس بتلك المواصفات.

الصّورة القائمة على اللون

لم يترك أبو تمّام شيئاً عجيباً إلا طرقه، فترك الغزل بالمحبوبة، والممدوح، ليتغزل بفرسه الجميلة، يقول:

فأعِزَّ ذِلَّةَ رُجْلَتي بمُهذَّبٍ حُلْو المخيل مقذَّذٍ مقدودِ
ذي كُمْتةٍ أو شُقرةٍ أو حُوَّةٍ أو دُهْمَةٍ فَهمِ الفؤادِ سديدِ
مَتَسربلٌ بُرْدًا يَفوقُ بوشْيهِ بين المواكبِ حُسْن وَشْيِ بُرُودِ[3]

فهي جميلة المنظر بألوانها المتداخلة في مزيج غريب من الشقرة والدهمة، تخطو برشاقة ونشاطٍ، وكأنّها موشاةٌ بأجمل الزّينة والحلي.

وهكذا فإن أبا تمّام تفاعل بالخيل، فألهمته صوراً فنية رائعة فيما يتعلق بشكلها وصفاتها ولونها وقوّتها، فأخرج هذه الصّور في شكل جديد ومبتكر بما يتوافق مع أفكاره الخلّاقة الّتي تسلب الألباب، فالنّفس البشرية تعاف الثّبات و تحتاج إلى التّبديل والتّغيير وهذا ما تنبّه إليه أبو تمّام، فشعره خالدٌ فيه نكهة الحرب والسّلاح، مزيّناً بشاعرية وعبقرية رفعت مكانة شعره إلى أعلى المراتب.

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 146 –147.
([2]) كبابة، صبحي: **الصّورة الفنية في شعر الطائيين**، ص39.
([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 146.

الفصل الثاني

صورة الخيل في شعر المتنبي

الفصل الثاني

صورة الخيل في شعر المتنبي

التمهيد

المتنبي هو أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُعفي[1]، ويكنى أبا الطيب[2]، ولد عام 303 بالكوفة ونشأ بها، أمّا والده كان سقّاء بالكوفة. [3]

انتقل به والده من مدينة لأخرى ومن بلد لآخر لينال حظاً وفيراً من العلم مع أولاد الأشراف[4] حتّى إنّ المتنبي حين تمكّن من قول الشعر "هجا كل باحث في أصله، وأنّه على نباهة ذكره ومجيد فعله جزء صغير من أبيه " فيقول:

أنا من بعضُه يفوقُ أبا البا حث والنجلُ بعضٌ من نجله[5]

فهو فخورٌ بنفسه وبنسبه، ويجعل نفسه فوق كل مَن يسأل عن أصله.

فالمتنبي صحيح النسب في عروبته من جهة أبيه، أمّا والدته، فلم يُعرف عنها شيءٌ، لا اسمها ولا نسبها[6]، في حين وردت بعض الأخبار عن جدته، فقد كانت من الصالحات الكوفيات، وندر ذكرها في شعره[7] وقد قتلها حب حفيدها والشوق إليه، والفرحة بلقائه[8] وفيها وفيها قال المتنبي:

([1]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 1/ 120.

([2]) ابن نباته، جمال الدين: **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، دار الفكر العربي، 1964، ص 38.

([3]) ابن نباته: **سرح العيون**،ص38. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 1/123-124.

([4]) البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2/ 347. ينظر: المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر** العباسي، ط 18، دار العلم للملايين، 1994، ص349.

([5]) المتنبي: **الديوان**، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، 1399-1979، 3/ 383.

([6]) بلاشير، ريجيس: **أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي**، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ط2، دمشق: دار الفكر، 1985، ص40. ينظر: حسين، طه: **مع المتنبي**، ص17.

([7]) المحاسني، زكي: **المتنبي**، ط4، مصر: دار المعارف، 1971، ص23. ينظر: بلاشير: ريجيس، **أبو الطيب المتنبي**، ص41. عبد الحافظ صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ط1، دار المعارف، 1983، ص 43.

([8]) عبد الحافظ صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص 44.

ولــو لــم تكــوني بنــتَ أكــرَم والــدٍ لكان أباكِ الضَّــخم كونُــكِ لــي أمّــا[1]

والحقيقة أن نسب المتنبي يحيط به بعض الغموض والشك، ولكن ممّا لا شــكّ فيــه أن شعور المتنبي بهذا الضعف من ناحية أهله، كان من العناصر الّتي أثرت في شخصــيته فيمــا بعد[2].

تعمّد المتنبي إخفاء نسبه، فيقول إن سُئِل عنه: "أنا رجلٌ أخبط القبائل، وأطوي البــوادي وحدي، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلةٍ بينه وبين القبيلة الّتي أنتسبُ إليها، وما دمت غير منتسب إلى أحد، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني".[3]

نشأ المتنبي مشتغلاً بالأدب "فكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين علــى غريبهــا وحُوشيها، لا يُسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر." [4] ذكياً، ســريع الحفظ، ملازماً دكاكين الورّاقين، حيث يُحكى أنه جلس بالوراقين يومــاً، فأطــال تأمــل دفتــر معروضٍ للبيع، وحين طلب منه الدلال التعجيل بالثمن إن كان يريد شراءه وإلا فليتركــه، ثــم سخر منه وذكره بأنه لن يستطيع حفظه حتّى لو أطال تأمله، فتحدّاه المتنبي قــائلاً: وإن كنــت حفظته آخذه بغير ثمن، فوافق الدلّال، فسرده المتنبي وحصل على الكتاب[5].

كان منذ صغره ميّالاً للدرس "فقد تلقى دروس الشّيعة شعراً ولغــةً وإعرابــاً"[6]، تعلــم القراءة والكتابة، ومن شيوخه: الزجاج، وابن السرّاج، والأخفش، وابن درستويه، وابن دريــد،

([1]) المتنبي: **الديوان**، 233/4. ينظر: حسين، طه: **مع المتنبي**، ص17–18. الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ط1، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، 2002، ص8. عبد الحافظ صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص43.

([2]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص21.

([3]) ابن نباته: **سرح العيون**، ص39. ينظر: الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص9–10. عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ط3، مصر: دار المعارف، ص30.

([4]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 1/ 120.

([5]) ابن نباته: **سرح العيون**، ص38. ينظر: الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ط1، صيدا، بيــروت: المكتبــة العصرية، 2002، ص9، عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب**، ص38–39، بلاشير، ريجيس: **أبو الطيــب المتنبــي**، ص43–44.

([6]) الأصفهاني، أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن: **الواضح في مشكلات شعر المتنبي**، تح: الشيخ محمد الطــاهر ابــن عاشور، ط1، القاهرة: دار السلام، 2009، ص6.

وأبو علي الفارسي وغيرهم[1]. وقيل إنّ المتنبي اتّصل منذ صغره برجالٍ عُرفوا بالفلسفة والزّندقة كأبي الفضل الكوفي، فتعلّم منه الزّندقة وفن الإلحاد، فهوّسه وأضلّه كما ضلّ[2] ممّا أثّر بشكل كبير في بعض شعره، كما أرسله والده إلى بادية السّماوة ليتعلم اللّغة والأدب والشّعر والفن، ويأخذ عن أهلها الفصاحة والبلاغة[3].

وقد كانت آثار الشّعراء الجاهليين والأمويين أساس مطالعات أبي الطيب، " كما أنّه درس بعناية شعر أبي نواس وابن الرومي ومسلم بن الوليد وبخاصة ابن المعتز الذي أضحى بأسلوبه المنمق وصوره المتكلفة وتشبيهاته مثالاً يحتذيه أبو الطيب في أغلب الأحيان"[4]، فبرزت فبرزت موهبته الشّعرية منذ حداثة سنّه، ولكنّها كانت عبارة عن أبيات وقطع شعرية لا ترتقي إلى مستوى عالٍ[5].

"قال الشيخ أبو القاسم: وجملة القول في المتنبي أنه من حفّاظ اللغة ورواة الشعر وكلّ ما في كلامه من الغريب مستقاة من الغريب المصنّف سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة"[6].

الجمهرة"[6].

ثم اتّجهت ميول المتنبي إلى أكبر مداحيْن عرفهما: أبي تمّام وتلميذه البحتري، فأخذ يقرأ ويعيد شعرهما طوال حياته، متمثلاً به، وظل تحت سلطان شعرهما كلياً مدفوعاً بإعجابه أدبياً بهما إضافةً إلى تحيّزه لهما عرقياً، فكلاهما من عرب الجنوب[7] وعندما ذكروا له تشابه في المعنى بينه وبين الطائي قال: (الشعر جادة وربما وقع حافر على حافر) ولمّا قُتل المتنبي وُجد ديوان البحتري بين أوراقه وخطه وتصحيحه فيه[8]

([1]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، (د.ط)، مكتبة الغريب، 107.

([2]) البغدادي: **خزانة الأدب**، 2/ 348. ينظر: الأصفهاني: **الواضح**، ص7. الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص10. بلاشير: **أبو الطيب المتنبي**، ص49.

([3]) الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص9.

([4]) المصدر السابق، ص50-51.

([5]) المصدر السابق، ص44.

([6]) البغدادي: **خزانة الأدب**، 2/ 363.

([7]) كلاهما "من طيْ وهي قبيلة عربية جنوبية، وكانت تسيطر على أبي الطيب طوال حياته فكرة تفوق العرب على بقية البشر، وتفوق عرب الجنوب شرفاً ونبلاً على من سواهم من العرب، وكان يعتقد كأكثر معاصريه بأن العبقرية الشعرية وقفٌ على اليمنيين "بلاشير، ريجيس: **أبو الطيب المتنبي**، ص51-52.

([8]) الأصفهاني: **الواضح**، ص10.

وقد أنكر المتنبي قراءته لديوان أبي تمّام عندما اتّهمه الحاتمي بسرقة معنى وإفساده فقال: أقسمت بالله إني لم أقرأ شعراً قط لأبي تمّامكم، فرد عليه الحاتمي: هذه سَوْءة لو سترتها كان أولى بك. فقال المتنبي: السوءة قراءة شعر مثله، وبدأ يذكر أبيات يرى فيها سوءاً وهو ما كشف عن قراءته المتفحصة لديوان أبي تمّام. [1] ثم نراه في أحد المجالس يستشهد بقول لأبي تمّام فقالوا: قد سررنا لأبي تمّام إذ عرفت شعره، فقال: أو يجوز للأديب ألّا يعرف شعر أبي تمّام، وهو أستاذ كلّ من قال الشّعر بعده"[2]. وظلّ على تلك الحال إلى أن اهتدى إلى طريقه الشّعرية رويداً رويداً [3].

وفي بادية السماوة قيل إنّه ادّعى النّبوة، ومن هنا جاء لقبه المتنبي، وتبعه عدد كبير، تقول بعض المصادر إنّ المتنبي قال أنّه نبيّ مرسل، وأتى ببعض الدّلائل كظاهرة حبس المطر، وكلامٍ زعم أنّه قرآن أُنزل عليه، وأنّ الرسول صاى الله عليه وسلّم قال: (لا نبي بعدي، وأنا اسمي في السّماء لا)، والحقيقة أنّه اسم ملائم له "فهو كان ينفي كل شيء، كان ينفي الدّين والسّلطان والنّظام والنّاس، ولم يكن يثبت إلا نفسه"[4].

وقد شبّه نفسه بالأنبياء، والأمة باليهود والضّالين من قوم ثمود، فيقول:

ما مُقامي بأرض نَخْلَةٍ إلّا كمُقَامِ المسيحِ بين اليهودِ[5]

وقوله:

أنَا في أُمّةٍ تَدَارَكَها اللّه غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ[6]

ويتعالى المتنبي كثيراً ويتجاوز الحد عندما قال:

([1]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، (د. ط)، مصر: دار المعارف، 1963، ص138.

([2]) المصدر السابق، ص143.

([3]) بلاشير، ريجيس: **أبو الطيب المتنبي**، ص51-52.

([4]) الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص18.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 44/2.

([6]) المصدر السابق، 48/2.

أيّ محـــــــــلٍ أرتَقـــــــــي أيّ عظـــــــــيمٍ أتّقـــــــــي
وكُـــلُّ مـــا قـــد خلـــق اللّـــــ ـــــــه مـــــا لـــــم يخلُـــــق
مُحْتَقَـــــــرٌ فـــــــي هِمَّتِـــــــي كشـــــعرةٍ فـــــي مفرقِـــــي[1]

فلمّا سمع أمير حمص ذلك سجنه قرابة السّنتين، عندها ملّ المتنبي واستعطف الأميـر وكتب له قصيدة يطلب فيها الصّفح، فأخرجه بعد أن تاب[2].

كلّ ذلك يعود إلى زهوه بنفسه وانبهاره بذكائه، وقيل إنّ حسن منطقه وبيانه جعل الحساد والرّؤساء يخافون أن يأخذ منهم الزّعامة، فأهانوه واتهموه بادّعاء النّبوة[3]، وهذا ما يذكره بعض بعض الدارسين الذين يشككون بصحة خبر ادعائه للنبوة ولم ينفوه كذلك، كالعقاد[4] وأبي العلاء العلاء المعرّي الذي دافع عنه وكان من المعجبين منه فلمّا سُئل عن حقيقة لقب المتنبي قال: "هو من النَّبْوِة أي المرتفع من الأرض، وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هـو دونـه... وإذا رُجِعَ إلى الحقائق فنطق اللّسان لا ينبئُ عن اعتقاد الإنسان، لأنذ العالم مجبـولٌ علـى الكـذب والنفاق"[5]، وقد اعتبر ابن جني أنّ لقبه ذو منشأ أدبي، وقصد منه ببساطة المكانة الرفيعة الّتـي تبوّأها في عالم الشّعر[6] قال: "سمعت أبا الطيب يقول: إنما لُقبتُ بالمتنبي لقولي:

أنـــا تِـــرْبُ النَّـــدى وربُّ القـــوافي سِـــمامُ العِـــدا وغـــيظُ الحســـودِ
أنـــا فـــي أُمَّـــةٍ تَـــدَاركها اللّـــــ ـــــه غريـــبٌ كصـــالحٍ فـــي ثمـــود[7]

وقيل "إنه قال: أنا أول من تنبّأ بالشعر"[8]

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 81/3.

([2]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ص122. ابن نباته: **سرح العيون**، ص39. الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصـائده**، ص22.

([3]) المحاسني، زكي: **المتنبي**، ص28-30.

([4]) **مطالعات في الكتب والحياة**، (د. ط)، القاهرة: دار الفكر، 1978، ص118-119.

([5]) أبو العلاء المعرّي: **رسالة الغفران**، تحقيق وشرح: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط9، القاهرة: دار المعارف، (د. ت)، ص418-419. للمزيد حول الموضوع العودة إلى الكتاب.

([6]) الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص20. للمزيد بشأن ادعاء المتنبي للنبوة العودة إلى عبد الوهاب عـزام في كتابه **(ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام)** ص52-60.

([7]) المتنبي: **الديوان**، 48/2. ينظر: الثعالبي: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تح: محمد محيي الدين عبد المجيـد، ط2، القاهرة: مكتبة السعادة، 1956، 1/ 129.

([8]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ص 122. ينظر: ابن رشيق: **العمدة**، 75/1.

واللافت للنّظر أنّ تلك الفترة من العصر تميّزت بالفساد السّياسي الذي استتبع ضعفاً اقتصادياً، وبدأت الخلافة بالانهيار، وسقط سلطان الخلفاء وانحلّ أمرهم، وخضعوا لعبث بعض الجند أو حتّى الخدم والنّساء، وظهرت الطّبقية الاجتماعية، فكان الثّراء الفاحش يقابله الفقر الشّديد[1] وبالرغم من ذلك، فقد شهدت تلك الفترة نضوجاً حضارياً، وفيه استكملت الحضارة قوتها وأتت ثمرها طيباً في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والأدب والفنّ، واستفاد العرب حينها من تراثهم في الأدب والدين، وتراث غيرهم من الأمم الأخرى كالفرس والسّاميين واليونان الذين أمّا دخلوا في الإسلام أو كانت تربطهم علاقات التّجارة أو التّحالف، فاختلطت الثّقافات وانتشرت في كل الطّبقات، فازداد الطّموح، ممّا فتح باب الحيل ليحصل كلٌ على مراده، فانتهى الأمر بهم إلى الثّورة والاضطراب الّتي انتهت بأحداث وكوارث كثورة البابكية (الخرميّة)، وثورة الزنج، وثورة القرامطة[2] الّتي تجنّد المتنبي داعية لها متنقلاً من مدينة إلى أخرى في سبيل نشرها[3].

ولعلّ سبب ظهور هذه الثّورات هو تراجع مكانة هذه الجماعات من النّاس في المجتمع، ممّا أثار السّخط والحقد في نفوسهم والرّغبة في احتلال المراكز الأماميّة في الدّولة، ولكن استأثر العباسيون بنظام الحكم بدعم من بعض العناصر الفارسيّة، ممّا أدى إلى تشكل الثّورات السّابقة، وبالتالي قمعها[4].

وهكذا كان للبيئة الاجتماعية والسّياسية أثر كبير في تكوين شخصية المتنبي وتأثير أكبر على شعره، وتتقلب الأحوال، وينتقل المتنبي من العراق فالشّام ومن ثم إلى مصر، ومن مدينة إلى أخرى يلتقي الأمراء والخلفاء، فيمدح هذا و يهجو ذاك، ومن أهم ممدوحيه: بدر بن عمار، وآل إسحاق التنوخي، وأبناء يحيى البحتري، وشجاع الطائي، والأمير محمد بن طغج، وأبو

([1]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص26.

([2]) المصدر السابق: ص26-30.

([3]) الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص11.

([4]) خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، 16-17.

العشائر الحمداني[1] وابن العميد، وعضد الدّولة البويهي، وسيف الدّولة الحمداني وكافور الإخشيدي.[2].

وقد توطّدت علاقة المتنبي مع سيف الدّولة أكثر من غيره، وجلس عنده سنين طويلة يمدحه حتّى أصبحت علاقتهما عميقة لدرجةٍ جعلت المتنبي يعامل الخليفة معاملة الخليل، وهذا ما أدّى إلى أن يملّ سيف الدّولة منه، فتخلّى عنه عندما تشاجر مع ابن خالويه، فضربه الأخير على رأسه بمفتاحٍ فشجّه، فلمّا رأى المتنبي عدم اهتمّام صديقه سيف الدّولة، فارقه والأسى يملأ قلبه، والوجد والحب لأخت سيف الدّولة يعتصر قلبه، ومن هناك توجّه إلى مصر حيث كافور الإخشيدي الذي احتفى بالمتنبي لعلّه يمدحه، فلبّى له المتنبي رغبته، ومدحه مدحاً مبطناً بالتهكم والسخرية، فأُعجب كافور به وقرّبه منه ممّا أثار الحسّاد كالعادة، فكادوا له المكائد والدّسائس، وبخاصة أنّ المتنبي كان يطالب بولايةٍ وكافور يماطله، لأنه يعلم ما في نفس المتنبي من كبرياء وزهو، فخشي أن يسرق المتنبي منه الزّعامة.

وفي مصر قابل المتنبي أبا شجاع فاتك الذي أُعجب به كثيراً، فعطف عليه وشجعه وسانده، فأحبّه المتنبي ومدحه، ثم رثاه أصدق رثاء عند وفاته، وعندما لم يحصل المتنبي على ما تمنّاه، عاد إلى الكوفة، والشوق يملأُ قلبه لسيف الدّولة، ولكنّه تأبّى عن العودة إليه إلى أن توفي عدوّه الوزير المهلّبي، وهكذا ظلّ المتنبي يهجو ويمدح حتّى قابل ابن الصّاحب الذي طلب منه مديحاً، فلم يستجب له، فحقد الصّاحب عليه وأرسل له من يقتله، وكان المتنبي قد ذهب لمدح عضد الدّولة وابن العميد، فخرج من عندهما متكسباً بأكثر من مائتي ألف درهم مع غلمانه وولده محسّد، وفي طريق عودته، وبعد أن ابتسمت الدنيا له، تربّصَ له أعداؤه وقتلوه، فغادرها بِشعرٍ يصل دويّه بعيداً، مات شاعراً مُلهماً، خالداً في العقول والقلوب، عام 345 [3]، وقد رثاه أبو القاسم الطبسي عقب مقتله قائلاً:

([1]) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي**، ص331.

([2]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص274، 168، 150، 124. ينظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ص122. ابن نباته: **سرح العيون**: ص35-40.

([3]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 1/ 122-123. ابن نباته: **سرح العيون**، ص 39-40. البغدادي: **خزانة الأدب**، 2/ 350. الأصفهاني: **الواضح في مشكلات شعر المتنبي**، ص11-14. المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي**، ص330-338. المحاسني، زكي: **المتنبي**، ص29-40. الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص34-60.

مـــا رأى النـــاسُ ثـــاني المتنبـــي أيُّ ثـــانٍ يُـــرى لبكـــر الزمـــان
هـــو فـــي شـــعره نبـــيٌّ ولكـــن ظهـــرت معجزاتُـــه فـــي المعـــاني[1]

مواقف النّقاد من المتنبي وشعره

نال المتنبي مكانةً شعريةً ميّزته عن غيره من الشّعراء، فهو بعيد الأثر شائعٌ بين جميع الطبقات، وبه شُغِلَت الألسن وبشعره سَهِرت الأعين، فكان له شيعةٌ تغلو في مدحـــه، وأخـــرى تتعبُ في جَرْحه[2]

ألم يقل عن نفسه:

أنـــامُ مِـــلءَ جفـــوني عـــن شَـــوارِدها ويســـهرُ الخلـــقُ جَرَّاهـــا ويختصـــمُ؟[3]

وفيه قال الثعالبي: "فليس اليوم مجالس الدّرس أعمر بشعر أبي الطيـــب مـــن مجـــالس الأنس، ولا أقلام كتّاب الرّسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل... وذلك أول دليـــل دلّ على وفور فضله، وتقدم قدمِه، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القـــوافي ورق المعـــاني".[4] وأكّد الواحدي ذلك فقال: "وإنّ النّاس منذ عصر قديم قد ولّوا جميع الأشعار صفحة الإعـــراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب نائين عما يروى لسواه." [5] وقد حاول المتنبي فـــي عـــدّة مواقف إعلاء قدره فكان يتعامل مع الملوك معاملة الأخلّاء فقال الثعالبي: "كان يُخاطب الملـــوك مخاطبة الصديق والمحبوب، وهو مذهب له تفرّد به واستكثر من سلوكه اقتداراً فيه، وتبحراً في الألفاظ والمعاني رفعاً لنفسه عن درجة الشّعراء، وتدريجاً لها إلى مماثلة الملوك"[6].

ويذكر ابن خلكان أنّ أحد المشايخ قال له: "وقفتُ له على أكثر من أربعين شرحاً ما بين مطولات ومختصرات ولم يُفعل هذا بديوان غيره."[7] وفيه قال ابن رشيق: "جاء المتنبي فمـــلأ

([1]) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 1/ 124. ينظر: الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص20.
([2]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي**، ص 180.
([3]) المتنبي: **الديوان**، 84/4.
([4]) **يتيمة الدهر**، 1/ 127.
([5]) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي**، ص350. ينظر: الأيوبي: ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص268.
([6]) **يتيمة الدهر**، 207/1.
([7]) **وفيات الأعيان**، 1/ 121.

الدّنيا وشغل النّاس" وقال أيضاً: "إنّ في طبعه غلظة وفي عتابه شدّة، وكان كثير التّحامل ظاهر الكبر والأنفة"[1] ووصفه كذلك بأنّه " كالملك الجبّار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشّجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع"[2] وقال فيه أيضاً: "قد كان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال إلا أنّ شعره نازل عن طبقته جداً وهو لعمري في سَعَة من العذر، إذ كانت البديهة كما قال فيها عبد الله بن المعتز:

والقول بعد الفكر يُؤْمَنُ زَيْغُه شتَّان بين رَوِيِّةٍ و بديه[3]

وقد صنفه على أنّه شاعر " يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هُجْنة اللّفظ وقبحه وخشونته"[4] " و كان يأتي بالمستغرب ليدل على معرفته." [5]

وينصفه البديعي فيرى أنّ "له حسنات وسيئات، وحسناته أكثر عدداً، وأحوى مَدَداً وغرائبه طائرة، وأمثاله سائرة، وعلمه فسيح، وميزه صحيح، يَروم فيقدِر، ويَدْري ما يُورد ويُصدر"[6] في حين قال عنه الصّاحب بن عباد: "إنه بعيد المرمى في شعره كثير الإصابة في نظمه، إلا أنّه ربما يأتي بالفقرة الغرّاء، مشفوعة بالكلمة العوراء..." [7]

ويرى الأصفهاني أنه: "سريع الهجوم على المعاني، ونعتُ الخيل والحرب من خصائصه، يقبلُ السّاقط الرّديء كما يقبل النّادر البدْع، وفي متن شعره وَهْي، وفي ألفاظه تعقيد وتعويض." [8] أمّا ابتداءاته فله منها" ابتداءات مستشنعة، لا يرفع لها السمع حجابه، ولا يفتح القلب لها بابه".[9]

([1]) **العمدة في محاسن الأدب**، 2/164- 165.

([2]) المصدر السابق، 1/133.

([3]) المصدر السابق، 1/ 193.

([4]) المصدر السابق، 1/ 126.

([5]) المصدر السابق، 2/ 266.

([6]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي**، ص 180.

([7]) عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص 261.

([8]) **الواضح في مشكل شعر المتنبي**، ص 27. ينظر: البغدادي: **خزانة الأدب**، 2/ 363.

([9]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 1 / 161.

وقد قابل الجرجاني بينه وبين مسلم و الطائيين [1] فأعطاه مكاناً وسطاً بين أبـــي تمّـــام ومسلم في ميْله للصّنعة، إلّا أنّه جعل الصدر الأول من شعره تابعاً لأبي تمّام، وما بعده واســطة بينه وبين مسلم.[2] وفي مقابلة أخرى بينه وبين الطائييْن يقول الشريف الرضي: "أمّا أبو تمّـــام فخطيب منبر، وأمّا البحتري فواصف جودَر، وأمّا أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر"[3] أمّـــا ابـــن الأثير فأنصف المتنبي وجعله من أمراء الشعر وجعله وأبي تمّام ومسلم بن الوليد، (لات الشّعر وعزّاه ومناته)، الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشّعر، وعلى الرّغم من أنّـــه جعلـــه خـــاتم الشّعراء، الذي أبدع في وصف مواقف القتال، وذكر الحكم والأمثال، إلّا أنّه وضع المتنبي بعـــد أبي تمّام [4] إلّا أنّ شعره يتمتّع بحيوية وطلاوة وروعة تأخذ بالألباب[5]، وقيـــل إنّ " الملحمـــة الرّومية قد بدأت بشعر أبي تمّام ثمّ بصاحبه البحتري، ثمّ تلقّفها المتنبي فأنشد أروع فصـــولها، وحشد لها بيان ساحر ومعانٍ سامية، في أنقى لفظ، وأشرف أسلوب "[6]

لقد ترك شعر المتنبي أثراً لا يزول أينما حلّ، وسّبب ذلك أنّ المتنبي كـــان يـــرى فـــي الشّعر وسيلة لنقل مشاعره وعواطفه إلى الآخرين، فكان من خلالـــه يحـــاول إرضـــاء نفســـه فممدوحه فالإنسانية جميعها، فشعره ينادي للوحدة العربية، ويدعو لحب السّيادة، ويثـــور علـــى الخضوع والمذلة، وكلّ ذلك وهو يستخدم أقوى العبارات والألفاظ، لا يهمه مـــدى غرابتهـــا أو طرافتها فيضرم النار بفكرته لتثب إلى العقول والقلوب بكل ما أوتيت من قوة، وما دمنا نشعر به في كل مأزق فإنّه سيظل حيّاً خالداً لا يموت [7].

ولم يكن شعر المتنبي بعيداً عن الفلسفة، فحين ينظم شعراً يضمنه حقائق قد كساها ثوباً من نسجه ثم يقرنها بأسباب وحجج على نمط الفلاسفة مزينةً بطابع السّليقة ومرارة العاطفة[8].

([1]) الطائيين: أبو تمّام والبحتري.

([2]) **الوساطة:** ص 50.

([3]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي**، ص 179.

([4]) ابن الأثير: **المثل السائر**، 1 / 15. ينظر: عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ص 270.

([5]) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص 342.

([6]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 291.

([7]) عبود، مارون: **الرؤوس**، ط5، بيروت: دار مارون عبود، دار الثقافة، 1972، ص 262–263.

([8]) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص11.

وسبب ذلك أنّ " فن المتنبي صورة لنفسه المضطربة المتناقضة القلقة الّتي لا تستقر على حال" فقد بدت ظاهرة التّناقض جلية عنده، بل إنّها لازمت كثيراً من أشعاره، وفيها استخدم ظاهرة الطّباق الّتي أضفت على شعره جمالاً موسيقياً يؤثرُ في الذّوق والعقل والحس، ومصدر جمالها أنّها ناتجة عن تعبير صادق لأحاسيس داخلية يمر بها الشّاعر، فظهر إبداع ونبوغ المتنبي في الشّعر. [1] " فلحظات الإبداع غالباً ما تكون مصحوبة بأزمات انفعالية"[2].

وصلت المبالغة في الشّعر حداً فاق غلو الكثير من الشّعراء، فوصلت بشعره إلى التّكلف والتّصنع في عديد من الأحيان، ولكنه في المقابل تميّز بمعانيه وعباراته المتماسكة وأسلوبه السّليم، وهذا يدل أنّه رجل طبع على الحكمة والاستقلال وأنّ الإجادة كانت في شعره الذي نظمه بغير اضطرار من ظروف عصره الّتي عاشها. [3]

فكان شعر المتنبي شديد اللّصوق بشخصيته، وكان صورةً له في جميع الأحوال، فقسم يتضمن الفخر والتّهديد مع صبغة إنسانية استقاها من آلامه وأمّاله، وقسم يتضمن القومية والجهاد مع مرارة وحسرة كامنة، وقسم فيه عصارة نفس تعاني الفشل والإحباط بمعاني إنسانية، وقسم فيه اللّين والتفات إلى الطبيعة. [4] فقد رأى المتنبي الحياة حرب مستعرة، لا راحة فيها ولا أمّان، أمّان، ولا سلطة فيها إلا للقوة، حربٌ قائمةٌ في السّر والعلن هدفها طلب العزّ والقهر والسّيادة. [5] وهذا ما جعل شعره واستعاراته دائمة لا تموت، فهي ليست وليدة وقت أو حالة، إنّما جاءت نتيجة تأمّل عميق للحياة، ومرتبطة بتجربته وآلامه وما يراه حوله أو يحسّ به. [6]

([1]) نافع، عبد الفتاح: **الشعر العباسي قضايا وظواهر**، ط1، عمّان: دار جرير، 2008، 203 –205.

([2]) المصدر السابق، 218.

([3]) العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 178.

([4]) الفاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، المطبعة البوليسيّة، ص 594.

([5]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 148.

([6]) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص 215.

المبحث الأول

صور الخيل المألوفة في شعر المتنبي

الشعر بحر لا ساحل له، ولا يخوض غماره إلا شاعر متمكّن، يغوص فيه فيستخرج منه الدّرر الكامنة الثّمينة، والمتنبي شاعر استطاع بشاعريته خوض الأغراض الشّعرية جميعها، فكان له في المديح نصيب كبير، وتميّز به، وبرز من خلاله بين الشّعراء وفاقهم، وكان له في الهجاء شعراً ساخطاً ثائراً، ينفث فيه كل حقده دون تروّ ولا هوادة [1] وكان له نصيب في الرّثاء والفخر والوصف وغيرها. فدخل المتنبي عالم الفن من باب الصّلابة والمتانة، فكان يتلقى قارئه بالعدّة والسّلاح والجد، فجعل من شعره حصناً يعظّمه كل من دخله.[2]

فالشّعر عند المتنبي ليس غايةً، إنّما كان وسيلة لتحقيق ما يريد[3]، واعتمد في ذلك على ثراء معجمه اللّغوي، فألفاظه ومترادفاتها كثيرة، ممّا أكسب شعره قوة وعنفواناً وروعة حتّى بدت اللّغة كمادة لدنة يشكلّها الشّاعر بنفسه فتضفي تناغماً موسيقياً رائعاً [4]. وإنّ الفرد ليعجب من المحصول اللّغوي الذي يمتلكه المتنبي، وبراعته في توظيفها في الصّور التّشبيهية، وما تعنيه من رموز في نفوس البشر، وما تعكسه من حالة الشّاعر النّفسية في مختلف أطوار حياته[5].

والمتنبي شاعر وليس مؤرّخاً، ولكنّه بأسلوبه وفلسفته الخاصة استطاع أن يؤرّخ الاضطرابات والفتن الّتي حدثت في عصره، فقد وصف الحرب والقتال، وسجّل كل حركة وضربة، وكان يعامل السّيف والرّمح والطّعن والدّماء معاملة الإنسان للإنسان، يسبغ عليها من إحساسه وعواطفه الشّيء الكثير[6]." فإنّ هذه القصائد فوق ما حوته من قيمة أدبية وسحر بيان، وتحليق في فن المعاني، والأسلوب وسمو في الصّنعة فإنّها تجمع في أبياتها (قيمة تاريخية)

([1]) الفاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص 621.

([2]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 174.

([3]) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص 172.

([4]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 335.

([5]) سلطان، منير: **الصّورة الفنية في شعر المتنبي** " **التشبيه** "، (د. ط)، الإسكندرية: منشأة المعارف، 2007، ص 190.

([6]) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص 172.

و(جغرافية) غالية القدر، وتعدّ وثائق في غاية الخطورة لكتابة التاريخ السّياسي والتّحقيق الأدبي عن عصر سيف الدّولة"[1].

كان المتنبي أحد الشّعراء الذين تخلّصوا من المقدمات في القصائد وبخاصة في قصيدة الحرب، فابتدأ قصائده غالباً بوصف الجيش يركز فيها على وصف الخيل الّتي هي أداة الحرب الرّئيسة آنذاك[2]، ولعلّ وجوده مع الجيش كان أحد مقومات النّصر، فللشعر سحره الخاص، وبه تُرفع المعنويات، وتُستنهض الهمم[3].

ولعل أبرز ما قام به المتنبي في قصيدة الحرب هو انتقاله من الصّورة الفردية إلى الصّورة الجماعية " فقد كان المتنبي يمدح سيف الدّولة، ولكنه لم يكن يصور سيف الدّولة وحده، وإنّما كان يصور معه نفسه، ويصور جماعة المسلمين المجاهدين، ويصور جماعة الروم أيضاً."[4]

الخيل في قصيدة المديح

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

عاش المتنبي في ظلّ دولةٍ تميّز أمراؤها بنهمهم الشّديد للمدح، فأخذ الشّعراء يتسابقون لنيل رضا الممدوحين، فما كان منه إلا أن يمدح بما لم يمدح به أحد قبلهم، فيضاعف له الجزاء.[5]

وقد تناول المتنبي شعر المعارك، وجعل منه ملعباً خاصّاً له، واختصّ بالفرس؛ لما لها من مميزات كثيرة، من حيث السّرعة، والقدرة على المناورة والكرّ والفرّ، إضافةً إلى نشاطها،

([1]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدّولة**، مصر: دار المعارف،1961، ص 262.

([2]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 328-329.

([3]) المصدر السابق، ص 325.

([4]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 174.

([5]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 178.

وطاعتها لفارسها من خلال العلاقة التّلازمية الّتي تربط بين الطّرفين، وقد استعان بالطّبيعة ومظاهرها كالشّمس والنّجوم، والبحار والأنهار، والسّهول والجبال، ليخلق صوراً فنية رائعة الجمال، محكمة الصّنعة.[1] فقد عرف الخيل وجرّبها، ووجد أنّها قليلة كالصّديق، فأبدع في وصفها واقفة وسائرة، عادية في الحرب ومسرعة، فقد كان عبقري الفروسية. [2]وفيه قال الأصفهاني: " ونعت الخيل والحرب من خصائصه" [3]

خيل السفر

تقوم الخيل عند المتنبي بوظيفتها المألوفة وهي إيصاله إلى الممدوح مهما كانت الصّعاب والمشاق، فطول الطّريق قد يهلك الخيل والزّاد والماء، ولكنّ شاعرنا لا يكترث، فيقول:

يا رَجاءَ العيونِ في كُلِّ أرضٍ لمْ يكنْ غيرَ أنْ أراكَ رَجائي
ولَقد أفْنَتِ المَفاوزُ خَيْلي قبلَ أنْ نلتَقي وزَادِي ومائِي[4]

والأعجب من ذلك أنّ الخيل لا تكترث، فهي معودة قطع المفاوز على غير علف أو ماء، فهو يلمّح إلى المشاق الّتي واجهها في سبيل الوصول لممدوحه، لعلّ المكافأة تتضاعف ويُجزل له في العطاء. [5]

يُظهر المتنبي فن التّعامل مع الخيل، ويرينا كيفية ترويض الخيل لتطمئن وتفعل ما يريد فارسها، فهو يوجه خطابَه إليها أولاً، ثم يُبعدُ الخوفَ عنها بإرادته الصّلبة المساندة لها فلا يردعها رادع، ثم يمدُّها بالثّقة بأنّها قادرة على القيام بمهمتها مهما كانت العَقبات، فيقول:

أَعطى الزَّمَانُ فما قَبِلتُ عطاءَهُ وَأَرادَ لي فأَردْتُ أنْ أتخيَّرَا
أَرَجَانَ أيّتها الجيادُ فإنّهُ عَزمِي الذي يَذَرُ الوَشيجَ مُكسَّرَا

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ط1، القاهرة: مكتبة وهبة، 2006، ص 232 – 233.

([2]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 292.

([3]) الأصفهاني، **الواضح في مشكل شعر المتنبي**، ص 27.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 1/ 159. المفاوز: الصحراوات المهلكة القفر وسميت بذلك لأن من خرج منها وقطعها فاز. **اللسان**، باب فوز.

([5]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 254.

أُمَّـــي أبـــا الفضـــلِ المُبِـــرَّ أَلِيَّتِـــي لأُيَمِّمَـــنَّ أجَـــلَّ بَحْـــرٍ جَـــوْهَرَا[1]

فهو صبور، يعاملها كإنسان صديق له، ثم شكر المتنبي خيله ورماحه لأنها أوصلته إلى ممدوحه، قائلاً:

فالحمـــدُ قبـــلُ لـــه والحمـــدُ بعـــدُ لهـــا وللقَنـــــا ولإدلاجِـــــي وتـــــأْويبي
وكيـــفَ أكفُـــرُ يـــا كـــافورُ نِعْمَتَهـــا وقد بَلَغْنَـــكَ بـــي يـــا كُـــلَّ مَطلـــوبي[2]

ثم تمنّى أن يكون خيلاً ليحمل عن ممدوحه مشقّة السّفر وتعبه، يقول:

ليْـــتَ أنَّـــا إذا ارتَحَلْـــتَ لـــكَ الخـــــ ـــــيْلُ وأنّـــا إذا نزلْـــتَ الخيـــامُ[3]

تظهر براعة المتنبي في الكبرياء حين يريده، وفي الذّلة حين يريدها، فمن جهة يستكبر على منافسيه ويستعلي عليهم، ثم يتمنّى أن يكون فرساً يحمل الأمير إذا سار، أو خيمة تظل الأمير إذا قام، فهو بذكائه يدرك أنّ المنافسة شديدة، وأنّ أقرب الطّرق وأيسرها لنيل رضا الممدوح هي التّذلل والملق. [4]

خيل العطاء

أمّا الهدف من ركوب الخيل والتّوجه للممدوح؛ فهو طلب الهبات والعطايا، فيقول معترفاً:

فَسِـرْتُ نحْـوَكَ لا ألْـوي علـى أحـدٍ أحُـثُّ رَاحلتـيّ الفقـرَ والأَدبـا[5]

عرف الممدوح غايته، فلبَّى له طلبه، وأغرقه بالهبات والعطايا، وقد بلغ كرمه درجة رفيعة عندما أراد أن يتَّخذ لخيله نعال الذّهب، وهنا يُظهر المتنبي مبالغة في رفع قَدْرِ نفسه عند

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 269 – 270. أرجان: بلد الممدوح بلد بفارس يقال لها أرغان، مدينة كثيرة الخير، تقع بين شيراز وسوق الأهواز، وقيل إنّ أول من أنشأها هو قُباذ بن فيروز والد أنوشروان العادل. الحموي: **معجم البلدان**، 1 / 142– 143، أمّي: اقصدي. **اللسان**، باب أمم، الأليه: اليمين والحلف. **اللسان**، باب ألّا، برَّ بيمينه: صدق. **اللسان**، باب برر.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 299– 300.

([3]) المصدر السابق، 4 / 63.

([4]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 201. ينظر: عبود، مارون: **الرؤوس**، ص 226.

([5]) المصدر السابق، 1 / 248.

الخليفة، فاكتفى الشّاعر بذلك وأفسح المجال لغيره؛ لينالوا قسطاً من الكرم، وفي ذلك نوع من الغرور والتّعفف في قبول الهدية لقيمتها العظيمة الّتي تعكس قيمته الرفيعة عند ممدوحه، يقول:

تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مالُهُ وأَنْعَلْتُ أفراسِي بِنُعْمَاكَ عَسْجَدَا[1]

وأظهر الشّاعر حبّه لخيله وتقديره لها، ولولا ذلك الحب لما شملها بعطاء الممدوح بما هو غالٍ وقيِّم، فاستخدم الكناية عن صفة ليبرز ذلك[2].

لكنّ الممدوح معتادٌ على الهبة والعطاء، فشبّه العطايا بالعساكر، فيها من كل صنف ولون، يقول:

كَأَنَّ عَطِيَّاتِ الحُسَيْنِ عَسَاكِرٌ فَفِيهَا العِبِدَّى والمُطَهَّمَةُ الجُرْدُ

فعطاياه كانت من العبيد والخيل الحسان التّامة الخلق، القصيرة الشّعر[3] فشبّهها بالجلد وهديته (السّيف) كالشَّامة فيه، يقول:

وَ تَقَلَّدْتُ شَامَةً فِي نَدّاهُ جِلْدُها مُنْفِسَاتُهُ وَ عَتَادُه [4]

فقد تميّز ممدوح المتنبي بالعطاء والكرم في الرّخاء وبالقوة والشّجاعة في الشدّة، يقول:

مِثْلُ الأميرِ بَغَى أمْراً فَقَرَّبَهُ طُولُ الرّماحِ وأيْدي الخيلِ والإبلِ
وعَزْمَةٌ بَعَثَتْهَا هِمَّةٌ زُحَلٌ من تحتها بمكانِ التُّرْبِ من زُحَلِ[5]

وعطايا الممدوح كثيرة، حتّى تبدو ألوف الجياد الّتي يهبهاعطاءً قليلاً، وإنْ أُمِرَ المتنبي باختيار فرس توهب له فسيختار المطهّم، يقول:

مَوْقِعَ الخيْلِ مِنْ نَدَاكَ طَفِيفُ ولَوْ أنَّ الجِيادَ فيها أُلُوفُ
وَمِنَ اللَّفْظِ لَفظَةٌ تَجْمَعُ الوَصْفَ وَذَاكَ المُطَهَّمُ المَعْرُوفُ
مَا لنَا فِي النَّدَى عَلَيْكَ اختيارٌ كُلُّ مَا يَمْنَحُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ[6]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 15.

([2]) الرّبابعة، حسن محمّد: **أدب الحرب عند المتنبي**، ط1، الأردن: مؤسسة رام للتكنولوجيا، 2004، ص 43.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 108.

([4]) المصدر السابق، 2 / 153.

([5]) المصدر السابق، 3 / 163-164.

([6]) المصدر السابق، 3 / 22.

وإنّما اختار المطهّم لأنّ سيف الدّولة طلب منه اختيار وصف فرس يهبها له بلفظة واحدة، واختياره ذلك يدل على دهائه وسعة اطّلاعه وثروة مخزونه اللّغوي، وقدرته على الحصول على رضا سيف الدّولة وإعجابه، وحثه على وهب أفضل ما عنده للشّاعر، وبخاصة عندما أكّدَ أن لا اختيار له على سيف الدّولة فيما يهب لأنّه شريف جليل وكذلك عطاياه. [1]، فالمتنبي يعرف متى وكيف يطلب ما يريد؛ حتّى يظفر به، كالرّامي يصيب فؤاد مرميه فيقتله، فتراه يُظهر نِعَم الممدوح الّتي وصلته ويتغنّى بها، ثم يطلب منه الهبات، يقول:

أيَا رَامِياً يُصْمِي فُؤادَ مَرَامِهِ تُرَبِّي عِدَاهُ رِيشَهَا لِسِهامِهِ
أسِيرُ إلى إقْطَاعِهِ، في ثِيابِهِ على طِرْفِه، مِنْ دَارِهِ، بِحسَامِهِ[2]

وتبلغ جرأة المتنبي أن يطلب الولايات لا الصّلات ممن يمدحه، فيقول ْ :

إن لَمْ تُغِثْنِي خَيْلُه وسِلاحُهُ فمتى أقودُ على الأعادي عَسْكَرَا[3]

وفي هذا " إشارةٌ إلى أنّه يمده بالمال والعبيد فيقدر بذلك على محاربة الأعداء".[4]، ثمّ يظهر المتنبي أعلى درجات الكرم عند الممدوح، فإن سُئل ممدوحه عن هبة أعطى، حتّى لو كان فرسه الّتي يركبها في الحرب الشّديدة، وهي أحوج شيء له، ولكنّه يهبها دون تردد، يقول:

كريمٌ متى اسْتَوهِبْتَ ما أنتَ راكِبٌ وقَدْ لَقِحَتْ حَرْبٌ فإتّك بَاذِلُ[5]

فمن أراد شيئاً يكفي أن يطلب حتّى يُعطى، يقول:

عُدَدُ الوُفُودِ العَامِدِينَ لَهُ دُونَ السِّلاحِ الشَّكْلُ وَ العقُلُ
فَلِشُكْلِهِمْ في خَيْلِهِ عَمَلٌ وَلِعُقْلِهِم في بُخْتِهِ شُغُلُ
تُمْسِي على أيْدي مَوَاهبِه هِي أوْ بَقِيَّتُهَا أو البَدَلُ[6]

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 3 / 22، المطهم: "هو المعروف عند أهله: أي أنه متى أطلق عند أرباب الخيل عرف أن ما يوصف به هو التام المحاسن الخالي من العيوب ". **اللسان**، باب طهم.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 115.

([3]) المصدر السابق، 2 / 271.

([4]) المصدر السابق، 2 / 271.

([5]) المصدر السابق، 3 / 236. حرب لاقح مثل بالأنثى الحامل، لقحت: اشتدت أو وقعت. **اللسان**، باب لقح.

([6]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 20.

فعطاياه أصناف: موفورة سُبقت بغيرها، أو تكون قد بقيت منها بقية، أو تكون استبدل غيرها [1].

ولكن هديته من الخيل تكون موسومة باسمه ليعلم أنّها من خيله، وهذا أمر غير خاص بالخيل فقط، إنّما كل حيوان موسوم باسمه ؛ لأنّه يملك جميع الأحياء، فهو يملك الفرس والفارس (وإن لم يوسموا حقيقة)، يقول:

وَقَدْ وَصَلَ المُهْرُ الذي فَوْقَ فَخْذِهِ مِنِ اسْمِكَ مَا في كُلِّ عُنْقٍ وَ مِعْصَمِ
لَكَ الحَيَوانُ الرَّاكبُ الخيلَ كُلُّهُ وإنْ كَانَ بالنِّيرانِ غَيْرَ مُوَسَّمِ[2]

أمّا للمتنبي فإنه لا يعطيه خيلاً خوفاً من أن يفارقه، فهي المعينة على السّفر والبعد، فتكون من أسباب الفراق، ولكنّه لا يمنع عطاءه، فيغدق على المتنبي مالاً يكفي لشراء الخيل السّوابق، يقول:

حَبَاني بِأثمَانِ السَّوابق دُونَها مَخَافَةَ سَيْري إنّها للنّوى جُنْدُ
وشَهوة عَوْدٍ إنَّ جُودَ يَمينِهِ ثُنَاءٌ ثُناءٌ والجَوَادُ بها فَرْدُ[3]

ولا يخفى سرور الشّاعر في الأبيات السّابقة، وهو يعلم أنّ الخليفة لا يحب فراقه لمكانته العظيمة عنده.

يخلّد الشّاعر عطاء ممدوحه من خلال القيان الصّانعات لأجمل الملابس، والّتي كان للمتنبي نصيب منها، فزيّنت الثّياب بصور عديدة، منها ما كان للخيل القوية إلا الزّمان، فلا صورة له، يقول:

ولم يَكْفِها تَصْويرُها الخيْلَ وَحْدَها فَصَوَّرَتِ الأشياءَ إلّا زَمَانَهَا[4]

وقد تمرّ عليه أيام يحنُّ إلى مطاردة الفرسان وإجراء الخيل وسباقها، فيقول:

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 4 / 20. البخت: الإبل الخرسانية تنتج من بين عربية وفالج، أعجمي معرّب. **اللسان**، باب بخت، شكال: العقال، الخبل الذي تشدّ به قوائم الفرس. **اللسان**، باب شكل.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 271- 272.

([3]) المصدر السابق، 2/ 109.

([4]) المصدر السابق، 4 / 303.

تَـذَكّرْتُ مـا بَـينَ العُـذَيبِ وبَـارِقِ مَجَـرَّ عَوَالينَـا وَمَجْـرَى السّـوَابِقِ[1]

وهذا دليل على شخصية المتنبي الّتي تعشق الفروسية وتبحث عنها في كل زمان.

ومن كرم أخلاقه أنّ عطاءه يصل إلى العبيد، فيهبهم ما يعينهم على مقارعة الأعداء ويثبّتهم عند اللّقاء من خيل وسلاح، وغيرهم بتلك النّعم مقتول حسداً؛ لأنّه يسلب النّعم من أعدائه ويمنحها لمواليه وعبيده، يقول:

ومَـوَالٍ تُحيْـيهِم مـن يَدَيْـهِ نِعَـمٌ غيـرُهم بهـا مقتـولُ
فَـرَسٌ سَـابِقٌ ورُمْـحٌ طَويـلٌ ودِلَـاصٌ زُغْـفٌ وسـيْفٌ صَـقيلُ[2]

وذلك حسن تدبير من الخليفة بأن يرضي جنوده ويبقيهم حوله بنعمه الّتي يغدقها عليهم، فيحاربون إلى جانبه مخلصين بكل طاقتهم. ولمّا عمّت مكارمه النّاس جميعاً شبّهها المتنبي بطوائف الخيل، تغلّب غيرها وتحقّق النّصر، يقول:

هَزَمَـتْ مَكارِمُـهُ المَكـارِمَ كُلَّهـا حتَّـى كَـأَنَّ المَكْرُمـاتِ قَنَابِـلُ[3]

وهذه الخيل تقرّب للممدوح أيّ أمر يريده، فلا شيء بعيد المنال عنده، لأنّ رماحه وأيدي خيله وإبله تمكّنه منه، يدعمهما المال والعزيمة في ذلك، فكان الرّكوب للحرب عندهم كالرّكوب لنزهة في أحد البساتين، فشبّه الخيل المحملة بالرّماح بالبساتين المليئة بالأشجار، يقول:

ولـك النّـاسُ والـبلادُ ومـا يَسْـرَحُ بـين الغبـراءِ والخضـراءِ
وبسـاتينُكَ الجيـادُ ومـا تَحمـلُ مـن سَـمْهَرِيَّةٍ سَـمْرَاءِ[4]

ولمّا أراد المتنبي ردَّ الهدية، أصابته الحيرة، فكيف يهدي الممدوح شيئاً كان يملكه ووهبه للمتنبي، فكأنّ العبد يهدي إلى ربّه، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3 /60. العذيب: موضع بالكوفة. الحموي: **معجم البلدان**، 92/4. بارق: موضع بالكوفة وقيل ماء بالعراق. المصدر السابق، 1 / 319.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 274. دلاص: درع براقة ملساء. **اللسان**، باب دلص، زغف: الدرع المحكمة اللينة. **اللسان**، باب زغف.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 373.

([4]) المصدر السابق، 1/ 157. الغبراء: الأرض لغبرة لونها. **اللسان**، باب غبر، سمهرية: الرّماح الصلبة. **اللسان**، باب سمسر.

كَثُــرَ الفِكــرُ كيــف نُهــدي كمــا أَهْـدَتْ إلــى ربِّهــا الــرئيس عِبــادُهْ
والــذي عنــدنا مــن المــالِ والخيــلِ فَمِنْــــــه هِباتُــــــهُ وقِيــــــادُهْ [1]

فعطاء الممدوح يلفّهم، فما ينفقونه إنّما هو من ماله، وما تلبسه الجواري من حسن الثّياب فمن جوده، وما تجرّه الخيل من أرسان فمن كرمه، ويؤكّد المتنبي ذلك بقوله:

تخالُــهُ مــن ذكــاء القلــب مُحْتَميــاً ومِــنْ تكرُّمِــهِ والبِشْــر نشــواناً
وتَسْــحَبُ الحِبَــرَ القَيْنَــاتُ رَافِلــةً في جُــودِهِ وتَجُــرُّ الخيــلُ أرْسَــانَا [2]

وكسائر الشّعراء، فإنّ المتنبي يتنقل كالنّحلة من محسنٍ إلى آخر، فإن لم يحصل على ما يتمناه عند خليفة توجه إلى آخر يبحث في جعبته عما يريد، وتعينه خيله على ذلك، يقول:

نَجُوز عليْهــا المُحسِــنين إلــى الــذّي نَــرى عِنْــدهم إحْســانَه و الأيَادِيَــا[3]

فهو يرى أنّ إحسان ممدوحه قد غمر المحسنين، وغطّى على عطائهم، لشــدّة كرمــه وجوده. [4]

وها هو المتنبي يتقلّبُ مسروراً في نعماء سيف الدّولة، وقد غُمِر بمكارمــه وأفضــاله، يقلّب نظره بين الخيل القوية والخدمة الحسنة، يقول:

بِالشَّــرق والغَــرْبِ أقْــوامٌ نُحِــبُّهُمُ فَطَالِعَــاهُمْ وكُونَــا أَبْلَــغَ الرُّسُــلِ
وَعَرِّفــاهُمْ بِــأنّي فــي مَكَارِمِــه أُقَلِّــبُ الطَّــرف بــين الخيــلِ والخَــوَلِ
أقِل أنِلْ أقْطِــع احمِــل عَــلَّ سَــلِّ أَعِــدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّــل أَدْنِ سُــرَّ صِــلِ[5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 157. وهذا من قول ابن الرومي:
مِنْكَ يا جنة النعيم الهدايا أفنهدي إليك ما منك يُهدى. المصدر السابق، 2 / 158.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 357. البشر: الفرح والسرور. **اللسان**، باب، نشوان: سكران. **اللسان**، بــاب نشــا، قينــات: الجارية المغنية، رافلة: إطالة الثياب وجرها متبخترة. **اللسان**، باب رفل، أرسان: الحبل. **اللسان**، باب رسن.

([3]) عليها: أي الخيل، المتنبي، **الديوان**، 4 / 424. نجوز: نتخطى. **اللسان**، باب جوز

([4]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 425.

([5]) المصدر السابق، 3 / 208–209.

عدّ بعضهم البيت الأخير بيتاً سخيفاً سمجاً، تعمده المتنبي ليغيظ خصومه، ويظهر براعته من جهة، وابتهاجه بالعودة إلى الأمير وديارِه.[1] اعتمد فيه أسلوب التقسيم بما فيه من الجناس والازدواج، فبذل فيه جهداً فوق ما يبذل عادةً. [2]

وإن لم يملك خيلاً أو مالاً يهديه للممدوح جزاء إحسانه عليه، فليس أمّامه سوى النّطق بالثّناء عليه ومدحه، يقول:

لا خَيْلَ عنْدَكَ تُهْديها و لا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْعِدِ الحالُ[3]

قال العكبري: " وهذا من الابتداء الذي يكرهه السامع، بأن يقول للممدوح: لا خيل عندك تهديها ولا مال، وهو أول ما يقول له." [4]

خيل الحرب

أمّا الدّور الآخر للخيل عند المتنبي فهو المشاركة في القتال، وإعانة صاحبها على خوض الأهوال، حيث استطاع المتنبي إدخالنا في أجواء المعركة بكل قوة من خلال تراكيبه وألفاظه القوية المترادفة مرّةً، والمتضادة مرّة أخرى.

فقد وجّه إلى الأعداء جيشه مُحصناً بالخيول والرّماح ليريق دماءهم، يقول:

رَمَى حَلَباً بِنواصي الخيولِ وسُمْرٍ يُرِقْنَ دَماً في الصَّعِيدِ[5]

يحمل البيت معاني الإرادة والعزيمة على النيل من الأعداء، فقد نالت من العدوّ، وسفكت دماءهم، يقول:

([1]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 266.

([2]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 313.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 394. في مثل هذا المعنى يقول يزيد المهلبي:

إنْ يُعجِزِ الدَّهرُ كفِّي عن جزائكم فإنني بالهوى والشكر مجتهدُ

المصدر السابق، 3/ 394.

([4]) العكبري: **شرح التبيان على ديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين**، ط1، المطبعة العامرة الشرفية، 2 / 197

([5]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 66.

وكَــرَّت فَمَــرَّتْ فــي دمــاءِ مَلَطْيَــةَ مَلَطْيَــــةُ أُمٌّ للبنـــــينَ ثَكُـــــولُ
وَأَضْــعَفْنَ مــا كُلِّفْنَــهُ مــن قُباقِــبٍ فأضــحى كــأنَّ المــاءَ فيــهِ عَليــلُ
وَرُعْــنَ بنــا قلــبَ الفُــراتِ كأَنّمــا تَخِــرُّ عليــهِ بالرِّجــالِ سُــيولُ[1]

فجعل مدينتهم تحزن لفراقهم، كأمٍّ فقدت أبناءها، ثم غيّر ملامح الطّبيعة حين عبرت نهر الفرات، فكثرتها جعلت سيل النّهر ضعيفاً، وقد شبّه النّهر بإنسان فزع القلب، لكثــرة الخيــول والفرسان[2] وإن كنّا نرى الإعجاب والتّقدير ومدحٍ لأفعال الخيل وفوارسها، إلا أنَّنا نستطيع أن أن نرى شفقة المتنبي على قتلى العدوّ، حين أظهر صورة الأم المفجوعة بفقد أبنائها، المكلومــة بخناجر الحزن والأسى عليهم.

وخيله لا تحمل إلا الهلاك لمن بغى وظلم، وعصى أوامر الخليفة، يقول:

وحَــامَ بِهــا الهَــلاكُ علــى أُنــاس لهــمْ باللَّاذِقِيَّــةِ بَغْــيُ عــادِ[3]

فحملت الخيل الفرسان لحرب العدوّ، كما وعدهم الممدوح بالضّبط، وهو لا يُخلف وعده، يقول:

وَمَنَّــاهُمُ الخيــلَ مَجنُوبَــةً فَجِــئْنَ بِكــلِّ فَتًــى بَاسِــلِ[4]

الخيل السريعة

طلب المتنبي من ممدوحه أن يرخي للخيل عنانها لتتوجّه إلى بلاد الأعادي، فلا تخيّــب ظنّه بل تنطلق مسرعةً إليها حتّى لو كانت بعيدة، يقول:

فَقَرِّطهــا الأعنّــةَ راجِعــاتٍ فــإنَّ بَعيــدَ مــا طَلَبَــتْ قريــبُ[5]

ويقول أيضاً:

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 3 / 224.
([2]) المصدر السابق، 3 / 224.
([3]) المصدر السابق، 2 / 81.
([4]) المصدر السابق، 3 / 155. مجنوبة: الخيل الّتي لا تركب ولا تنقاد. **اللسان**، باب جنب، باسل: شجاع. **اللسان**، بــاب بسل
([5]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 203.

ومـــالَ بهـــا علـــى أرَكٍ وَ عُـــرْضٍ وأهـــلُ الـــرَّقَّتَيْنِ لهـــا مَـــزَارُ[1]

كان الخليفة متوجهاً في زيارة إلى بلاد الرّقّتين ولكنّه مال إلى أرَك وعُرْض على الرّغم من أنّهما بعيدتان عن قصده؛ وذلك طلباً لعدوّه، فلا يهنأ له بالٌ حتّى يقتل العدوّ أينما كان، وهذا حال من اعتاد الظّفر والنّصر، لا يرى شيئاً بعيداً، فهو عازمٌ على الأمور، وما يراه الآخـرون بعيداً يراه قريباً، يقول:

يَرمِـــي بهـــا البلَـــدَ البَعيـــدَ مُظَفَّـــرٌ كـــلُّ البعيـــدِ لـــهُ قريـــبٌ دانِ[2]

وكما يقال: الحرب خدعة، وفيها الكرّ والفرّ، فقد عادت خيل سيف الدّولة، وقـد ظنّهـا الرّوم عائدة لديارها، وما علموا أنّ لا رجوع لها، إلا بعد الدّخول عليهم، فما ظنّوه إنّمـا كـان تحضير لهجمة شرسة من خيل الممدوح، يقول:

وعـــادَتْ فَظَنُّوهـــا بِمَـــوْزَارَ قُفَّـــلاً ولـــيسَ لهـــا إلّـــا الـــدُّخُولَ قُفُـــولُ[3]

فإرادتها قوية، لا يقف في وجهها شيء، وكذلك فارسها، فإنّ طعن الأعداء، لم يشـعروا بألم الطّعنة ؛ لسرعتها، فتقتلهم قبل أن يدركوا ألمها، يقول:

ويَطْعـــنُ الخيـــلَ كُـــلَّ نافِـــذةٍ لـــيسَ لهـــا مِـــنْ وَحائِهـــا ألـــمُ[4]

وقيل: " لم توصف الطّعنة بوحاء أسرع من هذا" [5]

وفي موضع آخر، جعل الطّعنة عظيمةً، حتّى أنّ الجراح الّتي يخلّفونها فـي أعـدائهم واسعة، تستطيع الخيل الدخول فيها لشدّة اتساعها، يقول:

كأنّهـــا تتَلقَّـــاهم لِتَسْـــلُكَهم فالطَّعنُ يفتحُ في الأجوافِ مـا تَسَـعُ[6]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 211 – 212.

([2]) المصدر السابق، 4 / 310.

([3]) المصدر السابق، 3 /223.

([4]) المصدر السابق، 4 / 181.

([5]) المصدر السابق، 4 / 181.

([6]) وفيه نظر إلى قول قيس ابن الخطيم:

طعنـــتُ ابـــنَ عبـــد القـــيسِ طعنـــةَ ثـــائر لهـــا نَفـــذٌ لـــولا الشـــعاع أضـــاءها

ملكـــتُ بهـــا كفّـــي فـــأنهَرْتُ فتقهـــا يـــرى قـــائمٌ مـــن دونهـــا مـــا وراءهـــا

المصدر السابق، 2 / 336.

وفي ذلك مبالغة وإفراط، جعل فيها الفوارس يفتحون أجساد أعدائهم ليتّخذوا منها طرقاً يسلكونها.

ففرّ العدوّ إلى الجبال من الممدوح، وقد عافتهم، فشبّهها بالخيل السّابقة الّتي سلّمتهم للممدوح الذي تركهم مقتولين طريحين، كأنهم سُجَّدٌ على الأرض ودماؤهم حولهم تملأ المكان، يقول:

مُخَضَّبَةٌ والقومُ صَرعى كأنّها وإنْ لمْ يكونوا ساجدين مَساجدُ
تُنَكِّسُهم والسَّابقاتُ جِبَالُهُمْ وتَطْعنُ فيهم والرّماح المَكَايدُ[1]

وهذه صورةٌ قاسية، أن يستنجد الفارُّ ويتحصّن بمكان أو أحدٍ ما ثم يُسَلّمُ للموت وإن كان عدوّاً.

ولكن المتنبي يظهر حزم ممدوحه وثبات موقفه على تطهير البلاد من شر أعدائها دون أن تأخذه بهم رحمةٌ أو شفقة. وقد حملت بعض الألفاظ بين طيّاتها معاني العنف والاضطراب وعدم التنظيم، ومعاني القهر والضغط والذّلة مثل (تنكّسهم) إضافة إلى سعة الحيلة والذكاء للممدوح[2].

ولكنّ خيل الممدوح (سيف الدّولة) لم تدرك عدوّه الفارّ من أرض المعركة، وهذا ليس لعيب فيها، فهي وفرسانها كالأسود في قوتها، ولكن لا يمكنها أن تصيد طائراً لأنّه لا مطار للأسد، فيقول:

فَكانُوا الأُسدَ لَيسَ لهَا مَصَالٌ عَلى طَيرٍ ولَيسَ لهَا مَطارُ[3]

في الأمر نكتة ساخرة شبّه فيها العدوّ بالطّائر سريع الطّيران؛ لأنّه شديد الإسراع في الفرار، كأنّ الشّاعر يبرر ويخلق أعذاراً للخيل لتخلّفها عن اللّحاق بالعدو.

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 1 / 396.

([2]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 278.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 210/2. مصال: الوثبة أو السطو. **اللسان**، باب صول، مطار: موضع الطيران. **اللسان**، باب طير.

الخيل الشرسة

جعل المتنبي خيله معتادةً على القتال والضّراب، فصارت تدوس جماجم الأعداء وصدورهم، ولا تنفر؛ وذلك لأنّها في صغرها كانت تُسقى اللّبن في أقحاف رؤوسهم، يقول:

أَدَمْنا طعْنَهم و القتلَ حتّى خَلَطْنا في عِظامهم الكُعُوبا
كأنَّ خُيولنا كانت قديماً تُسَقَّى في قُحُوفِهم الحليبا
فَمرَّتْ غيرَ نافِرَةٍ عليهم تدوسُ بنا الجَماجِمَ و التَّريبا[1]

فالخيل الكريمة هي الّتي تسقى أجود الألبان، هي أول ما يلاقي العدوّ، يقول:

فَلُقِّينَ كُلَّ رُدَيْنِيَّةٍ ومَصْبوحَةٍ لبنَ الشَّائِلِ[2]

وهذا يدل على ثقتهم بها، وبقدرتها على النّيل من الأعداء. أمّا كلمة الشائل فمن الألفاظ الّتي عابها النّقاد على المتنبي، فالشّائل هي النّاقة الّتي لا لبن فيها، أمّا الشّائلة فهي الّتي فيها بقية من لبن، فتسقى بها كرام الخيل، ولمّا سئل المتنبي عنها، قال: " أردتُ الهاء وحذفتها "، وذلك لإقامة الوزن. [3] وقد يدل ذلك على ولع المتنبي في استخدام اللفظ البدويّ، دون اهتمّام بما فيه من غلظة وخشونة[4].

ففي مثل تلك الحروب العظيمة، لا تَطَأُ حوافر الخيل الأرض ؛ لكثرة القتلى، بل تَطأُ أجسادَ العدا أو تعثر برؤوسهم، وقد شبّه المتنبي المعركة ببحر الموت لكثرة ما فيها من دماء، يقول:

فَخَاض بالسَّيفِ بحرَ الموتِ خَلْفَهم وكان منه إلى الكعبين زاخِرُهُ
حتّى انتهى الفَرَسُ الجارِي وما وَقَعَتْ في الأرضِ من جُثَثِ القَتْلَى حَوَافِرُهُ[5]

([1]) جرت العادة عند العرب أن تسقي اللبن كرامَ خيولها. المتنبي: **الديوان**، 1 / 265.

([2]) المصدر السابق، 3 / 157.

([3]) المصدر السابق، 3 / 157.

([4]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 217.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 224 – 225. ومثله قول محمد بن علي الجواليقي: بينا يرى فارساً على فرسٍ إذ صار نعلاً لموطئ الفرس. فكلاهما يحمل معنى واحداً. التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ط1، تح: حمودي زين الدبن، بيروت: عالم الكتب، 1993، ص 248 – 249.

تدل الصّورة الّتي رسمها المتنبي لتلك المعركة على أنّها حربٌ شرسةٌ، ولكنّها في نفس ممدوحه صغيرة، لم يصل ماؤها إلى كعبيه، وفي ذلك تأكيد على شجاعة الممـدوح، وعزيمتـه الّتي لا تُقهر، أمّا عدوّه الذي غرق في مائها فهي عظيمة، وكذلك خيلهم لمَّا لطخت أيديها بالـدّم ولّت هاربةً كأنَّ بها مرض، يقول:

يُـدَمِّي بعـضُ أيْـدي الخيـل بعضـاً ومـا بِعُجَايَـةٍ أَثَـرُ ارتِهَـاشِ[1]

فلا يردعه أمر ولا يخيفه شيء، فتراه يُقدم ومعه خيله الّتي تركها تدوس رؤوس العـدا بحوافرها حتّى تمزجها بالرّمل، فتختفي فيه، يقول:

وَلا يَـزَعُ الطَّـرْفَ عـن مُقْـدَامٍ ولا يَرْجِـعُ الطّـرْفَ عـن هائِـلِ
تركـتَ جمـاجِمهم فـي النَّقـا ومـا يَتَخَلَّصْـنَ لِلنَّاخِـلِ[2]

فتطأ الخيل الأبطال والرّماح لقوتها، وقد كشف المتنبي حالة النّصر المتكرر لممدوحـه، فهو وخيله مَن يبقى واقفاً بعد نهاية الحرب، وغيره مَن تُوطَأ رؤوسهم كناية عـن الهزيمـة و الذّل[3].

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 318. العجاية: عصبة في اليد فوق الحافر. **اللسـان**، باب عجا، الارتهاش: أن تصـك الدابـة إحدى يديها بحافر الأخرى حتّى تدمى الرواهش وهي عصب الذراع. **اللسان**، باب رهش.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 158 – 159 – 161. النقا: الكثيب من الرمل. **اللسان**، باب نقا.

ومن الصّور المشابهة لها قوله:

يَتَعَثَّـرْنَ بـالرّؤوس كمـا مَـرَّ بِتَـآتِ نُطْقِـهِ التَّمْتَـامُ

المتنبي: **الديوان**، 4 / 222.

فشبّه تعثر الخيل برؤوس القتلى بشخص يتلعثم لسانه بالتاء، " فتعثر الخيل بالرؤوس تعثر جسم بجسم، وتعثر التمتام فـي النطق، وفي ذلك تشبيه الحقيقة بالاستعارة". التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 555 – 556. ويقول أيضاً:

أرى دونَ مـا بـينَ الفُـراتِ و بَرْقَـةٍ ضِـرابَاً يُمَشِّـي الخيـلَ فـوقَ الجمـاجم

المتنبي: **الديوان**، 4 / 241

ويؤكد على هذه الصّورة في موضع آخر قائلاً:

يَطَـأنَ مـن الأبطـالِ مَـنْ لا حَمَلْنَـهُ ومِـنْ قِصَـدِ المـرَّانِ مـا لا يُقَـوَّمُ

المصدر السابق، 4 / 71 – 72.

([3]) المصدر السابق، 4 / 71 – 72. وهذا من قول الحصين بن الحمام:

يَطـأنَ مـن القتلـى مـن قِصَـدِ القَنـا خَبـاراً فمـا يَجـرين إلا تجشـما

المصدر السابق، 4 / 72.

ومن هنا فقد ظهر الدّم رمزاً للنّصر والشّجاعة مرّةً، ورمزاً للهزيمة والخوف مرّةً أخرى، ولكنّه في المرتين كان مرتبطاً بالموت والدّمار.

وقد أكدّ الشّاعر على الازدواجية بين الخيل وأصحابها، فهي لا تتصرف بمفردها، إنّما يقودها أبطال فتشاركهم رغباتهم في تدمير الأعداء[1].

وتقوم الخيل بالجهد الأعظم في الحرب، فإن همَّ الفارس لأمر، صفّحت الخيل أيديها بالحديد، وأدركت العدوّ وإن كانوا بعيدين، وداستهم بحوافرها حتّى تصير جلودهم ولحومهم طراقاً لنعالها، أمّا الرّماح فتضمن للفوارس أرواح أعدائهم، فالحرب لا تكلّف الفارس شيئاً، يقول:

فلا تستنكرَنَّ لـه ابتِساماً إذا فَهِقَ المُكرُّ دماً وضاقا
فقد ضَمِنَتْ لَه المُهَجَ العَوالي وَحَمَّلَ همَّهُ الخيلَ العِتاقا
إذا أُنْعِلْنَ في آثارِ قومٍ وإنْ بَعُدُوا جَعَلْنهم طِراقاً[2]

قارئ هذه الصّورة، يجد أنّها قاتمة قاسية، تنمّ عن حقد وكره للعدو، وعزم وإصرار على تدميره مهما كلّف الأمر، حتّى أنّ الفارس ينقل عزمه وقوته لرمحه وخيله، فأصبح الهدف واحداً عند الكل، ولكن كيف تحصل الخيل على راحتها؟

يجيب المتنبي عن ذلك بقوله:

شَفَنَّ لِخَمْسٍ إلى مَنْ طَلَبْنَ قُبيْلَ الشُّفُونِ إلى نازِلِ
فَدَانتْ مَرافقُهنَّ الثَّرَى على ثِقَةٍ بالدَّمِ الغَاسِلِ[3]

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 166.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 43 – 44. إنعال الخيل: تنعيل الحافر بطبق من حديد لتقيه الحجارة. **اللسان**، باب نعل، طراق: نعل تحت نعل. **اللسان**، باب طرق. ومثل هذا لأبي الأخزر الحماني:

لم تشكُ خيلهم الوَجَى مِنْ رَوْحَةٍ إلا انْتَعَلن من الدماء قَتيلاً

المتنبي: **الديوان**، 3 / 44.

([3]) المصدر السابق، 3 / 156. شفن: نظرن بمؤخرة العين. **اللسان**، باب شفتن

فالخيل تثق بأنّ فارسها سيمحو آثار التّعب والغبار بدماء أعدائهم، فكان الدّم هنا رمـــزاً للراحة والسّعادة. وخيله تخلو من الرّحمة، ولا تتوقف حتّى لو كان خصمها من أعــزّ الملــوك وأعظمهم، فإن دخلت أرض العدوّ وطِئت جبينهم، وأخذت بلادهم، وأبدلت غناءهم أنينا، يقول:

وأبْـــــدَلَتْ غِنـــــاءَهُ أنينَـــــهُ وضَـــــيْغَمٍ أوْلَجَهـــــا عَرينَـــــهُ
ومَلِـــــكٍ أوْطَأَهَـــــا جَبِينَـــــهُ يقُودُهَـــــا مُسَـــــهِّداً جُفُونَـــــهُ[1]

وذلك دليل جرأة وشجاعة من الخيل وأصحابها. فوطأتها شديدة على الأرض، بها تفتت الصّخور وتصيّرها رمالاً، يقول:

إذا وَطِئَـــــتْ بأَيْـــــدِيَها صُـــــخُوراً يفِـــــئْنَ لـــــوَطْءِ أَرْجُلِهَـــــا رِمَـــــالاً [2]

وفي ذلك افتخار بامتلاكه خيل لديها كلّ هذه القوّة الّتي يخيف بها أعداءه، وقد شبّه مشي الفرس وهي تتعثر برؤوس القتلى وتخوض في دمائهم بمشي السّكران، يقول:

مـــا زال طِرْفُـــكَ يَجْـــرِي فـــي دمَـــائِهم حتّى مَشَى بِك مَشْيَ الشَّـــارِبِ الثَّمِـــلِ[3]

ويقول:

فخاضَتْ نَجيـــعَ الجَمْـــعِ خوْضـــاً كأنَّـــه بِكُـــلِّ نَجيـــعٍ لـــم تَخُضْـــهُ كَفيـــلُ[4]

فلا تكثرث الخيل لخوض دماء الأعداء، فهذا مشهد طبيعي قد اعتادته.

وفي مثل هذه الأيام، تنخلع قلوب الأبطال، لكنّ ممدوح المتنبي بالغ الشّجاعة، لا يُرهبه منظـــر الخيل في تلك الحالات، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 306.
ولشجاعتها، فإنّها تدخل ديار الملوك، وتطأُ هأمّاتهم وديارهم بحوافرها، يقول:
كَتائِـــبَ مـــا انفَكّـــتْ تَجُـــوسُ عَمـــائِراً مـــــن الأَرْضِ قـــــد جاسَـــــتْ إلَيهـــــا فيافِيَـــــا
غَـــزَوْتَ بهـــا دُورَ المُلُـــوكِ فَباشَـــرَتْ سَـــــــنَابِكُها هَأمّـــــــاتِهِمْ وَالمَغانِيَـــــــا
المتنبي: **الديوان**، 4 / 430 – 431.
([2]) المصدر السابق، 3 / 346. يفئن: يعدن. **اللسان**، باب فاء. وكما قال ابن المعتز:
كأن حَصى الصّمان من وقعها رَمْلُ. المتنبي: **الديوان**،3 / 346.
([3]) المصدر السابق، 3 / 169.
([4]) المصدر السابق، 3 / 223.

أنتَ الشّــجاع إذا مــا لَــمْ يَطَــأْ فَــرَسٌ غَيْــرَ السَّــنَوَّرِ والأشــلاءِ و القُلَــلِ[1]

وكذلك خيله، لا تخشى شيئاً فباستطاعتها الغوص في عمق الوطيس، وقد امتلأت بدماء القتلى، فَجَرَتْ بسيف الدّولة ولم تبالِ، ففارس يمتلك مثل هذه الفــرس لا يُخشــى عليــه قطــع الطّريق، يقول:

وَمِثْــــلِ العَمْــــق مملُــــوءٍ دِمَــــاءً جَــرَتْ بــك فــي مَجَارِيــه الخيــولُ
إذا اعتــــادَ الفتــــى حَــــوضَ المنايــــا فــأهونُ مــا يَمُــرُّ بــه الوُحُــولُ[2]

فإن أعطاها عليقها، رفعته على هام الرّجال الذين قتلهم، لكثرتهم حولها، فقــد اعتــادت على ذلك في غزواتها "، يقول:

تعــــوّدَ أن لا تَقْضــــمَ الحــــبَّ خيلُــــهُ إذا الهامُ لم ترفَــعْ جُنُــوبَ العلائِــق[3]

وفي ذلك استهزاء بقتلى العدوّ وإهانة لهم حين أصبحت هاماتهم موضع مخلاة الخيول.

ولمّا كان الأمر كذلك، بعثت الرّوم رسولاً إلى سيف الدّولة، ولمّا وصلهم، شرع المتنبي يقول:

وأنّى اهتــدى هــذا الرّســولُ بأرضِــه وما سكَنَتْ مُذْ سَــرَتْ فيهــا القَسَــاطِلُ
ومِــنْ أيِّ مَــاءٍ كــان يَسْــقِي جيــادَهُ ولمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ الــدِّمَاءِ المَنَاهِــلُ[4]

يتضح من كلام الشّاعر تعظيم شأن سيف الدّولة الذي خلّف أرض المعركة غارقة بدماء قتلى الأعداء، وغبار خيله لم تسكن بعْد، وهذا يدل على عظيم أثره وقوته البالغة، ويظهر فــي نفس الوقت استهزاءه بالرّوم وبرسولهم وبالحال الّتي وصلوا إليها لمّا واجهوا ممدوحه، فيسخر متسائلاً والحال كذلك (كيف استطاع الرّسول اجتياز الطّريق وهي مُغبرّة، وكيف ســقى جيــاده والمناهل ممزوجةٌ بدمائهم؟)

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3 /211 –212. السنور: لبوس من قِدّ يلبس في الحرب كالدروع. **اللسان**، باب ســنر. الأشِــلاء: العضو. **اللسان**، باب شلا، القلل: قلة: أعلى الرأس. **اللسان**، باب قلل.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 138.

([3])"قال ابن جني: سألته _ المتنبي _ عن معنى هذا البيت، فقال: الفرس إذا علقت عليها المخلاة طلب لها موضعاً مرتفعاً يجعلها عليه ثم يأكل ". المصدر السابق، 3 / 71. العليق: القضيم يعلّق على الدابة. **اللسان**، باب علق.

([4]) المتنبي، **الديوان**، 3 / 233

فالخيل تساعد فارسها على إذلال عدوِّه حتّى ينقاد ويُطيع، فإن هجمت عليهم قتلتهم حتّى علت صيحاتهم وبكاؤهم على قتلاهم، يقول:

وذِي جُنُـــونٍ أذْهَبَـــتْ جُنُونَـــهُ وَشَـــرْبِ كَـــأس أكثَـــرَتْ رَنِينَـــهُ[1]

فالخيل هنا رمز الغلبة وإذلال العدوّ، فهو يرى فيها سلاحه الأقوى، فتغني فارسها عـن الخنادق والحصون، يقول:

أمْ جِئْتَـــهُ مُخَنْـــدِقاً حُصـــونَهُ إنَّ الجيـــادَ و القنـــا يَكْفِينَـــهُ[2]

وما إنْ تفرّغ من حرب حتّى تنتقل لتخوض حرباً أخـرى دون أن تكثـرث لتخضـب قوائمها بالدّم، يقول:

يُقَـــدِّمُها وقـــدْ خُضِـــبَتْ شَـــوَاها فتًى تَرْمِـي الحـروبُ بـه الحُرُوبَـا[3]

فكما ترى، وصف المتنبي الحرب وأهوالها، وقد شغف بالصّورة المفزعة، المليئة بالدّم والقتل، فهكذا تستطيع نقل شعره في الحرب إلى إطار الملاحم العربيّة الكبرى[4].

ولكن تستيقظ المشاعر الإنسانية في قلب الممدوح، فيرأف بهم، ويشملهم بعفوه، ولـولا ذلك لما رحمتهم خيله، يقول:

لســتُ مِمّــن يَغُــرُّهُ حُبُّــكَ السِّلْـــ ـــمَ وأنْ لا تَـــرَى شُـــهُودَ القتـــالِ
ذاك شَـــيءٌ كَفَاكَـــهُ عَـــيْشٌ شَانِيـــ ـــكَ ذلـــيلاً وَ قِلَّـــةُ الأشـــكالِ
واغْتِفَـــارٌ لـــو غَيَّـــرَ السُّـــخْطُ مِنْـــهُ جُعِلَـــتْ هَـــامُهُم نِعَـــالَ النِّعَـــالِ[5]

نجح المتنبي في إظهار أخلاق الممدوح النّبيلة، فقد كفاه أنَّ عدوه قد ذلَّ بالهزيمة، فلـم يعد بحاجة لقتالهم، فعفا عنهم، واستخدم المجاز بشكل بارع، فلو أراد الممدوح لجعل هامهم تحت النِّعال فكأنها نعال للخيل[6].

([1]) المتنبي، **الديوان**، 4 / 306.

([2]) المصدر السابق، 4 / 305.

([3]) المصدر السابق، 1 /265-266.

([4]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 338 – 339.

([5]) ومثله: ولو ضَرَّ خَلقاً قَبله ما يَسُرُّهُ لأثَّرَ فيه بأسُه و التَّكرُّمُ.
المتنبي: **الديوان**، 3 / 315 – 316. شانيك: البغض. **اللسان**، باب شان.

([6]) التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 453 – 454.

وكذلك المتنبي أصابته الشّفقة لهول ما أصاب الأعداء، فاستعطف الممدوح ليعفو عنهم، وحجته في ذلك أنّ أبناءهم قد يصبحون جنداً وعبيداً لأبنائه فلا بدّ للصّغير أن يصبح كبيراً، فشبّههم بمهار الخيل الّتي ستصير قرّحاً يوماً ما، يقول:

لَعَلَّ بَنيهِم لِبَنيكَ جُنْدٌ فأوَّلُ قُرَّحِ الخيلِ المِهَارُ[1]

يُظهر المتنبي ذكاءه، فبذلك يكسب الممدوح أولياء إلى جانبه نتيجة حسن المعاملة دون الانقاص من قيمته، وهو بكل تأكيد أفضل من اكتساب الأعداء.

الخيل المطيعة

ممدوح المتنبي رجل عظيم، لا بدّ أن يكون ذا إرادة وعزيمة، وإن قرر أمراً ما انصاع له كل ما في الوجود، يقول:

علا كَتَدَ الدّنيا في كُلِّ غايةٍ تسيرُ به سَيْرَ الذَّلول بِراكبِ[2]

فشبّه الدّنيا بالدّابة الذّلول الّتي تسير بصاحبها أينما أراد.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جعل الأيائل طوعاً له، تقودها خيله مع فرسانها بكل سهولة، يقول:

فَقيدَتِ الأُيّلُ في الحِبالِ طَوْعَ وُهُوقِ الخيلِ والرّجالِ[3]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 215. ينظر: الأزدي، أحمد بن معقل: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني لديوان المتنبي**، (د. ط)، تح: دنان محمود عبيدات، إربد، الأردن: دار الكندي للتوزيع والنشر، 2005، ص 77 – 78

([2]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 284.

وكرّر الصّورة حين شبّه العرب بالدّابة الذّلول، يقودها الممدوح الأعظم (سيف الدّولة) بحكمة شديدة، وشكيمة ثقيلة، فأطاعوه واتّبعوه لدرجة أنّ ذَفَاريهم تقرحت من جذب المقاود، وهذا دليل الذّل والانقياد، يقول:

وَمَا انْقَادتْ لغيرِكَ في زمَانٍ فَتَدْري ما المقَادَةَ و الصّغَارُ

فَقَرَّحتِ المَقَاودُ ذِفْرَيَيْهَا وَصَعَّرَ خَدَّها هذا العِذَارُ

المصدر السابق، 2 / 203– 204. الذفرى: العظم الشاخص خلف الأذن. **اللسان**، باب ذفر، صعر: الميل في الخد. **اللسان**، باب صعر، العذار من اللجام: ما سال على خد ي الفرس. **اللسان**، باب عذر، الصغار: الذل. **اللسان**، باب صغر.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 32. الأيل: ذكر الأوعال، سمي بذلك لأنه يؤول الجبال. **اللسان**، باب أيل، وهوق: الحبل الذي تؤخذ فيه الدابة وغيرها. **اللسان**، باب هوق.

أمّا خيله فجميلة حسنة المنظر، تسرُّه إن نظر إليها، مطيعة منقادة له، إن ناداها أتته دون أن يحتاجَ إلى جذبها بالرّسن، وهي مؤدّبة بآداب الحرب، لا تبرح مكانها وإن خُلِّيت، يقول:

كُــلُّ ابــنِ سَــابِقَةٍ يُغِيــرُ بِحُسْــنِهِ فــي قلــبِ صَــاحبهِ علــى الأحــزانِ
إنْ خُلِّيَــتْ رُبِطَــتْ بــآدابِ الــوَغى فــدعَاؤُها يُغْنــي عــن الأرســانِ[1]

وهذا دليل محبة الخيل لصاحبها، وإعجابها به، فتراها تطرب بقدومه مسرورةً، ولــولا الحياء لرقصت بفرسانها، يقول:

طَرِبــتْ مَرَاكِبُنــا فَخِلْنــا أنَّهــا لــولا حَيَــاءٌ عَاقَهَــا رَقَصَــتْ بِنــا[2]

جعل المتنبي الحيوان عاقلاً، ومنحه مشاعر الإنسان من الفرح والسّرور والحياء، ومن أفعاله أيضاً كالرّقص والطّرب.

الخيل المخلصة

عُرفت الخيل بإخلاصها لفارسها منذ القدم، فتحبّه ولا ترغب في فراقه، فهي تتمنــى أن يمتلكها الممدوح ؛ لأنها تعلم جوده، ولكن إن أعجبته وهبها لزائريه لأنّه يهب أفضل ما لديــه، فتفارقه كارهةً أن تتبدل به غيره، يقول:

هــو النَّفــيسُ الــذي مواهبُــه أنْفــسُ أموالِــهِ وأسْــنَاهَا
لــو فَطِنَــتْ خَيْلُــه لِنَائِلِــهِ لــم يُرْضِــها أنْ تَــرَاه يَرْضَــاها[3]

فمن يُجرّب الممدوح لا يرغب في تركه، وإنْ جرّب غيره أدرك أنّه جواد، وغيره مــن الملوك ثور، فعرف الفرق بينهما، فيقول:

ومــا لاقَنــي بلــدٌ بعــدَكم ولا اعْتَضْــتُ مــن ربٍّ نُعْمَــايَ رَبْ
ومــن ركِــبَ الثّــورَ بعــدَ الجَــوا دِ أنكــرَ أظلافَــهُ و الغَبَــبْ[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 309- 310.
([2]) المصدر السابق، 4 / 336.
([3]) المصدر السابق، 4 / 410-411.
([4]) المصدر السابق، 1 / 226-227.

"قال الخطيب: ذكر الركوب هنا فيه جفاء، ولا تخاطب الملوك بمثل هذا "[1]

وتلك الخيل ترغب بشدّة تخليد ذكر صاحبها (سيف الدّولة) فمن قوتها وشدّة وقع حوافرها على الصّخور، فإنّها كانت تطبع فيها أثراً يشبّه حرف العين في استدارته وفراغ وسطه، يقول:

أوَّلَ حرفٍ من اسْمِهِ كَتَبَتْ سَنَابِكُ الخيلِ في الجَلاميدِ[2]

الخيل الطويلة

وقد تغنّى المتنبي بالخيل الطويلة ومدح هذه الصّفة فيها، وغالباً ما ارتبط طول الخيل بقصر شعرها، فممدوحه المتميّز يمتلك نعماً كثيرة، والخيل أبرزها وهي تتميز بالقوة والأصالة لطولها، يقول:

والآمْرُ والنَّهْيُ والسَّلاهِبُ البيضُ لَهُ والعبيدُ والحَشَمُ[3]

فهي تنأى بصاحبها عن المهالك، وفيّة له وتأبى أن يصيبه الأذى فتحمله بسرعة بعيداً، حتّى أنّ المهالك نفسها تتعجب من هذه الخيل الّتي تنجو بصاحبها بسلام دون أن يعلق بها شيء من الهلاك لطولها، ويقول أيضاً:

لمّا رأينَ صُروفَ الدَّهرِ تَغْدِرُ بي وَفَيْنَ لي وَوَفَتْ صُمُّ الأنابيبِ
فُتْنَ المهالكَ حتّى قالَ قائلُها ماذا لقينا من الجُرْدِ السَّراحيبِ[4]

ففارسها لا يحتاج إلى ما يحصنه من الأعداء، لأنّ لديه من الخيل والرّماح ما يمنعه من العدوّ، وفي شجاعة الفاطميين وإقدامهم، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 1 / 227.

([2]) المصدر السابق، 1 / 389.

([3]) المصدر السابق، 4 / 182.

ويقول أيضاً:

مُعْطي الكواعبِ والجُردِ السَّلاهب والبيـ ـضُ القَواضِبِ والعَسَّالةِ الذُبُلِ

المتنبي: **الديوان**، 3 / 204.

([4]) المصدر السابق، 1 / 297 –298. صم الأنابيب: الرّماح الصلبة. **اللسان**، باب صمم، الجرد: الخيل قصيرة الشعر. **اللسان**، باب جرد، السراحيب: الخيل الطويلة. **اللسان**، باب سرب.

كــذا الفــاطميُّون النّــدى فــي بَنــانِهم أغَــزُّ امِّحَــاءً مــن خطــوط الرَّواجِــبِ
أنـــاس إذا لاقَـــوْا عِـــدًى فكأنّمـــا ســلاحُ الّــذي لاقَــوْا غبــارَ السّــلاهبِ
رَمَـــوْا بنواصـــيها القِسِـــيِّ فَجِئْنَهـــا دَوَامِي الهَــوَادِي ســالماتِ الجَوَانــب[1]

فقد اعتبروا سلاح الأعداء غبار خيلهم، فلا يعبؤون به بل يشقونه، ويستقبلونهم بخيلٍ مصممة على الإقدام، لا تنحرف يمنة ولا يسرة، وحتّى الرّياح لم تُصب إلا أعناقها. [2] فتحدّاهم فتحدّاهم بخيله وجيشه الذي يشقّ الصّفوف بكل ثقة وشجاعة، يقول:

هَلّا على عَقَــبِ الــوادي وقــدْ صَــعِدَتْ أُسْــدٌ تَمُــرُّ فُــرادَى لــيسَ تجْتَمِــعُ
تَشُـــقُّكُمْ بِفِتَاهـــا كُـــلُّ سَـــلْهَبَةٍ والضَّرْبُ يأخذُ منكم فــوقَ مــا يَــدَعُ[3]

فمن قبل التّحدّي فلن يجد إلا سيف الدّولة متفرغا للقتال ومعه خيل الله (جيشه) ورمــاح متعطشة للدّماء، يقول:

فمـــن طلـــب الطِّعـــانَ فَـــذَا عَلِـــيٌّ وخيـــلُ الله والأسَـــلُ الحِـــرَارُ [4]

وهذا تحدٍّ يصدر عن رجل واثق بقدرته وقدرة من حوله على الفوز أمّام العدوّ، فهو يعلم أنّهم سيضربون رؤوس الأعداء ويسقونهم كأس الموت وهم على ظهر خيول شقّاء طويلة، فهم شجعان لا يبالون إلا بالمجد والفخار، يقول:

ضاربُ الهــامِ فــي الغبــار ومــا يَــرْ هَــبُ أن يَشْــرَبَ الــذي هــو ســاقي
فـــوقَ شَـــقّاء للأَشَـــقِّ مَجَـــالٌ بـــينَ أرْســاغِها وبـــيْنَ الصِّــفاق[5]

فبالغ الشّاعر في طولها وسعة فرجها، حتّى جعل الحصان الطّويل يجول بين قوائمهــا وأرساغها، وإنّما قصد علو المكانة الّتي يطمح إليها وولعه بالمجد والفخار. ويعدُّ امتلاك الخيــل وحده دليل على علوّ المكانة، يقول في آل سيَّار:

لهـــم أوجُـــهٌ غُـــرٌّ وأيـــدٍ كريمـــةٌ ومَعْرِفـــةٌ عِـــدٌّ وألســـنةٌ لـــدُّ

([1]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 280 –281 الهوادي: الأعناق. **اللسان**، باب هدي

([2]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 280 –281.

([3]) المصدر السابق، 2 / 339–340

([4]) المصدر السابق، 2 / 213 – 214. الحرار: العطاش. **اللسان**، باب حرر

([5]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 104 –105

وأرْدِيَـــةٌ خُضْـــرٌ ومُلْـــكٌ مُطاعـــةٌ ومَرْكُـــوزَةٌ سُـــمْرٌ ومُقرَبَـــةٌ جُـــرْدُ[1]

فهم مشرقون بعطائهم، وسيرتهم العطرة، وألسنتهم القويّة في مواطن الكلام، أصـــحاب السّلطان والسّيادة برماحهم وخيولهم المقربة الجرد. [2] وقد سافر ممدوحه كثيراً وقطع الفلـــوات وشهد الحروب، فخالطت الخيل الجيوش وحملاتها وألفتها، يقول:

خَطَتْ تَحْتَـــهُ العـــيسُ الفـــلاةَ وخَالطـــتْ بِهِ الخيلُ كبَّـــاتِ الخمـــيسِ العَرمـــرم[3]

فأكّد على صفات الممدوح الّتي تجعله سيّداً كريماً مقدأمّا، فترتفع مكانته بـــين النّـــاس، فعندما يركب خيله تشخص الأبصار إليه لحسن منظره وجلالة قدره، فيتزاحمون حوله، يقول:

بِمن تَشـــخصُ الأبصـــارُ يـــومَ رُكوبِـــهِ ويخْرقُ مِن زَحْمٍ على الرَّجُـــلِ البُـــرْدُ [4]

فركوب الخيل يلفُّ الفارس بهالةٍ من العظمة والهيبة، فكيف إذا كان الخيل جميلاً؟! لذلك تراه لا يختار إلا الفرس العالية، طويلة العنق لجمالها وقوّتها.

الخيل الحامية المعينة

اعتمد أبطال المتنبي في القتال على فرسانهم، وخيولهم، وأسلحتهم الّتي تبرق في ســـواد الغبار كرنجيّ يبتسم، أو كشيبٍ يتخلل الشعر الأسود، يقول:

وإذا نَظَـــرْتَ علـــى السُّـــهولِ رأيْتَهـــا نحـــتَ الجبـــالِ فَوَارســـاً وجَنَائِبَـــا
وعَجاجـــةً تَـــرَكَ الحديـــدُ سَـــوَادَها زنجـــاً تبسّـــمُ أو قَـــذَالاً شـــائبا

وهذا تشبيه كثير تداوله في الشعر [5] وهذه الخيل تحول دون وصول الأعداء إلى حرائر حرائر المسلمين، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 2 / 100-101.
([2]) المصدر السابق، 2 / 101
([3]) المصدر السابق، 4 / 266
([4]) المصدر السابق، 2 / 106
([5]) الأبيات مأخوذة من القصيدة الّتي سميت بالدينارية لأن المتنبي لم يُجْزَ عليها إلا ديناراً واحداً. ومطلعها:
بـــأبي الشُّـــمُوس الجانحـــات غَواربـــا اللابســـاتمن الحريـــر جلابيبـــا
المتنبي: **الديوان**، 1 / 250- 255

عَدَويّـــةٌ بَدَويّـــةٌ مـــنْ دُونِهـــا سَـلْبُ النُّفُـوسِ ونـارُ حَـرْبٍ تُوقَـدُ
وهَوَاجِـــلٌ وصَـــوَاهِلٌ ومَنَاصِـــلٌ وذَوَابِـــلٌ وتَوَعُّـــدٌ وتَهَـــدُّدُ[1]

يبثّ المتنبي الرّعب في هذه الحرب، ويجعلها تسلب روح من يطلبها وتصليه بنارهـا، يساعدها في ذلك الإبل والخيل والسّيوف والرّماح، فكلهـا تهـدّد وتتوعـد الأعـداء بالـدّمار والهلاك.[2]

حظي سيف الدّولة بكثير من مديح المتنبي، فهو الكريم الجواد، الذي تعمّ هيبته الـبلاد، قائد الخيل وزاجرها للقتال، هاتِك الدروع بسيفه ليشق أمعاء الأعداء، المُدافع عن النّاس حتّى من الدّهر وصروفه، فهم آمنون في حمايته، يقول:

ويُخْشَى عُبَـابُ البحـر وهـو مكانَـهُ فكيـفَ بمـن يَغشَـى الـبلادَ إذا عَبَّـا
ومِنْ واهبٍ جَـزْلاً ومـن زاجـرٍ هَـلاً ومن هاتِك درْعـاً ومـن نـاثِرٍ قُصْـبَا
فَيَوْمـاً بخيْـلٍ تَطْـرُدُ الـرّومَ عـنهم ويوماً بجودٍ يطـردُ الفقـرَ و الجَـدْبا[3]

بالغ المتنبي كثيراً في البيت الأخير وتجاوز الحدّ بتحديه للدّهر وصروفه، وهذا ما جعل عدوه يخشاه، فلا ينفعهم الوقوف في ديارهم دفاعاً عنها لأنّهم سيقتلون، ولن ينفعهم الهرب ولن تنفعهم خيلهم أو إبلهم لأنّه سيدركهم بخيله، ولن ينفعهم ليل يستترون تحته أو نهار يكاشفونه فيه، فهم حائرون ولم ينجح معهم أي أمر ممّا سبق، يقول:

فـــإنْ هَـــابُوا بِجُـــرْمِهِم عَلِيًّـــا فقـــد يَرْجُـــو عَلِيًّـــا مـــن يَهَـــابُ
ولكـــنْ رَبُّهُـــم أســـرى إلـــيهم فمـــا نَفَـــعَ الوقـــوفُ ولا الـــذَّهابُ
ولا ليـــلٌ أجَـــنَّ ولا نهـــارٌ ولا خيْـــلٌ حَمَلْـــنَ ولا رِكَـــابُ[4]

ففي المعركة ينتقل سيف الدّولة من فارس إلى آخر، يتركه خلفه مبطوحاً قتيلاً، يقول:

يَخْطُـــو القتيـــلَ إلـــى القتيـــلِ أمّامَـــهُ رَبُّ الجـــوادِ وخلفَـــهُ المبطُـــوحُ[5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 53.
([2]) المصدر السابق، 2 / 53.
([3]) المصدر السابق، 1 / 187- 188
([4]) المصدر السابق، 1 / 211- 213.
([5]) المصدر السابق، 1 / 376.

وممّا يثير العجب أنّ سيف الدّولة يرغب في ملاقاة عدوه، وهو مريض ويشكو الألـم، والأعجب من ذلك أنَّه كان يُحقق النّصر وخيله تعلم عادته تلك فتُعينه عليها، يقول:

وغَـرَّ الدُّمُسْـتُقَ قَـوْلُ العُـدَا ... ة أنَّ عَلِيًّـا ثقيـلٌ وَصِـبْ
وقـد عَلِمَـتْ خيلُـهُ أنّـه ... إذا هَـمَّ وهُـوَ عَلِيـلٌ رَكِـبْ
أتَـاهُم بأوْسَـعَ مِـن أرضِـهِم ... طـوَالَ السَّـبِيب قِصَـارَ العُسُـبْ[1]

فعلى الرّغم من مرضه وكثرة عسكر الرّوم الذين يركبون أجود الخيل، هرب قائدهم لمّا رأى سيف الدّولة، ويرى المتنبي أنّ المرض الذي به إنّما هو نزاع ورغبة في ملاقاة العدوّ بخيل يتبع الغبار قوائمها كأنّه جنيب تقوده، مصمّمة، ماضية تطؤ أرض الأعـادي وتجتاحهـا، فـإذا انقطع عن ذلك نال منه كما ينال الحب من العاشق إذا انقطع عن المحبوب، يقول:

وأنـتَ المَلِـكُ تُمْرِضُـهُ الحَشَـايَا ... لِهمّتِـه وتَشْـفيه الحُـرُوبُ
ومـا بِـكَ غيـرُ حُبِّـكَ أن تَرَاهـا ... وعِثْيَرُهَـا لأرْجُلِهـا جَنيـبُ
مُجَلِّحَـةً لهـا أرضُ الأعـادِي ... وللِسُّـمْرِ المَنَـاحِرُ و الجنـوبُ[2]

وكذلك المتنبي يحلم بالقتال وركوب الخيل وهو في شدّة مرضه فيتساءل وقـد أصـابته الحمى:

ألا يـا ليْـتَ شَـعْرَ يَـدِي أَتُمْسِـي ... تَصَـرَّفُ فـي عِنـانٍ أو زِمَـامِ[3]

فهو لا يرى المجالس والبيوت مكانه، إنّما يراها على سروج الخيل مـن غـارةٍ إلـى أخرى، يقودها إلى قتال الأبطال، وما ذلك إلا عادة لهم، يقول:

تَخِذُوا المجالسَ فـي البيـوتِ و عِنْـدهُ ... أنَّ السُّـرُوجَ مَجَـالِسُ الفِتْيـانِ
قـاد الجِيـادَ إلـى الطِّعـانِ ولـمْ يَقُـدْ ... إلّـا إلـى العـاداتِ والأوطـانِ[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 229–230.

([2]) المصدر السابق، 1 / 202 – 203. مجلحة: للنبات التي أُكِلت ثم نبتت. **اللسان**، باب جلح. المناحر: النحر، عرقـان في نحر الفرس أو صدرها. **اللسان**، باب نحر.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 277

([4]) المصدر السابق، 4 / 309.

يدلّ إصرارهم على القتال ونزول المعركة على ظهور خيلهم على الرّغم من مرضهم، على شدّة التزامهم بالدّفاع عن أوطانهم وحمايتها، كما يدلّ على شجاعة وقوّة قلّما نجد مثلها في عصرنا هذا.

علوّ المكانة بالفروسية

يظهر ممدوح المتنبي ذا أمر نافذ وقدرة واسعة لدرجة أنّ الفارس إن رأى خاتمه، نزل عن فرسه وسجد تعظيماً له، يقول في كافور الإخشيدي:

يَحــطُّ كُــلَّ طويــلِ الــرُّمْحِ حامِلُــهُ من سَرْجِ كُلِّ طويــلِ البــاعِ يَعْبُــوبِ[1]

أمّا ابن العميد فهو الأفضل في كل شيء، يقول:

وأحســنَ مُعْــتَمٍّ جُلُوسًــا و رِكْبَــةً على المِنْبَرِ العالي أو الفــرس النَّهْــدِ[2]

"فهو أحزم ذوي العقل وأكرم ذوي النعم، وأشجع الفرسان، وأرحم الرّاحمين، وأحسن من تعمّم، وجلس على منبر، وأحسن الناس ركوباً على الفرس الجسيم الحسن العالي" [3]، فإن اجتمعت الخيل وقد وصفت بالفروسية كان أفرسهم، يقول:

وفَــارِسُ الخيْــلِ مَــنْ خَفَّــتْ فَوَقَّرَهــا في الدَّرْبِ والدَّمُ فــي أعْطافِهــا دُفَــعُ[4]

فالفارس في نظره، هو من يثبت على الخيل، ويوفرها إذا خفّت وأرادت الهرب [5]

فمن يعرف الممدوح لا يستعظم غيره ولم يجحد فضله كالشّمس لا يدفع ارتفاعها من عرفها، ومن أبصر عتاق الخيل لم يستكرم الرّمك منها، يقول:

مَنْ يَعْرِفُ الشَّــمْسَ لا يُنْكِــرْ مَطَالِعَهــا أو يُبْصِرِ الخيــلَ لا يَسْــتَكْرِمِ الرَّمَكــا[6]

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 1 / 295. يعبوب: الفرس الطويل السريع. **اللسان**، باب عبب.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 171. النهد: الجسيم المشرف. **اللسان**، باب نهد.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 171.

([4]) المصدر السابق، 333/2. خفت: ارتحلت مسرعة. **اللسان**، باب خفف وقرها: ثبتها. **اللسان**، باب وقر، الأعطاف: الجوانب. **اللسان**، باب عطف.

([5]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 265.

([6]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 113. الرمك: الفرس، البرذونة تتخذ للنسل. **اللسان**، باب رمك.

فشبّه الممدوح بالشّمس في ارتفاعها وبالخيل في عتقها، فجعلها رمزاً للكريم ثـم جعـل العير (الحمار) رمزاً للدّنيء، يقول:

يَفْـدِي بَنِيـكَ عُبيـدَ اللهِ حاسِـدُهُمْ بجبهَةِ العَيْـرِ يُفْـدَى حَـافِرُ الفَـرَسِ[1]

ففداء الحاسد كان كمن فدى حافر الفرس بوجه الحمار. وقد عكس ذلك نظرة المتنبـي للخيل على أنّها رمز لمكارم الأخلاق والقوّة والشّجاعة والعلوّ والرّقي لمن امتلكها أو ركبها.

"فكرام الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين كانت كالقلب دون سـوداء، فهم زبدة الكرم ولبابه، فهم من الكرام بمنزلة السّويداء من القلب"، يقول:

إنَّ الكِـرامَ بِـلا كِـرامٍ مِـنْهمُ مِثْـلُ القُلُـوبِ بـلا سُـوَيْدَاوَاتِها[2]

وقد تناول المتنبي شجاعة ممدوحه وأبرز معالمها ورسم صورتها بكل تفاصيلها ونمّقها بعباراته وألفاظه الّتي تتناسب مع المواضع الّتي تجلّت فيها تلك الشّجاعة، فذلك أبـو الفـوارس (دلير بن لشكروز) يخوض غمار الحرب عند التحام الخيل وتبارز الفرسان، دون خـوف مـن الموت، ودون أن يعبأ عن أي عاقبةٍ تنفرج الخيل، معه أم عليه، يقول:

حَذِرْتِ علينـا المـوتَ والخيـلُ تلتقـي وَلَمْ تعلمـي عـن أيِّ عاقبـةٍ تُجْلَـى[3]

وفي صورةٍ رائعة للشّجاعة يقول عن ممدوحه الحسين بن علي الهمذاني:

ضَرُوبٌ لِهامِ الضَّارِبي الهامِ في الـوغى خفيفٌ إذا مـا أثْقَـلَ الفَـرَسَ اللِّبْـدُ[4]

تضمّنت شجاعته ضرب رؤوس الأبطال، وخفته في ركوب الخيل، وهذا يدل على حذقه بالفروسية حتّى أنّ حصانه لا يشعر بثقله مع أنّه مجهد ويرى في لبده ثقلاً عليه[5]، وفي معنـى قريب، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 298.

([2]) المصدر السابق، 1/ 352. السويداوات: جمع سويداء، حبة القلب. **اللسان**، باب سود

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 5

([4]) المصدر السابق، 2 / 106.

([5]) المصدر السابق، 2 / 106.

ولا سَــاعِياً فــي قُلَّــةِ المَجــدِ مُــدْرِكاً بأفعالِــهِ مــا لــيسَ يُدْرِكُــهُ الوَصْــفُ
ولمْ نَــرَ شــيئًا يَحمــلُ العِــبْءَ حَمْلَــه يَسْتَصْــغِرُ الــدُّنيَا ويَحْمِلُــه طِــرْف[1]

فقد أدرك الممدوح بمساعيه الجسام، وأفعاله الضخام أعالي المجد ما لا يدركه الوصف، فهو يحمل من أثقال المهمات فلا يستطيع أحد حمله فيرى الدّنيا صغيرة، ومع ذلك يحمله طِرف وذلك لعظمة نفسه وقوة نجدته. [2]

خيل النّصر والشّجاعة

تميّز ممدوح المتنبي بأنّه رجلٌ عظيمٌ يمتلك صفاتٍ تساعده على تحقيــق النّصــر فــي حروبه، وأهمّ سلاح بيده هو الخيل، وإن علم حصن العدوّ أن (عضد الدّولة) هو من رماه بالخيل لخرَّ ساجداً وانقضت حيطانه هيبةً له، يقول:

إذا دَرَى الحِصــنُ مَــنْ رَمَــاهُ بهــا خَــرَّ لهــا فــي أسَاسِــهِ سَــاجِدْ[3]

فقلاع العدوّ أصبحت حطامّا ضائعاً في غبار الخيل حتّى غابت وخفيت عــن الأنظــار لكثرة العجاج حولها، يقول:

مــا كانَــتِ الطِّــرْمُ فــي عَجاجَتِهــا إلّــا بعيــراً أضَــلَّهُ ناشِــدْ[4]

فجعل القلاع كبعير أضلّه طالبه[5] فأعتى القلاع لا تصمد أمّامه، يقول:

وألحقْنَ بالصّفْصَــافِ سَــابُورَ فــاتْهَوى وذاقَ الــرَّدَى أهلاهُمَــا والجلامِــدُ
وغَلَّــسَ فــي الــوادي بهــنَّ مُشَــيَّعُ مبــاركُ مــا تحــتَ اللِّثَــامِيْن عَابِــدُ[6]

وبعد تحقيق النّصر وهدم القلاع وتدميرها، دعا الشّاعر أن يبارك الله بممدوحه الجريء المقدام." فدونه ودون الوصول إليها رجل كثير المخالطة للأمور يخالطها ثــم يفرّقهــا، يحمــي حريمها ويقاتل أعداء عنها أو دونها "، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 31. قلة المجد: أعلاه. **اللسان**، باب قلل، الطِرف: الفرس الكريم.**اللسان**، باب طرف.
([2]) المتنبي: **الديوان**، 3/ 31.
([3]) المصدر السابق، 2 / 179.
([4]) المصدر السابق، 2 / 179.
([5]) المصدر السابق، 2 / 179.
([6]) المصدر السابق، 1 /397 – 398.

إنَّ دونَ الّتي علـى الـدَّرْبِ و الأحْـ ـدَبِ والنّهـرِ مِخْلَطـاً مزْيَـالاً[1]

فنقل ما توصف به الفرس لممدوحه الشّجاع الدّاهية، وهذا يدل على ارتباط الفرس لديهم بمظاهر القوّة وشدّة البأس والنّصر.

فهو لا يخشى عدوه أبداً، بل يستقبل رماحهم وسيوفهم بخيله وصدورها، ففيه من الشدّة والاستبسال ما يقويه أمامهم فيرهبهم، يقول:

إذا جَلَـبَ النَّـاسُ الوَشِـيجَ فإنَّـهُ بِهِـنَّ وفـي لَبَّـاتِهنَّ يُحَطَّـمُ [2]

فأعداؤه شجعان ولكنّ شجاعة الممدوح أفنتهم فهو أشجع منهم، يقول:

فَلمّـا بَـدَوْتَ لِأصْـحَابِهِ رَأَتْ أُسْـدُهَا آكِـلِ الآكِـل[3]

فإن فكر هذا العدوّ " في طعانك خيّل إليهم الرّعب والخوف أنّ الذّراع من رماحك ميل، فتوقعوا أن تدركهم رماحك ولو كانوا على أميال " يقول:

وإذا حاوَلَـتْ طِعانَـكَ خَيْـلٌ أبصـرَتْ أذْرُعَ القَنـا أمْيـالاً[4]

وقد ذكر الشّاعر المحاولة دون الإصابة، ليشعرنا بأهمية الممدوح، وأنّ أعين الأعـداء واقعة عليه، فمجرد المحاولة تبعث في قلوبهم الرّعب والفزع، وتجعل أذرع القنا تطول وتصـل أميالاً لتبيدهم وتهلكهم. [5]

فهو يستقبلهم بصدر حصانه الذي جعله مورداً لسيوفهم، في حين كـان سـيفه مـورداً لأرواحهم، يقول:

فـأوْرَدَهُم صَـدْرَ الحِصـانِ وسـيْفَهُ فَتًـى بأُسُـهُ مِثْـلُ العَطَـاءِ جَزِيـلُ[6]

وفي البيت كناية عن الشّجاعة وشدّة البأس، والجود والعطاء الجزيل.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 264. مخلط: فيه خطوط. **اللسان**، باب خطط، مزيال: متفرقة. **اللسان**، باب زيل

([2]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 72. لبات: لبة: أعلى الصدر. **اللسان**، باب لبب. وشيج: شجر الرّماح. **اللسان**، باب وشج.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 157.

([4]) وقصد بالخيل فرسانها. المصدر السابق، 3 / 261.

([5]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 128.

([6]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 226.

وهذه الخيول جاهزة لخوض الصّعاب مع فارسها، وتستمدّ شجاعتها من شجاعته، يقول:

يُطَــارِدُ فيــه مَوْجَــهُ كُــلَّ سَــابِحٍ سَــوَاءٌ عَلَيْــه غَمْــرَةٌ ومَســيلُ
تــراه كــأنَّ المــاءَ مَــرَّ بجســمِهِ وأَقبَــلَ رَأْسٌ وَحْــدَهُ وتَليــلُ
وفي بَطْــنِ هِنْــزِيطٍ وسِــمْنِينَ للظُّبَــى وصُــمَّ القَنَــا مِمَّــنْ أَبْــدَنَ بَــدِيلُ[1]

فخيله لا تكترث بالماء أو عمقه، فهي ماهرة في السّباحة، معــوّدة خــوض الصّــعاب والمعارك.

وقد يظنّ بعضهم أنّ النّصر يتحقّق بعنصر المفاجأة والتّخطيط لها، ولكــنّ هــذا لــيس صحيحاً، فالممدوح يرفض أن يحقّق النّصر غيلةً وخداعاً، ولشدّة ثقته بنفسه يرسل كتبــاً إلــى عدوه يعلمهم فيها بقدومه لقتالهم، فينذرهم أولاً وإن لم يطيعوه، أبدل الخيل والجيــوش بالكتــب والرّسائل لإكراههم على طاعته، يقول:

تَتْلُــو أَسِــنَّتُهُ الكُتْــبَ الّتــي نَفَــذَتْ ويجعلُ الخيــلَ أبــدَالاً مــن الرُّسُــلِ[2]

وفي صورة لطيفة مدح المتنبي بدر بن عمار لأنّه يهلك أعداءه، فيقول:

أنــتَ نَقــيضُ اســمِهِ إذا اخْتَلَفَــتْ قَوَاضِــبُ الهِنْــدِ والقَنَــا الــذُّبُلُ
أنــتَ لَعَمْــرِي البَــدْرُ المنيــرُ ولــ ــكنّكَ فــي حَوْمَــةِ الــوَغى زُحَــلُ[3]

فالبدر من كواكب السَعد، ولكنّه جعل الممدوح نقيض اسمه في الحرب، فهو نحس على أعدائه إذ يهلكهم ويثير الغبار بخيله فتظلم الأرض، ففعله في الحرب نقيض فعله في السّــلم [4]، فارتبط البدر عند المتنبي بحالةٍ من السّلم والسّعادة والأمان، فبه تنير الأرض وبه يُهتــدى فــي الأسفار.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 224

([2]) وهذا من قول الفرزدق: شديدُ الحميّا لا يخاتِلُ قِرْنَه ولكنه بالصحصحان ينازله. المصدر السابق، 164/3.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 333/3. قواضب الهند: سيوف قواطع. **اللسان**، باب قضب، الذبل: النبــات أو الغصــن إذا جــفّ ويبس. **اللسان**، باب ذبل، حوم: معظم. **اللسان**، باب حوم، زحل: من كواكب الحنّس يقال إنّه في السماء السابعة. **اللسان**، باب زحل.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 333/3.

ومع ذلك ترى جنده يحتمون به من سلاح الأعداء، فكان يتقدم الجيش إلى العدوّ ويدفع السّلاح عنهم، فكانت الحرب تثني عليه لما تشاهده من بأسه وحذقه، وكذلك خيله وخيل العدوّ تثني على ما تراه من شجاعته وإقدامه ما لا يسعها إنكاره، يقول:

الفارسُ المُتَّقَى السِّلاحُ به المُـ ـثْنِي عليه الوَغَى وخَيْلاها[1]

حتّى القوم الذين يكون الممدوح بينهم (أبا العشائر) ويغزو معهم، يتشجعون به، حتّى لو كانوا أولئك الأنباط الحراثين الذين لا يعرفون ركوب الخيل إنّما يركبون الحمير، فمن كان معه أصبح شجاعاً لشجاعته، يقول:

تُطَاعِنُ كلُّ خَيْلٍ كُنْتَ فيها ولو كانوا النَّبِيطَ على الجِحَاش[2]

"ففيهم أبطال صبيهم رجل لدى الوغى وحوله خيلهم جذع، يعني الصّغير في جيشه، كبير يعظم أمره"، يقول:

فيها الكُمَاةُ الّتي مَفْطُومُها رَجُل على الجِيادِ الّتي حَوْلِيُّهَا جَذَعُ[3]

فهو يعلي شأن جيشه من فرسان وخيول، حتّى أن مُهْره عظيم قوي، فكأنه يُهنئ ممدوحه على امتلاكه جيشاً بتلك المواصفات، فأظهر المتنبي قدرة على الوصف الدّقيق، واستعمال معاني الأعراب، وتعابيرهم البدوية، فجعل كثرة السّنين للرّجال شرف، وقلّتها للخيل أصالةً وكرماً [4] فدعا لهم ألا يُفارقوا ظهور الخيل في الوغى، يقول:

يا بني الحارثِ بن لقمانَ لا تَعْدِ مْكُمُ في الوَغى مُتُونُ العِتَاق[5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 414.

([2]) المصدر السابق، 2 / 322. النبط: قوم بسواد العراق حرّاثون، شعب من شعاب هذيل. الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 299.

([3]) فيها: تعود على عسكر سيف الدّولة. المتنبي: **الديوان**، 2 / 335.، الكماة: الذي لا يحيد عن قرنه ولا يروّع من شيء. **اللسان**، باب كمي، حولى: الذي أتى عليه حول. **اللسان**، باب حول، جذع: الذي أتى عليه حولان ودخل في الثالثة. **اللسان**، باب جذع.

([4]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 267.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 105. العتاق: الخيل الكريمة السابقة. **اللسان**، باب عتق

أحسن المتنبي في قوله (في الوغى)، حين خصّ ركوب الملوك للخيل لحـــرب أو دفـــع مُلمّ، فإن لم يقل ذلك، لاقتضى الدّعاء ألّا يفارقوا ظهورها في كلّ وقت، وهذا أمر مســـتحيل.[1] ويعكس البيت روح المتنبي المحاربة، الّتي تنشد البطولة أينما كانت [2]

ولشدّة شجاعة سيف الدّولة، إن دعت الحرب إلى ركوبها فإنّه لا ينتظر أن تسرج الخيل وتلجم، فيركبها عرياً، لذلك كان أعداؤه لا ينامون حذراً وخوفاً منه، يقول:

تَنـــامُ لـــديْكَ الرُّســـلُ أمْنـــاً وغِبْطَـــةً وأجْفَـــانُ رَبِّ الرُّسْـــلِ لـــيسَ تنـــامُ
حِـــذَاراً لِمُعْـــرَورِي الجيـــادِ فجَـــاءَةً إلى الطَّعْـــنِ قُـــبْلاً مـــا لهُـــنَّ لِجـــامُ[3]

وإن أصاب الكتيبة إحجام وتخاذل، حثّها الممدوح (كافور) وشجّعها للقاء العدوّ مهما علا غبار المعركة وثار، وإن وصل إلى لهوات من شَدَّ اللّثام على فمه اتقاء الغبار، فهـــو ثابـــت لا يحجم ولا يتأخر ولا يتسرب إليه الفزع، يقول:

وَمَنْ مِثْـــلُ كـــافورٍ إذا الخيـــلُ أحْجَمَـــتْ وكان قلـــيلاً مَـــنْ يَقـــولُ لهـــا أقْـــدُمِي
شَديدُ ثَبَـــاتِ الطَّـــرْفِ و النَّقْـــعُ وَاصِـــلٌ إلـــى لَهـــواتِ الفـــارِسِ المُتَلَـــثِّمِ[4]

يظهر المتنبي صفات القائد الشّجاع كما يجب أن تكون في أرض المعركة، فهـــو يثيـــر حماسة جيشه ويؤثر في نفوسهم حتّى يبقوا إلى جانبه يحاربون بكل قوتهم، وقدوتهم فـــي ذلـــك قائدهم الأعظم. وذلك يجعل خيله تستمد منه القوة والشّجاعة، فهي مقدمة أبداً، تأنف من الرّجوع فلا تقدم عليه، وهذه حال معركته وخيله دائماً، يقول:

عَهْـــدِي بِمعركـــةِ الأميـــرِ وخيْلُـــهُ في النَّقْـــعِ مُحْجِمَـــةٌ عـــن الإحْجَـــامِ [5]

لذلك أدميت حجاجها من قرع الفوارس إياها برماحهم وهي صامدةٌ تتلقى الضّرب فـــي مقاديمها، وهذا دليل شجاعة الفرس وفارسها، وألفتهما للحرب وأهوالها، وهدفهما المشترك وهو الظفر بالعدوّ وغلبته، يقول:

([1]) المتنبي، **الديوان**، 3 /105– 106. ينظر: الأزدي، **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 144.

([2]) سلطان، منير: **الصّورة الفنية في شعر المتنبي " التشبيه "**، ص 190.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 110. معروري الفرس: ركبه عرياناً. **اللسان**، باب عرا

([4]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 267.

([5]) المصدر السابق، 4 / 128. الإحجام: التأخير. **اللسان**، باب حجم.

يَنْظُـرْنَ مِـنْ مُقَـلٍ أَدْمَـى أَحِجَّتَهـا قَـرْعُ الفـوارسِ بالعَسَّـالةِ الـذُّبُلِ
فَـلا هَجَمْـتَ بهـا إلّـا علـى ظَفَـرٍ ولا وَصَـلْتَ بهـا إلّـا علـى أمَـلِ[1]

"وقد كُرِه ختم القصيدة بالدّعاء ؛ لأنّه من عمل أهل الضعف، إلا للملوك؛ لأنّهم يشتهون ذلك، ما لم يكن من جنس ما قاله أبو الطيب، فلا يدعو له، حتّى يدعو عليه".[2]

ففارسها يعانق الأبطال في الحرب، فتلقى الخيل المنايا بنواصيها مقدمةً عليها مسرعة، كما لو أنّه يُبيت رماحه فوق أعناق خيله في سراه ليلاً إلى عدوه حزماً وحرصاً، يقول:

مُلاقِيَـةً نَواصـيها المنايَـا مُعَـوَّدَةً فوارِسُـها العِناقـا
تَبيـتُ رِماحُـهُ فَـوْقَ الهَـوادي وقَـدْ ضَـرَبَ العَجَـاجُ لهـا رِواقَـا
تَميـلُ كـأنَّ فـي الأبطـال خَمْـراً عُلِلْـنَ بهـا اصـطباحاً واغتباطـا [3]

فالرّماح تتمايل من دم الأبطال الذي جعله كخمر أسكرها صباحاً وغبوقاً وميلانها إنّما هو للينها وذلك إشارة إلى كثرة غارته فلا تفتر الخيل جائلة غداةً وعشيا [4]، وتبيت والرّماح على أعناقها خشية المباغتة والعجاج الذي تثيره حوافر الخيل وفي ذلك دليل على كثرة الجيش.[5]

وقد منح المتنبي صفة العاقل على ما لا يعقل، فجعل الرّماح تبيت، والعجاج لها رواق وتميل مع حركة الخير والفرسان".[6]

فكان لابدّ لهما من شقّ صفوف العدوّ ولو كان كالجبال في القوة والثبات، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 169 – 170. أحجتها: حجاج: العظم النابت عليه الحاجب. **اللسان**، باب حجج، العسالة: الرّماح تهتز وتضطرب. **اللسان**، باب عسل.

([2]) ابن رشيق: **العمدة**، 1 / 240 – 241.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 45.

([4]) قالوا: المعانقة آخر حالة في الحرب، وأولها الملاقاة من بعيد، ثم المرأمّاة بالسهام، ثم المنازلة بالرّماح، ثم المنازلة إلى الأقران ثم المعانقة. والبيت مأخوذ من قول ابن الرومي: وإعمالي إليك بها المطايا وقد ضرب العجاج بها رواقا ومن قول البحتري: يتعثرن في النحور وفي الأو جه سكْراً لمّا شَرِبْنَ الدماءَ، المتنبي: **الديوان**، 3 / 45.

([5]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 212.

([6]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ط1، عمّان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 1983، ص 223.

يَرْمِي بهـا الجـيشَ لا بُـدٌّ لَـهُ ولَهـا مِنْ شَـقِّهِ ولـو أنَّ الجـيشَ أجْبَـالُ [1]

ويؤكّد المتنبي على ضرورة حماية الفارس لفرسه، حتّى تقوم الفرس حين يأتي الوقـت بردّ الجميل، فخيله شديدة المراس، لا تسلم نفسها لأحد، لذا وجبت حمايتها من كل مكروه، يقول:

مـن المُتَمـرّداتِ تُـذَبُّ عنهـا بِرُمْحـي كـلُّ طـائرةِ الرَّشـاشِ
ولـو عُقِـرَتْ لَبَلَّغنِـي إليْـهِ حـديثٌ عنـه يَحمـلُ كـلَّ مَـاشِ[2]

ولكن قد يَسْلب الممدوح حبّ الخيل من قلبه، فيستبدل الخيل بحديث شيّق عن ممدوحه، ويرى فيه وسيلةً للوصول إليه، دون حاجةٍ للرّكوب.

فإن كان الممدوح يحمي غيره من السّلاح، فإن خيله ترد له الجميل، فتحيط به وتحميـه حتّى يتعذر الوصول إليه لتقبيل كمّه الذي تتمنى الشّفاه تقبيله، يقول:

مكـانٌ تَمَنَّـاهُ الشِّـفَاهُ وَ دُونَـهُ صُدُورُ المَـذَاكي والرّمـاح الـذَّوابلُ [3]

هي تفديه في الحرب حتّى تفنى هي ويبقى هو فالخير باق ما بقي هو، يقول:

فَـدَتكَ الخيـلُ وهـي مُسَـوَّمَاتُ وبِـيضُ الهِنْـدِ وهـي مُجَـرَّدَاتُ[4]

جعل المتنبي الممدوح والخيل يحمي كلاهما الآخر، وفي ذلك توطيد للعلاقة بين الفارس وفرسه، فكلاهما يذود عن الآخر ويفديه بروحه. ومن يفعل كل ذلك، لا بـدّ أن تكـون صـفته الشّجاعة والإقدام والحذق بركوب الخيل، فثباتهم على ظهورها في معمعة الحرب وتتابع الطّعن، كثبات جلودها عليها، يقول:

الثّـابتين فُرُوسَـةً كَجُلُودهـا فـي ظَهْرِهـا والطَّعْـنُ فـي لَبَّاتِهـا[5]

فباتت هذه الخيل تعرفهم ويعرفونها، فقد تناسلت عندهم وكان أجدادهم يركبون أمّهـات هذه الخيل، ولمّا كان ذلك، تبيّن أنّهم عريقون في الفروسية وطالما ركبوا الخيل، يقول:

([1]) يقال: لها تعود على البيض وهي السيوف. المتنبي: **الديوان**، 3 /403.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 324.

([3]) المصدر السابق، 3 / 234. المذاكي: الّتي كملت أسنانها. **اللسان**، باب ذكى.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 346.

([5]) المصدر السابق، 1 / 350. فروسة: حذق أمر الخيل. **اللسان**، باب فرس.

الْعـــارفينَ بهـــا كمـــا عَـــرَفَتْهم والـــرَّاكبينَ جُـــدُودُهُمْ أُمّاتِهـــا[1]

وقد حمل البيت على لغة (أكلوني البراغيث) وكان ينبغي أن يقول " والراكب جـدودهم أمهاتها "، وتمّ له ذلك للضرورة على وجه ضعيف [2]

عَدْوِ الخيل

ومن مظاهر الحركة في شعر المتنبي العدوّ وتحقيق السَّبَق، فزاد فـي وصـف خيلـه وجعلها سابقة طاردةً للوحوش، فلا يصيبها الكلال من السّفر، ولا يمنعها من صيد الوحوش، فإذا اصطادت استراحت ورعت الرّياض، يقول:

وخيْـلٍ إذا مَـرَّتْ بِـوَحْشٍ ورَوْضَـةٍ أَبَـتْ رَعْيَهـا إلّـا وَمِرْجَلُنَـا يَغْلِـي[3]

وهي تصيد خيل العدوّ كالحيوان المفترس يصيد الوحش، فالقليل من جيشه يأسر الجيش الكثير، فممدوحه موفقٌ توفيقاً كفيل له بتحقيق النّصر، يقول:

تَقْنِصُ الخيـلَ خَيْلُـهُ قَـنَصَ الـوَحْشِ ويسْتَأسِـرُ الخمـيسَ الرَّعِيـلُ[4]

ولقوتها فإنها تعبر الماء كالسّفينة تنقل فارسها، حتّى أنّها إن دخلت روضة أهلكت حُمره ووحوشه وصادتها جميعاً، يقول:

يَـا رُبَّ لُـجٍّ جُعِلَـتْ سَـفِينَهُ وعـازِبِ الـرَّوْضِ تَوَفَّـتْ عُونَـهُ [5]

([1]) ويشبّه هذا قول شيخ المعرّة:

يا ابن الألى غير زجْرِ الخيل ما عرفوا إذ تعرفُ العربُ زجر الشاءِ والعَكر. المتنبي: **الديوان**، 1/ 351.

([2]) ابن نباتة: **سرح العيون**، ص 331.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 10. وهذا من قول امرئ القيس:

إذا مـا ركبنـا قـال ولْـدَانُ أهْلِنـا تعـالَوْا إلـى أن يـأتيَ الصـيد تحطـب

الثعالبي: **يتيمة الدهر**، 1 / 149.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 275. الخميس: الجيش الجرار العظيم من خمس فرق (القلب، الجناحين، المقدمـة، السـاقة). **اللسان**، باب خمس.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 305. لج: جمع لجة ولجة البحر معظمه. **اللسان**، باب لجج، سفينه: جمع سفينة. **اللسـان**، باب سفن، عازب: البعيد. **اللسان**، باب عزب، توفت: أخذتها وافية وقيل أهلكتها. **اللسان**، باب وفي، عُونه: جمع عانة وهـي القطعة من حمر الوحش. **اللسان**، باب عون

وقد وُفِقَ المتنبي في إظهار قوة الخيل في المعركة لأنّه شبّهها بحيوان مفترس تجبره غريزة الافتراس على إظهار كامل قواه ليحصل على مراده.

ثم جعلها تسابق عوالي الرّماح في جريها بعيداً عن مصدر خيبته وألمه بأقصى سرعة وصولاً إلى الأمل في إيجاد الرّاحة، يقول:

وَلَـكِنّ بِـالفُسْطاطِ بَـحراً أَزَرْتُـهُ حَـياتي وَنُـصحي وَالهَـوى وَالقَوافِيـا
وَجُـرْداً مَـدَدْنا بَـينَ آذانِهـا القَنـا فَـبِـتْنَ خِـفافاً يَـتّبِعْنَ الـعَوالِيَا[1]

فاختار الخيل الجرد وهو مما تمدح به الخيل، وقد تميزت بالسّرعة لتحقق مراد فارسها.

ثم استفاد من ضروب عَدْو الخيل وسيرها ليوصل إلينا الصّورة كاملةً، فلمّا حاول سيف الدّولة إعادة المتنبي إلى بلاطه، ردّ عليه شاعرنا قائلاً:

ومـا عـاقَني غيـرُ خَـوْفِ الوُشَـاةِ وإنّ الوِشـايات طُـرْقُ الكَـذِبْ
وتكثيـر قـومٍ وتَقْلِـيلهم وتقـريبهم بيننـا والخَبَـبْ[2]

كان خائفاً من الوشاة الذين يحاولون الفساد بينهما، فهم يكثرون معايبه، ويقلّلون مناقبه، ولو كان كذباً ممّا لا يأمنه البريء[3]، فاستخدم ضروب عَدْو الخيل ليظهر أساليب الوشاة في الفساد. وقد شبّه ما يقوم به الوشاة من السّعي والفساد بمن يحث خيله على الخبب، يقول:

صـارَ مـا أوْضَـعَ المُخِبُّـونَ فِيـه مـن عِتَـابٍ زيـادَةً فـي الـوِدَادِ

فمن سعى بالفساد سَبّبَ دون قصد زيادةً في الوداد؛ لأنّ الود بعد العتاب أصفى.[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4/ 421. كما قالت ليلى الأخيليّة:

ولمّـا أنْ رَأَيْـتَ الخيْـلَ قُـبْلاً تُبـارِي بالخُـدُودِ شَـبَا العَوَالِيَـا

المصدر السابق، 4/ 421.

([2]) المصدر السابق،1 / 226.

([3]) المصدر السّابق،1 / 226.

([4]) وهذا المعنى قريب من قول أبي نواس:

كأنمـا أثْنَـوا ولـم يعلمـوا عليـك عنـدي بالـذي عـابوا

المتنبي: **الديوان**، 2 / 131. أوضع: ضرب من سير الإبل دون الشدّ وفوق الخبب. **اللسان**، باب وضع.، المخبون: من الخبب وهو ضرب من العدوّ. **اللسان**، باب خبب

ويرجو المتنبي من ممدوحيه ألّا يتركوا الوشاة ينجحون في سعيهم، فهو يطلب من كافور وابن الأخشيد " ألّا يختلفا ويصيرا طائفتين تقتتلان، فتحول الرّماح بين خيلهما الّتي هي جماعة واحدة فتصير جماعتين، يقول:

وَبُلِّبْكُمَا الأصِيلِيْنِ أن تَفْرُقَ صُمُّ الرّماحِ بين الجياد [1]

ولما صَفَتْ الأجواء من الوشاة والمفسدين توجّه المتنبي إلى ممدوحه مسرعاً غير متوقف وهو يرى في رياض الممدوح مرعى لمطاياه ويرى فيها المعين على السّفر، يقول:

فيك مرعى جِيادِنا والمطايا وإليْها وَ جيفُنَا والذَّميلُ [2]

وفي طريقه إلى الممدوح، يمرُّ ببعض القبائل فتصول كلابها على خيله كأنّها أعداء تحمل عليها، فإن أراد أحد أن يقتفي آثاره في محاولةٍ لردّه عن مسيره إلى الممدوح، فإنّه لن يجد إلا آثار الإبل والخيل، الّتي صارت كالسّمة (العلامة) للبيداء، وما إن وردت الماء حتّى شربت دون ريّ لأنّها مكدودة، يقول:

وَلا نَبَحَتْ خَيْلِي كِلابُ قبائلٍ كَأنَّ بِها في اللَّيلِ حَمْلاتِ دَيْلَمِ
وَلا اتَّبَعَتْ آثارَنا عَيْنُ قَائفٍ فَلَمْ تَرَ إلّا حَافراً فَوْقَ مَنْسِمِ
وَسَمْنا بِها البَيْداءَ حتّى تَغَمَّرَتْ مِنَ النِّيلِ وَ اسْتَذْرَتْ بِظِلِّ المُقَطَّمِ [3]

وقد أراد المتنبي التّعبير عن سرعة سيره و استمراريته دون انقطاع أو راحة، فمرّ بها عبر الصّحراء ليلاً ونهارًا إلى أن وصل مصر، فشربت من النّيل واستراحت، وهو يرى في عَدْو الخيل أنفع الأمور؛ لأنّها أوصلته إلى ممدوحه وأخرجته من بين الغادرين بِه، فيقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 135.

([2]) إليها: قصد بها حلب. المتنبي: **الديوان**، 3 / 273. الوجيف: ضرب من سير الخيل السريع. **اللسان**، باب وجف، الذميل: ضرب من سير الإبل. **اللسان**، باب ذمل

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 268 – 269. الديلم: الأعداء، جيل سمّوا بأرضهم وفي قول بعض الأثر وليس باسم الأب لهم. الحموي، **معجم البلدان**، 2 / 544، قائف: هو الذي يقفو الآثار ويتبعها. **اللسان**، باب قفا، المنسم: طرف خف البعير. **اللسان**، باب نسم، تغمرت: شربت قليلاً من الغمر وهو القدح الصغير. **اللسان**، باب غمر، استذرت: نزلت في ذراه أي في كنفه وناحيته. **اللسان**، باب ذرا، المقطم: جبل في مصر، يشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة. الحموي: **معجم البلدان**، 5 / 176.

وَجَـــدْتُ أَنْفَـــعَ مَـــالٍ كنـــتُ أَذْخَـــرُهُ ما في السَّوَابِق مـــن جَـــرْيٍ و تقريـــبِ
لمّا رأيْنَ صـــروفَ الـــدّهر تغـــدرُ بـــي وفيْنَ لـــي ووفَـــتْ صُـــمُّ الأنابيـــبِ [1]

وما زالت تلك الخيل العربية المعلّمة تعدو به لا تعرف نوماً ولا راحة حتّـــى تصـــلهم وينال الممدوح منهم، فيقول:

فبِـــــتُّ لياليـــــاً لا نـــــومَ فيهـــــا تَخُـــبُّ بـــكَ المُسَـــوَّمَةُ العِـــرابُ [2]

تعْدُو لا يهمها بَردٌ ولا صَقيع، فيقول:

وتَرْدِي الجيـــادُ الجُـــرْدُ فـــوقَ جبالهـــا وقد نَدَفَ الصِّنَّبْرُ في طُرُقِهـــا العُطْبَـــا[3]

وتظهر الطّبيعة قاسية غليظة من خلال ألفاظه الجزلة القوية [4]، فخيله خفيفة في جريها، جريها، ورماحه شرسة على أعدائها، يقول:

فـــإنْ حَلُمُـــوا فـــإنَّ الخيـــلَ فِـــيهم خِفـــافٌ والرّمـــاح بهـــا عُـــرَامُ[5]

وخيله لا تبالي بكثرة غزواته الّتي عمّت البرّ والبحر، فرافقته أينما ذهب، ففي البرّ تعدو بسرعة تجاري سرعة الذّئاب، وفي البحر تعوم مع الحيتان، أمّا في الأودية فتكمن لعدوها مـــع الغزلان الّتي تكمن لكناسها، وفي الجبال تقتحم رؤوسها مع العقبان الأوكار، فلم يقـــف أمّامهـــا عائق ولا بعد عنها مطلب ولا امتنع عليها موضع، يقول:

فَهُنَّ مَـــعَ السِّـــيدَانِ فـــي البّـــرِّ عُسَّـــلٌ وَهُنَّ مَـــعَ النَّينَـــانِ فـــي المَـــاءِ عُـــوَّمُ
وَهُنَّ مَـــعَ الغِـــزلانِ فـــي الـــوَدِ كُمَّـــنٌ وَهُنَّ مَـــعَ العِقْبَـــانِ فـــي النِّيـــقِ حُـــوَّمُ

([1]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 297.

([2]) المصدر السابق، 1 / 205.

([3]) المصدر السابق، 1 / 193. الصّنبر: البارد، الريح الباردة في غيم. **اللسان**، باب صنبر. العطب: القطن. **اللسان**، باب عطب. ندف: رمى به. **اللسان**، باب نزف.

وفي معنىً مشابه، يقول:

نَجُـــرُّ القَنَـــا الخَطَّـــى حَـــوْلَ قِبَابِـــهِ وَ تُـــرْدِي بنـــا قُـــبُّ الرِّبَـــاطِ و جُـــرْدُهُ

فتعدو الخيل بصحبته أينما سار

المصدر السابق، 2/ 124. قبابه: من الخيام، بيت صغير مستدير. **اللســان**، باب قبب. الرباط: من الخيل، الخمســة فمــا فوقها، **اللسان**، باب ربط.

([4]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 317.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 198.

وهو إنّما قصد الممدوح في قوة عزائمه ونفاذه في مقاصده [1].

علم بصفاتها واستفاد منها، فقادها نحو عدوه فصيّرتهم حطاماً، يقول:

وَقائِـــــدُها مُسَـــــوَّمَةً خِفافـــــاً عَلـــى حَـــيٍّ تُصَـــبِّحُهُ ثِقـــالا[2]

وقد استغلّ المتنبي ضروب العدوّ في صور أخرى ببراعة شديدة، فمن أجل أن يعـرف كافور أنَّ المتنبي يستحق العطاء والبرّ، عليه أن يجرّبه، فشبّه نفسه بالخيل الّتي تُعرَف من خلال تَقريبها وشدِّها، إن كانت قوية أم لا، يقول:

فَكُنْ في اصـطِنَاعِي مُحْسِـنَاً كَمُجَـرِّبٍ يَـبِنْ لَـكَ تَقْرِيـبُ الجَـوَادِ وشَـدُّهُ [3]

فممدوحه من ذوي مكارم الأخلاق، وهو في ذلك مثل الخيل السّابقة إلى الغايـة، فمـن حاول مجاراته فيما نَهجه من المكارم، وصل إلى أقصى غايةٍ ثم وقف متخلفاً عنه من الكـلال، يقول:

جَرَى مَعَكَ الجَـارُونَ حتّـى إذا انْتَهَـوْا إلى الغايَةِ القُصْوَى جَرَيْـتَ وَقَـامُوا [4]

ثم يُعطي المتنبي صورة لممدوحه ويزينها بمظاهر القوة والكرم والشّجاعة والمعـالي، وكذلك الإرادة والعزم، فقاد خيله مسرعاً دون توقف، حتّى أنّها لم تشرب إلا مرةً واحدةً وهـي ملجَمَة ؛ لشدّة سيرهم، فكان أقل سيرها إسراعاً، يقول:

قَـادَ المَقَانِـبَ أقْصَـى شُـرْبِهَا نَهَـلٌ على الشَّكِيمِ وَأَدْنَـى سَـيْرِهَا سِـرَعُ [5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 72. السيدان: سيد: الذئب. **اللسان**، باب سيد، عسـل: عاسـل: عسـلان الـذئب: الإسـراع والاضطراب في الجري. **اللسان**، باب عسل، النينان: النون: الحوت. **اللسان**، باب نون، النيق: أعلى موضع في الجبـل. **اللسان**، باب نوق، الحوم: الحائم من حومان الطير وهو دورانها. **اللسان**، باب حوم.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 345/3.

([3]) المصدر السابق، 2 / 128 – 129.

([4]) وأصل هذا في الخيل تجارى، فإذا ونى بعضها سبقه الذي لم يلحقه الكلال. المتنبي: **الديوان**، 4 / 115.

وفي معنىً قريب، يقول:

تَكْبُـــو وَرَاءَكَ يَـــا ابْـــنَ أحمـــدَ قُـــرَّحٌ لَيْسَـــتْ قَـــوَائِمُهُنَّ مِـــنْ آلاتِهَـــا

فمن يحاول اللحاق بالممدوح، لم يستطع اللحاق به لصعوبة مسالكه، وإن كانت خيله كالقارح من الخيل.

المصدر السابق، 1 / 353.

([5]) المصدر السابق، 2 / 333. المقانب: جمع مقنب، جماعة الخيل زهاء الثلاثمائة. **اللسان**، باب قنب، النهـل: الشـرب الأول. **اللسان**، باب نهل

وفي ذلك وصف لسيف الدّولة وما كان عليه من الشّجاعة والجدِّ في لقاء العـدوّ. وفـي صورة مشابهة يقول:

تَـذرِي اللُّقـانُ غُبـاراً فـي مَنَاخرهـا وفي حَنَاجرهـا مِـنْ آلِـسٍ جُـرَعُ [1]

فيجعلها المتنبي تشرب الماء من آلس ثم تبلغ اللقان قبل أن تبلع الماء الذي شربته، وهذه مبالغة لطيفة ليدل على سرعة جريها ومواصلتها المسير. يقول ابن جني: " لا تستقر فتشـرب، إنّما تختلس الماء اختلاساً بمواصلة السّير، قال: ويجوز أن تكون شربت الماء قليلاً لعلمها بمـا يعقب في الرّكض، وكذا تفعل كرام الخيل".[2] وفي البيت إشارةٌ إلى أنّ المتنبـي وممدوحـه لا يبحثان عن الرّاحة أو الملذات حتّى تَطهر الأرض من الأعداء. وقد غلّـف الشّـاعر الصّـورة بمسحة أسطورية خارقة خارجة عن حدود الواقع المادّي، بأن جعل الجياد تبلغ هدفها في طرفة عين وما زال الماء في حناجرها. [3]

ومن عادته السّير إلى أعدائه، فهو لا يقنع بالسّلم لمدّة طويلة، بل يعاود القتال والـدّفاع عن الأراضي الإسلامية وغزو أعدائها، يقول:

أَجْرِ الجيادَ علـى مـا كنـت مُجْريهـا وخُـذْ بِنَفْسِـك فـي أخلاقِـكَ الأُوَلِ [4]

فقد اعتاد مع جيشه التّنقل من معركةٍ إلى أخرى، فإن طلبوا الرّاحة، وجدوها في ظـلّ خيولهم المطهمة التّامّة الخلق، يقول:

يتَقيَّلُـون ظِـلالَ كُـلِّ مُطَهَّـمٍ أجَـلِ الظَّلـيمِ وربْقَـةِ السِّـرْحَانِ [5]

وكذلك خيله، فهي معتادة على الجَرْي،" فكأنّما ولدت تحتهم قائمـة مسـتعدة للجـرْي، وفرسانها كأنّهم ولدوا راكبين على ظهورها"، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 335. آلس: اسم نهر في بلاد الرّوم وهو نهر سُلوقيّة قريب من البحر، بينه وبـين طرسـوس مسيرة يوم. الحموي، **معجم البلدان**، 155/1. لقان: بلد بالروم وراء خرشنة بيومين. الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 21.

([2]) المصدر السابق، 2 / 335 – 336.

([3]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 320.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 169/3

([5]) المصدر السابق، 4 / 312.

فكأنّمـــا نُتِجَـــتْ قِيأمّـــا تحـــتَهُمُ وكـــأنّهمْ وُلِـــدُوا علـــى صَـــهَوَاتِها[1]

وشدّة جريها جعلتها تصل هدفها بخطوة واحدة، فكأنّ أرجلها بالشّام، وأيـديها بـالرّوم، يقول:

فكـــأنّ أرْجُلَهَـــا بِتُرْبَـــةِ مَنْـــبِجٍ يَطْـــرَحْنَ أيْـــديَهَا بَحِصْـــنِ الـــرَّانِ [2]

غبار الخيل

وفي كثرة خيل سيف الدّولة وشدّة عدوها، فإنّها تثير غباراً منتشراً، فلا تعرف الخيـل بعضها بعضاً وكذلك أصحابها، لا يعرفون بعضهم بعضاً لولا العلامة الّتي يتعارفونها بيـنهم، حتّى العقبان الّتي تسير مع الجيش تعثر في ذلك الغبار وكثافته، فشبّه الجو بأرض لينة تغـوص فيها أرجل الطّير، فتعثر لكثرة ما ارتفع من غبار الخيل، يقول:

تُثيـــرُ علـــى سَـــلَمْيَةَ مُسْـــبَطِرَّاً تَنـــاكَرُ تَحتَـــهُ لَـــولا الشِّـــعَارُ
عَجاجًـــا تَعثُـــرُ العِقبـــانُ فيـــهِ كَـــأَنّ الجَـــوَّ وَعـــثٌ أَو خَبـــارُ[3]

ويقول أيضاً فيما تثيره الخيل من غبار المعركة:

عَقَـــدَتْ سَـــنابِكُها عَلَيهـــا عِثيـــرَاً لَـــو تَبتَغـــي عَنَقَـــاً عَلَيـــهِ أَمكَنَـــا [4]

([1]) المصدر السابق، 1 /351-352. قيل مأخوذ من قول جابر السنبسي:

خيـــل شـــوازب أمثـــال الصـــقور لهـــا فـــوارس لا يخـــافون الـــردى بُسُـــلُ
كـــأنهم خلقـــوا والخيـــل تحـــتهم وهـــم أســـود وفـــي أنيابهـــا الأجـــل

البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 215.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 4 /310. مَنْبِج: بلاد في الشام. الحموي: **معجم البلدان**، 5 /205، حِصْنِ الران: من بلاد الروم في الثغر قرب مليطية بالقرب من حصن كركر. الحموي: **معجم البلدان**، 3 / 18.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 206/2. سلمية: موضع قرب المؤتفكة كانت من أعمال حمص. الحموي: **معجم البلدان**، 3 / 240، مسبطر: الانبساط في المشي، المشي الممتد السريع، **اللسان**، باب سبطر، وعث: المكان السهل الكثير الدّهس تغيـب فيـه الأقدام. **اللسان**، باب وعث، خبار: الأرض اللينة الرخوة. **اللسان**، باب خبر.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 336/4. عثير: غبار، التراب. **اللسان**، باب عثر، عنق: ضرب من السير سريع. **اللســان**، بـاب عنق. وهذا من قول العتابي:

تبتنـــي سَـــنَابِكُهَا مـــن فـــوق أرْؤُسِـــهم سَـــقْفاً كَوَاكِبُـــهُ البـــيضُ البَـــواتيرُ

المتنبي، **الديوان**، 336/4.

وقول البحتري:

لمـــا أتـــاك يقـــود جيشـــاً أرعنـــا يمشـــي عليـــه كثافـــةً وجُمُوعـــا

التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 531.

وقد بالغ المتنبي في تخيّله، فقد جعل الغبار المنعقد الذي تثيره الخيل فوق الرّؤوس طريقاً لو أراد أحد السّير عليه لأمكنه ذلك.[1]

وقد شبّه المتنبي الغبار الكثيف باللّثام على وجوه الخيل، حتّى صار كل بعيد قريب، فاستطاع الممدوح بجيشه وخيله النّفاذ في العدوّ وقهره، يقول:

قريبٌ عليه كلُّ نَاءٍ على الوَرَى إذا لَثَّمَتْهُ بالغُبَارِ القَنَابِلُ [2]

فكأن الغبار الذي تثيره الخيل بكثرتها مجرد خدعة للتّوصل إلى الأعداء، فهو يخفي زحف الممدوح وجيشه تجاه العدوّ، فيتحقق له عنصر المفاجأة والإرباك.

وفي غمرة الرّماح والغبار، كانت حوافر خيله تحشو العيون بما تثيره من الغبار يقول:

أتَاهم بِهَا حَشْوَ العَجَاجَةِ والقَنَا سَنابِكُها تَحشُو بُطُونَ الحَمالِق [3]

والممدوح لا يريحها وينتقل بها من معركة إلى أخرى، فتأتي للقتال مغبرة من كثرة الطّراد عليها، وقد عقدت نواصيها وأذنابها، ورغم ذلك فإنّها تعينه على الظّفر بأعدائه ولا تخيّب ظنّه أبداً، يقول:

وَيَومَ جَلَبْتَهَا شُعْثَ النَّواصِي مُعَقّدَةَ السَّبائِبِ لِلطِّرَادِ [4]

أمّا رؤوس الأعداء وثيابهم فقد اغبرّت بما تثيره خيلهم من الغبار وهم متضايقون، وقد ظنّوا أنّ أسلحتهم والفلوات الّتي لجؤوا إليها ستعصمهم من خيل الممدوح، ولكنّه اخترقها بسلاسة دون وَجَل، يقول:

بعيدةُ أطرافِ القَنَا من أُصُولِه قريبةُ بين البَيْضِ غُبْرُ اليَلامِق [5]

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 150.

([2]) المتنبي، **الديوان**، 239/3

([3]) المصدر السابق، 65/3. الحمالق: بطن جفن العين. **اللسان**، باب حمق.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 81/2. السبائب: شعر العرف والذنب وهذا الشعر يعقد عند الحرب. **اللسان**، باب سبسب.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 3 /67–68. البيض: جمع بيضة، من السلاح لأنها على شكل بيضة النّعام. **اللسان**، باب بيض. اليلامق: الأقبية، فارسي معرّب. **اللسان**، باب يلمق.

وإثارة الغبار أمر طبيعي للخيل القوية، فهي من الغبار في سحاب ومن العرق في مطر يقول:

خَـــرَجنَ مِـــنَ النَّقْـــعِ فـــي عـــارِضٍ وَمِـــن عَـــرَقِ الـــرَّكضِ فـــي وَابِـــلِ [1]

فقد شبّه الغبار بالسّحاب والعرق بالمطر لشدّتهما وكثرتهما. وهذا تشبيه حسنٌ دون أداة التشبيه [2]

فالعدوّ يعلم تمّام العلم أنّ الممدوح يستطيع إدراكه متى أراد بخيله السّابقة فترك القتـــال صغاراً، واستأمنَ بالكتاب إلى الممدوح من أرضه البعيدة يقول:

وكاتَـــبَ مِـــن أرْضٍ بَعيـــدٍ مَرامُهَـــا قَريبٍ علـــى خَيْـــلٍ حَوَالَيْـــكَ سُـــبّق [3]

وقد زاد المتنبي الأمر وجعل اسم الممدوح وحده كفيلاً بهزم الأعداء، يقول:

وَنَرمي نَواصِيها مِنِ اسْمِكَ في الـــوَغَى بِأَنفَـــذَ مِـــن نُشّـــابِنا وَمِـــنَ النَّبْـــلِ [4]

فشبّه اسم الممدوح (أبي الفوارس) بسهم يقع على وجوه خيل العدوّ، فكان أقتل لهم مـــن النّشاب والنّبل. [5]

ويمدح المتنبي خيله الكريمة الّتي تطيعه في جميع حركاته، فلا تضع حافرها إلا حيـــث أراد، يقول:

لَو مَـــرَّ يَـــركُضُ فـــي سُـــطورِ كِتابَـــةٍ أَحْصَـــى بِحَـــافِرِ مُهـــرِهِ ميماتِهَـــا [6]

وقد خص حرف الميم لأنّه أشبّه الحروف بالحافر[7]، ولا تطيع الفرس صَـــاحِبها إلا إذا كان فارساً محنّكاً، لا يشقّ له غبار.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 155/3

([2]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 1/ 197.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 55/3

([4]) المصدر السابق، 9/4. النبل: سهام العرب. **اللسان**، باب نبل، النشاب: السهام. **اللسان**، باب نشب.

([5]) المتنبي، **الديوان**، 9/4

([6]) المصدر السابق، 353/1

([7]) المصدر السابق، 353/1

ولشدّة طاعتها فإنّها تنقاد بشَعْرها كما تنقاد بالعنان، وإن أراد زجرها كان الكلام كافياً وحل محلّ السّياط، يقول:

تُعَطَّفُ فيه والأعِنَّةُ شَعْرُهَا وتُضْرَبُ فيه والسِّيَاطُ كَلامُ [1]

الخيل السابحة

أُعجب المتنبي بالخيل السّابحة لسرعتها في الجري دون مشقّة، ومن يملكها يكون فارساً متمكّناً كأبي محمد بن طغج، فيقول:

أباعِث كلَّ مَكْرُمَةٍ طُموحِ وفارِسَ كلِّ سَلْهَبَةٍ سَبُوحِ [2]

فهو يقود إلى حروبه فرس أجرد سابح، تورِدُه إلى الحرب حانق على عدوه غضبان، وتخرجه منها راضياً بما أدرك من الظّفر بأعدائه، يقول:

وَقُدْتَ إليها كلَّ أجْرَدَ سَابحٍ يُؤدِّيكَ غَضْبَاناً ويثنيكَ رَاضِياً [3]

عكس المتنبي الأمور، فبدلاً من أن ينقل الفارس مشاعره إلى فرسه، فيتقدمان إلى الحرب بشجاعةٍ فائقة، جعل الفرس المتحكمة بنفسية فارسها فتدخله غاضباً وتخرجه مسروراً بالنّتيجة، وهذا يدل على الارتباط الشديد بينهما بحيث يؤثر كل منهما في الآخر.

وفي حسن جري فرسه، يقول:

رأيتُ ابْنَ أمِّ المَوْتِ لو أنَّ بَأْسَهُ فَشَا بَيْنَ أهْلِ الأرْضِ لانْقطَعَ النّسْلُ
على سَابِحٍ مَوْجَ المَنَايَا بِنَحْرِهِ غَدَاةَ كَأَنَّ النَّبْلَ في صَدْرِهِ وَبْلُ [4]

وصف الفرس بحسن الجري وسلاسته، واستعار للمنايا موج جعل الفرس تسبح عليه، وقد عدّ البديعي قول الشّاعر في موضع آخر: (وموج المنايا حولها متلاطم) [5] معنىً مخصوصاً

([1]) المتنبي: **الديوان**، 110/4

([2]) المصدر السابق، 1 / 381.

([3]) المصدر السابق، 4 / 429.

([4]) المصدر السابق، 3 / 303. قال محمد المعرج في جيش: في ذي صهيل ونبله من نبله. فجاء بلفظ طويل في موجز قصير فكلامه أجود. التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 256.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 4 /96.

مخصوصاً ابتدعه المتنبي، إلّا أنّه كان يصف الثّغر وبناءه [1]، فهي تقتل الأعداء مع فارسها، شديد البأس، لا يمتلك أحدٌ مثل بأسه، فهو فارس لا يُشَقُّ له غبار، وشبّه الأسلحة والدّروع من حوله لكثرتها ببحر من حديد تسبح فيه الخيل، يقول:

أفْرَسُ مَنْ تَسْبَحُ الجِيادُ بِهِ ولَيْسَ إلا الحديدَ أمْوَاهُ [2]

وعندما تصل إلى الأعداء، تراهم يرجفون رهبةً من الممدوح، وإنْ لم يَقصِدهم أحد، يقول:

صِيَامٌ بأبْوابِ القِبابِ جِيادُهم وأشْخَاصُها في قَلْبِ خَائِفِهم تَعْدو [3]

كأنّ الخيل تعدو في قلوب الأعداء لشدّة خوفهم، رغم أنّها ما زالت واقفةٌ في ديار أصحابها، وهذا دليل هيبتهم له، وخشية خيلهم خيل ممدوحه، يقول:

فَأَقْبَلْنَ يَنْحَزْنَ قُدَّامَهُ نَوَافِرَ كَالنَّحْلِ وَالعَاسِلِ [4]

شبّه هروب الخيل بهروب النّحل من العاسل، مشيراً إلى كثرة هذا الجيش وما ألقاهُ من أهوال [5]. ولكنّ ممدوحه لا يأبه بهم، ويرميهم بخيل لسرعتها تسبق السّهام، وما علموا أنّ سهامه خيولاً، فهي كريمة، وقوية، وسريعة السّير، وكثيرة الجري، وترفع أذنابها في ذلك الجري، ولنشاطها ومرحها وعزّتها تقوم بالتّشوال والصّهيل، يقول:

رَمَى الدَّرْبَ بِالجُرْدِ الجِيادِ إلى العِدَا وَمَا عَلِمُوا أنَّ السِّهَامَ خُيُولُ
شَوَائِلَ تَشْوَالَ العَقَارِبِ بِالقَنَا لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ [6]

([1]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 187.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 402.

([3]) المصدر السابق، 2 / 107–108. صيام: واقفة، صام الفرس إذا وقف. **اللسان**، باب صوم. وقيل هو مأخوذ من قول الأسدي: ترى خيلهم مربوطة بقبابهم وفي كل قلب من سنابكها وقع. البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 218.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 157.

([5]) المصدر السابق، 3 / 157.

([6]) أراد شوائل بالقنا: تشوال العقارب بأذنابها. المصدر السابق، 3 / 221. الدّرب: المدخل إلى البلاد. الحموي: **معجم البلدان**، 2 / 447، شوائل: شالت: رفعت. **اللسان**، باب شول، المرح: الفرح والنشاط. **اللسان**، باب مرح

شبّه الرّماح على الخيل بأذناب العقارب إذا رفعتها. وفي البيت سخرية وتهكّم لاذع بهؤلاء الذين لم يعلموا أنّ السّهام كخيول الممدوح في سرعتها، وقد جاء الشّاعر بالتّشبيه مقلوباً على سبيل المبالغة، ونقل إحساس الشّاعر بسرعتها العجيبة.[1] وقد اعتمد أبو الطيب المنهج التّحليلي، إذ وضع المعنى العام، ثمّ أخذ في تحليل المعنى وتفصيله، ممّا أضفى على القصيدة وحدة عضوية جعلت القارئ يعيش الصّورة كاملة كأنّه إلى جانب الشّاعر في أرض المعركة.[2]

المعركة.[2]

وفي موضع آخر جعل الخيل تثب إلى النّهر دون أن يَهمها شدّة برودة الماء، وصيّرتهُ طريقاً لها، فشبّه الماءُ بالسّكين الّتي تركت أعتى الفحول خصيّاً ونشرت عمائم الفرسان، يقول:

حتّى عَبَرْنَ بأَرْسَناسَ سَوابِحاً يَنْشُرْنَ فيه عمائمَ الفُرْسانِ
يَقْمُصْنَ في مِثْلِ المُدَى مَنْ بَارِدٍ يَذَرُ الفُحُول وهنَّ كالخِصْيَانِ[3]

وقد أراد المتنبي وصف سرعة خيله في السّباحة والجَرْي، وشجاعتها وعدم ترددها لوصول العدوّ، مهما كلفها الأمر. وتراه ينحت من صخر، ويغرف من بحر السّهولة.

وقد اشتمل عطاء الممدوح خيلٌ سوابق، فأعلى المتنبي شأنها إعلاءً لشأن الممدوح، فيجعلها تصيّره فارساً وتعلمه الطّرد بركوبها، فقد تعلّمت آداب المطاردة عند صاحبها (ابن العميد) يقول:

فَرَّسَتْنَا سَوَابِقٌ كُنَّ فيه فَارَقَتْ لِبْدَهُ وفيها طِرَادُهْ[4]

راحة الخيل عند فارسها

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 168.

([2]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 333 – 334.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4 /310. أرْسَنَاسَ: اسم نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة مائه. الحموي: **معجم البلدان**، 151/1، يَقْمُصْنَ: للفرس أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ويعجن برجليه. **اللسان**، باب قمص، المُدى: سكاكين. **اللسان**، باب مدي.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 154/2

لمّا حصل المتنبي على الخيل كهدية، رَجَتْهُ أن تستريح من طول كدّ ابن العميد إياهـا، لكنّها لم تُجَبْ في طلبها، ما دام المتنبي في بلاده يغزو بغزواته، ويطارد معه للصّيد، فيمنحهـا أملاً كاذباً بالرّاحة عند مفارقته لابن العميد، وهو لا ينوي ذلك، يقول:

ورَجَـتْ رَاحـةً بنـا لا تَرَاهـا وبِـلادٌ تسـيرُ فيهـا بـلادُه [1]

إنّما يمدح نفسه وابن العميد، فهما لا يركنان إلى الرّاحة بل يمضيان وقتهما في الحرب والصّيد وكلاهما عمل جادٌ يحتاج إلى قوة وشجاعة، ويؤكد ذلك بقوله:

لو كنـتُ أفْعَـلُ مـا اشْـتَهيْتِ فَعالَـهُ ما شَـقَّ كوكبـك العَجَـاجَ الأكْـدَرَا [2]

"فالخيل تريد الجمام والرّاحة وهو يتعبها بالأسفار فيقول لها: لو فعلتُ ما تريـدين مـا ركضتك في الغبار المظلم"[3]، وهذا يدل على إرادة المتنبي واستقلاليته، وأنّه لا يقـوم إلا بمـا تمليه عليه نفسه. ومن طرائف المتنبي أنّه يرى راحة خيله بملاحقتها لعدوّه من بعض القبائـل العربية؛ لأنّه إن لم يتبعهم فإنّه سيذهب إلى الروم، فلمّا قصد هؤلاء الأعراب، كفاها السّير فـي البراري وتجشم قطع الجبال بأرض الروم يقول:

فمـا حَرَمُـوا بـالرَّكضِ خَيْلَـكَ راحـةً ولكـن كفَاهـا البَـرُّ قَطْـعَ الشـواهِقِ
ولا شَـغلُوا صُـمَّ القنـا بقلُـوبهم عن الرَّكْزِ لكن عن قلـوبِ الدَّمَاسِـقِ[4]

هو لا يتوقف عن القتال أبداً، فإن لم يحاربهم لقصد الرّوم، فلا راحة لخيله ولا لسلاحه. وإن لحقها التّعب لا ترى أثر ذلك عليها، فهي لا تضعف ولا تسترخي، فإن جفَّ عرقها دلالـة على البطء تلقّت السّياط على جلودها الّتي شبّهها بصخر البلد الماحل الذي لا مطر فيه يقول:

فَلَمَّـا نَشِـفْنَ لَقِـينَ السِّـيَاطَ بمثـلِ صَـفَا البَلَـد المَاحِـلِ[5]

ومن الملاحظ أنّ المتنبي لا يصف الخيل إلا وقد أعطاها خصائص القوة والمنعة، وأبعد عنها ملامح الضّعف والخَوَر، فصفات الخَيْلِ من صفات خيّالها، فكأنّه يعدد صفات الممدوح الّتي

([1]) المتنبي: **الديوان**، 154/2

([2]) المصدر السابق، 270/2

([3]) المصدر السابق، 270/2

([4]) المصدر السابق، 70/3-71

([5]) المصدر السابق، 155/3. صفا: صخر. **اللسان**، باب صفا.

لا مثيل لها، فهو يثق بها وبقدراتها، فلا يسوق إلى أهل الظّلم إلا عسكراً فيه كل فرس نشـيطة تحمل فارسها وقد امتلأ صدره حقداً فلا تأخذه بهم رحمة، يقول:

عَلَيَّ لأَهْـلِ الْجَـــوْرِ كُـــلُّ طِمِـــرَّةٍ عَلَيْهَا غُلامٌ مِـلْءُ حَيْزُومِـهِ غِمْـــرُ[1]

خيله نادرة، لا نظير لها من جنسها في صفاتها فهي وثّابة، في مفاصلها دقّة دون ترهل أو رخاوة، يقول:

في سـرج ظامِئَـةِ الفُصـوصِ طِمِـرَّةٍ يـــأبى تَفَرُّدُهـــا لهـــا التَّمْثِيلَـــا [2]

ولا يخفى انتقاؤه للفرس النّشيطة الوثّابة في حربه، فهي المعينة علـى الوصـول إلـى الأعداء والنّيل منهم، فلا تتخاذل ولا تتعب، بل تجري بكل قوتها لتوصل فارسها إلى هدفه، فهي قوية شديدة، ويبالغ المتنبي في مدحها قائلاً:

تَـماشى بِـــأَيدٍ كُلّمـا وافَـتِ الصَّـفَا نَـقَشنَ بِـهِ صَـدرَ البُـزاةِ حَوافِيَـا [3]

إن "وطئت خيله الحجارة حافية أثرت فيها مثل صدور البزاة " وهذا دليل صلابة وشدّة، فماذا يكون الحال إن لبست نعالاً بحوافرها؟! ومن خلال ذلك عرضَ المتنبي صـورة بصـرية لمسية لحافر خيله.[4]

وقد يُعتَقدُ أنّ خيّالها قاسٍ لا يرحمها، ولكنّ المتنبي يشفق عليها ويطلب لها الرّاحة ولـو ساعة، يغمد فيها الفرسان سيوفهم ويحلّون حزم الخيل يقول:

أُذَا الحَـربِ قَـد أَتْعَبْتَهـا فَالَـهُ سـاعَة لِيُغمَـدَ نَصْـلٌ أَو يُحَـلّ حِـزامُ [5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 256/2. الطمرة، الفرس الجواد، المستفزّ للوثب والعدوّ، و قيل الطويل القوائم الخفيف. **اللسان**، باب طمر. الخيروم: الصدر. **اللسان**، باب حزم، الغمر: الحقد والغلّ. **اللسان**، باب غمر.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 357.

([3]) المصدر السابق، 4 / 422. وهذا منقول من قول الراجز:

يَـرْفَعْنَ فـي الـرّكضِ أمّـام السَّـابق حَـوَافِراً كـالعَنْبَرِ المُفَلّـق

يَنْقُشْنَ في الصَّخْرِ صُدُورَ الزُّرَّق. المتنبي: **الديوان**، 4 / 422.

([4]) الرّبابعة، حسن محمّد: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص 41.

([5]) أُذَا: أي يا صاحب الحرب، ويروى أخا الحرب: يقال هو أخو كذا أي ملازم له معـروف بـه. المتنبـي: **الـديوان**، 114/4. فاله: ضعّف رأيه فتركه. **اللسان**، باب فيل.

وقد استغلّ المتنبي رغبة الخيل في الرّاحة وحبّها للأماكن الطّيبة ليظهر حبّه وتعلّقه ببلاد الممدوح، الّتي لن تجد مثلها، وذلك حتّى يكسب الرّضا والمكانة العالية، منقول على لسان حصانه:

يَقُولُ بشِعْبِ بَوَّانٍ حِصَاني أعَنْ هَذا يُسَارُ إلى الطِّعَانِ
أَبُوكُم آدَمٌ سَنَّ المَعاصي وَعَلَّمَكُم مُفارَقَةَ الجِنانِ
فَقُلْتُ إذا رَأَيْتُ أَبا شُجاعٍ سَلَوْتُ عَنِ العِبادِ وَذا المَكانِ [1]

وقد لجأ المتنبي إلى أسلوب التّشخيص؛ ليظهر فرسه بعد أن رَفُه عيشه، فخذله عن خوض المعارك.[2] ثمّ استخدام الحوار بينه وبين حصانه، وهذا يدل على قريحة شعرية فذّة أخرجت صورة متكاملة، كشفت عن رابطةٍ عميقة قد نشأت بين الشّاعر وحصانه. وكذلك أظهر براعة في الاستفادة من ثقافته التّاريخية ليدعم شعره ويضفي عليه لمسةً من المنطق.

وعند راحته فإنّه ينزل عن خيله ويريحها ويشارك في شرب الخمر والطّعام واللّهو رجالاً يكثرون من تلك الأمور ولا يشاركون في القتال، يقول:

تُشارِكُ في النِّدَامِ إذا نَزَلنا بِطَانٌ لا تُشارِك في الجِحاشِ [3]

ويعود الشّاعر ليؤكّد أنّ المجد والشّرف لا يكون باللّهو وشرب الخمر وسماع القيان، إنّما يكون بضرب السّيف، والطّعن، وركوب الخيل، وإثارة عجاج الحرب بحوافرها، والبطش بالأعداء بطشاً لم يُسْمَع بمثله يقول:

وَلا تَحسَبَنَّ المَجدَ زِقّاً وَقَينَةً فما المجدُ إلا السّيف والفَتْكَةُ البِكْرُ
وتَضريبُ أعناقِ المُلوكِ لكَ الهَبَواتُ السُّودُ والعَسْكرُ المَجْرُ[4]

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 389/4

([2]) الرّبابعة، حسن محمّد: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص 43.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 320/2. النّدام: صديق الشراب. **اللسان**، باب ندم. بِطان: جمع بطين وهو العظيم البطن. **اللسان**، باب بطن، الجحاش: المجاحشة: المدافعة في القتال. **اللسان**، باب جحش.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 2/ 253–254. الهبوات: جمع هبوة وهي الغبرة العظيمة. **اللسان**، باب هبو، المجر، الجيش الكثير. **اللسان**، باب جرر.

فالمتنبي لا يكره اللّذة والسّرور، إنّما يطلبهما بشرط ألّا يعرضاه للذّل والـدّنس، فنفسـه تبغي الكرامة والمجد حتّى لو كان فيهما شقاؤه وتعبه. [1]

وإن لم ينشغل الممدوح بالمجد والشّرف، انشغل بامتحان أهل الفصاحة والشّعر فروحـه تنزع إلى تباري أصل الفصاحة أو امتحان الفوارس والخيل بالتّسابق والتّجادل والطّراد، يقول:

وَمَيْـــدانُ الفَصـــاحَةِ وَالقَـــوافِي وَمُمْـــتَحَنُ الفَـــوَارِسِ وَالخُيـــولِ [2]

فخيله تعرف أنّها تحمل رجلاً جاداً ليست أسفاره لطلب طعام أو كسـوة، إنّمـا طلبتـه المعالي، يقول:

تَهوي بِـــمُنجَرِدٍ لَـــيسَت مَـــذاهِبُهُ لِـلُبسِ ثَـوْبٍ وَمَـأكولٍ وَمَشـروبِ [3]

وقد كان المتنبي " مبغضاً للخمر أشدّ البغض، ممتنعاً عنها أشدّ الامتناع، يرى أنّ الإقبال عليها فضلاً عن معاقرتها لا يلائم ما يملأ نفسه من الأمل والجد " [4]

فاختار المتنبي الخيل السريعة، لأنّها حتماً ستوصله إلى العلا في أسرع وقت، وقد كشف المتنبي عن أمّاله وطموحاته العالية.

والممدوح يسبق النّاس جميعاً، وهذا ليس بالأمر الغريب، كما أنّ كرام الخيل لا تُدفع عن السّبق، يقول:

لَـــيسَ بـــالمُنكَرِ إنْ بَـــرّزْتَ سَـــبقاً غيرُ مـــدفوعٍ عـــنِ السّـــبق العِـــرابُ[5]

مكاره في الخيل

([1]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 149.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 214/3

([3]) المتنبي: **الديوان** ، 298/1. وفي هذا المعنى قال امرؤ القيس:

فلـــو أنّ مـــا أســـعى لأدنـــى معيشـــةٍ كفـــاني ولـــم أطلـــبْ قليـــلٌ مـــن المـــال

ولكنمـــــا أســـــعى لمجـــــدٍ مُؤَثَّـــــلٍ وقـــــد يُـــــدْرِكُ المجـــــدَ المُؤثّـــــل أمثـــــالي

المصدر السابق، 298/1

([4]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 91.

([5]) المتنبي، **الديوان**،263/1

خشي المتنبي حرون فرسه لمّا مرّ بها بشعب بوّان، لشدّة ما استمالت هذه المنطقة قلوب الرّجال والخيل، مع أنّ خيله كريمة لا تصاب بداء الحران، يقول:

مَلاعِـــبُ جِنّـــةٍ لَـــو ســـارَ فيهـــا سُـــــلَيمانٌ لَســـــارَ بِتَرْجُمـــــانِ
طَبَـــتْ فُرســـاتَنا وَالخَيـــلَ حتّـــى خَشـــيتُ وَإِن كَـــرُمنَ مِـــنَ الحِـــرانِ[1]

وقد يصيبها الكلال والتّعب، إنْ كلّفها فارسها أكثر من طاقتها، يقول:

وبتنَ بحصنِ الرَّانِ رَزْحَى مـــن الـــوَجَى وكـــــلُّ عَزيـــــزٍ للأَميـــــرِ ذَليـــــلُ
وفـــي كـــلِّ نفـــسٍ مـــا خـــلاهُ مَلالـــةً وفي كـــلِّ ســـيفٍ مـــا خـــلاهُ فُلُـــولُ[2]

ويؤكد الشّاعر على قوة خيله، وعدم ضعفها لعيب فيها، إنّما كان ذلك لطول القتال وشدّة ما لاقت.

الخيل ومظاهر الطبيعة

وقد ربط المتنبي جَرْي الخيل بمظاهر الطبيعة وسكانها، فجعله موحياً بالعطاء والمطر، فقال:

سَـــلّهُ الـــرَّكْضُ بَعـــد وَهْـــنٍ بِنَجْـــدٍ فَتَصَـــدَّى للغَيْـــثِ أهـــلُ الحجـــازِ[3]

"فكان من شدّة جريها أن انسلّ السّيف من غمده وهم بنجد بعد صدر من اللّيل، فظنّ أهل الحجاز لمعانه ضوء برق فارتقبوا نزول المطر" [4]

ثم جعل الخيل تسابق في جريها انبثاق نور الصّباح، يقول:

([1]) المصدر السابق، 4/384-385

([2]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 225.

([3]) المصدر السابق، 2/286

([4]) المصدر السابق، 2/286. وهن: نحو من نصف الليل. **اللسان**، باب وهن، وقيل هو من قول علي بن الجهم:

إذا أوقـــــدت نارهـــــا بـــــالعراق أضـــــاء الحجـــــاز ســـــنا نارهـــــا

والأصل من قول الوائلي:

مـــا ســـله أهـــل الحجـــاز لحاجـــةٍ إلا يُبَشِّـــــــرَ بالســـــــحاب الشـــــــأمّا

المتنبي، **الديوان**، 2/286

إذا ارْتَقَبُــوا صُــبْحاً رَأوْا قبــلَ ضَــوْئِهِ كتائبَ لا يَرْدِ الصَّــبَاحُ كمــا تَــرْدِي [1]

وكما الحال دائماً كانت خيله السّبّاقة، وصلت إلى العدوّ قبل وصول الصّباح إليهم، وفي غفلةٍ منهم يجدون خيل الممدوح مزدحمة عليهم، يقول:

فلــم تُــتمَّ سَــرُوجٌ فــتحَ ناظِرهــا إلا وجَيْشُــكَ فــي جَفْنَيْــهِ مُــزْدَحِمُ[2]

جعل الصّباح لها بمنزلة فتح الناظر، ورغم جمالها إلا أنَّ العدوّ رآها قبيحة لسوء فعلها به، يقول:

فمــا شَــعَروا حتّــى رَأَوْهــا مُغيــرةً قِباحــاً وأمّــا خَلْفُهــا فَجَميــلُ[3]

ولكن عند اشتداد الأمر لا ينتظر الممدوح طلوع الصّبح، فيمشي في الظّــلام الــدّامس، ووجهته بلاد العدوّ، يقول:

لبِسْنَ الدُّجى فيها إلــى أرضٍ مَــرْعَشٍ وللــرّومِ خَطْــبٌ فــي الــبلادِ جليــلُ[4]

كشف الشّاعر عن عزيمة وإصرار، برزت بسبب وقوف الجيش والخيل إلــى جانــب قائدها، بعد أن علمت أن العدوّ قد عاث في البلاد الإسلامية فساداً، لا يمكن السّكوت عنه.

ثم شبّه الخيل بالأسُود الّتي تجول وتراقب الظّباء لتطردها وتصيدها، يقول:

تَــرى حَيَــوانَ البَــرّ مُصــطَلِحاً بِهــا يُحــــارِبُ ضِــــدٌّ ضِــــدَّهُ وَيُســــالِمُهْ
إذا ضَــــرَبَتْهُ الــــرِّيحُ مــــاجَ كَأَنّــــهُ تَجُــولُ مَذاكِيــهِ ونَــدْأَى ضَــرَاغِمُهْ[5]

والشّاعر يصف هنا (فازة) رسمت عليها صورة محارب مسالم، وإلى جانبه أنواع مــن الحيوان، وكلها جماد لا روح فيها فتقاتل، ولكنّ المتنبي كمبدع منحها الــرّوح فشــبّهها بثــوب ضربته الرّيح فماج وتحرك حركة جعلت الخيل تشبّه الأسود.[6]

([1]) المصدر السابق، 169/2

([2]) المصدر السابق، 4 / 132.

([3]) المتنبي، **الديوان**، 3 / 222.

([4]) المصدر السابق، 3 / 226.

([5]) المصدر السابق، 53/4

([6]) المصدر السابق، 53/4

ومن أروع تشبيهات المتنبي، جعله جَرْي الخيل وركوبها بفترة نومٍ في جفن السّاهر لشدّة جمالها، يقول:

وزِيـــارَةٍ عَـــنْ غَيـــرِ مَوْعِـــدْ كـــالغُمْضِ فـــي الجَفْـــنِ المُسَـــهَّدْ
مَعَجَـــتْ بِنـــا فيهـــا الجِيـــا دُ مَـــعَ الأميـــرِ أبـــي مُحَمّـــدْ
حتّـــى دَخَلْنَـــا جَنَّـــةً لَـــوْ أنّ ســـاكِنَها مُخَلّـــدْ [1]

كثرة الخيل

وقد شبّه الخيل وكثرتها بما يرافقها من بريق الأسلحة، بالبحر الهائج الذي وقع فيه الأعداء فلا مهرب أمّامهم، فقد حاصرهم بجيشه من الشّرق وببحر الماء من الغرب، يقول:

فَكـــانَ الغَـــربُ بَحـــراً مِـــن مِيـــاهٍ وكـــانَ الشَـــرقُ بَحـــراً مِـــن جِيـــادِ
وَقَـــد خَفَقَـــتْ لَـــكَ الرَّايَـــاتُ فيـــهِ فظَـــلَّ يَمُـــوجُ بـــالبيض الحِـــدَادِ [2]

ونتيجة لوقوع العدوّ بين فكيّ الأسد، خفقت الأعلام وتحركت السيوف لتحقيق النّصر المؤزّر.

ولمّا حَلّتْ جيوشه الكثيرة بين الجبال، ملأت الفجوة ما بينها، فكأنّها جمعت بين الجبال المتفرّقة، وهذا يدل على سعة الجيش وكثافته، يقول:

تَســـاوَتْ بِـــهِ الأَقطـــارُ حتّـــى كَأَنّـــهُ يُجَمِّـــعُ أَشْـــتاتَ الجِبـــالِ وَيَـــنْظِمُ [3]

فلكثرتها فقد ملأت الطّرق خلف أعدائه، وكذلك السّيوف فقد ملأت اليوم لأنّها تعلو وتنزل عند الضّرب، فأينما كان النّهار كانت السّيوف، يقول:

وَالأعوَجيّـــةُ مِـــلءَ الطُّـــرْقِ خَلفَهُـــم وَالمَشْـــرَفِيَّةُ مِـــلْءَ اليـــوْمِ فَـــوْقَهُم [1]

([1]) المصدر السابق، 112/2. المعج: أن يعتمد الفرس على إحدى عضادتي العنان، مرة في الشق الأيمن ومرة في الشق الأيسر، وقيل ضرب من السير ليّن سهل. **اللسان**، باب معج.

([2]) المتنبي: **الديوان**،81/2

([3]) المصدر السابق، 75/4. وهذا كقول النابغة:

تَغِيـــبُ الشـــوَاهق فـــي جيشـــه وتبـــدو صِـــغاراً إذا لـــم تَغِـــبْ

المصدر السابق، 75/4.

وهذه الكثرة تؤدي إلى أن تفقد الخيل بعضها بعضاً فيه؛ لكثرته واضطرابه، فإن عادت سرية إلى معسكر الجيش فُقدت فيه وبانت ضآلتها، وهذه الكثرة تجمع عبيداً، وليسوا أخلاطاً قد جمعوا لنصرته، يقول:

يَغُصــــنَ إذا مـــا عُـــدنَ فـــي مُتَفَاقِـــدٍ مَنَ الكُثْرِ غانٍ بِالعَبيـــدِ عَـــنِ الحَشْـــدِ[2]

فقد شبّه سرايا الخيل الّتي تُفقد في سائر الجيش بالماء الذي يغوص في الأرض ويُفقـــد فيها.[3]

ولكثرتها اشتبكت الرّماح، وتضايق ما بينها، حتّى لو أصابهم مطر لم ينفذ إليهم، يقول:

يمنعُهـــــا أنْ يصـــــيبَها مطـــــرٌ شـــدّة مـــا قـــد تَضَـــايَقَ الأَسَـــلُ[4]

لذلك لا تسعها الأرسان، فخيلهم تعجز الأرسان عن ضبطها لصعوبتها وشدّة رؤوســـها، وبكثرتها يكثر الفرسان، فتضيق بهم الدّيار، يقول:

جِيـــادٌ تَعجِـــزُ الأَرْسَـــانُ عَنهـــا وَفُرســـانٌ تَضـــيقُ بِهـــا الـــدِّيارُ[5]

فقام الممدوح بنثر خيله، وتفريقها في الغارة، فجمع بها النّعم لأوليائه والـــنّقم لأعدائـــه، يقول:

نـــائِرُهُ نَـــائِرُ السُّـــيوف دَمَـــاً وكُـــلَّ قـــولٍ يقولُـــهُ حِكَمـــاً
والخيـــلَ قـــدْ فَصَّـــلَ الضِّـــيَاعَ بهـــا والـــنِّعَمَ السَّـــابِغَاتِ والنِّقَمَـــا[6]

فمن ينثر الورود، ينثر السّيوف أي يفرّقها ملطّخة بالدّماء، ويفرّق الخيل ليجمع بها النّعم والنّقم، فجعل جمعها تفصيلاً لأنّها أنواع، فجعل ذلك كتفصيل العقد" [7].

([1]) المصدر السابق، 139/4
([2]) المصدر السابق، 2 / 170
([3]) المتنبي: **الديوان** ، 170/2
([4]) المصدر السابق، 3 / 331.
([5]) المصدر السابق، 204/2
([6]) المصدر السابق، 297/4
([7]) المصدر السابق، 297/4

ولشدّة الخطب، جعل الخيل في شدّة عَدْوها " تتفجع كما يتفجع البائل لئلّا يصيبه البول"، يقول:

وَمـــا بَـــيْنَ كَـــاذَتَيِ المُســـتَغِيرِ كَمـــا بَـــيْنَ كـــاذَتي البائِـــلِ[1]

شبّه العرق الذي سال بين أرجلها بالبول[2] وعدّ الثعالبي هذا القول مـن إسـاءة الأدب، فالبول مما لا يحسن ذكره في مخاطبة الملوك والرؤساء.[3] أمّا اتّساع الفروج فيكـون لجـودة الخَلْق، وهو أمر مستحب، فإنّ الضّيق عيب. [4]

أمّا إن كان جيش العدوّ كثير العدد، فهذا لا يهم، فخيل الممدوح وسيوفه حملت المـوت بين جنباتها، يقول:

يَقُـــدْنَ الفَنَـــاءَ غَـــدَاةَ اللِّقَـــاءِ إلـــى كـــلِّ جَـــيْشٍ كثيـــرِ العَدِيـــدِ[5]

يبيّن أنّ الكثرة لا ترهبهم إنّما تزيدهم شجاعة وإقداماً للنّيل من العدوّ.

ويطلب المتنبي فرساً يخشى الفرسان شرّها، وشرّه إن ركبها، فلا يحسن أحد ركوبهـا، وتصلح للطّعان والقتال فلا تردّ الرّمح خائباً، يقول:

فَـأَينَ الّتـي لا تَـأْمَنُ الخَيـلُ شَـرَّها وَشَـرِّي وَلا تُعطِـي سِـوايَ أَمّانَهـا
وَأيـنَ الّتـي لا تَرْجِـعُ الـرّمْحَ خائِبـاً إذا خَفَضَـتْ يُسـرَى يَـدَيَّ عِنانَـهَ [6]

فمراده الفرس القوية الشّديدة الشّجاعة، وهذا يعطي تصوّرا عمّا في نفس المتنبـي مـن رؤى وآمال طموحة.

فإن تجمّعت خيل العدوّ عليهم، لم يصبه خوفٌ أو وهن، بل طعنها بالأسنة بكـلّ قـوّة ووصفها بالحشو لها، يقول:

([1]) المصدر السابق، 156/3. كاذتي: لحم الفخذ. **اللسان**، باب كوذ.
([2]) المتنبي: **الديوان** ، 156/3
([3]) **يتيمة الدهر**، 1 / 183.
([4]) الأزدي، **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 151.
([5]) المتنبي، **الديوان**، 66/2
([6]) المصدر السابق، 304/4.

وَخَيْـــلٍ حَشَـــوْنَاهَا الأَســـنّةَ بَعْـــدَما تكَدَّسْنَ من هَنّـــا علينـــا وَمِـــنْ هَنّـــا[1]

ظهرت الخيل لكثرتها كأنّما ركب بعضها بعضاً، فشبّه الحـــرب بلعبـــة يتطـــارد فيهـــا الفرسان ويلعبون بالرّماح، فبعض خيلهم مطرود وبعضهم طارد، وهي تحمل الرّماح الطّويلـــة، وهذا يدل على استخفافه بالحرب، ورؤيتها كأمر صغير، وتتبعه خيله فتظنّها لعبـــة، لتعوّدهـــا صورة قتلى فرسان العدا، فصارت تُسَرُّ بقتلهم فينتقلون من حرب إلى أخرى ليقتلـــوا المزيـــد، يقول:

وَالخَيـــــلُ مَطْـــــرُودَةٌ وَطـــــارِدَةٌ تَجُـــــرُّ طُـــــولَى القَنـــــا وَقُصْـــــرَاهَا
يُعجِبُهـــــا قَتلُهـــــا الكُمـــــاةَ وَلا يُنظِرُهـــــا الـــــدَّهرُ بَعـــــدَ قَتلَاهـــــا[2]

وصف جرأة أصحاب الخيل وشجاعتهم على الفتك وسفك الدماء [3]. فهم يهلكون خيولهم خيولهم بالتّعب والرّكض في الغارات أو ينحرونها للأضياف[4].

الخيل في قمم الجبال

يطلب سيف الدّولة خيلاً لا تخذله أبداً، وتتبع الفارّ من عدوّه إلى رؤوس الجبـــال حتّـــى تصل إلى وكور جوارح الطير الممتنعة البعيدة، ليقتل عدوّه، ويترك جثثهم هامـــدةً تُســـرُّ بهـــا الطّيور لكثرة الطّعام حينذاك، يقول:

تَدُوسُ بِكَ الخيلُ الوُكُورَ علـــى الـــذُّرَى وَقَد كَثُرَتْ حَـــوْلَ الوُكـــورِ المَطَـــاعِمُ [5]

من خلال هذه الصّورة أظهر المتنبي فرسان سيف الدّولة، وما هم عليه من قوّة الطّلـــب وإدراك أبعد الغايات. فخيله تعمّ الجبال بحثاً عن عدوّه، مهما كانت الطّرق وعرة، أو خاملة ولم تُسْلَك من قبل، يقول:

([1]) المصدر السابق، 300/4. تكدسن: تجمعت وركب بعضها بعض لكثرتها. **اللسان**، باب كدس.
وقد أخذ المتنبي قوله حشوناها الأسنة من قول الوليد بن المغيرة:
وكـــم مـــن كـــريم الجـــدِّ يركـــبُ رَدْعَـــهُ وآخـــــر يَهْـــــوِي قـــــدْ حشـــــوْناه ثعلبـــــا
المتنبي، **الديوان**، 300/4 –301.
([2]) المتنبي، **الديوان**، 408/4–409.
([3]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 233.
([4]) المتنبي، **الديوان**، 408/4–409.
([5]) المصدر السابق، 104/4– 105

فَلَمّـــا تَجَلّـــى مِـــن دلُـــوكٍ وَصَـــنجَةٍ عَلَـــتْ كُـــلّ طَـــودٍ رايَـــةٌ وَرَعيـــلُ
عَلى طُرُقٍ فيهـــا عَلـــى الطُّـــرقِ رِفعَـــةٌ وَفي ذِكْرِهـــا عِنـــدَ الأَنـــيسِ خُمـــولُ [1]

عندما ترى خيلُ العدوّ سيفَ الدّولة وجنوده تولّي هاربة بفرسانها، لأنّهـــا تعـــرف مـــا ستلاقيه منه، فقال:

ضُـــرِبْنَ إِلَيْنَـــا بالسِّـــياطِ جِهَالَـــةً فَلَمّـــا تَعَارَفْنَـــا ضُـــرِبْنَ بِهَـــا عَنّـــا[2]

خيل العدوّ تضرب إلى أرض المعركة وكأنّها مجبرة علـــى المواجهـــة بعكـــس خيـــل الممدوح الّتي لا تحتاج إلى السّياط أو حتّى الكلام بل تفهم بالنظر. ولجهالة العدوّ ظنّوا أن يغنموا بكثرتهم، وقلّة جيش سيف الدّولة، وكأنّهم لا يعلمون أنّ البأس والإقدام من أبرز أسباب النّصر، وهو أمر بديهي حتى الخيول تعرفه.[3]

فيهزأ بهم المتنبي مذكراً إياهم ألّا فرار وممدوحه يمتلك خيلاً تمشي به في آثار الغابرين إلى أعلى الجبال دون أن يعجزهما ذلك، يقول:

فَـــالعُربُ مِنـــهُ مَـــعَ الكُـــدْرِيِّ طـــائِرَةٌ وَالـــرّومُ طـــائِرَةٌ مِنـــهُ مَـــعَ الحَجَـــلِ
وَما الفِـــرارُ إِلـــى الأَجْبَـــالِ مِـــن أَسَـــدٍ تمشي النّعامُ به فـــي مَعْقِـــلِ الوَعَـــلِ[4]

فأخذت تسير في الجبال لطلب الرّوم وقتالهم واستنزال من اعتصم منهم بالجبال، يقـــول الواحدي: " إنّ في البيت نكتة لأنّ النّعام لا توجد في الجبال، فجعل خيله نعام الجبـــل" فشـــبّهها بالنّعام لسرعتها في العدوّ وطول السّاق.[5] وقد جعل المتنبي العدوّ جماعة الـــرّوم، فلـــم تكـــن الهزيمة للقائد فحسب، إنّما كانت للرّوم جميعاً.[6]

([1]) المتنبي، **الديوان**، 222/3. دلوك: بليْدة من نواحي حلب بالعواصم. الحموي، **معجم البلدان**، 2 / 461، صنجة: نهـــر بين ديار مضر وديار بكر. **معجم البلدان**، 3 / 425.

([2]) المتنبي، **الديوان**، 301/4. قال ابن جني: " كانت خيل الروم قد رأت عسكراً لسيف الدّولة فظنـــوهم رومـــاً، فـــأقبلوا نحوهم مسترسلين، فلما تحققوا الأمر ولّوا هاربين ولهذا قال(جهالة) ووصل ضربنا بـــ (إلى) و(عن) فقال ضـــربن إلينـــا و(عنا) على تضمين حثثن ونحوه ". المصدر السابق، 301/4.

([3]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 218.

([4]) المتنبي، **الديوان**، 207/3 الكدري: القطا في الفلوات. **اللسان**، باب كدر.

([5]) المتنبي، **الديوان**، 207/3. ينظر: الأزدي، **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 158.

([6]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 338.

العلاقة بين الخيل والممدوح

أينما تسير تلك الخيل تسير النّيران معها، فتخرب ديار العدوّ، فلا يبقى منها سوى الآثار، يقول:

تُسايرُها النّيرانُ في كُلِّ مَسْلَكٍ بهِ القَوْمُ صَرْعَى والدّيارُ طُلولُ[1]

إنّما قصد الشّاعر المحاربين فحرقوا ديار العدوّ وتركوها خراباً، وقد أعانتهم الخيل في إيصالهم إليها وتمكينهم فيها. وبعد أن تحقّقَ الخيلُ مرادَ أصحابها، وقد حفيت من كثرة المشي، يقودها الفرسان راجعين بها من كل بلد وقد صيّرته خراباً، يقول:

الرَّاجِعُ الخيلَ مُحْفَاةً مُقَوَّدَةً مِنْ كلِّ مِثْلِ وَبَارِ أهْلُها إرَمُ[2]

فالرّماح إن كانت بيد الممدوح علمت أنّه سيشقي بها خيل العدوّ وأبطاله، يقول:

تَدْري القناةُ إذا اهْتَزَّتْ بِرَاحَتِهِ إنَّ الشَّقِيَّ بِهَا خيْلٌ وأبطالُ[3]

فإن تفرقت الخيل عنه اتّصف بالشّجاعة والحَلْم، فلم يتلفظ بالفحش على الرّغم من أنّها خذلته وأغضبته، يقول:

وَأَوْحَدَتهُ وَمَا في قَلبِهِ قَلَقٌ وَأَغضَبَتْهُ وَمَا في لَفظِهِ قَذَعُ [4]

وكذلك الأمر إن خذله الأتباع والأصحاب وأسلموه للعدا بتخاذلهم، فإنّ كرّهُ على الأعداء في أعقاب الخيل لم يخذله، فدافع عن نفسه بنفسه، يقول:

لَمْ يُسلِمِ الكَرُّ في الأَعقابِ مُهجَتَهُ إن كانَ أَسْلَمَها الأَصحابُ وَالشِّيَعُ[5]

كان الأصحاب والأتباع رمز للخذلان والتّخلي، بعد أن كانوا سنداً له أمام الأعداء، ولشدّة شجاعته سار منفرداً عن جيشه لا يريد أن يسايره أحد، لا ضجراً منهم، ولا أنّه يريد

([1]) المتنبي: **الديوان**،3/ 223

([2]) المصدر السابق، 131/4.

([3]) المصدر السابق، 398/3

([4]) المصدر السابق، 333/2.

([5]) المصدر السابق، 341/2.

استبدالهم بغيرهم، إنّما ضناً بنفسه وعظم هيبته، فشعرت الخيل به فلم تتحرك في سيرها معه إلا بحركات خفيّة، يقول:

مُنفَـــرِدَ المُهـــرِ عَـــنِ الرِّعَـــالِ مِـــن عِظَـــمِ الهِمَّـــةِ لا المَـــلالِ
وَشَـــدّةَ الضَـــنِّ لا الاســـتِبدالِ مـــا يَتَحَـــرّكنَ سِـــوى انسِـــلالِ[1]

يمدح الشّاعر الخيل على ذكائها وإدراكها مقصد صاحبها، فاستجابت له ولـم تزعجـه، وهنا تبرز العلاقة الوطيدة بين الخيل وفارسها بأن تفهم مراده دون حاجته للكلام أو الزّجر.

ولكنّ الخيل تعوض فارسها في مواضع أخرى، فتكفيه فوضـى الحـروب والأهـوال، فتخوضها دونه وقد وعدته أن تحقّق له ما عجز عنه غيرها، يقول:

حَالَفَتْـــهُ صُـــدُورُها وَالعَـــوالي لَتَخُوضَـــنَّ دُونَـــهُ الأَهـــوالا
وَلَتَمضِـــنَّ حَيـــثُ لا يَجِـــدُ الرُّمْـــ ـــحُ مَـــدَاراً وَلا الحِصـــانُ مَجَـــالا [2]

جعل المتنبي خيل الممدوح في مجرى العاقلين الذين يُخاطِبون ويَعِدُون فيفعلون، وهـذا رفع لمكانة الخيل عنده.

وهذه صفات القائد العظيم، الذي لا يترك الظّروف والأحوال تؤثّر في شيء من حكمته وعقله، فلا يشغله شيء عن الحرب، ولم يحطّ أي انشغال سروج خيله عن ظهورها، فهو يسير بها مسرجة ملجمة طوال الوقت، يقول:

إلى اليَـوْمِ مـا حَـطّ الفِـداءُ سُـرُوجَهُ مُذُ الغَزْوُ سارٍ مُسرَجُ الخيـلِ مُلجَـمُ[3]

يرى بعض النّقاد أنّ المتنبي قد وقع في خطأ نحوي شديد، حين قدّر خبر المبتدأ(غزو)، والأولى أن تكون (سارٍ) خبرها، فيتكوّن مجاز بليغ بكل سهولة [4].

([1]) المصدر السابق، 29/4. الرعال: القطعة من الخيل. **اللسان**، باب رعل.

([2]) المتنبي، **الديوان**، 256/3.

([3]) يمدح عمر بن سليمان الشرابي حين تولى فداء أسرى المسلمين من أيدي الروم وهو ما يقصده بالانشـغال، المتنبـي، **الديوان**، 209/4-210.

([4]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 210.

والخيل هي رأس مال المحارب في أرض المعركة، فهي والرّماح حِصْنُه الذي يمنع عنه جَمْيع الأعداء، وإن كانوا كالأسود في شجاعتهم، يقول:

صُــفُوفاً للَيْــثٍ فــي لُيُــوثٍ حُصُــونُها مُتُــونُ المَــذاكي والوَشــيجُ المُقَــوَّمُ[1]

فنعم الحصنُ الذي يحتمون به، وهذا دليل الفروسية والشّجاعة، في حــين أنّ آخــرين يتحصّنون بالقلاع والحصون، وذلك من أفعال الجبناء الأذلاء[2]. فلكثرة ما جربها الفرسان، فإنّ فإنّ ثقتهم بها عالية، وظنّهم بها حسن؛ لكثرة ما انتصروا عليها فيشجّعهم ليمتطوها ويغيروا على بلاد العدوّ، يقول:

تَــزُورُ دِيــارًا مــا نُحِــبُّ لَهــا مَغْنَــى وَنَســأَلُ فيهــا غَيــرَ سَــاكِنِهَا الإِذْنَــا
نَقــودُ إِلَيهــا الآخِــذاتِ لَنــا المَــدَى عَلَيها الكُماةُ المُحسِــنونَ بِهــا الظَّنَّــا[3]

فشبّه الإغارة على ديار العدوّ بالزّيارة، إلّا أنّها زيارةٌ من نوع آخر، فهي تحتاج إلى إذن من سيف الدّولة (الممدوح) وليس من أصحابها (الرّوم)، كما أنّها زيارة على غير محبة، فهــي ديار العدوّ، وقد ذهبوا مقاتلين وليسوا ضيوفاً، وهذا تشبيه غايةً في الرّوعــة، يقطــر ســخرية بالعدوّ، وثقةً عاليةً بالنّفس، وامتناناً للخيل على انصياعها للفرسان.

وممدوح المتنبي حامي البلاد بجيشه وخيله، فلا يترك عدواً يدخلها أو يستبيحها، فــأراد الشّاعر منه الاطمئنان على بلاد المسلمين لأنّ الممدوح كفاها شرّ أعدائها، يقول:

كَيــفَ لا يَــأمَنُ العِــراقُ وَمِصْــرٌ وَسَــرايَاكَ دونَهــا وَالخُيــولُ
لَــو تَحَرَّفْــتَ عَــن طَرِيــقِ الأَعــادي رَبَــطَ السِّــدْرُ خَــيلَهُم وَالنَّخيــلُ[4]

يريد الشّاعر التّقليل من شأن ملوك مصر والعراق والرّفع من شأن سيف الدّولة حــامي ديار المسلمين، أمّا هم فمتقاعسون جالسون للّهو والهزل، ففي ذلك مديح له، مبطن بهجاء لهــم، وقد نجح في ذلك أيّما نجاح.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4/211-212. وهذا من قول القائل: ونحن أناس لا حصون بأرضنا نلوذ بها إلا القنا والقواضــب. التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 430.

([2]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 211.

([3]) المتنبي، **الديوان**، 4/299.

([4]) المصدر السابق، 3/276-277.

ممدوحه حادّ ماضٍ في الأمور، ينال من أعدائه بالخيول والرّماح، يقول:

وفـــارِسَ الأحْمَـــرِ المُكَلِّـــلَ فـــي طَـــيِّءٍ المُشْـــرَعَ القَنَـــا قِبَلَـــهْ[1]

حتّى خيل عدوه تخشاه، فإن تواجهت مع خيله أقسم ألّا يرتدّ عنهم حتّى يقتلهم جميعـاً، يقول:

لمّـــا رَأَتْ وَجْهَـــهُ خُيُـــولُهُم أقسَـــم بـــاللهِ لا رَأَتْ كَفَلَـــهُ[2]

فهو بطل مغوار يواجه الأعداء وجهاً لوجه ولا يفرّ أبداً من أمّام عدوه، ولا يريهم دبره إلا بعد فنائهم على يده.

ما نُقِل من الخيل وإليها

نقل المتنبي قوة الخيل وشدّة وطئها في أثناء جريها إلى غيرها من الحيوانات كالكلب، فقد جعل قوائمه مفتولة سريعة في العدوّ، شديدة الوطء لقوّتها، فترك آثاراً مثل صورتها، وقيـل إنّ الكلب لا يوصف بثقل الوطْء، إنّما يكون ذلك في الخيل والإبل، يقول:

فُتْـــلِ الأيـــادي رَبِـــذاتِ الأرْجُـــلِ آثارُهـــا أمْثالُهـــا فـــي الجَنْـــدَلِ[3]

"كلّ أثر يشبِّه ما أثّر فيه، ولكنّ المبالغة تأتي في تأثيرها في الجندل شديد"[4]

ونقل أيضاً معنىً من الخيل إلى السّهام والرّيش والنّصال، يقول:

يُفـــارِقُ سَـــهمُكَ الرَّجُـــلَ المُلاقـــي فِـــراقَ القَـــوْسِ مـــا لاقـــى الرِّجَـــالا
فَمـــا تَقِـــفُ السِّـــهَامُ عَلـــى قَـــرارٍ كَـــأَنّ الـــرِّيشَ يَطْلِـــبُ النِّصَـــالا[5]

([1]) المصدر السابق، 388/3.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 389/3.

([3]) المصدر السابق، 320/3. فتل: ما بين المرفقين عن جنبي الناقة، قيل اندماج في مرفق الناقة وبُيُون عن الجنب، وهو في الوظيف وللفرس عيب. **اللسان**، باب فتل. الربذات: خفة القوائم في المشي. **اللسان**، باب ربذ. الجنـدل: الصـخر أو الحجارة. **اللسان**، باب جندل.

([4]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 211.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 347/3-348.

فيفارق السّهم القوس منطلقاً إلى صدر العدوّ بقوة عظيمة، ولا يقف عن مسيره حتّى يدرك خصمه، وكأنّ ريشها يطلب نصالها ليدركها فهي لا تقف أبداً، وكذلك الخيل لا تترك عدوّها بل تلاحقه حتّى تدركه.[1]

وفي وضع معاكس، استعار للخيل صفة الحيوان، كالزّواحف، فشبّه الخيل في سيرها على مزاليق الجبال بالحيّات، وهو يصف صعوبة مراقيها في الجبال يقول:

إذا زَلِقَتْ مَشّيتَها بِبِطُونِها كَما تَتَمَشّى في الصَّعيدِ الأَراقِمُ[2]

لا يقف عائق أمّام خيله وغاياتها، فهي تقوم بالمستحيل لتنيل فارسها مراده من عدُوّه، فإن لم تستطع المشي أو الجري زحفت لتوصلهم إلى قمم الجبال. وذلك دليل ذكاء الممدوح وسعة حيلته، وتدريبه الجيد لخيله لمواجهات أي عقبة تعترض هدفها [3]. ويقول أيضاً:

وَصولٌ إِلى المُستَصعباتِ بِخَيلِهِ فَلَو كانَ قَرنُ الشَّمسِ ماءً لَأَوْرَدا[4]

فتبدو المبالغة واضحةً شديدةً، فهو يبلغ أبعد الغايات، حتّى لو كان قرن الشمس ماءً، لبلغه بخيله، وهذا يدل على شجاعة وإقدام، وتصميمٍ وعزم شديد[5].

لا يخفى سرور الشّاعر منها، وإعجابه بها وبأخلاقها، يقول:

نَيَّالَةِ الطَّلَباتِ لَولا أَنَّها تُعْطِي مَكانَ لِجَامِها ما نِيلا[6]

([1]) المصدر السابق، 347/3-348. وهذا من قول ليلى الأخيليّة:

ولما أن رأيت الخيلَ قُبْلاً تباري بالخدود شبا العوالي

نسيتَ وصاله وصددت عنه كما صَدَّ الأَرَبُّ عن الظلال

المتنبي: **الديوان**، 347/3-348.

([2]) المتنبي: **الديوان** ، 105/4. الأراقم: الحيات فيها سواد وبياض. **اللسان**، باب رقم.

([3]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 213 – 214.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 5/2.

([5]) المصدر السابق، 5/2.

([6]) المصدر السابق، 357/3. فتل: ما بين المرفقين عن جنبي الناقة، قيل اندماج في مرفق الناقة وبُيُون عن الجنب، وهو في الوظيف وللفرس عيب. **اللسان**، باب فتل. الربذات: خفة القوائم في المشي. **اللسان**، باب ربذ. الجندل: الصخر أو الحجارة. **اللسان**، باب جندل.

الخيل الضامرة

لمّا كانت الخيل الضامرة هي الأقوى والأسرع بين الخيول، جعلها ذلك مفخرة العـرب، فاستعان بها الشّاعر ليعبّر عن نفسه أو عن ممدوحه، فهو لا يصطحب في سفره أو حربـه إلا الضّامرة من الخيل، فهي خليلته، يخيف بها عدوه، ويطاردهم بها، فيفرّون دفاعاً عن أنفسـهم؛ لأنّهم يرون الموت قادماً من خلالها، يقول:

وظَـلّ الطَّعْـنُ فـي الخَيلَـينِ خَلْسَـاً كَـأَنّ المَـوتَ بَينَهُمـا اختِصَـارُ
فَلَـزَّهُمُ الطِّـرادُ إِلـى قِتـالٍ أَحَـدُّ سِـلاحِهِمْ فيـهِ الفِـرارُ
يَشُـلُّهُم بِكُـلِّ أَقَـبَّ نَهْـدٍ لِفارِسِـهِ عَلـى الخَيـلِ الخِيـارُ[1]

تأتي خيله الضّامرة وتعدو مسرعةً لتطأهم بحوافرها، يقول:

دونَ السِـهامِ وَدونَ القُـرِّ طافِحَـةً عَلـى نُفوسِـهِمِ المُقـوَّرةُ المُـزُعُ[2]

هجومها عليهم يكون قبل وصول سهام الرّماة وقبل فرارهم، فوصف سرعة خيله وقوتها وقد غشيتهم[3].

وكما سبق، فإنّ العدوّ يخشى الممدوح، فيسهر ليله خوفاً من هجوم سيف الدّولة عليـه، ولكن ما إن يأتي الصّباح حتّى يتفاجأ العدوّ بانصباب الخيل عليهم جماعات ووحداناً، يقول:

وَرَمْيُـكَ اللّيـلَ بـالجنودِ وقـدْ رميـتَ أجفـانَهُمْ بتسـهيدِ
فصَـبَّحْتُهُم رِعَالُهـا شُـزَّباً بـين ثُبَـاتٍ إلـى عَبَادِيـدِ[4]

أمّا مَنْ يحاول الوقوف أمامه والتّظاهر بالشّجاعة، فيؤكد له المتنبي فشـل محاولاتـه، فوقوفه ذلك لن يرد عنه الرّماح أوالخيل الحسان الضّامرة التّابعة للممدوح، يقول:

وَهَـل رَدَّ عَنـهُ بِاللُّقَـانِ وُقوفُـهُ صُـدُورَ العَـوَالي وَالمُطَهَّمَـةَ القُبَّـا[1]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 207/2.

([2]) المصدر السابق، 337/2.

([3]) يقال لوهج الصيف وغبراته سهام، المصدر السابق، 337/2، القر: البرد. **اللسان**، بـاب قـرر. طافحـة: مسـرعة، **اللسان**، باب طرمح. المزع: السريعة، وقيل هو أول العدوّ وآخر المشي. **اللسان**، باب مزع.

([4]) المتنبي، **الديوان**، 387/1– 388

فحمل سؤال المتنبي سخرية منهم، فمهما بلغت قوّتهم لن تصل إلى جزء صغير من قوة ممدوحه وعتاده.

وعلى الرّغم من هزال خيله من كثرة عَدْوِها، فإنّها لا تكلّ ولا تزال تسير في بلاد العدوّ، فإن " نزلت في بلدٍ ليلاً لم تقم به نهاراً، بل تقيل ببلد آخر"، يقول:

وَخَيلٍ بَراهـا الـرَّكضُ فـي كُـلِّ بَلـدَةٍ إذا عَرَّسَـت فيهـا فَلَـيسَ تَقيـلُ[2]

أبرز المتنبي خيلاً محاربة قوية لا تملّ ولا تكلّ من كثرة الحروب والأسفار، فكانت رمز التّحمل والصّبر والشّجاعة.

أمّا حصان المتنبي فواسع الصّدر والجلد؛ ليكون خطوه أبعد، ومتنه عالياً، ومنخره واسعاً؛ لئلا يحبس نفسه، وهو ضامر الخاصرة، وكلّ ذلك دليل عتق وكرم، ممّا يفخر المتنبي بامتلاكه، يقول:

رَحْـبِ اللّبَـانِ نَائِـهِ الطَّرائِـق ذي مَنْخِـرٍ رَحْـبٍ وإطْـلٍ لاحـق[3]

ومن جمال صور المتنبي أن شبّه الهول بدابّة هزيلة لحقها الضّمور فاتّسع نطاقها ولكنّ هذا لم يقف في وجه ممدوحه، فركب الهول وأجهده، أمّا عزيمته بقيت متوقّدة ولم تفتر، يقول:

وراكِـبَ الهَـوْلِ لا يُفَتِّـرُهُ لـو كـانَ للهَـوْلِ مَحْـزِمٌ هَزَلَـهْ[4]

فإن أحسّ الفارس بتخاذل خيله لهول ما ترى، ركبها مشكولاً، وهيّجها للإقدام بجرأة شديدة، يقول:

قَصَـرَتْ مَخافَتُـهُ الخُطـى فكأنَّمـا ركِـبَ الكَمِـيُّ جَـوادَهُ مَشْـكُولا[5]

وهذه علاقة نادرة بين الفارس وفرسه، حيث يشدّ أحدهما على يد الآخر إن أحسّ منه فتور همّةٍ أو تخاذل، ويكشف عن شجاعة الممدوح، وإقدامه منقطع النّظير.

([1]) المصدر السابق،189/1.

([2]) المصدر السابق، 222/3. براها: هزلها. **اللسان**، باب بري، عرّست: نزول الركب آخر الليل للاستراحة. **اللسان**، باب عرس. تقيل: تنزل وقت الهاجرة أي نصف النهار للنوم. **اللسان**، باب قيل.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 93/3.

([4]) المصدر السابق، 3/ 388. المحزم: اسم ما حُزِمَ به، أو شدّ الوسط بحبل. **اللسان**، باب حزم.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 356/3 – 357.

وقد شبّه الشّاعر الخيل بالعقبان لسرعتها، حين تبع سيف الدّولة العدوّ بها إلى أعالي الجبال حيث وكور الطير، فظنّت فراخ العقبان أنّ خيله أمهاتها، يقول:

تَظُنُّ فِراخُ الفُتخِ أَنّكَ زُرْتَها بِأمّاتِها وَهيَ العِتَاقُ الصَّلادِمُ [1]

لكثرة جثث القتلى ظنّت الفراخ أنّك زرتها بأمّاتها فأمددتها بقوّتها، وإنّما فعل ذلك صلادم خيله وكتائب جيشه الكثيرة [2]. وهذ يدلّ على خيالٍ شعريٍ رائع، يثير الحماسة والسّرور بمعرفة أن جيش سيف الدّولة وخيله قادرون على سحق العدوّ، وجعله خير وليمة للطّيور الجائعة، مهما كلّفها الأمر [3].

حكمة الخيل

ضمّن المتنبي شعره بعض الحكم والأمثال ارتبطت بالخيْل، فخيله ليست من عالم الخيال والأساطير، بل هي كائن حيّ يتغيّر حاله ويتبدّل؛ لكثرة ما استعملها في الحروب والغارات، يقول:

ألا قَلَّمَا تبقى على ما بدا لها وحلَّ بها منك القَنَا والسَّوَابِقُ [4]

لا شيء يبقى على حاله، وكلّ الكائنات مهما كانت قويّة في زمن ما، لا بدّ أن تصل إلى طريق الضّعف والاندثار.

كان المتنبي شاعراً فارساً، خبيراً بأمور الخيل، ويعلم بخبرته أنّ كرام الخيل وصمّ الرماح لا تنفع إن لم يصرفها كرام الأبطال وكرام الرجال، يقول:

وَمَا تَنْفَعُ الخَيلُ الكِرامُ وَلا القَنَا إذا لَمْ يَكُنْ فوقَ الكِرَامِ كِرَامُ [5]

([1]) المصدر السابق، 105/4.

([2]) المصدر السابق، 105/4. الفتح: استرخاء المفاصل ولينها وعرضها، وقيل عقاب فتخاء: لينة الجناح لأنها إذا انحطت كسرت جناحيها وغمزتهما. **اللسان**، باب فتخ. الأمّات: جمع أم، الوالدة. **اللسان**، باب أمم، الصلادم: صلدم، الفرس الشديدة الصلبة. **اللسان**، باب صلدم.

([3]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 279.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 89.

([5]) المصدر السابق، 110/4

ففي البيت موعظة وحكمة، تدعو الفرد إلى امتلاك الشّجاعة والبأس إلى جانب عدّة الحرب.

ثانياً: الصّورة القائمة على اللون

البصر نافذة من نوافذ إدراك الأشياء وتصويرها، وله أثر متميّز في صياغة التّشبيه، فاستعان المتنبي بالألوان ليبدع صوره[1]، فتدرجت ما بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، والأصفر، ومن الطبيعي أن نرى هذه الألوان متداخلة مع بعضها بعضاً في تلك الصّور، نظراً لطبيعة الحياة الّتي عاشها المتنبي.

اللون الأبيض

كان للّون الأبيض دور في إظهار التّمييز والاختلاف، فقال:

وَلا بُدَّ مِن يَومٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ يَطولُ استِماعي بَعدَهُ لِلنَوادِبِ[2]

يرغب الممدوح بيوم مشهور يقتل فيها الأعادي ليستمع بعده صوت النّوادب عليهم، وقد استعار صفات الخيل- الأغر المحجل- لليوم. ليجعل هذا اليوم متميّزاً عن الأيام الأخرى، كما تتميّز الفرس بالغرّة والتّحجيل [3]

فقتله الأعادي حوّل الماء الأبيض الفضيّ لشدّة بياضه إلى اللّون الأحمر الذّهبي لمّا جَرَتْ دماؤهم فيه، يقول:

رَكَضَ الأَميرُ وَكَاللُّجَينِ حَبابُهُ وَثَنَى الأَعِنَّةَ وَهوَ كَالعِقْيانِ[4]

ولمّا كان النّصر حليف ممدوحه، أصبح سَبْيُ الأطفال والنّساء حقاً له، فأخذهم عبر الماء في زوارق تشقّ زبد الأمواج، يقول:

([1]) المصدر السابق، 183/2.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 277/1.

([3]) المصدر السابق، 277/1.

([4]) المصدر السابق، 311/4.

تَلقـــى بِهِـــم زَبَـــدَ الّتيـــارِ مُقْرَبَـــةٌ عَلـــى جَحافِلِهـــا مِـــن نَضـــحِهِ رَثَـــمُ[1]

فقد شبّه الزّوارق بالخيل المقرّبة واستعار لها الجحافل، وشبّه ما لصق بها من زبد الماء بالبياض في جحافل الخيل. فاستعار للسّفن صفات الخيل لأنّها رمز لأدوات الحـــرب، ووســـيلة لكسب المعارك، لكون المتنبي شاعراً فارساً فرفع من مكانة الخيل ونفى أن يكون للسّـــفن مـــن خلق وطباع الخيل[2] وقد أحسن المتنبي عندما أظهر اللّون الأبيض في هـــذه الصّـــورة ليبـــرز معاني الانتصار والوصول إلى الديار بسلامة وأمّان.

فبعد معاناة الخيل في الحرب وشدّة تعرقها، هدأت وجفّ عرقها على خصرها فـــابيّض فأصبح كحزام محلّى بالفضة، يقول:

عَوابِسَ حَلَـــى يـــابِسُ المـــاءِ حُزْمَهـــا فَهُـــنّ عَلـــى أَوســـاطِها كَالمَنـــاطِقِ[3]

وقد استنكر بعض النّقاد وصف الماء باليابس، وإنّما قام المتنبي باستعارة صـــفة المـــاء العذب للعرق الذي نضحته الخيل وسال على جلودها[4]

ولكنّ الممدوح لا يستقرّ ولا يهدأ لكثرة غاراته، الّتي يتخير لها أوقات الصّباح، حتّى ملّ الصّباح منها، وكذلك ملّ اللّيل من مزاحمته إياه في المواضع الّتي يبلغها، يقول:

فَقَد مَـــلّ ضَـــوْءُ الصُّـــبحِ مِمّـــا تُغيـــرُهُ وَمَـــلّ سَـــوَادُ اللَّيـــلِ مِمّـــا تُزاحِمُـــهْ[5]

فبريق أسلحة الممدوح يزيد الصّبح بياضاً وضوءها يذهب بظلمة اللّيل [6] فلم يسلم منه ليل أو نهار أو بشر، وباتوا يعرفون خيله كلّما أغارت عليهم يقول:

طَلَعْـــنَ عَلَـــيْهِمْ طَلْعَـــةً يَعْرِفُونَهـــا لهَـــا غُـــرَرٌ مَـــا تَنْقَضِـــي وَحُجُـــولُ[7]

([1]) المصدر السابق، 4 /138. نضحه: الرش. **اللسان**، باب نضح، الجحافل، جمع جحفلة، وهي لـــذي الحـــافر كالشـــفة للإنسان. **اللسان**، باب جحفل، الرثم: بياض في أنف الفرس أو جحفلتها العليا. **اللسان**، باب رثم.

([2]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 220.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 65/3. المناطق: ما يشد به الوسط. **اللسان**، باب نطق.

([4]) شعيب، محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، مصر: دار المعارف، 1964. ص 67.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 55/4.

([6]) المصدر السابق، 55/4.

([7]) المصدر السابق، 225/3.

فقد أصبحت خيله مشهورة كغرر الخيل وحجولها، فاستخدم اللّون الأبيض الذي يتميز في وجه الفرس ليظهر تميز هذه الخيول عن غيرها، وشهرتها.

اللون الأبيض والأسود

وقد جمع المتنبي بين الأبيض والأسود ليرسم صورة حصانه فذكرً صفاته وهي: طويل العنق، وضخم الأطراف، ومتداني المرافق، وأبيض القوائم، وعالي الجسم، وهو لا هزيل ولا سمين، وهذه كلّها صفات محمودة مستحبّة، أمّا لونه فأحمر يميل إلى السّواد وتميّزه غرته البيضاء الّتي تملأ وجهه بالإشراق، يقول:

بِمُطلَقِ اليُمنى طَويلِ الفَائِقِ عَبْلِ الشّوَى مُقارِبِ المَرَافِقِ
مُحَجّلِ نَهدٍ كُمَيتٍ زاهِقِ شادِخَةَ غُرّتُهُ كالشّارِقِ
كَأَنّهَا مِنْ لَوْنِهِ في بَارِقِ[1]

"شبّه بياض وجهه بالشّمس لانتشار أشعتها في نواحي الأفق، وشبّه لونه بالسّحاب الذي انتشر عليه ضوء البرق لما فيه من الحمرة المشوبة بالسّواد"[2]

وفي موضع آخر شبّه انتشار خبر الانتصار والظّفر الذي شاع بين النّاس كاشتهار الفرس الأبلق بلونه المختلف حين يجول بين الخيل الأخرى، يقول:

وَكَم لَكَ مِن خَبَرٍ شائِعٍ لَهُ شِيَةُ الأَبلَقِ الجائِلِ[3]

وقد استعار البَلَقَ ليدل على غبار خيله الأسود الذي يشقه لمعان السّيوف، يقول:

يَشُقُّ بِلادَ الرّومِ وَالنَّقعُ أَبلَقُ بِأَسيافِهِ وَالجَوُّ بِالنَّقعِ أَدهَمُ[4]

فلولا الممدوح وعزمه لجاءت الرّيح بما لا تشتهي السفن، يقول:

والطّيرُ فَوقَ الحَبْابِ تَحسَبُهَا فُرْسَانَ بُلْقٍ تَخُونُهَا اللُّجُمُ [1]

([1]) المتنبي، **الديوان**، 93/3.
([2]) المصدر السابق، 93/3.
([3]) المصدر السابق، 162/3.
([4]) المصدر السابق، 211/4.

لقد جعل الأمواج بلقاً، فهي بيضاء بزبدها، ولمّا تصرّف الموج على غير مراد الطّـــائر في كل وجه، رفرف على الماء ثم انغمس فيه، فشبّه الطّير بفرسان لخيل بُلْق، قد كبت وانقطعت أعنتها.[2]

(1) المصدر السابق، 188/4.

(2) المصدر السّابق، 4/ 188.

اللون الأسود

وقد امتلك المتنبي الفرس الدّهماء والجارية بالشِعْر، وكلاهما من هبات الممدوح عليه، يقول:

وَزَنَّا قيمةَ الدَّهماءِ منه وَوَفَّيْنَا القِيَانَ به الصِّدَاقا[1]

"قال العكبري: سمى قيمة الجارية صداقاً لأنّ القيمة للأمة، كالصّداق للحرّة، لأنّها تستحل بالثّمن، كما تستحل الحرّة بالمهر[2]. "

ولمّا ارتبط الأدهم بصفات القوّة والأصالة، استعاره المتنبي ليدل على ممدوحه، فجعل كرام الخيل سوابق، والممدوح كالأدهم يسبقهم بمجده الذي يزيّن وجهه، فمن ينظر وراء هذا الأغرّ يجد خُلُقاً واسعاً وخَلْقاً تام الجمال، يقول:

فِدًى لِأبي المِسكِ الكِرامُ فإنّها سَوابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدينَ بِأدْهَمِ
أغرَّ بِمَجدٍ قَدْ شَخَصْنَ وراءَهُ إلى خُلُقٍ رَحْبٍ وخَلْقٍ مُطَهَّمِ[3]

إنّما عنى المتنبي أنّ ممدوحه إمام الكرام وسابقهم إلى الخير دائماً.

وقد شبّه السفينة بالخيل السّود؛ لأنّها مطلية بالقار، أمّا جيشه الذي يركبها فشبّههم بالفوارس يركبون بطون خيلهم لا ظهورها، ولكنّ صفاتها تختلف عن صفات الخيل، فهي لا تتعب ولا يصيبها كلال، إنّما الملاحون هم من يصابون بالتعب، ولكنّها كالخيل توصل الجيش إلى العدوّ وتمكّنهم منهم، يقول:

دُهْمٌ فَوَارِسُها رُكّابُ أبْطُنِها مَكْدُودَةٌ بِقَوْمٍ لا بها الأَلَمُ
مِنَ الجيادِ الّتي كِدْتَ العدوّ بها وما لها خِلَقٌ منها ولا شِيَمُ[4]

([1]) المتنبي، **الديوان**، 46/3. الصِّداق أو الصَّداق: مهر المرأة. **اللسان**، باب صدق

([2]) **شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي**، 426/1. القيان: الجارية المغنية. **اللسان**، باب قين.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 266/4 – 267.

([4]) المصدر السابق،138/4.

لمّا تمكّن منهم، صنع سفينة تعيده إلى بلده من ذوائب سباياه من نسائهم، ومن صـــلبان معابدهم، وهذا دليل كثرة الغنائم والسّبي، فشبّه السّفن بخيل سود تعدو ولا قوائم لها، وهي عقيم لا تَلِد، وبهذه الصّفات أظهر أنّه يريد السّفن؛ لأنّ الخيل لها قوائم، وعادتها الإنتاج، يقول:

فَتَـــلَ الحِبَـــالَ مـــن الغَـــدائرِ فوْقَـــهُ وبنـــى السّـــفينَ لَـــهُ مـــن الصُّـــلبانِ
وحَشَـــاهُ عَادِيَـــةً بِغَيْـــرِ قـــوائمٍ عُقْـــمَ البُطُـــونِ حَوَالِـــكَ الأَلْـــوانِ
تَـــأتي بِمـــا سَـــبَتِ الخيـــولُ كأنَّهـــا تَحـــتَ الحِسَـــانِ مَـــرَابِضُ الغِـــزلانِ[1]

اللون الأحمر

شارك المتنبي في كثير من الغارات كشاعرٍ وفارس، وشهد الكثير مـــن الانتصـــارات، فلابدّ أن يكون للّون الأحمر دور في رسم صورته الحربية، وقد حاول المتنبي أن يفرّغ رغبتـــه النّفسية المعبّأة والمشحونة بأحاسيسه، فكان اللّون الأحمر يعني الدّماء والموت الذي سيزيح مـــن أمامه كل ما يعترض أحلامه وأمانيّه[2]، فخيله تدخل الحرب عارية من السّرج والجلال، ولكنّها ولكنّها تخرج منها تلبس جلالاً من الدّم الذي جفَّ عليها، يقول:

لِجِيـــادٍ تَـــدْخُلْنَ فـــي الحَـــرْبِ أعْـــرَا ءً وَيَخْـــرُجْنَ مِـــنْ دَمٍ فـــي جِـــلالِ[3]

ففي البيت كناية عن كثرة القتلى، ودليل فروسية، إلا أن دخول الخيل الحرب على هـــذه الهيئة _دون سروج _ جاء خلاف عادة العرب[4] واستخدمها المتنبي بصورة حسنة[5]

([1]) المتنبي، **الديوان**، 311/4.

([2]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 300.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 316/3.أعراء: صار عرياناً. **اللسان**، باب عري. جلال: ما تلبسه الدابة لتصان به. **اللسان**، بـــاب جلل. كما قال جرير:

وتُنكـــر يـــومَ الـــروْع ألـــوان خيلنـــا مـــن الطعـــن حتّـــى تحســـب الجـــونَ أشـــقرا

المتنبي: **الديوان**، 316/3.

([4]) وكأنّه ينظر إلى قول البحتري:

سُـــلبوا وأشـــرقت الـــدماء علـــيهم محمـــرّةً فكـــأنّهم لـــم يُســـلبوا

التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 454.

([5]) **يتيمة الدهر**، 1/ 197.

وقد غزا سيف الدّولة العدوّ في عقر داره، فلحقت خيله بنسائهم، وكان الفرسان إذا طعنوا، تناضح الدّم في نحورهنّ، يقول:

أتى الظُّعْنَ حتّى ما تطيرُ رَشَاشَةٌ من الخيلِ إلّا في نُحُور العَوَاتِق[1]

فجاء اللّون الأحمر دليل انتصار ولكنّه دلّ على الدّم الذي لا يحمل إلا معنى الموت والقتل واشتداد الخطب، حتّى إنّ دماء الأعداء جرَتْ في الغدران فحوّلتْ خضرَةَ الماءِ إلى حمرة شديدة.

حتّى خيله لا تشرب الماء إلا بعد أن تكون قد حاربت عليه واحمرّ لونه، يقول:

ولا تَرِدُ الغُدْرانَ إلا وماؤُها من الدّمِ كالرَّيحانِ تحت الشَّقائِق[2]

فشبّه خضرة الماء وحمرة الدّم بالريحان في خضرته إذا استبان تحت الشّقائق وتحوّل إلى اللّون الأحمر، وأشار بخضرة الماء إلى صفائه وكثرته[3].

مزيج من الألوان

مزج المتنبي بين الألوان ليخرج خيلاً كالشّرار يلمع في وجوه الأعداء، فهي تنقضّ عليهم كالشّهب في السّرعة والشّدّة، ثم جعلها نجوماً تتلألأ في الظّلام كبريق الحديد، ثم تستغرق بسيرها كاستغراق الكواكب وسيرها في السّماء، يقول:

تُبَاري نُجُومَ القَذْفِ في كلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لَهُ مِنْهُنَّ وَرْدٌ و أدْهَمُ[4]

فهذا المزج الرّائع للألوان، حقّق صورة تنضح بالقوة والغضب العارمين في صدور الخيل وفوارسها تجاه الأعداء، فالكميْت (الأحمر والأشقر) يحمل معنى الغضب والتّوعد، أمّا

([1]) المتنبي: **الديوان**، 66/3 – 67.

([2]) المصدر السابق، 72/3. وفيه نظر إلى قول جرير:

وما زالت القتلى تمورُ دماؤها بدجلة حتّى ماء دجلة أشكلُ

المصدر السابق، 72/3

([3]) المصدر السابق، 71/3 – 72.

([4]) نجوم القذف: الّتي ترمى بها الشياطين، نجوم له: خيل الممدوح. المتنبي: **الديوان**، 71/4. ورد: ما بين الكميت والأشقر. **اللسان**، باب ورد.

الأسود فيحمل الحقد والألم الذي سيعاني منهما الأعداء. ثم أوحى لنا بقوة الانقضاض والصّعق باستعارته لنجوم القذف[1]. وقد نجح شاعرنا في نقل هذه المشاعر إلينا دون عائق.

وإنْ خُيِّر المتنبي بين الخيول، تراه يختار الدّهماء لما لها من محاسن كثيرة، يقول:

اخْتَرْتُ دَهْماءَتَيْنِ يا مَطَرُ ومَنْ لَهُ في الفَضائلِ الخِيَرُ[2]

ومرةّ أخرى يسرج الكميت؛ لحسن مناقلتها، وإسراعها به، يقول:

وأُسْرِجَتِ الكُمَيْتُ فَنَاقَلَتْ بي على إعقاقِها وعلى غِشاشِي[3]

ثم يراجع نفسه ويقول: ربما يكون قد أخطأ، فالنّظر يصدق أحياناً وقد يكذب فنخطِئ، يقول:

وربّما قالَتْ العُيُونُ وقَدْ يَصدُقُ فيها ويَكْذِبُ النَّظَرُ[4]

فممدوحه سخيّ كريم، يعطي أغلى ما يملك مِن الخيل والرّماح وغيرها، فيعيبه الحسّاد على ما لا عيب فيه، يقول:

أنتَ الّذي لا يُعَابُ في مَلَأٍ مَا عِيبَ إلّا بأنَّهُ بَشَرُ
وأَنَّ إعطاءَهُ الصَّوَارِمُ والـ ـخَيْلُ وشُمْرُ الرّماحِ والعَكَرُ[5]

وهكذا كان لكل لون حكاية يحكيها، وصورة يرسمها، وهذا يدلّ على إبداع ومقدرة شعرية عظيمة.

ثالثاً: الصّورة القائمة على الحواس

السّمع أحد وسائلنا للإدراك وتصور الأشياء والإحساس بها، فاستخدم ما يثيره الصّوت من مشاعر ومواقف في النّفس، وكذلك اعتمد في تصويره على البصر لينقل لنا كل ما يراه شأنه

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 166.

([2]) (خُيّر بين فرسين: دهماء وكميت). المتنبي: **الديوان**، 193/2.

([3]) المصدر السابق، 323/2.

([4]) المصدر السابق، 193/2.

([5]) المصدر السابق، 193/2.

في ذلك شأن معظم شعراء الحرب،[1] فكان لبعض الحواس عند المتنبي ظهور في صورة الخيل الخيل وهو أمر تميّز به عن أستاذه أبي تمّام، فقد ألقى المتنبي الضّوء على صوت الخيل ونظرها وأثرهما في إظهار أصالة الخيل وقوتها.

صوت الفرس

إذا صهل الفرس الكريم عُرِف عتقه بصهيله، لذلك شبّه المتنبي الممدوح بذلك الفرس؛ لأنّ مَنْ سَمِع كلامه عَرَفَ منه الكرم وطيب السّريرة، فكلامه كلّه يدور حول العطاء والوعد بالإحسان ومحاسن الأخلاق، يقول:

كَرَمٌ تَبَيّنَ فِي كَلامِكَ مَاثِلاً وَيَبِينُ عِتْقُ الخَيلِ فِي أصواتِهَا[2]

أحسن المتنبي في إبراز كرم الممدوح في مشهد متكامل، حسن السّبك.

ولمّا تكون الخيل مع الممدوح ترفع أذنابها من شدّة الجري، وتراها في قمة نشاطها ومرحها فتصهل صهيلاً يدلّ على عزّة نفسها وكرمها وقوّتها، يقول:

شَوَائِلَ تَشْوَالَ العَقَارِبِ بالقَنَا لهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ[3]

فصهيلها ينطق بشجاعة فارسها وغزواته الّتي قادها إليها، وقد أعجب طه حسين بهذه الصّورة فقال: " وما أظنّك إلا معجباً بتشبيهها وقد أديرت أسنة القنا نحو أعجازها، بالعقارب وقد شالت بأذنابها "[4].

كما أنّ الحمام يغني بسيادة الممدوح، يقول:

نَطَقَتْ بسُؤدُدِكَ الحَمَامُ تَغَنِّياً وبما تُجَشِّمُها الجِيادُ صَهيلا[5]

([1]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 338.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 355/1. قال ابن الرومي: فمن يدلُ على لبٍ يعارضه والطرف يعرب عن عتق إذا صلا. التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 584.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 221/3. ورد البيت في الصّورة الحركية في جري الحيل.

([4]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 242.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 362/3.

أراد المتنبي إظهار شهرة الممدوح الّتي بلغت العاقل وغير العاقل. فهو الشّجاع المتمكّن من أعدائه، فإن أراد غزوهم لم يُخْفِ عنهم قصده لقوته واقتداره عليهم. لذلك يترك الحرية لخيله لتصهل من غير سرار، وليس السّرار من عادتها، يقول:

يَـــرَاهُ النّـــاسُ حَيـــثُ رَأتْـــهُ كَعْـــبٌ بـــأرْضٍ مـــا لِنازِلِهَـــا اســـتِتَارُ
تَصَـــــاهَلُ خَيْلُـــــهُ مُتَجاوِبَـــــاتٍ وَمَـــا مِـــنْ عـــادَةِ الخَيـــلِ السِّـــرَارُ[1]

فمن يباغت عدوه يضرب خيله إذا صهلت ليقطع صهيلها، وهذا ليس مما يفعله الممدوح (سيف الدّولة)، وجعل الخيل مدركة لما يدور حولها من أحداث جسيمة، فـإن شـعرت بعظـم الخطب واشتداد القتال، فإنّها تمتنع عن الصّهيل وإصدار الأصوات، كما يمتنـع الرّجـال عـن الكلام، أمّا ممدوحه فيبث رباطة الجأش بين جنوده، يقول:

وأنـــتَ الفـــارسُ القَـــوَّالُ صـــبراً وقـــدْ فَنِـــيَ الـــتَّكلُّمُ والصَّـــهيلُ[2]

فميّزها بالفهم والإدراك، فرفع قيمتها وكرّمها، وهذا يكشف عـن حبّـه لهـا وتقـديره لجهودها.

أمّا غيره فيوافي أعداءه ليلاً وقد أخفى تدبيره ومكره، فيأخذهم على غفلةٍ، فيسمع صرير الرّماح بين ضلوعهم قبل أن يسمعوا أصوات اللّجم متحركة في أحناك خيله، يقول:

إذا بَيَّـــتَ الأَعـــداءَ كـــانَ اســـتِماعُهُمْ صَرِيرَ العَـوالي قَبـلَ قَعقَعَـةِ اللُجـمِ[3]

ومن كان معجباً بنفسه متكبّراً ويضرب خيله على التّصهال تأديباً له، فإنّه أمام الممدوح (عضد الدّولة) ساكناً متصاغراً هيبةً له، يقول:

فَهُـــنّ يُضـــرَبنَ علـــى التَّصْـــهَالِ كُـــلُّ عَلِيـــلٍ فَوْقَهَـــا مُخْتَـــالِ[4]

تصل خيله إلى أبعد المناطق ولا يقف في وجهها عائق، فهي ترحب بوقع حوافرها على الحصى أعتى الأعداء، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 214/2.
([2]) المصدر السابق، 139/3.
([3]) المصدر السابق، 172/4.
([4]) المصدر السابق، 30/4.

وَمَلْمُومَـــــةٌ سَـــــيْفَيَّةٌ رَبعِيَّـــــةٌ يصيحُ الحصى فيها صـياحَ اللَّقـالِق[1]

فقد شبّه صوت الحصى بصوت اللّقالق وهو يصيح دلالة على علو الصّوت وقوّته.

وقد استخدم المتنبي صهيل الخيل ليعبّر عن عجزه وتقصيره، فقال:

وَإِن تَكُـــن مُحكَمـــاتُ الشُّـــكلِ تَمنَعُنـــي ظُهورَ جَـــرِي فَلـــي فـــيهِنَّ تَصـــهَالُ[2]

فهو يعجز عن ردّ الجميل لممدوحه بالفعل، فردّه بالقول (الشِعر) فشبّه نفسه بالخيل الّتي أُحْكِمَ شكالها فعجزت عن الجري لكنّها تصهل شوقاً إلى فارسها [3].

حاسة السّمع

كان لحاسة السّمع نصيبٌ في صور الخيل، فقد وصفها المتنبي بدقة السّمع، فإن سمعت صوت مستغيث نصبت آذانها لاستماعه؛ لأنّها تعودت إجابة المستغيث وإن كان يدعو غيرهـا، ومتى دُعيت استجابت من غير إبطاء، يقول:

وَإِنْ نَقَـــعَ الصّـــريخُ إلـــى مَكَـــانٍ نَصَـــبْنَ لَـــهُ مُؤَلَّلَـــةً دِقَاقـــاً
فَكَـــانَ الطّعْـــنُ بَيْنَهُمَـــا جَوَابـــاً وَكَـــانَ اللّبْـــثُ بَيْنَهُمـــا فُوَاقَـــاً[4]

أظهر المتنبي لنا صورة خيل مدرّبة، قد اجتهد عليها فارسها؛ لتصبح أداة حرب فتاكة[5]

فتاكة[5]

فما بين الدعاء والإجابة مقدار فواق النّاقة، وهذا دليل السّرعة ودقّـة السّـمع وإجابـة المستغيث.

([1]) سيفية: نسبة إلى سيف الدّولة. ربعية: لأنه من ربيعة. المصدر السابق، 67/3. ملمومة: الكتيبة المجتمعة. **اللسان**، باب لمم. اللقالق: طائر أعجمي طويل العنق، يأكل الحيات. **اللسان**، باب لقق.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 396/3.

([3]) إن المتنبي قصد (فاتك) الذي كان يُسِرُّ خِلافاً وبغضاً لكافور، وكان شاعرنا يحبه ويميل إليه ولا يمكنه إظهـار ذلـك خوفاً من كافور. المصدر السابق، 396/3.

([4]) المصدر السابق، 44/3. نَقَعَ: ارتفع الصوت. **اللسان**، باب نقع. مؤللة: المحددة. **اللسان**، باب ألل. فواقـاً: مـا بـين الحلبتين أو الشهقة العالية للإنسان. **اللسان**، باب فوق.

([5]) الرّبابعة، حسن محمّد: **أدب الحرب عند المتنبي**، ص 40.

ولحدّة سمعها فإنّها تسمع الصّوت الخفيّ، فتنصب آذانها إن أحسّت بشيء، وقد بالغ المتنبي في صورته هذه مبالغة لطيفة حين جعلها تسمع مناجاة الإنسان لنفسه وجعله كالمناداة وغيرها، وإنّما أراد حدّة حسّ آذانها، يقول:

وَتَنْصِبُ للجَرْسِ الخَفِيِّ سَوَامِعاً يَخَلْنَ مُنَاجَاةَ الضّمِيرِ تَنَادِيَا[1]

حاسة النظر

كما وصفها بحدة السّمع، فقد وصفها بدقّة النّظر، فكما قالوا: (أَبْصَرُ مِنْ فرسٍ في غلسٍ)، فعيونها السّوداء تريها الأشياء على حقيقتها حتّى لو كان الظّلامُ دامساً، يقول:

وَتَنظُرُ من سُودٍ صَوَادِقَ في الدُّجَى يَرَينَ بَعيداتِ الشّخُوصِ كما هِيَا[2]

ولما كان الخيل رفيقه الحرب، جعلها الشّاعر تلازم فارسها، حتّى اشتدّ القتال، وحدّقت الأنظار ببعضها بعضاً، نزل الفارس عن خيله ليلتحم مع عدوّه بالسّيوف، يقول:

وَكَمْ عَينِ قِرْنٍ حَدّقَتْ لِنِزَالِهِ فلم تُغْضِ إلّا والسّنانُ لها كُحْلُ[3]

وفي هذه شجاعة مفرطة في الفرسان فهم يلاقون الموت دون خوف أو وجل. فمنح المتنبي ممدوحيه صفات خارقة، قلّما نجدها عند الآخرين. وقد استخدم المتنبي خياله المبدع ليبرز الخيل راكضةً في الظّلام الشّديد لكثرة ما علا من الغبار، فأضاء لها الشّموع لتضيء الدّرب، أمّا النار فجعل الشّموع أجسام الرّماح، ونارها الأسنة، يقول:

تهدي نواظرها، والحرب مظلمةٌ من الأسنّةِ نارٌ والقنا شمعُ

فنِعم هذا الجيش المتكامل، وفيه الفارس والخيل والرّمح يعاون بعضها بعضاً خلف القائد لتحقيق النّصر، والنّيل من الأعداء. [4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 422/4.

([2]) المصدر السابق، 422/4.

([3]) المصدر السابق، 304/3.

([4]) المصدر السابق، 336/2.

الخيل في قصيدة الفخر

أولاَ: الصّورة القائمة على الحركة

المتنبي شاعر العظمة والكبرياء، واعتزازه بنفسه وبفروسيته جعله يشرك نفسه بالمديح مع ممدوحيه، فجاء الفخر في شعره تعبيراً عن إحساسه الداخلي، وروحه المتعالية الطّموحة[1]

كان لصورة الخيل في قصيدة المدح نصيب الأسد، ولكنّ هذا لم يمنع المتنبي من إبراز الخيل في قصيدة الفخر، ففي النّهاية كان شاعرنا شديد الفخر بنفسه وأحياناً أخرى بممدوحه أو خيله، لذلك حصلت الخيل على حصّة وافرة من فخر المتنبي، فهي وسيلته الّتي توصله إلى نواحي الأرض ليطلب الودّ من ممدوحه، يقول:

بأيَّ بِلادٍ لم أجُرَّ ذُؤابَتي وأيُّ مَكانٍ لم تَطَأْهُ رَكَائِبي[2]

فهي المعينة على السّفر، مهما كثرت الأسفار، وتعدّدت الرّحلات.

الفخر بالنفس

يصف المتنبي نفسه متفاخراً بكثر الأشعار وسرعة الخاطر وقوّة البادرة، وفي استباق معاني الشِّعْر، يقول:

أتُنكِرُ ما نَطَقْتُ بهِ بَديهاً ولَيسَ بمُنْكَرٍ سَبْقُ الجَوادِ
أُرَاكِضُ مُعْوِصَاتِ الشِّعرِ قَسْرَاً فأقْتُلُهَا وغَيْري في الطِّرَادِ[3]

شبّه نفسه بالجواد وشبّه الشِّعْر بالصّيد، فهو يطارد العويص من الشِّعْر فيأخذه قهراً، وما عداه من الشّعراء فباقون في مطاردته ولم يدركوا شيئاً [4]، وقد تكشف هذه الصّورة عن اعتداد اعتداد كبير بالنّفس، وثقة بالغة بقدراته الشّعرية واللّغوية الّتي تفوق غيره من الشّعراء.

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 252.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 279/1.

([3]) المصدر السابق، 118/2-119.

([4]) المصدر السابق، 118/2-119.

وفي فخره بشِعْره يقول:

فَبَعَثْنَـــــا بِـــــأَرْبَعِينَ مِهَـــــاراً كـــلُّ مُهـــرٍ مَيْدانُـــهُ إنْشَـــادُهْ
فَارْتَبِطْهَـــا فـــإنّ قَلْبـــاً نَمَاهَـــا مَـــرْبِطٌ تَسْـــبِقُ الجِيـــادَ جيـــادُهْ[1]

شبّه الأبيات بالمهر وإنشادها بالميدان، وحتّى يُعْرَف قدر شِعْره لا بد من إنشاده، كما يُعْرف المهر من جريه في الميدان، ثم يفصل القول باعتداد وفخر أنّ شِعْره أفضل من شِعْر سواه [2].

يسخر المتنبي من الشّعراء، ويجعلهم يتعثرون بالكلام السّهل القريب، "فجعل الجياد مثلاً لفحول البلاغة، والسّهل والجبل مثلاً لسهل الكلام وصعبه" يقول:

وإذا تَعَثَّـــرَتِ الجِيـــادُ بسَـــهْلِهِ بَـــرَّزْتُ غَيـــرَ مُعَثَّـــرٍ بِجبَالِـــهِ[3]

ويتفاخر المتنبي بمعرفة الميادين كلها به، يقول:

الخَيْـــلُ واللّيْـــلُ والبَيْـــداءُ تَعْرِفُنـــي والسّيْفُ والرّمْحُ والقِرْطَاسُ والقَلَـــمُ [4]

فشهرته وتفوّقه أينما ذهب قد بلغت أنحاء الدنيا، وإن دلّ ذلك على شيء، فإنّه يدلّ على عظمة المتنبي الذي شغل النّاس أينما حلّ. كما يكشف عن اعتداد زائد بالنّفس وتضخيم للـذّات وإمكاناتها[5].

قال ابن جنّي: "قد سبق النّاس إلى ذكر ما جمعه في هذا البيت، ولكن لم يجتمع مثله في بيت ما علمت"[6] وهذا مما يحسب لعبقرية المتنبي الشعريّة المبدعة.

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 158/2.
([2]) المصدر السابق، 158/2.
([3]) المصدر السابق، 183/3.
([4]) المصدر السابق، 85/4.
([5]) المصدر السابق، 85/4
([6]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 213/1. وقد أخذه من قول الهيثم النخعي:

أعـــاذلتي كـــم مهمـــة قـــد قطعتـــه أليـــف وحـــوش ســـاكناً غيـــر هائـــب
أنا ابن الفـــلاة والطعـــن والضـــرب والســـرى وجـــود المـــذاكي والقنـــا القواضـــب
حلـــيم وقـــور فـــي الـــبلاد وهيبتـــي لهـــا فـــي قلـــوب النـــاس بطـــش الكتائـــب

فجعل الشّاعر نفسه ابناً لها وهي علاقة أكثر ارتباطاً، إضافة إلى الإطناب والبلاغة وعذوبة البيان، فصورته أجـود مـن صورة المتنبي. البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 90

ونفس المتنبي تعاف الخمول والدّعة، بل تؤثر السّفر والتّعب طلباً للمجد والمراتب العليا، يقول:

ولَــوْ لــم تَسِــرْ سِــرْنَا إلَيــكَ بــأنْفُسٍ غَرَائِبَ يُؤثِرْنَ الجِيــادَ علــى الأهــلِ[1]

لذلك ترى قلب الشّاعر يحثه دائماً إلى ركوب الصّعاب نحو المجد والسّيادة حتّــى لــو أهلكه ذلك، وأصبح زاده النّعام أو أهلك خيله فلا زاد لها إلا عشب المراعي، يقول:

يُكَلّفُنــي التّهْجِيــرَ فــي كــلّ مَهْمَــةٍ عَلَيقــي مَرَاعِيــهِ وَزَادِيَ رُبْــدُهُ[2]

وهو في هذا التّحدي للدّهر وأحداثه وحيداً وذلك لشجاعته، ثم عدل عن كلامه بأن جعل الصّبر رفيقه في المواجهة، يقول:

أُطَــاعِنُ خــيلاً مــن فوارسِــها الــدّهرُ وحيداً وما قولي كذا ومَعِــي الصَّــبْرُ[3]

أراد المتنبي وصف مقاساته لشدائد الدّهر وصبره على ذلك. وقد تلاحظ المرارة والألم في قوله، فكان شعره صورة للشّعر الوجداني الحقيقي، الذي يعبّر عن عواطفه وما في نفسه من كبرياء حوّله الفشل إلى نقمة ومرارة [4].

فهو دائم التّفكير في الحرب والنّيل من أعدائه، وقيادة الخيل، يقول:

أُفَكِّــرُ فــي مُعَــاقَرَةِ المنايَــا وَقُــوْدِ الخَيْــلِ مُشْــرِفَةَ الهَــوَادي[5]

يكشف البيت إدمان المتنبي على خوض الحروب، فهي تسلب عقله وتفكيره، ويعكــس أيضاً عن شجاعة فائقة تميز بها شاعرنا فافتخر بها. فأظهر المتنبي روعة التّصوير بقوة وحزم، ليخرج نفسه من حالة الضّيق الّتي يشعر بها، فكانت وسيلته الوحيدة هي الحرب[6] ولم ينس ذكر ذكر المساند والمرافق المخلص ألا وهي فرسه، فيقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 10/4.

([2]) المصدر السابق، 123/2.

([3]) المصدر السابق، 252/2.

([4]) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي العباسي**، ص 357.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 76/2.

([6]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 86.

مـــا يُجيـــلُ الطَّـــرْفَ إلا حَمِدَتْـــهُ جُهْـــدَهَا الأيْـــدِي وذَمَّتْـــهُ الرِّقـــابُ[1]

تَجَوُّل الشّاعر على فرسه في الحرب تجعله يضرب رقاب العدوّ فتذمُّه على مـــا فعـــل، وفعله يملأ أيدي أوليائه بالغنائم، فيحمدوه على جهده.[2]

وقوم الشاعر دائماً جاهزون للدّفاع عن حِمَاهم، يقول:

إذا فَزِعَـــتْ قَـــدَّمَتْهَا الجيَـــاد وبِـــيضُ السّـــيُوفِ وَسُـــمْرُ القَنَـــا[3]

فإن تعرضت الإبل إلى ما يفزعها تقدموها بالخيول والسيوف والرّماح دفاعاً عنها، وهذا يكشف من استعدادهم لخوض المعارك للذّوْد عما يملكون، وإن وقع ذلك رأى العدوّ في المتنبي وســيفه ورمحه وفرسه شخصاً واحداً، ويحذّر الأعداء من أفعاله الجسيمة الّتي سيضعها بهم، يقول:

وذرْنـــي وإيّـــاهُ وَطِـــرْفـــي وَذابِلـــي نكـــنْ واحداً يلقي الورى وانْظُرنْ فعلـــي[4]

وإن أغارت يوماً على ديار العدوّ، أهلكتهم، وأحاطت بهم إحاطة القلائد بالأعناق، يقول:

وتُضحي الحُصُونُ المُشَمَخِّرَاتُ في الذُّرى وخيلُـــكَ فـــي أعنـــاقهنَّ قلائـــدُ[5]

فمن أهم صفات خيله الثّبات والصّبر على الشّدائد، فنشاطه وشدّة قوّته يلقى فـــي قلـــب فارسه الخوف، يقول:

بـــاقٍ علـــى البَوْغـــاءِ والشّـــقائِق والأبْـــرَدَينِ والهَجيـــرِ المَـــاحِق
للفـــارِسِ الـــرّاكِضِ منـــهُ الواثِـــق خَوْفُ الجَبَـــانِ فـــي فُـــؤادِ العاشِـــق[6]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 261/1.

([2]) المصدر السابق، 261/1–262. والطِّرف تأتي على كسر الطاء: الفرس العتيق وقيل الطويل القوائم والعنق، الطرّف الأذنين. **اللسان**، باب طرف. أمّا بفتح الطاء فتكون بمعنى العين، أي أن في كل نظرة منه إحسان معطاء يحمده الآخرون عليه. المتنبي: **الديوان**، 261/1.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 162/1.

([4]) المصدر السابق، 281/3 – 282. وقد اعتمد المعنى ي قول ذي الرمة:

وليـــلٍ كجلبـــاب العـــروس ادَّرَعْتُـــهُ بأربعـــةٍ والشـــخصُ فِـــي العـــين واحـــد
أَحَـــمُّ عُـــذافِيٌّ وأبـــيضُ صـــارم وأعـــيسُ مَهـــرِيٌّ وأزوَعُ ماجـــدُ

المصدر السابق، 281/3

([5]) المصدر السابق، 397/1.

([6]) المصدر السابق، 94/3. البوغاء: التربة الرخوة. الشقائق: لين من غِلظ الأرض. **اللسان**، باب شقق. والأبردين: الغداة والعشى. **اللسان**، باب برد، الهجير: شدّة الحر. **اللسان**، باب هجر، الماحق: النقصان وذهاب البركة. **اللسان**، باب محق.

وأرى أنّ المتنبي كان فخوراً بخيله وشدّتها، في حين أهان الفارس وألقي في قلبه خوف الجبان ذي القلب الضّعيف الشّبيه بقلب العاشق الرّقيق الحساس.

ومن جميل صفات الخيل، أنّها وفية لفارسها، تقف إلى جانبه في أحلك المواقف، فإن واجه الفارس طائفة من الفرسان تركهم بمعونة خيله قوتاً للوحوش الّتي كانت قوتاً له، يصيدها ثم يأكلها، يقول:

ومَقانِبٍ بمَقانِبٍ غادَرْتُهَا أقْوَاتَ وَحْشٍ كُنّ مِن أقْواتِهَا[1]

وهذا تفاخر بالغ بالنّفس، وثقه بقدرته وقدرة خيله على مواجهة الأعداء، وفي البيت مِنْ حسن التّخلّص والخروج ما يحسب له [2].

الفخر بالممدوح

شبّه المتنبي ولدي عضد الدّولة (أبا الفوارس وأبا دلف) بشبلي أسد، أو مهري رهان تسابقا إلى غاية الكرم، يقول:

ولم أرَ قبلَهُ شِبْلَيْ هِزبَرٍ كَشِبْلَيْهِ ولا مُهْرَي رِهانِ[3]

ويحمل البيت مدحاً لعضد الدّولة، وتشبيه له بالأسد أو خيل الرّهان السّابقة، فكما يقال (هذا الشّبل من ذاك الأسد)، وهذا دليل كرمه، وحسن تربيته لأبنائه.

وقد أتى الممدوح بفرسانه وخيولهم محصنة بالدّروع والحديد الّتي تقيها ضربات العدوّ، ولكنّ ذلك ليس خوفاً من الموت، فهم شجعان لا يبالون بالقتل، إنّما لمقابلة شر الأعداء بمثله، فمن شهد الحرب غير مستعد ولا متسلح، كان أخرق لا يستحق سوى ضرب السّيوف والرّماح، يقول:

لها في الوَغى زِيُّ الفَوارِسِ فَوقَها فَكُلٌّ حِصَانٍ دَارِعٌ مُتَلَثِّمُ

([1]) المتنبي: **الديوان**، 350/1.

([2]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 1/ 192.

([3]) المتنبي: **الديوان** 394/4.

وَما ذاكَ بُخــلاً بِــالنُّفُوسِ عَلــى القَنــا وَلَكِـــنَّ صَـــدمَ الشَّـــرِّ أَحـــزَمُ[1]

الخيل السابقة

ما زال يتوعد المتنبي أعداءه الذين حاولوا سرقة خيله، بأن أعدّ لهم سيفاً يقتلهم به وهو لا يستطيع أن يخلف وعده للسّيف أولهم، يقول:

أعْـــدَدْتُ للغَـــادِرِينَ أسْـــيَافَا أجْـــدَعُ مِـــنْهُمْ بِهِـــنّ آنَافَـــا
وَعَـــدْتُ ذا النّصْـــل مَـــنْ تَعَرَّضَـــهُ وَخِفْـــتُ لمّـــا اعْتَرَضْـــتَ إخلافـــا[2]

وتعينه الفرس السّابقة للوصول إلى أعدائه، غير مكترثة لسيفه الذي يقطر دماً، يقول:

يَحمِلُنـــي وَالنَّصْـــلُ ذو السَّفَاسِـــق يَقطُـــرُ فـــي كُمِّـــي عَلـــى البَنَـــائِق[3]

وترى الرّماح راضية عن فرسانها؛ لأنّها توردها دماء خيل العدوّ، فهي أهلٌ لأن تـورد الدّماء، وفرسانها أهلٌ لأن يوردوها إياها، فكلاهما راضٍ عن صاحبه، يقول:

وأســـمَرَ ذي عشـــرينَ تَرْضَـــاهُ وَارِداً ويَرْضَاكَ في إيـــرادِهِ الخيْـــلَ سَـــاقيا[4]

وهذا دليل الشّجاعة والإقدام، ومواجهة العدوّ وجهاً لوجه.

فإنْ حدد وجهةً، قاد إليها فرساً سابحةً، تسبق قوائمها طرفها، يقول:

يُقْـــبِلُهُمْ وَجْـــهَ كُـــلِّ سَـــابِحَةٍ أَرْبَعُهـــا قبـــلَ طَرْفِهَـــا تَصِـــلُ[5]

"فقد أسرف في المبالغة، وخرج إلى ما يستحيل وقوعه، لأنّ القوائم إذا وصـلت قبـل الطرف، وصف النّظر بالضّعف" [6]. إنّما قصد المتنبي أنّها سريعة، تصل هدفها دون معيقات

([1]) المتنبي: **الديوان**، 78/4.

([2]) المصدر السابق، 3/ 36-37

([3]) المصدر السابق، 98/3. سفاسق: طرائق السيف. **اللسان**، باب سفق، البنائق: جمع بنيقة، لبنة القميص. **اللسان**، بـاب بنق.

([4]) والبيت منقول من قول عبد الله بن طاهر في السيف:

أخـــو ثقـــةٍ أرْضَـــاهُ فـــي الـــرّوع صـــاحبا وفـــوق رِضـــاهُ أنَّنـــي أنـــا صَـــاحِبُهْ

المتنبي: **الديوان**، 430/4.

([5]) المصدر السابق، 330/3.

([6]) المصدر السابق، 330/3. التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 488.

واستعان بالفرس السّابحة لسرعتها في الجري وانسيابها أكثر من غيرها.

فالخيل السّريعة تجلب المجد لصاحبها وتزيد من عطايا الممدوح له، فكانت أهم عطايا سيف الدّولة للمتنبي فرس طيار، فيقول:

وإنِّي لَتَعدو بي عَطاياكَ في الوَغى فَلا أَنا مَذمُومٌ ولا أَنتَ نادِمُ
على كُلِّ طَيَّارٍ إليها بِرِجلِهِ إذا وَقَعَتْ في مِسمَعَيهِ الغَماغِمُ[1]

شبّه الفرس بالطّير يطير إلى الحرب برجله عوض الجناح، كناية عن شدّة سرعته في العدوّ، وعليه فإن المتنبي يشكر الممدوح على تلك الهبة، فلا يندم الممدوح على هبته؛ لأنّ الشّاعر يقوم بواجبه في الدّفاع عن بلاد المسلمين، فكانت تلك الهدية مبعث فخر المتنبي بصفاتها ومعاونتها له لنيل رضا الممدوح [2].

وهي سريعة أيضاً في الصّيد فإن ظهر أمامها قطيع من حمر الوحش، صادت آخر الخيل أول القطيع، مع العلم أنّ حمر الوحش توصف بسرعة الجري، يقول:

إنْ أعشَبَتْ رَوْضَةٌ رَعَيْنَاهَا أوْ ذُكِرَتْ حِلّةٌ غَزَوْنَاهَا
أوْ عَرَضَتْ عَانَةٌ مُقَزَّعَةٌ صِدْنَا بِأُخْرَى الجِيادِ أَوْلاهَا[3]

فجريها كالبراق، وإن نظر مكذب الرّسل إلى سرعتها صدّق ما قيل في وصف البراق، يقول:

ما رآها مكَذِّبُ الرُّسلِ إلاّ صَدّقَ القَوْلَ في صِفاتِ البُراق[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4/107-108

([2]) المصدر السابق، 4/108. ولعل المتنبي ينظر إلى قول بن المعتز:

وليلٍ ككحلِ العينِ خضتُ ظلامه بأزرقَ لماعٍ وأبيضَ صارمِ
وطيارةٍ بالرحلِ خوفاً كأنها تصافح رضراضَ الحصى بالجماجمِ

المصدر السابق، 4/108.

([3]) المصدر السابق، 4/408. عانة: قطيع من حمر الوحش. **اللسان**، باب عون، مقزعة: السحاب المتفرق، وللفرس: السريع الخفيف. **اللسان**، باب قزع.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 3/105.

فقد شبّه المتنبي خيله بالبراق لشدّة سرعتها، أمّا مكذّبه فليحكم بعد رؤيته لهـا، ولكـي يزيدها جمالاً جعلها في جريها كأنّها تسبح وذلك دليل على سرعتها، وإن اعتلاها المتنبي أصبح مطاعاً ممن حوله وأحاط به رجال يستعذبون طعم الموت ويرونه كالشّهد، يقول:

إذا شِئتُ حَفَّتْ بـي عَلـى كُـلِّ سـابِحٍ رِجالٌ كَأَنَّ المَوتَ فـي فَمِهـا شَـهدُ[1]

وقد استخدم المتنبي لفظ الواحد في موقع الجمع عندما قال (في فمها). ثمّ جـاء بلفظـة الشّهد الّتي كانت أحلى من العسل، على أن العسل وردت في القرآن أحسن من الشّهد، وفي ذلك " لفظين يدلان على معنى واحد، إلا أنّه لا يحسن استعمال هذه في موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما، وهذا لا يُدركه إلا من دقّ فهمه." [2]

وحتّى أعداءه لا يركبون إلا كل فرس سريعة في جريها، ولكـنّ الشّـاعر وممدوحـة يغنمونها، ولا يلبثوا أن يقتلوا الخيل أيضاً؛ لأنّهم يهلكونها بكثرة الرّكض في الغارات، أو لأنّهم ينحرونها للأضياف، يقول:

يُعْجِبُهَـا قَتْلُهَـا الكُمَـاةَ ولا يُنْظِرُهَـا الـدَّهرُ بعـدَ قتلاهـا[3]

فالمتنبي فارس يعشق خيله ويفخر بامتلاكه، فذكر صفاته الّتي تجعله في نظره أفضـل الخيول، فهو رحب الصّدر والإهاب، وواسع الخطوات، وسريع الجري، وإن حـاول الفـارس جذبه ليخفف سرعته، جذب الفرس لجامه ووثب وطغى حتّى يرخيه، يقول:

لَـهُ فَضْـلَةٌ عَـنْ جِسْـمِهِ فـي إهَابِـهِ تَجـيءُ علـى صَـدْرٍ رَحيـبٍ وَتـذهَبُ
شَـقَقْتُ بـهِ الظّلْمـاءَ أُدْنـي عِنَانَـهُ فيَطْغَـى وَأُرْخيـهِ مـراراً فيَلْعَـبُ[4]

وهذه كناية عن شدّة النّشاط والمرح والقوة الطّاغية، والجلد الواسع كنايـة عـن شـدّة الجرْي؛ لأنّ سعة الخطوة على قدر سعة الإهاب [5].

([1]) المتنبي: **الديوان**، 92/2.

([2]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 247.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 409/4.

([4]) المصدر السابق، 303/1.

([5]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، 165.

الخيل الطويلة

المتنبي فخور بخيله الّتي تملك قوائم طويلة ممّا يزيدها رهبة وعلواً، فتمكّن فارسها من ضرب هامات العدا للوصول إلى المجد والفخار، يقول:

ضارِبُ الهَـامِ فـي الغُبـارِ ومـا يَـرْ هَـبُ أن يَشـرَبَ الـذي هـوَ سـاقي
فَـوْقَ شَـقّاءَ للأشَـقِّ مَجَـالٌ بَـينَ أرْسـاغِها وبَـينَ الصِّـفَاق[1]

فصفة طول قوائم الخيل أو طول أعناقها، كانت دائماً دلالة على العتق والكرم، فخيل المتنبي كريمة من جهة أبيها وأمها، وكذلك طويلة العنق، دقيقة عند أعلى الحلق حتّى لو أراد تطويق عنقها بأصابعه لأمكنه ذلك، يقول:

يَحُـكّ أنّـى شَـاءَ حَـكَّ الباشِـق قُوبـلَ مِـنْ آفِقَـةٍ وآفِـق
بَـينَ عِتـاق الخَيْـلِ والعَتـائِق فعُنْقُـهُ يُرْبِـي علـى البَواسِـق
وحَلْقُـهُ يُمْكِـنُ فِتْـرَ الخـانِق أُعِـدُّهُ للطّعْـنِ فـي الفَيـالِق[2]

فقد شبّه فرسه بالباشق الذي يستطيع أن يحكّ أي موضع في جسمه، إنّما أراد المتنبي أنّ فرسه ليّن المعاطف ثم جعل طول عنق فرسه يزيد على النخلّ الطّوال[3]، وأرى أنّه جعله أقرب أقرب إلى الزّرافة منه إلى الخيل، ولكنّ الصّورة جميلة وتشتمل على بعض المبالغة.

وقد يبدو العنان محلولاً إذا رفعت رأسها، لأنّه على قدر طول عنقها، يقول:

تَنْـدى سَـوَالفُها إذا اسْتَحْضَـرْتَها ويُظَـنَّ عقـدُ عِنانِهـا مَحْلولَـا[4]

وقد تجاذب الفرسان أعنّتها، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 104/3.

([2]) المصدر السابق، 97/3. الباشق: اسم طائر أعجمي معرّب. **اللسان**، باب بشق، الآفق من الخيل: الكريم الطرفين. **اللسان**، باب أفق. البواسق: باسقة، النخلة العالية. **اللسان**، باب بستق، فتر: ما بين السبابة والإبهام. **اللسان**، باب فتر. الفيالق: الكتائب من الجيش. **اللسان**، باب فلق، وقال قائل في طول أعناق الخيل

وهاديها كأن جذعٌ سحوقُ.

المتنبي: **الديوان**، 97/3.

([3]) المصدر السابق، 97/3.

([4]) المصدر السابق، 358/3.

تُجـــاذِبُ فُرْسَـــانَ الصَّـــبَاحِ أعِنَّـــةً كـــأنَّ علـــى الأعْنَـــاق منهـــا أفاعيـــا[1]

فقد شبّه الأعنة لطولها بالحيّات.

وإن عاد الفارس بعد استراحةٍ تلت طراد شديد لوحش كاسر، وجد فرسه كما تركها، ولم يدركها تعب، ولم ينقص نشاطها ومرحها شيء، يقول:

وَأصـــرَعُ أيّ الـــوَحشِ قفّيْتُـــهُ بِـــهِ وَأنْـــزِلُ عنْـــهُ مِثْلَـــهُ حـــينَ أرْكَـــبُ[2]

فشاعرنا مستميتٌ في طلب الأعداء حتّى أصبح هو وفرسه ضـــوامراً شـــرابها الـــدّم، وطعامها لحم العدا، يقول:

علـــى كُـــلِّ طَـــاوٍ تَحْـــتَ طَـــاوٍ كأنَّـــهُ مِنَ الدَّمِ يُسْقَى أو مـــن اللّحـــمِ يُطْعَـــمُ[3]

كشف البيت عن علاقة تلازميّة بين الفارس والفرس، وذلك رمز لسعيهما معـــاً نحـــو معالي الأمور، والغايات النّبيلة [4]. وإن كان المتنبي يفخر بشجاعته ونصـــره المتكـــرر علـــى أعدائه، فإنني أرى في الصّورة مبالغة غير مستحبة، فقد جعل لحوم الأعداء ودمـــاءهم غـــذاءً يعيش به، فجعل نفسه مهوساً بالحرب والقتل بشكل جنونيّ، وما يشفع له أنّه جاء بها ليوحي لنا بقوة خيله التي تستطيع مواجهة أقوى البلاد، فإن واجهه يوماً سورٌ هدمته، وكان ذلـــك عنـــدها هيّن، يقول:

ولَـــو زَحمَتهـــا بِالمَناكِـــبِ زَحمَـــةً دَرَتْ أَيُّ سورَيْهَا الضَّـــعِيفُ المُهَـــدَّمُ[5]

فقد استعار المتنبي لقوّة الخيل سوراً لأنّه ذكرها مع البلدة وجمعها في المزاحمة، فسور البلدة ضعيف لا يقوى على دفع خيل سيف الدّولة عنها، ولا يحمي سكانها.

([1]) فرسان الصباح: " قصد بها فرسان الغارة، وذلك لأنّ الغارة تقع عادة وقت الصبح، أغفل ما يكـــون النـــاس، فصـــار الصباح اسماً للغارة ". المتنبي: **الديوان**، 4/422 – 423.

([2]) المصدر السابق، 1 /303.

([3]) المصدر السابق، 4/77.

([4]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 165 – 166.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 4/77.

الخيل ومظاهر الطبيعة

أراد المتنبي حرباً، ركب خيله السريعة وانطلق بها يسابق الصبح إليهم فيأتيهم قبل أن ينبثق الضوء، فلا يستطيعون الاتّقاء منها لأنّهم لا يشعرون بها إلا وقد دهمتهم، يقول:

إذا ارتَقَبوا صُبحًا رَأَوا قَبلَ ضَوئه كَتائِبَ لا يُردِ الصَّباحُ كَما تَرْدِي
وَمَبثوثَةً لا تُتَّقى بِطَليعَةٍ وَلا يُحتَمى مِنها بِغَورٍ وَلا نَجدِ[1]

أظهر الشّاعر سرعة خيله الخياليّة الّتي مكّنته من أعدائه.

فسيف الدّولة لا يبالي بشيء، كالبحر الهائج، حتّى في الأرض الواسعة الّتي يتلاشى فيها السّير لطولها، وتملأ ما بين قوائم الخيل عدواً، يظهر بارزاً شامخاً بهيبته المعتادة، يقول:

عرفتكَ والصُّفوف مُعَبَّآتٌ وأنتَ بغير سيفك لا تَعيجُ
ووجهُ البحرِ يُعْرَفُ من بعيدٍ إذا يسجو فكيف إذا يموجُ
بأرضٍ تَهْلِكُ الأشواط فيها إذا مُلِئَتْ من الرَّكض الفُرُوجُ[2]

فهي مصدر سعادته عندما يخوض حرباً لأنّها تعينه على توارد الغمرات، تميل مع الرّماح كيفما اتّجهت للين مفاصلها، يقول:

وَتُسعِدُني في غَمرَةٍ بَعدَ غَمرَةٍ سبوحٌ لَها مِنها عَليها شَواهِدُ
تَثَنّى عَلى قَدرِ الطِّعانِ كَأَنَّما مَفاصِلُها تَحتَ الرِّماحِ مَراوِدُ[3]

"شبّه مفاصلها في سرعة استعداداتها بمسمار المرود يدور في حلقته، كيفما أديرت"، وكرر المتنبي الضمائر(لها منها عليها) ويعدّ تكرارها من أساليب المتصوّفة؛ " لاعتمادهم في أشعارهم على فكرة الحلول وما يتفرّع عنها من الملابسة والتجريد" [4]، أمّا ألفاظه فشديدة الصّلة الصّلة بأوصاف الغزل، كالتّثني ولين المفاصل والمراود[5].

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 169/2.

([2]) المصدر السابق، 360/1-361.

([3]) المصدر السابق، 393/1.

([4]) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص 318.

([5]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص 220.

وفي تأكيد المتنبي على سرعة خيله، جعلها تترك آثاراً قوية شبّهها مرةً بآثار الحلي إذا قُلِع من المناطق ومرةً ثانيةً بالخنادق، يقول:

لــوْ ســابَقَ الشّــمسَ مــن المَشــارِقِ جــاءَ إلــى الغَــرْبِ مَجــيءَ السّــابِقِ
يَتْــرُكُ فــي حِجــارَةِ الأبــارِقِ آثَــارَ قَلْــعِ الحَلْــيِ فــي المَنــاطِقِ
مَشْــياً وإنْ يَعْــدُ فكالخَنــادِقِ
لَــوْ أُوردَتْ غِــبَّ سَــحابٍ صــادِقِ لأحْسَــبَتْ خَــوامِسَ الأيــانِقِ[1]

ثم أكمل الصّورة ليدل على عمق الحوافر وعظم آثارها وهي تعدو، فلو نزل مطر من سحاب صادق لكان فيها من الماء ما يكفي نياقاً عطاشاً ترد الخِمس، وفي ذلك مبالغة شديدة[2].

وقد نحت المتنبي صورته من الصّخر، فألفاظه مستقاة من البيئة الصّحراوية البدوية الجافّة[3].

فالمتنبي فخور بامتلاك فرس مكنته من إدراك عدوّه الذي لم يكن له هدف سوى إهلاكه، فلمّا ركب فرسه كان آمناً لم يستطع أحد اللحاق به أو حتّى الدّنوّ منه، حتّى أهلك هو مطارده، يقول:

وَمُهجَــةٍ مُهجَتــي مِــن هَــمِّ صــاحِبِها أَدرَكْتُهــا بِجَــوادٍ ظَهــرُهُ حَــرَمُ[4]

ومن جهة أخرى يفخر بعظم جسم فرسه، فيقول:

جَــرْداءَ مِــلْءِ الحِــزامِ مُجْفِــرَةٍ تكــونُ مِثْلَــيْ عَســيبِها الخُصَــلُ
إنْ أدْبَــرَتْ قُلْــتَ لا تَليــلَ لهــا أو أقبَلَــتْ قلــتَ مــا لهــا كَفَــلُ[5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 94/3. الأبارق: غِلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة. **اللسان**، باب برق، المناطق: جمع منطقة، ما يشد به الوسط. **اللسان**، باب نطق، أحسبت: كَفَت. **اللسان**، باب حسب، الخوامس. الإبل الّتي ترد الخمس وهو أن ترعي ثلاثة أيام وترد في اليوم الرابع. **اللسان**، باب خمس.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 94/3-95.

([3]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 172.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 85/4.

([5]) المصدر السابق، 330/3.

فهي قليلة الشَّعْر، واسعة الجبين، عظيمة الذّنب، مشرفة الكفل، عريضة الصّدر[1]، وكل وكل هذه الصفات تزيدها رهبة وهيبة تخيف الأعداء. وما زالت العرب تبحث عن خيل تمتلك هذه الصّفات من خلال مسابقات جمال الخيول الأصيلة.

حكمة الخيل

أحبَّ المتنبي الفروسيّة والسّفر واعتاد عليهما، وإن أطال اللّبث والقعود عن السّفر أضر ذلك بجسمه، كالفرس الجواد يضر بجسمه طول القيام في المرابط، فقد تعوّد أن يخرج من حرب ليدخل إلى أخرى، يقول:

يَقُولُ لِيَ الطّبِيبُ أكَلْتَ شَيئاً وَداؤكَ فِي شَرَابِكَ وَالطّعَامِ
ومَا فِي طِبّهِ أنّي جَوَادٌ أضَرَّ بجِسْمِهِ طُولُ الجِمَامِ
تَعَوّدَ أنْ يُغَبِّرَ فِي السّرَايَا وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ
فأُمْسِكَ لا يُطَالُ لَهُ فيَرْعَى وَلا هُوَ فِي العَلِيقِ وَلا اللِّجَامِ[2]

فشبّه نفسه بجواد مقيّد، لا يرخى حبله فيرعى، ولا يعتلف من المخلاة، ولا هو في اللّجام؛ وذلك لأنّه حليف الفراش ممنوع من الحركة بسبب مرضه. [3] لعلّه أفاد من قول ابن الرّومي:

عدوّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصّحاب
فإنّ الدّاء أكثر ما تراه يكون من الطّعام أو الشّراب

وتعلّقه هذا قد تسبّب له بمشاكل عدّة وزاد من حقد الحسّاد عليه، فالكثرة تماثل النّقصان.

وقد قيل: (من طلب العلا سهر الليالي)، فمن أراد الوصول إلى ما يريد، فهناك طريق واحد لدى المتنبي وهو السّلاح، والخروج لملاقاة العدوّ على خيل عربية أصيلة، فهكذا يلفت نظر الملوك إليه، ويهتك الحجاب بينه وبينهم، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 330/3.
([2]) المصدر السابق، 279/4.
([3]) المصدر السابق، 279/4.

وَإنّ حـــــدّ الصّـــــارِمِ القِرْضـــــابَا وَالـــــذّابِلاتِ السُّـــــمرَ والعَرابَـــــا
يَرْفَـــعُ فيمَـــا بَيْنَنـــا الحِجَابَـــا[1]

وهنا يكشف عن طموح المتنبي وأمّاله الكبار في نيل منزلة متميزة [2] وما يعتمل فـي قلبه من المرارة والضّغينة تجاه من يحاولون الإفساد بينه وبين ممدوحه.[3]

أكد الشّاعر أنّ "مركوب الفارس للفرس السّابحة هو أعز مكان لأنّـه يُمتطـى لطلـب المعالي أو محاربة الأعداء لدفع شرّهم، أو للهرب من الضّيم واحتمال الذل، وكذلك الكتاب هـو خير جليس لأنّه مأمون الجانب فلا أذى ولا شر"، يقول:

أعَزُّ مَكانٍ فـي الـدُّنَى سَـرْجُ سـابحٍ وَخَيـرُ جَلـيسٍ فـي الزّمـانِ كِتـابُ[4]

فعدل الشّاعر بين العلم والفروسيّة ووضعهما في موضع واحد، دلـيلاً علـى المكانـة العظيمة لكل منهما[5]. وقد كشف المتنبي عن ثقافته الواسعة باستخدامه لأحد الجمـوع الغريبـة (الدّنى)[6]

ثانياً: الصّورة القائمة على اللون

كان للّون أثر قوي في صورة الخيل عند المتنبي، أظهر فيها تميّز خيله وكرمهـا عـن غيرها، ولمّا كان المتنبي فارساً محارباً، برز في صوره اللّون الأبيض والأسود والأحمر أكثـر من غيرها، لارتباط هذه الألوان بالحرب والقتال.

اللّونان الأبيض والأسود

كثيراً ما تفاخر المتنبي بوصوله الموَفق للأعداء بمساعدة خيله الّتي أهلكت خيل العدوّ، حتّى ذلّتها وجعلتها تُقبّل غرر الجياد الّتي أوصلتهم إلى الأعداء وشفت صدورهم منها، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 233/1. القرضاب: القطّاع. **اللسان**، باب قرضب.
([2]) المتنبي: **الديوان**، 233/1.
([3]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 92.
([4]) المتنبي: **الديوان**، 319/1.
([5]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 150.
([6]) الثعالبي، **أبو منصور: يتيمة الدهر**، 175/1. ينظر: البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 369.

أَقْبَلْتُهـــا غُـــرَرَ الجِيَـــادِ كأنَّمـــا أيْـدِي بنـــي عِمـــرانَ فـــي جَبَهاتِهَـا[1]

فشبّه بياض غرر الجياد بنعم الممدوحين وأيديهم، فيدُ النّعمة توصف بالبياض مجـازاً، وفي البيت حسن تخلص[2]. وإنْ كان أراد بالأيادي النّعم فهو مدح، وإن كان من بـاب تشـبيه العَرض بالجوهر" [3] وقد أراد الشّاعر خيله، ثمّ خيل الممدوحين، فالجياد اسم جنس تعمّ الخيلين الخيلين جميعاً[4].

وهكذا فإنّ الخيل معينة دائماً في الحرب، فتحيط ببلاد العدوّ حتّى ابيضَّتْ الـبلاد مـن الأسرى الذين ساقهم فارسها من الجواري والغلمان، يقول:

عصَـفنَ بهـم يـوم اللُّقَـانِ وسُـقْنَهُم بِهِنْريطَ حتّـى ابـيَضَّ بالسَّـبْي آمِـدُ[5]

وهذا كناية عن تحقيق فوز ساحق، وغنائم كثيرة، وسبي وفير.

وفي صورة قريبة، شبّه سواد خيله بقطعة من اللّيل والغرّة البيضاء في وجهه بكوكـب من كواكب اللّيل قد بقي بين عينيه، يقول:

وَعَيْنـــي إلـــى أُذْنَـــي أغَـــرَّ كَأنّـــهُ منَ اللّيْلِ بـاقٍ بَـينَ عَيْنَيْـهِ كوْكـبُ[6]

فجعل أذن الفرس تقوم مقام العين، ففي الظّلام لا يستطيع أن يرى شيئاً إلا أذني فرسه، الذي إن توجس بشيء رفع أذنيه، فاحتاط الفارس وتأهّب للمواجهة، وهذا معنى لطيف رشيق[7]، رشيق[7]، فكانت القدرة السّمعية لخيله خير سلاح عنده في مثل ذلك الموقـف. وقـد تـداخلت الصورة اللّونية مع الصّورة القائمة على الحواس بشكل متكامل وجميل.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 350/1.

([2]) المصدر السابق، 350/1.

([3]) ابن نباتة، جمال الدين: **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، ص 331.

([4]) المصدر السابق، ص 332.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 397/1.

([6]) المصدر السابق، 303/1. وهذا من قول أبي داود:

ولَهـــا جَبْهـــةٌ تـــلألأ كالشـــعرى أضـــاءتْ وغُـــمّ منهـــا النجـــوم

المصدر السابق، 303/1.

([7]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 232/1 – 234.

حكمة الخيل

وكما قال المتنبي سابقاً (وأعز مكان في الدنى سرج سابح) [1]، عاد وأكّد على قوله ذلك ذلك بأن قال:

وَمـــا الخَيـــلُ إلاّ كالصّـــديق قَليلَـــةٌ وَإنْ كَثُرَتْ فـــي عَـــينِ مَـــن لا يُجَـــرِّبُ
إذا لـــم تُشـــاهِدْ غَيـــرَ حُســـنِ شِـــياتِهَا وَأعْضَـــائِهَا فالحُسْـــنُ عَنـــكَ مُغَيَّـــبُ[2]

فشبّه الخيل الأصيلة بالصّديق الوفيّ لقلّتها عند التّجربة، وكثرتها في عين من لم يجرب، فمن لا يرى سوى الألوان وجمالها ليحكم على عتق الخيل فهو مخطئ، فإنّ مزايا الخيل لا تكمن في لون إنّما تبرز في جريها وطبعها. وقد يعكس هذا التّشبيه " معاناة الشّاعر النّفسية، ويكنـــي عن توتره الحادّ من خلال فقده للصّديق الأمثل الذي ينشده، وخيبة أمله في أصدقائه "[3].

اللون الأصفر

أكدّ المتنبي استجابته لدعوة ممدوحه يوم الحرب بسيفه وفرسه الأشقر، يقول:

أتَـــــاني رَسُـــــولُكَ مُسْـــــتَعْجِلاً فَلَبّـــــاهُ شِـــــعْرِي الـــــذي أذْخَـــــرُ
ولَـــوْ كـــانَ يَـــوْمَ وَغًـــى قاتِمـــاً لَلَبّـــاهُ سَـــيْفِيَ وَالأشْـــقَرُ[4]

وهو يتوعد أعداءه بتغير ألوان وجوه خيلهم ويتركها ساهمة ويشعل الحـــرب ويتركهـــا قائمة كانتصاب السّاق على القدم لشدّتها، والطعن يعمل في الخيل عمل النّـــار، كأنّـــه يحرقهـــا ويحركها كأنّ بها جنوناً؛ لاضطرابها و لما يلحقها من الآلام والخوف فلا تستقر على حـــال ولا تثبت في موضع، يقول:

لأتـــرُكَنّ وُجـــوهَ الخَيْـــلِ ســـاهِمَةً وَالحرْبُ أقوَمُ مِـــن ســـاقٍ علـــى قَـــدَمِ

([1]) المتنبي: **الديوان**، 319/1.
([2]) المصدر السابق، 304/1
([3]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 164.
([4]) المتنبي: **الديوان**، 196/2. وهذا البيت مأخوذ من قول البحتري:
جعلـــتُ لســـاني دونهـــم ولـــو أنهـــم أهـــابوا بســـيف كـــان أســـرَعَ مَـــنْ طَرْفـــي
المصدر السابق، 196/2

والطّعْــنُ يُحرِقُهــا وَالزّجــرُ يُقلِقُهــا حتّــى كــأنّ بهــا ضَــرْباً مِــنَ اللَّمَــمِ
قَــد كَلّمَتْهــا العَــوالي فَهْــيَ كالحَــةٌ كأنّما الصّابُ مَعْصــوبٌ علــى اللُّجُــمِ[1]

وهذا تهديد لا يصدر إلا عن فارس واثق بقدرته على تنفيذه، فيترك خيلهم عابسة فاتحة أفواهها لشدّة ما أصابها من الجراح، فشبّهها بمن شعر بمرار الصّاب في فمه [2].

والمتنبي ملازم لممدوحه، لا يتركه، ويتأثّر بما يصيبه، "فلكثرة أسفار ممدوحــه وبُعْــد غزواته، فإنّه يمرّ بأمكنة مختلف ترابها، فيثير بخيله نقع كل مكان. فتختلف ألوان غباره حتّــى تلون خيله كخطوط البرد، منها الأسود، ومنها الأحمر والأبيض والأصفر، وهذا معنى حســن"، يقول:

حَثَــتْ كــلُّ أرْضٍ تُرْبَــةً فــي غُبَــارِهِ فَهُــنّ عَلَيْــهِ كــالطّرَائِق فــي البُــرْدِ[3]

فالصّورة غنية بالألوان الّتي تزيدها جمالاً وتناسقاً يغذي الخيال بلوحة فنية رائعة.

ثالثاً: الصّورة القائمة على الحواس

استخدم المتنبي الحواس وعملها ليفخر بنفسه أو خيله الّتي تتمتع بقدرة السّمع أو النّظــر أو ذات الصوت الذي يبيّن أصلها وكرمها.

صوت الخيل

تباهى المتنبي بشِعره وعدّه أفضل من شعر غيره، وسخر من الشّعراء بصــورة زادت من عدد خصومه، يقول مادحاً أبا العشائر:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 158/4. اللمم: الجنون. كلمتها: جرحتها. **اللســان**، باب كلم. الصّاب: شجر اذا اعتصر خرج منــه كهيئة اللبن وقطرة منه تقع في معين كأنها شهاب نار، وربما أضعف البصر. **اللسان**، باب صوب. ومثله قول البحتري في وصف فرس: وتطنُّ ريعانَ الشباب يَرُوْعُهُ من نشوة أو جنّة أو أفكل. فجمع البحتي أوصاف متقاربة لــم تحصــل لأبــي الطيب غير صفة واحدة، فكلام البحتري أجود. التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 235 – 236.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 158/4.

([3]) المصدر السابق، 170/2. حثت: فرس محثّة: إذا جاءها جري بعد جري. **اللسان**، باب حثث، الطرائــق: الخطــوط. **اللسان**، باب طرق، البرد: الثوب المخطط. **اللسان**، باب برد.

لـــــم تَـــــزَلْ تَســـــمَعُ المَـــــديحَ ولكِنّ صَـــهيلَ الجيـــادِ غَيـــرُ النَّهـــاق[1]

شبّه ما يقوله من الشِّعْر بصهيل الجياد، وما يقوله الشُّعراء بنهيق الحمار، وهذه صورة تثير ضحك المتلقّي، غضب الشّعراء المقصودين، ولا يخفى ما في البيت من غـــرور المتنبـــي وإعجابه الزائد بنفسه، فاحتمل البيت وجهان: الفخر بنفسه، وهجاء غيره.

ثم تراه يتفاخر بفرسه ذي النّاهق الواسع العاري من اللّحم، يقول:

إذا اللّجـــــامُ جـــــاءَهُ لطـــــارِق شَـــحَا لَـــهُ شَـــحْوَ الغُـــرابِ النّـــاعِق
كأنّمـــــا الجِلْـــــدُ لعُـــــرْيِ النّـــــاهِق مُنْحَـــــدِرٌ عَـــــنْ سِـــــيَتَيْ جُلاهِـــــق[2]

شبّه الخيل عند فتح فمها بالغراب الذي يفتح فمه للنّعيق، وقصد أنّها لا تمنع اللجام كناية عن طاعتها لفارسها. وجعل العظمتان العاريتان من اللّحم باديتان كأنّ جلدهما مشدود على سيتي قوس البندق[3]. ويرى الأزدي أنّ المتنبي "أراد رقّة الخد وملاسته وخلوّه من اللّحم، وذلك مـــن علامات العتق"[4]

حاسة السمع

أحسن المتنبي في اختيار فرسه، فهي شجاعة تواجه الموت بجدٍ وإسراع وقـــد جعلهـــا الشّاعر صُمّاً لا تسمع شيئاً يشغلها عن الإسراع نحو الموت في أرض الوغى، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 110/3. ولعل ينظر إلى قول خداش بن زهير:

ولَـــنْ أَكُـــونَ كمَـــنْ أَلْقَـــى رِحالَتُـــهُ عَلـــى الحِمـــارِ وخَلَّـــى منســـجَ الفَـــرَسِ

المصدر السابق، 3/ 110.

وقيل اخذه من قول أبي القاسم الزعفراني ولطّفه جداً، فقال:

وتُغَنِّيـــك فـــي النـــداء طيـــورٌ أنـــا وحـــدي مـــا بيـــنهن الهَـــزَار

الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 148/1.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 95/3. سيتاً: جانبا. **اللسان**، باب سوا. الجلاهق: الطين المُدوَّر المُدَمْلَق. **اللســان**، بـــاب جهلـــق، الناهق: عظمان شاخصان في وجه الفرس أسفل من عينيه، ويخرج منهما النهاق (الصوت). **اللسان**، باب نهق.

ولعله ينظر في قول النابغة الجعدي في وصف فرس:

بعـــاري النواهـــق ، صَـــلْتِ الجَبـــينِ يَســـتَنُّ كـــالّتيسِ فـــي الحُلـــبِ

المتنبي: **الديوان**، 95/3

([3]) المصدر السابق، 95/3-96.

([4]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 140.

وَتَلْقَـــى نَوَاصِـــيها المَنَايَـــا مُشِـــيحَةً وُرُودَ قَطاً صُـــمٍّ تَشَـــايَحْنَ فـــي وِرْدِ[1]

شبّه الخيل في إسراعها نحو الموت في الحرب بالقطا الّتي ترد المـــاء مســـرعة فـــي الورود.[2]

فخيله لا تبالي أبداً بالموت، وبالطّبع شجاعة الفرس من الفارس، وكأنّه يتفـــاخر بنفســـه وشجاعته.

وليدل على سرعة خيله وحدّته في الجريان جعله يسابق صوت الصّـــارخ إلـــى الأذن فيسبقه، يقول:

كأنّـــهُ فـــي رَيْـــدِ طَـــوْدٍ شـــاهِق يَشأَى إلى المِســـمَعِ صَـــوْتَ النّـــاطق[3]

وقصد أنّه يسبق إلى مصدر الصّوت، ولِعِظَمه كأن فارسه على جبل عالٍ، وهذه صورة متقنة جميلة بتشبيهاتها وألفاظها القوية الّتي خدمت الصّورة، فخرجت كما أرادها المتنبي.

وحدّة الجري أخرجت صوتاً أشدّ من صوت الصّواعق، أمّا أذنيه فتميزتا بحدة السّـــمع، فإن أحسّ بشيء انتصبت أذناه، وشبّه أذني الفرس بأذني الأرنب بل جعلهما تزيدان فـــي الدّقّـــة والانتصاب على آذان الأرنب، يقول:

وزادَ فـــي الوَقْـــعِ علـــى الصّـــواعِق وزادَ فـــي الأُذْنِ علـــى الخَرانِـــق[4]

"وأذن الفرس يستحب فيها الدّقّة والانتصاب، وتُشبّه بطَرف القلم، وأذُن الأرانب علـــى الضّد من هذا الوصف "[5].

([1]) المتنبي: **الديوان**، 167/2. مشيحة: الجاد الحذر. **اللسان**، باب شيح، ورود: إتيان الماء. **اللسان**، باب ورد.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 167/2.

([3]) المصدر السابق، 94/3. رَيْد: حرف من حروف الجبل. **اللسان**، باب ريد، يشأى: يسبق. **اللسان**، باب شأي.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 96/3. الخرانق: جمع خرنق: ولد الأرنب. **اللسان**، باب خرنق.

([5]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 1/ 187.

حاسة النظر

اهتمّ المتنبي بحاسة النّظر الّتي وصفها المتنبي، وتفاخر بها في خيله، ولكنّ شاعرنا يفخر بنفسه أولاً، ويحذّر عدوه إن امتلأ نظرهم من منظره فويلٌ لهم، فسيصيبهم خوف لا يرون بعده الرّاحة والأمن في اليقظة، ولا يجدون اللّذة أو الاسترخاء في نومهم، يقول:

إذا امتَلأتْ عُيُونُ الخَيْلِ مِنّي فَوَيْلٌ في الّتيقُّظِ والمَنَامِ[1]

ولمّا كانت العين مرآة النفس، استخدمها المتنبي وسيلة يكشف بها عن طبيعة خيله النّشيطة، عزيزة النّفس، وبنفس الطريقة استخدمها ليكشف عن حالة الجيش الذي يغلي من الغضب، يقول:

وَالقَوْمُ في أعيانِهِمْ خَزَرٌ وَالخَيْلُ في أعيانِهَا قَبَلُ[2]

وفي محاولة المتنبي وضع الفرس في رتبة الإنسان جعلها تفهم مراد صاحبها من الإشارة والنّظر فتستجيب له بفعلها دون حاجة إلى سماع صوته أو كلامه، فهي عربية أصيلة مؤدبة بآداب الحرب والقتال، يقول:

كَأجْنَاسِهَا راياتُهَا وَشِعارُهَا وَمَا لَبِسَتْهُ وَالسّلاحُ المُسَمَّمُ
وَأدّبَهَا طُولُ القِتالِ فَطَرفُهُ يُشيرُ إلَيْهَا مِن بَعيدٍ فَتَفْهَمُ
تُجاوِبُهُ فِعْلاً وَما تَعْرِفُ الوَحي وَيُسْمِعُها لَحْظاً وما يَتَكَلّمُ[3]

فاستخدم الشّاعر لغة الإشارات، وحديث العيون بين الفرس والفارس، وهي لغة العشّاق، وهذا مما درج في شعر شعراء الغزل [4]

([1]) عيون الخيل: قصد بها عيون أصحاب الخيل. المتنبي: **الديوان**، 163/4.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 23/4. خزر: ضيق العين وصغرها،وقيل أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمؤخر عينيه. **اللسان**، باب خزر، أعيان: جمع عين. **اللسان**، باب عين، قبّل: أن تقبل إحدى العينين على الأخرى. وإنما تفعل ذلك لعزة نفسها. **اللسان**، باب قبل.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 76/4.

([4]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص 220.

الخيل في قصيدة الرثاء

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

"ليس بين الرّثاء والمدح فرق؛ إلا أنّه يخلط بالرّثاء شيء يدل على أنّ المقصود به ميت، وسبيل الرّثاء أن يكون ظاهر التّفجع، بين الحسرة، مخلوطاً بالتّلهّف والأسف والاستعظام"[1]

في حين نفى بعض النّقاد هذه المشاعر في رثاء أبي الطيب، وعدّه " أداء للواجب ونهوضاً بالحقّ، لا استجابة للعاطفة، ولا إعراباً عن الضّمير، فقد لجأ فيه إلى فنه وعقله أكثر مما صدر فيه عن قلبه وشعوره" [2]

حُزْن الخيل ومظاهر الطبيعة

وقد يكون في ذلك بعض الظّلم لرثاء المتنبي الذي تميّز بصدق العاطفة في بعض الأحيان، فقد بلغ الحزن مبلغه في قلبه على فقد الممدوح أو شعوره بالأسى وإحساسه مع الممدوح لفقد غالٍ على قلبه، وقد شاركته الخيل هذا الإحساس، يقول معزّياً سيف الدّولة على موت عبده يماك التركي:

لَئِنْ ظَهَرَتْ فِينَا عَلَيْهِ كآبَةٌ لقَدْ ظَهَرَتْ في حَدّ كُلّ قَضِيبِ
وَفي كُلِّ قَوْسٍ كلَّ يَوْمٍ تَنَاضُلٍ وَفي كلِّ طِرْفٍ كلَّ يَوْمِ رُكُوبِ[3]

فقد كان فارساً حسن الرّكوب للغارة والطّعان، فلا عجب أن تحزن عليه السّيوف والرّماح والخيول والفرسان، وفي صورة قريبة، ترى الخيل والسحاب تشتاق لفقيد سيف الدّولة وتزوره معه، يقول:

فزارَ الّتي زارَت بكَ الخَيلُ قَبرَها وَجَشّمَهُ الشّوقُ الذي تَتَجَشّمُ[4]

([1]) ابن رشيق: **العمدة**، 147/2.
([2]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 204.
([3]) المتنبي: **الديوان**، 176/1.
([4]) المصدر السابق، 74/4.

ولمّا كان المتنبي يجعل خيله تفهم دون حاجة لكلام، فإنّها تعلم أنّ (ميافارقين) تحتضن قبر والدة سيف الدّولة، فمالت عنها خشية أن تدوسها بحوافرها لو أنّها سارت بجانبها، يقول:

تَجانَفُ عَن ذاتِ اليَمينِ كَأَنّها تَرِقٌّ لِمَيّافارِقينَ وَتَرحَمُ[1]

يذكر الشّاعر القوّة المفرطة لخيله، وفهمها لقدسية هذا المكان عند فارسها، ومراعاتها لإحساسه.

المرثي الفارس

فمن كان فارساً يُنكر موته على غير سروج الخيل، بعد أن نالت منه الرّماح وضرب بسيفه رؤوس الأبطال، فيرثي أبا وائل تغلب بن حمدان، ابن عم سيف الدّولة قائلاً:

مِثْلُهُ أَنْكَرَ المَمَاتَ عَلى غَيرِ سُرُوجِ السّوابِحِ القُودِ
بَعْدَ عِثَارِ القَنَا بلَبَّتِهِ وَضَرْبِهِ أَرْؤُسَ الصّنَادِيدِ[2]

إن خرج المرثي في مطاردة عدوّ له، خرج على ظهر خيله، فيقترب أجله، وينقطع عمره، فكان المرثي ذا إرادة وعزيمة لا تردّ، يقول في رثاء محمد بن اسحاق التنوخي:

لم تَثْنَ في طَلَبٍ أعِنّةُ خَيْلِهِمْ إلاّ وعُمْرُ طَرِيدِها مَبْتُورُ[3]

وبهذه العزيمة، ملك الآباء الكرام مفاتيح الأرض، وانقادت لهم انقياد الدّابة الذّلول الّتي تمشي بغير مهماز، يقول يرثي آباء أبي بكر الروذياني الكاتب:

وَبِآبائِكَ الكِرامِ التَأَسّي وَالتَسَلّي عَمّن مَضى وَالتَّعازي
تَرَكوا الأَرضَ بَعدَما ذَلّلوها وَمَشَتْ تحتهم بلا مهماز[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 76/4.

([2]) المصدر السابق، 384/1.

ولعله تأثر بقول خالد بن الوليد عند احتضاره "ليس في جسدي موضع بر إلا دفيه طعنه أو ضربة أو رمية وها أنا ذا أموت موت البعير، فلا نامت أعين الجبناء. " المصدر السابق، 384/1.

([3]) المصدر السابق، 236/2-237.

([4]) المصدر السابق، 2/ 289 – 290.

فتذكّر الآباء الرّاحلين وما وصلوا إليه من أمجاد يهوّن علينا فقد من بعدهم، فتذكر بعض المصائب يخفف ما بعدها، وكأنّه يريد أن يقول أنّ ما جاء بعدهم لم ولن يصل إلى ما وصلوا إليه من المجد والمراتب العالية، ولكنّ الشّاعر يقلّل من قيمة إنجازات من يقدم لهم التّعازي بقوله ذلك.

الخيل الفقيدة

والمتنبي لا يغفر لعدوّه الذي قتل مهره (الطّخرور) وأمّه (الحِجْر)، فهو قاسٍ لا يعرف الرّحمة ويتوعد من قتلهما، ويؤكّد أنّه لن يبكي عليهما بل ستبكي السّيوف دماً من أعدائه عليهما، يقول:

ستَبكِي شَجوَها فَرَسي ومُهري صَفائحُ دمعُها ماءُ الجُسُومِ[1]

فتذكّره وقد تعذر عليه المرعى فقال:

كأنّما الطُّخرورُ بَاغِي آبقٍ يأكلُ من نبتٍ قصير لاصق
كقَشْرِكَ الحِبْرَ عن المَهَارِق أرُودُهُ منهُ بكَالشُّوذانِق[2]

كان يلتمّس العشب في كل مكان، وكأنّه صقر يلاحق هارباً لخفّته، وقد شبّهه في ذلك بمن يقشر الحبر عن الصّحائف [3].

وهذا تهديد يقطر حقداً وقسوة وألماً امتلأ بهما قلب الشّاعر، فمكانة الفرس عنده عالية فلا بدّ أن يحزن على فقدهما. إلّا أنّ "أثر الفجيعة ليس بالنفجار حزناً، إنّما قسماً على الثأر"[4].

حكمة الموت

وكثيراً ما ارتبط الموت بالحكمة، فالموت يجعل الإنسان يدرك أنّه لا مفر من الموت، فإن حضرت المنية فلا رادّ لها، لا خيل ولا سيوف ولا رماح وكثيراً ما يُعِدُّ المحاربون الأسلحة لبعضهم، ودفاعاً عن أنفسهم، ولكن أمام الموت لا ينفع أيٌّ من ذلك، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 245/4.

([2]) المصدر السابق، 92/3 –93.

([3]) المصدر السابق، 92/3.

([4])الجندي، إنعام: **المتنبي والثورة**، ط1، بيروت: دار الفكر العربي، 1992، ص107.

نعِـــــدٌ المَشـــــرَفِيّةَ وَالعَـــــوالي وَتَقتُلُنـــــا المَنـــــونُ بِـــــلا قِتـــــالِ
وَنَـــــرتَبِطُ السَـــــوابِقَ مُقرَبـــــاتٍ وَمـــا يُنجـــينَ مِـــن خَبَـــبِ اللَّيـــالي[1]

شبّه اللّيالي بالخيل الّتي تخبُّ وراء عدوها حتّى تدركه فتقتله، وقصد المتنبـــي باللّيـــالي العمر الذي يحاول بعضنا الهرب منه، فيوماً بعد يوماً، وليلةً بعد ليلةً سيكبر الإنسان ولا بـــدّ أن تأتيه المنية مهما حاول النّجاة، وقد شاع جوّ من الفلسفة واليأس الشّديد الذي يترافـــق والتّفكيـــر بالموت وعدم القدرة على النّجاة منه[2]. فضرب الشّاعر مثلاً للمرثي الذي كان فارساً من أسرع أسرع الفرسان في الطّعان، ولكنّ المنية كانت أسرع منه فأدركته، يقول:

قَـــدْ كـــان أســـرعَ فَـــارِسٍ فـــي طَعْنَـــةٍ فَرَســـاً ولكـــنَّ المَنِيَّـــةَ أسْـــرَعُ[3]

فلو كان الموت طعناً وقتالاً ومنازلة لواجهه المتنبي بشجاعته وبخيله وسلاحه، ولاقتحم الموت بعزّ وشموخ، فيعزي سيف الدّولة بوفاة أخته، فيقول:

لـــو يكـــون الـــذي وَرَدْتَ مـــن الفَجْـــ ـــعَةِ طَعنـــاً أوْرَدْتَـــهُ الخَيـــلَ قُـــبْلا[4]

ويكشف المتنبي عن شجاعة كبيرة وامتلاكه قلب فارس مغوار. ضمّن المتنبـــي رثـــاءه بمدح للأمير، لعلّه ينال رضاه، إلّا أنّ ذلك يُفسد الرثاء؛ لأنّه خالٍ من الحزن والألم[5].

وبعد أن فارق المتنبي سيف الدّولة نعاه بعض القوم في مجلسه، فناداهم المتنبي بصوت الحكمة مرةَ أخرى مذكراً إياهم أنّ الموت حق على الجميع، وأنّ كل أمر مرتهن بالموت، فـــلا يفرح أحد بنعي أحد، يقول:

يـــا مَـــن نُعيـــتُ عَلـــى بُعـــدٍ بِمَجلِسِـــهِ كُـــلٌّ بِـــما زَعَـــمَ النـــاعونَ مُـــرتَهَنُ[6]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 140/3.
([2]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 205.
([3]) المتنبي: **الديوان**، 21/3.
([4]) المصدر السابق، 248/3
([5]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 205.
([6]) المتنبي: **الديوان**، 365/4 –366.

محاسن المرثي

لم يغب عن المتنبي أنّ الرثاء غرض يذكر فيه محاسن الميت، فذكر محاسن والدة سيف الدّولة الّتي كانت معطاءةَ سخيةَ، ثم دعا له بسحاب يسقي قبرها بمطر غزير يقشر الأرض لشدّة انصبابه، يقول:

سَــقى مَثــواكِ غَــادٍ فــي الغَــوادِي نَظيــرُ نَــوالِ كَفّــكِ فــي النَــوالِ
لســاحيهِ عَلــى الأَجــداثِ حَفــشٌ كَأَيــدي الخَيــلِ أَبصَــرَتِ المَخــالي[1]

شبّه حفر المطر للأرض بالخيل الّتي تحفر الأرض بقوائمها إذا أرادت مخالي الشّعير، "قال الواحدي: وليس هذا من مختار الكلام ولا من المستحسن أن يسأل السقي لقبر بمطر يحفر حفر أيدي الخيل. وقال ابن جني: الغرض من الدّعاء للقبور بالغيث الإنبات وما يدعو النّاس إلى الحلول والإقامة وهو مذهب العرب... وكلّما اشتدّ المطر كان أجمّ لنباته وأمرح له" [2] أمّا ألفاظه فتخيّر فيه الغريب الوحشيّ، والشّاذ البدوي كقوله (السّاحي، وحفش)، وربما زاد في كلامه عن المتقدمين، فتعرّض لاعتراض الطّاعنين [3].

أصيبت الخيل بخيبة أمل قوية؛ لأنّها انتظرته ليركبها، ولكنّه تركها تتحسر على موته، كما تركهم قبلها، يقول:

وَقَــدْ مَــدَّتِ الخَيْــلُ العِتَــاقُ عُيونَهــا إلى وَقْتِ تَبْديلِ الرِّكَــابِ مِــنَ النَّعْــلِ[4]

ومن الملاحظ صدق العاطفة والحزن الحقيقي على فقد المرثي، وهذا ما يدل على مكانته العالية وقيمته في القلوب، وصفاته الحسنة، ومعاملته الجيدة لكل من كان حوله من إنسان أو حيوان.

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 145/3. ساحي: سال من فوق واشتدّ انصبابه. **اللسان**، باب سحح، جفش: للفرس: الجري بعده جري، فلم يزده إلا جودة. **اللسان**، باب حفش.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 146/3.

([3]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 173/1 – 174. ينظر: البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 367.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 176/3.

وقد عاب بعض النّقاد قوله " إذ كانت الخيل لها عيون في الحقيقة " ويرد عليهم قول ابن جني: " الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة، وإلا فهي حقيقة "[1]، وقد تميّز المرثي بالعطاء والكرم، فما كان يجمعه من الأموال كان يفرّقه على المحتاجين، فلمّا مات لم يكن عنده سوى المكارم والأسلحة والخيل القوية، يقول في أبي شجاع فاتك:

كُنّا نَظُنُّ دِيارَهُ مَملوءَةً ذَهَباً فَماتَ وَكُلُّ دارٍ بَلقَعُ
وَإِذا المَكارِمُ وَالصَّوارِمُ وَالقَنا وَبَناتُ أَعوَجَ كُلُّ شَيءٍ يَجمَعُ[2]

وبرحيل مرثيه تغيرت الأحوال، فقد تصالحت الخيل مع السّياط؛ لأنّه كان يضرب بها خيله ليشتدَّ عدْوُها خلف عَدُوِّها أو استجابة لمستغيث، ثم عادت إليها سيقانها وأذرعها؛ لأنّها من شدّة الجري وكثرته وكأنَّها كانت ترميها بعيداً عنها، يقول:

وَتَصالَحَتْ ثَمَرُ السِّياطِ وَخَيلُهُ وَأَوَت إِلَيها سُوقُها وَالأَذْرُعُ[3]

وهذه استعارة حسنة، جعل فيها صلحاً يسود بين الخيل والسِّياط التي كانت تعذّبها[4]، وهذا أمر محزن، فما عادت هناك حماسه ولا نشاط ولا همّة.

ثانيا: الصّورة القائمة على اللون

اللون الأحمر

حملت الصّورة اللّونية اللّون المرافق للموت والرّثاء وهو اللّون الأحمر، فالمتنبي يعزي سيف الدّولة بعبده (يماك) الذي مات وهو يفتك بعدوه، وقد بلّ نحور الخيل بالدّماء فيدعو المتنبي لهما بجزيل الثّواب من الله العلي القدير، يقول:

فَعُوّضَ سَيْفُ الدّوْلَةِ الأَجْرُ إنَّهُ أَجَلَّ مُثَابٍ مِنْ أَجَلِّ مُثِيبِ
فَتى الخَيلِ قَدْ بَلّ النّجيعُ نحورَها يُطاعِنُ فِي ضَنْكِ المُقامِ عَصِيبِ[5]

([1]) ابن رشيق: **العمدة**، 270/1.
([2]) المتنبي: **الديوان**، 14/3.
([3]) المصدر السابق، 20/3.
([4]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 118.
([5]) المتنبي: **الديوان**، 178/1-179.

الخيل في قصيدة الهجاء

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

حقق المتنبي لنفسه مكانةً مرموقةً في فنيْ المديح والفخر، واستطاع أن يحقّق موقعاً مشابهاً في فن الهجاء، فقد اتّسم شِعْره الهجائيّ بالقبح والبشاعة، وانتشر بين كلماته الحدّة والبذاءة، فكان المتنبي قاسياً في ضرباته لمهجوه، فقد عرفنا المتنبي رجلاً معتدّاً بنفسه، رافضاً للذّل[1].

السرعة والفرار

تمثّل الهجاء عند المتنبي على هيئة لوم على التّخاذل والهروب من أرض المعركة، وفي هجائه أخفى مدح قومه الذين قابلوا الفرّ بالكرّ، والذّلّ بالشّجاعة، فلما غادر المتنبي سيف الدّولة إلى كافور، ثم اختلف مع كافور وهجاه، قال:

لَولا العُلى لَم تَجُبْ بي ما أَجوبُ بِها وَجناءٌ حَرفٌ وَلا جَرداءُ قَيْدُودُ[2]

فلولا طلب العلا والمجد لم يغادر المتنبي أحبته ولم يكلف ناقته أو فرسه قطع الفلوات لكي يصل إلى كافور. وهو أيضاً يتفاخر بكون نفسه لا تحب إلا الوصول إلى أعلى المراتب وهو ما حاول الحصول عليه عند كافور[3].

وفي حين مدح المتنبي خيله لسرعتها، وتفاخر بهذه الصّفة الموجودة عندها والّتي أظهرت عتقها وكرمها، تراه الآن يذمّها لنفس الصّفة، فأجودها حينئذٍ أردؤها لأنّها الأسرع في إبعاده عن ممدوحه، يقول:

وَإِذا الجِيادُ أَبا البَهِيِّ نَقَلنَنا عَنكُم فَأَردَأُ ما رَكِبتُ الأَجوَدُ[4]

([1]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، ص 157.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 140/2، وجناء: الناقة الشديد الصلية. **اللسان**، باب وجن، القيدود، طويلة العنق في انحناء. **اللسان**، باب قود.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 140/2. ينظر: حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 333.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 103/2.

كثيراً ما كان الهجاء في العدوّ وحالهم في الحرب، فالعدوّ دائماً خائفٌ، لا يشعر بالأمان حتّى لو كان ندُّه بعيداً، يقول:

وَإِنْ بَعُـــــــدْنَا قَلِـــــــيلاً حَمَلْـــــتَ رُمْحـــــاً وَحَرْبَـــــهْ
وَقُلْـــــتَ لَيْـــــتَ بكَفِّـــــي عِنَـــــانَ جَـــــرْدَاءَ شَـــــطْبَهْ [1]

وهذا أمر عجيب، فلا بدَّ أنّ الخصم قوي جداً حتّى يخافه إلى هذه الدّرجة، أو أنّه يستحق الهجاء لذلّه وخوفه الشّديد الذي لا يليق بالرجال. وعدوّ آخر يهرب من أمّام ممـــدوح المتنبـــي، فهجاه الشّاعر لما أصابه من الذّلّ؛ لضعفه وجُبنه، يقول:

وَجـــاؤوا الصَّحصَـــحانَ بـــلا سُـــرُوجٍ وَقَـــدْ سَـــقَطَ العِمَامـــةُ وَالخِمـــارُ
وَأُرْهِقَـــتِ العَـــذارَى مُرْدَفـــاتٍ وَأُوطِئَـــتِ الأُصَـــيْبِيَةُ الصِّـــغارُ[2]

فلإسراعهم وإشاحتهم في الهرب، انحلّت سروج خيلهم، وسقطت عمائم الرجال وخمـــر النّساء، وقد كُلِّفت العذارى مشقة لا يطقنها خلف الفرسان، أمّا الصبية الصغار فلم يبلثـــوا إلا أن سقطوا فوطأتهم الخيل بحوافرها، فلم يستطيعوا حمل شيء لشدّة هربهم، وتمسكوا بالعذارى طلباً للنّجاة وحفظاً لهم [3].

رسم المتنبي مشهداً مخزياً للعدوّ، ذهبت فيه الكرامة بـــلا عـــودة، وضـــاع الشّـــرف، وانحطّت الرّجولة الّتي تحتمي بالعذارى، فأبدع المتنبي في رسم هذه الصّورة لعدوٍّ ذلّ نفسه وقومه فاستحق الهجاء.

ويكمل المتنبي الصّورة بأن جعل الأرض تخاف أن تعترف بقربه منها؛ حتّى لا تطأهـــا خيل الممدوح، فكل موضع ينكره ويجحد أنّه رآه، وهذا من شدّة إمعانه في الهـــرب وتواريـــه؛ حتّى لا يهتدي أحد إلى مكانه، يقول:

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 334/1. شطبه: الطويلة. **اللسان**، باب شطب.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 209/2.

([3]) المصدر السابق، 209/2. ينظر: إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص ص 206.

تَســـتَوْحِشُ الأرْضُ أنْ تُقِـــرَّ بـــهِ فكُلّهـــا مُنكِـــرٌ لَـــهُ جَاحِـــدْ[1]

فيا لخزيه وعاره، ويا للوصمة الّتي لصقت به حتّى آخر عمره وربما بعد ذلك، حتّـى الأرض تنكره لذلّه، فأي نوع من الرجال هو؟! فشبّهه بالنّعامة بعد أن كان ملكاً عظيماً، وذلـك لأنّ النّعامة توصف عند العرب بشدّة النّفور والشّرود، يقول:

تَســـألُ أهْـــلَ القِـــلاعِ عَـــنْ مَلِـــكٍ قَـــدْ مَسَـــخَتْهُ نَعَامَـــةً شَـــارِدْ[2]

فهذا الضعيف بهربه وسبقه للخيل في نظر المتنبي أحقر الخلق، فالأسير أعظم منه قدراً؛ لأنّه قاتل حتّى أُسِر، والقتيل كذلك أشجع منه؛ لأنّه قاتل حتّى قتل، يقول:

أجَـــلُّ مِـــنْ وَلَـــدَ الفُقَّـــاسِ مُنكَتِـــفٌ إذْ فـــاتَهُنَّ وأمْضَـــى مِنـــه مُنْصِـــرعُ[3]

فكما ترى فإنّ العرب تفضل الأسر أو الموت بعزّ وكرامة على الهرب بـذلّ وخـزي وعار.

فعدوّ ممدوحه يفر منه، خوفاً وانكساراً، ويسخر مـنهم المتنبـي إن بقـوا فـي أرض المعركة، وطاعنو الممدوح وقاتلوه، إن طعنهم لا يؤثّر بالمطعون وذلك إشارة إلى ضعفهم، فشبّه طعنهم بمن يطعن بنبتٍ ضعيف، يقول:

وخَيْـــلٍ مـــا يَخِـــزُّ لهـــا طَعِـــينٌ كَـــأَنَّ قَنَـــا فَوارِسِـــها ثُمـــامُ [4]

وإن تمالكوا أنفسهم واستجمعوا ما تبقى من شجاعتهم وجاؤوا للمواجهة، جاؤوا مدججين بالسّلاح وعلى خيول كأنّها لا قوائم لها من كثرة ما عليها من التّجافيف فهي محجوبة لا تـرى، يقول:

أَتَـــوْكَ يَجُـــرّونَ الحَديـــدَ كَـــأَنّهُمْ سَـــرَوا بِجِيـــادٍ مـــا لَهُـــنّ قَـــوائِم[5]

وقد قيل أنّ هذا البيت " من أحسن ما قيل في الجيوش الكثيرة "[6]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 180/2.

([2]) الهاء في مسخته تعني الخيل. المتنبي: **الديوان**، 179/2-180.

([3]) الفقاس، جد الدمستق، وقيل هو الدمستق، وكأنه لقيه. المصدر السابق، 337/2.

([4]) المصدر السابق، 191/4. ثمام: نبت معروف في البادية. **اللسان**، باب ثمم.

([5]) المصدر السابق، 99/4.

([6]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 83.

ولا يخفى ما في البيت من " جرس الكلمات ونغمة المفردات من جهة، والأحداث المصوّرة من خلال سلسلة الأصوات الّتي انبعثت من المعنى، فهم(يجرّون الحديد) [1]

ولعلّك تلاحظ الإهانة والسّخرية الواضحة في قول المتنبي من عدوّه الذي يظهر رُعبَه من كثرة ما يحمل من السّلاح، ويحتمي بالدّروع، وفي الوقت نفسه يمدح ممدوحه لشجاعته وقوّته الّتي ترهب أعداءه الذين كانوا في السّابق غارقين بكرمه وإحسانه وحمايته لهم ولخيلهم، وكانوا خاضعين له ولكنّهم اجترؤوا عليه بهذا الخضوع، ولو لم يكونوا كذلك لجبنوا ولم يجسروا على لقائه، يقول:

كَتائِبُ جاؤوا خاضِعينَ فَأَقدَموا وَلَو لَم يَكونوا خاضِعينَ لَخامُوا
وَعَزَّت قَديمًا في ذَراكَ خُيولُهُمْ وَعَزّوا وَعامَت في نَداكَ وَعامُوا[2]

يهجو المتنبي طبعهم في نكران الجميل والإحسان، والجرأة على الأسياد المانحين بعد أن كانوا ينعمون بجودهم، وقد أحسن المتنبي في اختيار ألفاظه الّتي دلّت على شدّة الكرم كقوله: (عزّت، ذراك، عاموا) ثم يتساءل المتنبي مستنكراً موبخاً العدوّ: وأي عاقل ينال الكرامة ثم يركب حصانه لعصيان من أكرمه؟! يقول:

أَتُمسِكُ ما أَولَيتَهُ يَدُ عاقِلٍ وَتُمسِكُ في كُفرانِهِ بِعِنانِ
وَيَركَبُ ما أَركَبتَهُ مِن كَرامَةٍ وَيَركَبُ لِلعِصيانِ ظَهرَ حِصانِ[3]

يتّهمهم المتنبي بالجنون وقلّة العقل، فلا يمكن أن يجتمع إكرام ومعصية وكان عليهم أن يعلموا أن مَن قَدر على الإنعام قادر على الانتقام، ويقول ابن جني: "إذا كفر نعمتك من أحسنت إليه، لم يقبض يده على عنانه تخاذلاً وحيرة "[4] وقد تمركز هجاء المتنبي في ذمّ الأعداء على ذلّهم وهربهم من أمام الممدوح، فلمّا أباد الممدوح قبيلة تميم، لم يبق منهم أحد إلا القليل، فرسم المتنبي لهم صورة تمعَنُ إذلالهم وتذكرهم به، يقول:

([1]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص 206.
([2]) المتنبي: **الديوان**، 112/4.
([3]) المصدر السابق، 376/4-377.
([4]) المصدر السابق، 377/4.

لَمّــا رَأَتــهُ وَخَيــلُ النّصــر مُقبِلَــةٌ وَالحَربُ غَيــرُ عَــوانٍ أَســلَموا الحِلَــلا
فَبَعــدَهُ وَإِلــى ذا اليَــومِ لَــو رَكَضَــتْ بِالخَيلِ في لَهَواتِ الطِّفــلِ مــا سَــعَلا[1]

"فلو ركضت خيلهم في لهوات صبي صغير لما شعر بهم حتّى يسعل، لقلتهم وذلّتهم، وقد بالغ المتنبي في هذا حتّى أحال"[2]. فقد بالغ بشكل كبير في رسم هذه الصّورة.[3]

ولعلّ ذلك يعود إلى " طبيعة المتنبي نفسه، فهو قوي الحسّ حاد المزاج، عنيف الــنّفس، مندفع بحكم هذا كلّه إلى الغلوّ والإسراف " [4]

التوعد والسخرية

ندم الشّاعر على مدحهم يوماً فهجاهم لأنّهم لا يستحقون المدح لشحّهم وجهلهم فقرّر أن يستبدل القصائد بالخيل، يقول:

مدَحْتُ قومــاً وَإن عِشْــنَا نَظَمْــتُ لهــمْ قَصَائداً مــن إنــاثِ الخيــل والحُصُــنِ
تَحْــتَ العَجــاجِ قَوافِيهــا مُضَــمّرَةً إذَا تُنُوشِــدْن لَــمْ يَــدْخُلْن فِــي أُذُنِ[5]

فقد شبّه الخيل بالقصائد، وشبّه قوافي القصائد بالخيل المضمرة تحت العجــاج، مؤكّــداً على أنّ هذه القوافي ليست ممّا ينشد فيدخل الآذان، وهذا مذهب أبي الطيب في أكثــر شــعره، يطوي المديح على الهجاء، فهو يمدح كافوراً الذي في نظر المتنبي كان عبداً أسودَ خصيّاً بعــد أن ترك سيف الدّولة مثال الشذرف والكرم، وهدفه الزّيادة فوقع في النّقص[6]. وقال العكبــري"

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 3/287–288. قيل أنه مأخوذ من قول الشّاعر:
لــو أنّــه حــرَّكَ الجُــرْدَ الجيــادَ علــى أجفــــان ذي حلــــم لــــم ينتبــــه فرقــــا
وكذلك قول البحتري وهو أجود:
فزّعــــوا باســــمك الصّــــبي فعــــادت حركــــات البكــــاء منــــه سُــــكوناً
المصدر السابق، 3/288.

([2]) المصدر السابق، 3/287 – 288. الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 1/180.

([3]) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص 204.

([4]) حسين، طه، **مع المتنبي**، ص 51.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 4/345.

([6]) الأزدي، **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 53.

وصفها بالتّضمير وهو مدح للخيل، وكذلك القوافي في الشّعر إذا جادت جاد الشّعر. وقال ابن الأعرابي: استخيروا القوافي فإنّها حوافر الشّعر" [1]

فهو يتوعد عبيده الذين انكروا نعمته عليهم وسرقوا جياده بأن يشقي وجوههم بسيفه، يقول:

فإن شَقِيَتْ بِأَيديهِم جِيادي لَقد شَقِيَتَ بِمُنْصُلِيَ الوجوه[2]

فالمتنبي شجاع قادر على تنفيذ توعده ومعاقبة الخائنين. ومن ثم سخر المتنبي من الخارجيّ الذي ادّعى النّبوة، وقد كان يخشى مواجهة سيف الدّولة ويبرر للنّاس أنّ الله لم يأمره بالقتال، فقال:

أقالَ لَه الله لا تَلْقَهُم بماضٍ على فرسٍ حائلٍ[3]

إنّما يحاول الخائف إنقاذ نفسه؛ لأنّه يعلم أنّ المواجهة مع سيف الدّولة لن تنتهي إلا بذّله أو قتله. فمن يرضى بالعيش الذّليل فليترك السّيوف والرّماح ولا يتخذ من الخيل الكرام مركباً له؛ لأنّ هذه الأشياء إنّما تتخذ لنفي الذّلّ، يقول:

إذا كُنتَ تَرضى أَن تَعيشَ بِذِلّةٍ فَلا تَستَعِدَنّ الحُسامَ اليَمانِيا
وَلا تَستَطيلَنّ الرِّماحَ لِغارَةٍ وَلا تَستَجيدَنّ العِتاقَ المَذاكِيا[4]

شكّلت السّيوف والرّماح والخيول رموز العزّة والكرامة؛ لأنها تدفع الظّلم والعدوّ عن البلاد والعباد، فمن امتلكها أحبّ أن يكون على قدرها فارساً مغوراً. فهذا الكلام يدفع بالقارئ إلى أن يصبح من الفرسان الشّجعان ويواجه الظّلم، ولا يختبئ خلف الدّروع والأسوار، أوالحجج الباهتة.

ولكنّ هذا العدوّ لا يبالي ولا يدافع حتّى عن نسائه وشرفه، ويثقل المتنبي هجاءه ويذمّ أعدائه السّاكتين وقد استباحت خيله النّساء والبلاد، فيقول:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 345/4.

([2]) المصدر السابق، 404/4

([3]) المصدر السابق، 160/3. الحائل: كل حامل ينقطع عنها الحمل سنة أو سنوات حتّى تحمل. **اللسان**، باب حول.

([4]) المتنبي، **الديوان**، 417/4-418.

أمـــا تَـــرى الخَيـــلَ فـــي النّخـــــ ـــــلِ سُـــــربَةً بَعـــدَ سُـــــربَهْ
عَلـــــــى نِســـــــائِكَ تَجلـــــو فَعُولَهـــــا مُنـــــذُ سَـــــنبَهْ[1]

ثانياً: الصّورة القائمة على اللون

فبعد هرب العدوّ ظنّ أنّ في ذلك حياة له، ولكنّها كانت حياة ذلّ وانكسار، فأصبح يلبس ثياب الشَّعْر بعد أن كان يلبس الدروع، وأصبح يمشي في دير الرّهبان على العكاز،تائبـاً مـن الحرب بعد أن كان لا يرضى مشي الخيل السّراع، وكل ذلك بعد أن يئس ونال منه الهمّ، ورمد غبار الجيش عينيه وأصيب بالجراح الكثيرة، يقول:

فَأَصـــبَحَ يَجْتَـــابُ المُسُـــوحَ مَخافَـــةً وَقَد كـــانَ يَجتـــابُ الـــدِّلاصَ المُسَـــرَّدَا
وَيَمشي بِـــهِ العُكّـــاز فـــي الـــدَّيْرِ تائِبًـــا وَما كانَ يَرْضَى مَشـــيَ أَشـــقَرَ أَجـــرَدا
وَما تـــابَ حتّـــى غـــادَرَ الكَـــرُّ وَجهَـــهُ جَريحًا وَخَلّـــى جَفنَـــهُ النَقـــعُ أَرمَـــدا[2]

فتظهر السّخرية واضحة من قائد الرّوم حتّى قال بعضهم: " لا شكّ أنّ قهقهة الجمـاهير قد ارتفعت " لمّا قالها [3].

ثالثاً: الصّورة القائمة على الحواس

كانت الصّورة القائمة على الحواس شحيحة، وجاءت امتداداً للصـورة القائمـة علـى الحركة. فعدوّه خائف فزع ولشدّة حالهم فإنّهم يظنون صوت الرّياح صهيل خيل الممدوح تتبعهم وخفق راياتهم، فيشتدّ جريهم، يقول:

يُـــرَونَ مِـــنَ الـــذُّعرِ صَـــوتَ الرِّيـــاحِ صَـــهيلَ الجِيـــادِ وَخَفـــقَ البُنـــودِ[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 333/1. سربة: جماعة من الخيل. **اللسان**، باب سرب، سنبه: الدهر أو البرهة. **اللسان**، باب سنب.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 6/2-7

([3]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 306. المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 275.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 66/2. وهذا من قول جرير:
مـــا زِلْـــت تحســـبُ كـــل شـــيء بعْـــدَهم خـــــيلاً تكـــــرُّ علـــــيكم ورِجـــــالا
المصدر السابق، 66/2. وقول جرير أبلغ لأنه جعل كل شيء يخيفهم أمّا المتنبي فخص الرياح. التنيسـي، ابـن وكيـع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 288

اتّصل التّشبيه بالإحساس، وعبّر عن الموقف النّفسي للأعداء وهم هاربون وقد صـــوّر لهم الخيال كل شيء حولهم أداةً لقتلهم، وصارت الطّبيعة خصماً لهم تترصّدهم وتتبّعهم.[1]

انقسم هجاء المتنبي إلى جانبيْن، الأول هجاء للخيل السّريعة الّتي تبعده عـــن محبوبـــه، والثّاني للعدوّ المتخاذل الذي لا يتصف بالرّجولة أو الفروسية، فهو كسير ذليل أمام الممـــدوح، فكان هجاؤه متضمن معنى المدح للممدوح بشجاعته وفروسيته الّتي ترهب أقوى الرّجال.

الخيل في قصيدة الغزل

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

مزج المتنبي الحب بالحماسة، فعشقه للحرب وتحمسه لها جعله يدخل ألفاظ الغزل إلـــى أبياته في وصفها، فالقارئ لمواقفه الغزلية يستطيع سماع صليل السّيوف، وهزّ الرّماح، وخفـــق البنود، واندفاع الخيول، مما يعطي فكرة واضحة عن الاتجاه الـــذي صـــمم أن يســـلكه خـــلال حياته[2].

ويظهر ذلك من خلال الآتي:

فراق المحبوب

قلّ شعر المتنبي في الغزل؛ لكونه شاعراً مادحاً متفاخراً، فالمتتبع لغزله يرى معظمه في ممدوحه والبعد عنه، فهو المحبوب الذي أسر قلبه ولوّعه من الفراق، فاشتاق لرؤيته، وأنضـــى راحلته بطول سيره ليقرّب المسافة بينهما، ويطفئ شوق قلبه المعذّب، يقول:

وبـــدونِ مـــا أنـــا مِـــنْ وِدادِكَ مُضـــمِرٌ يُنضَـــى المَطِـــيُّ ويَقْـــرُبُ المُسْـــتارُ[3]

وحاله تلك وهو يضمر حباً قليلاً، فكيف تصبح حاله إن زادت مودّته، وفاضت من قلبه؟!

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 327.

([2]) المصدر السابق، ص 214.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 192/2.

وإن أوصلته راحلته إلى أطلال المحبوب وقف كئيباً، وقد خشيته العواذل وحذرته من إبائه عليهن، كما يحذر حازم الرّيض جماح الخيل وضربه، يقول:

بَليتُ بِلى الأطْلالِ إنْ لم أقِفْ بها وُقوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتمُهْ
كَئيباً تَوَقّاني العَواذِلُ في الهَوَى كمَا يَتَوَقّى رَيِّض الخَيلِ حازِمُهْ[1]

هو هادئ حزين، وكأنّه مسلوب العقل والعاطفة، ولكن إن ضايقه أحد هاج وماج، فشبّه نفسه بفرس جموح تأبى الذّل والانكسار. ويرى ابن رشيق أنّه جاء " بأملح شيء وأوفاه من الظّرافة والغرابة "[2] ووافقه طه حسين، وأكدّ أنّ المتنبي فاجأ السّامعين بصورة جميلة بألفاظ غريبة لا تخلو من التّحدي، فهو عاشق عنيف، وكأنّه يعطي للآخرين صورة عن نفسه حتّى يعرفوا كيفية التّعامل معه، فينال منهم ما لم ينله أحد غيره من المنزلة الرفيعة [3].

الفخر بالنفس في الغزل

كثيراً ما كان غزل المتنبي ملوّنٌ ببعض الفخر، فحديثه مع محبوبته لا يحمل كلاماً رقيقاً يصف فيه جمالها، إنّما يخبرها من وقائعه وشجاعته، وتجلدّه في الأهوال، وحيداً لا رفيق له سوى فرسه ورمحه وسيفه وناقته، فهي الشاهد الوحيد على ما يقول:

سَلي عَنْ سِيرَتي فَرَسي وَسَيْفي ورُمحي والهَمَلَّعَةَ الدِّفَاقَا[4]

وهذا كلام بعيد عن الحب والغزل في ظاهره، لكنّ المرأة العربية تريد من عاشقها أن يكون مقدأمّا شجاعاً في الحرب، فترضى حينئذٍ عنه ويزداد حبها له، فيرضي المتنبي محبوبته بعشقه العفيف وشجاعته منقطعة النّظير في أرض الوغى، يقول:

وَما كلُّ مَن يهْوَى يَعِفُّ إذا خَلا عَفَافِي وَيُرْضِي الحِبَّ وَالخَيلُ تلتقي[5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4/46-47.
([2]) ابن رشيق: **العمدة**، 2/ 119 – 120.
([3]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 192.
([4]) المتنبي: **الديوان**، 3/41. الهملّعة: الناقة السريعة. **اللسان**، باب هملع، الدّفاقا: المتدفقة في السير. **اللسان**، باب دفق.
([5]) المتنبي: **الديوان**، 3/50.

قال العكبري: "هذا البيت من الحكمة، قال الحكيم: لسنا نمنع محبة ائتلاف الأرواح، إنّما نمنع محبة اجتماع الأجسام، فإنّما ذلك من طبائع البهائم" [1]

التغزل بالممدوح

والمتنبي في غزله يضع المحبوبة في المرتبة الثّانية أمام ممدوحه، فهو يَفْضُل الممدوح بالكمال على المعشوق في الجمال، ويشكو هوى محبوبته إلى من لا يوجد له نظير، وجاءت هذه الشّكوى لطلب المال الذي يتوصل به إليها، يقول:

أُحِبّ الّتــي فــي البــدرِ منهــا مشَــابِهٌ وأشكو إلى مَــنْ لا يُصــابُ لــه شَــكْلُ
إلى القــابضِ الأرْواحِ والضَّــيْغَمِ الّــذي تُحَدّثُ عن وَقفاتــه الخيــلُ والرَّجْــلُ[2]

وذلك دليل كثرة غزواته وحروبه وقتله الأعداء.

التغزل بالخيل

نالت الخيل نصيبها من غزل المتنبي، فأحبّها وأحبّته، وعِزَّ عليها أن تُفارقه، فإن أتــاه زائر أعرضت عنه خوفاً من أن يهبها له، فهي لا تريد مفارقته، يقول:

تَعَــرَّضُ للــزُّوَّارِ أَعْنَــاق خيْلــهِ تَعَرُّضَ وَحْشٍ خَائِفــاتٍ مِــنَ الطَّــرْدِ[3]

وتنساب مشاعر الألفة والمودة والخوف من الفراق، بين حــروف الكلمــات، فيظهــر الشّاعر خيلاً " نقية الوجدان، مرهفة الحسّ، لمّاحة ذكيّة، ولعلّ البيت يعكس المشــاعر النّفســية المضطربة في نفوس الخيل كأنّها رأت وحشاً جاء يُطاردها، فقد أعطت قلبها لرجل ولا تريــد غيره [4].

([1]) **التبيان في شرح ديوان المتنبي**، 429/1.

([2]) قصد بالخيل والرَّجْل: الفرسان والمشاة. المصدر السابق، 300/3-303.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 167/2.

([4]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 173.

تغزّل المتنبي بجمال المهر وعتقه اللذين ورثهما من جهة أبيه، أمّا أمّه فهي أقل نسباً وأقبح منظراً وكأنّها مصابة بالعين، فجعلها تشين المهر بقبحها بينما هو يزينها بحسنه، يقول:

وَأُمٌّ عَتِيقٌ خالُهُ دُونَ عَمِّهِ رَأى خَلْقَهَا مَنْ أعْجَبَتْهُ فعانَهَا
إذا سَايَرَتْهُ بَايَنَتْهُ وبَانَهَا وَشانَتْهُ في عَينِ البَصِيرِ وَزانَهَا[1]

قام المتنبي بإبراز جمال المهر من خلال تقبيح كل ما حوله حتّى أمّه، وقد يرجع السّبب في ملازمة المهر لأمّه في سنّه تلك، فلم يُرد المتنبي لجمال الأم أن يخفي جمال المهر، فأساء إليها من حيث يدري أولا يدري.

حكمة الخيل

فهو يريد الوصول إلى المحبوب دون أن يثنيه شيء،" فكان الجسم وهو مقيم على السّرج يسبقه، وكان القلب وهو مقيم في الجسم يسبقه، لقوة العزم في السير" يقول:

بِعَزمٍ يَسيرُ الجِسمُ فِي السَّرجِ راكِباً وَيَسيرُ القَلبُ فِي الجِسمِ ماشِياً
قواصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيْرِهِ ومَنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَل السَّوَاقِيَا[2]

وفي ذلك هجاء لسيف الدّولة بأن جعله ساقية وجعل كافور بحراً، تعبيراً عن خيبة أمله وألمه الشديد لتخلّي سيف الدّولة عنه. فقد عبّر البيت عن الغيظ والألم الذي ينهش قلب المتنبي، فهو أشبّه بالعاشق " الذي أخرجه الهجر عن طوره، فأخذ يتسلى باللّهو العارض، والصّبابة الكاذبة، ويزعم للتي ملكت قلبه أنّ مَن تمنحه اللّذة والعزاء أروع منها جمالاً وحسناً " وهو يعلم ألّا لذة في حبها أو عزاء[3].

فأرسل مثلاً في الشطر الثاني من البيت ببراعة وعُرِفَ بها، زادت القول جمالاً وقوّة[4].

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي** ، 304/4.

([2]) المتنبي، **الديوان**، 423/4. السواقي: مفردها ساقية وهي موضع السقي، وقيل: النهير الصغير. **اللسان**، باب سقي

([3]) حسين، طه، **مع المتنبي**، ص 299.

([4]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 214/1.

ثانيا: الصّورة القائمة على اللون

اللون الأسود

شاركت الخيل شاعرنا حالة الوجد والشّوق الّتي عاناها في بُعْـد محبوبتـه، فشـاركته الإحساس والوقوف على الأطلال، فيقول:

وما تُنكِرُ الـدّهْمَاءُ مِـن رَسْـمِ منـزِلٍ سَقَتها ضَرِيبَ الشَّـوْلِ فيـهِ الوَلائِـدُ[1]

فهي كفارسها لا ننسى أقامتها في ديار المحبوبة وهي تُسقى من لبن النّياق حتّى ألفتـه، ولعلّه اختار الفرس السّوداء، لأنّ اللّون الأسود يحمل معنى الألم والحزن والعذاب وهي حالـة الشّاعر في ذلك الموقف

ثم شكا جفاءها وهجرها له مذكراً إياها بصفاته، فهو الأفصح نطقاً، الأشجع بـلاءً فـي الحرب، فإقدامه في الحرب قد حول الخيل الشّهب إلى اللّون الأسود لتلطخها بالـدّماء وجفافهـا عليه، وكل هذا حتّى ترغب فيه محبوبته وترضى عنه، يقول:

جَفَتْنـي كـأنّي لَسـتُ أنْطَـقَ قَوْمِهـا وأطعنَهم والشُّهبُ في صـورةِ الـدُّهمِ[2]

فعتابه لها موشحاً بالفخر والاعتداد بالنفس، على الرّغم من تعوده جفاء الآخرين عليه.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 392/1.الضريب: اللبن الذي يحلب من عدة لقاح في إناء واحد. **اللسان**، باب ضرب، الشول: النياق الّتي بعد عهدها بالنتاج فيجف لبنها. **اللسان**، باب شول، الوليدة: الجارية أو الأمة. **اللسان**، باب ولد.

([2])المتنبي: **الديوان**، 169/4. الشهب: لون بياض قد غلب على السواد. **اللسان**، باب شهب، ويشبّه قول العنبري لما رأته امرأته يطحن فازدرته:

وصـــــكَّتْ وجهَهـــــا بيمينِهـــــا أبعلِـــيَ هـــذا بـــالرحى المتقـــاعسُ

فقلـــتُ لهـــا لا تعجلـــي وتبيّنـــي بلـــى إذا التفَّـــتْ علـــيَّ الفـــوارسُ

ومن قول النابغة الجعدي:

وتُنْكـــر يَـــوْمَ الـــرَّوع ألـــوانَ خَيْلنـــا مـــن الطَّعْـــنِ حتّـــى تَحْسَـــبَ الجَـــوْنَ أشـــقرا

المتنبي. **الديوان**، 169/4. ومن قول أبو المهاجر البجلي:

وخاضت عتـاق الخيـل فـي حومـة الـوغى دمـــاء فصـــارت شـــهب ألوانهـــا دُهمـــا

البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 234.

فحزنه شديد على الفراق، وهو لم يسر مبتعداً بعد، فكيف يصبح حزنه إن جدَّ به المسير، يقول:

أُحـــاذِرُ أن يَشُـــقّ عَلـــى المَطَايَـــا فَـــلا تَمْشِـــي بِنَـــا إلاّ سِـــواكَا
أرَى أسَـــفي وَمَـــا سِـــرْنا شَـــديداً فكَيـــفَ إذا غَـــدا السّـــيرُ بترَاكَـــا[1]

وهذا دليل على التّعلق الشّديد والحب الصّادق للمحبوب.

اللون الأبيض

وفي صورة أخرى، تبدو الطّبيعة بجمالها، ملهمةً للشّاعر ليبرز جمال خيله بما أضـفته أغصان الشّجر عليها من بريق الشّمس وقطرات النّدى، والّتي شبّهها بِحَبّ الجمـان المتـألق، فانطلق لسانه متغزلاً، يقول:

غَـــدَوْنَا تَـــنْفُضُ الأغْصَـــانُ فيهَـــا علـــى أعْرافِهَـــا مِثْـــلَ الجُمَـــانِ
فسِـرْتُ وَقَـدْ حَجَـبنَ الشَّـمسَ عَنِّـي وَجِـئْنَ مِـنَ الضِّـيَاءِ بمَـا كَفَـانِي
ولَـوْ كانَـتْ دِمَشْـقَ ثَنَـى عِنَـاني لَبِيـقُ الثّـرْدِ صِـينيُّ الجِفَـانِ[2]

ثالثا: الصّورة القائمة على الحواس

تجلّى الحزن والألم لفراق المحبوب في غزل المتنبي، وكما ذكرنا فقد شـاركت الخيـل فارسها بإحساسها المرهف.

صوت الخيل

لمّا وقف المتنبي على الأطلال مستذكراً المحبوب، حمحمت جواده حنينـاً لـه؛ لأنّهـا عرفت دياره، فاستغرب المتنبي من شجو خيله الملازم لحزنه وغصته، يقول:

مَـرَرْتُ علـى دارِ الحَبيـبِ فحَمْحَمَـتْ جَوادي وهل تَشْجُو الجيـادَ المعاهـدُ[3]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3/126-127. تراكا: سرعة السير وأصله السقوط في الركب. **اللسان**، باب، سواك: مشي الدواب الهزيل الضعيف. **اللسان**، باب سهك.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 4/386-387.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 1/392. الحمحمة: دون الصهيل كالتنحنح. **اللسان**، باب حمم، تشجو: يحزن. **اللسان**، باب شـجا، المعاهد: الموضع الذي كنت عهدته أو عهدت هوى لك أو كنت تعهد به شيئاً والجمع معاهد. **اللسان**، باب عهد.

حاسة النطق والنظر

جمع المتنبي بين حاستيْ النّظر والنّطق معاتباً محبوبه، ويقول:

أُسَـــــارِقُكَ اللّحْـــــظَ مُسْـــــتَحْيِياً وَأَزْجُرُ فــي الخَيــلِ مُهــري سِــرارَاً[1]

فالشّاعر يسترق النّظرات إلى محبوبه، ويزجر مهره بصوت خفي حياءً منه، وكأنّــه لا يريده أن ينتبه إلى المشاعر الجياشة الّتي فاض بها قلب الشّاعر، فخاف أن تتكشف إن واجهــه مباشرة.

وقد استخدم المتنبي ظاهرة الطّباق الّتي تخدم عتابه ويخرجه بشكل مجيد [2]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 197/2.

([2]) نافع، عبد الفتاح: **الشعر العباسي قضايا وظواهر**، 212.

المبحث الثاني

صور الخيل المبتكرة في شعر المتنبي

نال أدب المتنبي حظّاً وافراً من الدّراسة والتّمحيص، ولكن عديداً من الدّارسين ردّوا عليه الكثير من أشعاره واتّهموه بالسّرقة الشّعرية، حتّى أنّ بعضهم يقول: إنّه أفنى عمره في نسخ أشعار أسلافه والتّغني بها دون أن يكون له حظ في نشأتها أو ابتكارها. وبعضهم الآخر يجرّده من كل قدرة على الخلق والابتكار، ولا يرى فيه إلا سارقاً ينهب أفكار غيره ومعانيه[1]. وقال آخر إنّه: " لم يضف إلى الشِّعر لوناً لم يسبقه إليه غيره من الشّعراء الذين تقدموه لا من حيث الألفاظ، ولا المعاني، ولا الأساليب "[2]

وفي ذلك تحامل شديد على هذا الشّاعر العظيم. وقد يردُ على قولهم قول عليّ رضي الله عنه: " لولا أنّ الكلام يُعاد لنفِدَ " فليس أحدنا أحق بالكلام من أحد، وإنّما السّبق والشّرف في المعنى[3].

وممّا تميّز به المتنبي عن غيره من الشّعراء، تحديد معالم الشّعر الحربي ومبادؤه وخواتمه، فقد ظهرت عنده قصائد طوال موقوفة على حروب الحمدانيين، ولولا إضافته لبعض الغزل والحكمة فيها، لكانت مثالاً فنياً رائعاً لشعر الحرب، بما فيها من سموّ الدّيباجة وروعة المعاني، على أنّ ذكر الحرب والوقائع كان موجوداً في شعر العرب منذ القدم، ومن أبطاله: أبي تمّام والبحتري من بعده وبخاصّة في وصف معارك العرب مع الرّوم في حروب أبي سعيد الثغري، إلا أنّ المتنبي كان متميّزاً في هذا النوع من الشّعر[4]. ففيه قال ابن الأثير: " اختَصَّ بالإبداع في مواقف القتال، وذلك إنّه إذا خاض في وصف معركةٍ كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسّامع مقام أفعالها، حتّى تظنّ الفريقين قد تقابلا، والسّلاحين

([1]) شعيب، محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، ص 195.

([2]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في الشعر المتنبي**، ص 41.

([3]) ابن رشيق: **العمدة**، 91/1.

([4]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 295 – 297.

قد تواصلا، ولا شكّ في أنّه كان يشهد الحروب مع سيف الدّولة، فيصف لسانه مـــا أدّى إليـــه عيانه[1]." وقال أيضاً: " وقد حوت أشعاره غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء"[2]

أمّا ابن رشيق فيراه مخالفاً للشّعراء، ومغايراً لمذهبهم؛ وذلك لقدرتـــه واتّســـاعه فـــي المعاني كثيراً [3] ويرى بعضهم أنّ المتنبي " أطلق الشّعر من القيود الّتي قيّده بهـــا أبـــو تمّـــام وشيعته، وخرج به عن أساليب العرب التّقليدية، فهو إمـــام الطريقـــة الابتداعيـــة فـــي الشّـــعر العربي"[4]

فمن خلال ولعه بالاستعارة، وتفنّنه بالابتكار في الصّور، والخروج بها عن المـــألوف، إنّما كان يسعى إلى خلق إطار فنّي طموح متمرّد متجدّد يتناسب مع عبقريته[5].

ويدافع عنه أحد المستشرقين قائلاً: " يستحيل تطبيق كلمة السّرقة على أبي الطّيب؛ وذلك لأنّ المعاني المتداولة تعدّ مخترعة في نظره، ولا تعدّ من المعايب لمجرد إكسائها ألفاظاً جديدة، فقد حقّق المتنبي معجزة إعادة ما قاله النّاس، بألفاظ مختلفة" [6].، والحقيقـــة أنّ المتنبـــي كـــان يستعين بكلام العرب وأمثالهم، ثم يصوغها بطريقته الخاصّة، وينفخ فيها من روحه، ويكســـوها حلّة جديدة، فتصبح أفكاراً جديدة تنسب إليه، والحقيقة أنّها أفكار شائعة [7]

وقد اعتمد المتنبي كثيراً على صور الأقدمين إلا أنّه مزجها باندفاعه النّفسي وبموســـيقاه ممّا أخرجها في شكل جديد مميّز بطابعه الخاص[8]

([1]) **المثل السائر**: 15/1.

([2]) المصدر السابق، 15/1.

([3]) ابن رشيق: **العمدة**، 102/2.

([4]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في الشعر المتنبي**، ص 42.

([5]) العشماوي، أيمن محمد زكي: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطوّرها الفني**، (د. ط)،الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999، ص 189.

([6]) بلاشير: ريجيس: **أبو الطيب المتنبي**، ص 78.

([7]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في الشعر المتنبي**، ص 43. ينظر: التطـــاوي، عبـــد الله: **القصـــيدة العباســـية قضـــايا واتجاهات**، ص 108.

([8]) الفاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، 618.

فقد أراد أن يحقق لفنه التّفرد من خلال الابتكار والخروج عن المفهوم الجمالي السّائد، وتحطيم العلاقات والتّراكيب الّتي فُرِضت على اللّغة، ليبني شكلاً وعلاقات وتراكيب جديدة نابعة من التّجربة الحيّة [1].

الخيل في قصيدة المديح

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

باب العطاء والجود

يَعْجَبُ المتنبي من ممدوحه (أبي أيوب أحمد بن عمران) الجواد المعطاء، كيف حفظ عنان الخيل بأنامله وما من عادتها حفظ الأشياء؛ لأنّه يبذل أمواله بعطائه، وهو شجاع لكثرة ركوب الخيل في الحروب، يقول:

لَيْسَ التَّعَجُّبُ مِن مَوَاهِبِ مَالِهِ بَل مِن سَلامَتِها إلى أوْقاتِها
عَجَباً لَهُ حَفِظَ العِنانَ بِأنْمُلٍ ما حِفْظُها الأشياءَ مِن عادَاتها[2]

يدلّ البيت على شجاعة الممدوح وكثرة ركوب الخيل في الحرب، وقد أطلق أبو الطيب على ما يُقْتَنى من الذّهب والمال والنّفائس والخيل والعبيد لفظ (الأشياء)، وهو يريد بعضها وهذا كثير الاستعمال، كقوله تعالى: { وأوتيت من كل شيء} [3].

وقد عدّه الثعالبي أحد إبداعات المتنبي في المدح فيقول: " فيه مدح، ومثل مضروب، وتشبيه نادر"[4]

([1]) العشماوي، أيمن محمد زكي: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطوّرها الفني**، ص 195.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 353/1.

([3]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 29. * سورة النمل أية 23.

([4]) **يتيمة الدهر**، 203/1.

خيل الحرب

من أراد الممدوح في الحرب كان أقرب ستر له غبار خيله، ومن أراده في الرّاحة كان آخر ستر له دخان العود، فكان الممدوح في " غاية المنعة وغاية النّعمة، وهذا أشبه بطريقة المتنبي في إيثار المبالغة "، يقول:

وَيُضحي غُبارُ الخَيلِ أَدنى سُتورِهِ وَآخِرُها نَشرُ الكِباءِ المُلازِمُهْ[1]

وقد حاول المتنبي إرضاء أهل البادية وأصحاب الحرب بقوله، فهم المشغوفون بالجمال والبأس[2]، أمّا عساكر ممدوحه فاثنين: خيلٌ وطير، أمّا الخيل فيرمى بها خيل العدوّ فلا يبقى منهم إلا عظام الجماجم، وأمّا الطير فتأكل لحوم القتلى فلا يبقى منهم شيء، وقد اعتادت الطير على صحبته لكثرة وقائعه فأصبحت كأنّها من عديد جيشه، يقول:

لَهُ عَسكَرا خَيلٍ وَطَيرٍ إِذا رَمى بِها عَسكَراً لَم يَبقَ إِلّا جَماجِمُهْ[3]

وقد تجمّعت عناصر الصّورة من الخيل والطّير والجماجم والرّمي في إطار فنيّ محكم لتدل على قوّة سيف الدّولة وسعة سلطانه[4]. وهذا معنى قديم عرفته العرب في الشّعر والبلاغة والبلاغة الشّعبية، فتعرف الطّيور الأبطال فتتبعهم لتضمن غذاءها، ولكن طوّر المتنبي الفكرة بأن جعل الطّير جنداً من جنود الممدوح، فهي تتبعه محاربة لا متطفّلة، فكان للأمير جيشان: أحدهما في الأرض من الخيل، والآخر في السّماء من الطّير، ولم يحصل أحد من قبل من الملوك والأمراء على جيوش تطير في الجوّ، " فالفكرة نفسها جديدة، والصّورة الّتي تثيرها هذه الفكرة طريفة، والعظمة الّتي يخرج بها الممدوح منها رائعة "[5] وأيّده البديعي فقال: " وقد ذكر ذكر هذا المعنى قديماً وحديثاً، وكذلك فعل أبو الطّيب، فإنّه لمّا انتهى الأمر إليه، سلك هذه

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4/49–50 الكباء: العود الذي يتبخر به. **اللسان**، باب كبا

([2]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 194.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 4/54

([4]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، 89.

([5]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 197. نصرت، عبد الرحمن: **شعر الصراع مع الروم**، ص 315.

الطريقة الّتي سلكها مَن تقدَّمه، إلا أنّه خرج فيها إلى غير المقصد الذي قصدوه،فأغرب وأبـدع، وحاز الإحسان بجملته، فصار كأنّه المبتدع لهذا المعنى دون غيره " [1]

الخيل والطبيعة

أبدع المتنبي في وصف موكب الخيل الذي جاء به الممدوح إلى أرض المعركة، فهـو موكب مهيب، بزينة بريق الأسلحة ولمعان التّجافيف، فشبّهها بالبحر العظيم. أمّا الخيول الّتـي تسير بهذه الأسلحة والتجافيف فشبّهها بجبل عظيم لا يُهتدى فيه وهو تخيل بديع، يقول:

حَوالَيـــهِ بَحـــرٌ لِلتَّجـــافيفِ مـــائِجٌ يَسيرُ بِـهِ طَـردٌ مِـنَ الخَيـلِ أَيْهَـمُ[2]

فهذا موكبٌ يخيف أعتى الخصوم وأقواهم فمن يراه يُسلب عقله من عظمة هذا الموكب الذي ينضح قوةً ورهبة.

فإن مَلَك ممدوحه موكباً وجيشاً كهذا، فلا بدّ من أن يتمكن من عدوّه، ناهيك عن قوّتـه وشجاعته الّتي تدعم جيشه.

وقد تناول الشّاعر كثرة الخيول ومنظرها المهيب، فكان لهذه الصّـورة نصـيب مـن التّشبيهات الجميلة، فشبّه خيله كالسّحاب ببريق الأسلحة وصياح الأبطال، أمّا مطرهـا فحديـد، لأنّها تنصب عليهم بالسّيوف والرّماح فكأنّها تغسل الأرض منهم، يقول:

سَـــحَائِبُ يُمْطِـــرْنَ الحديـــدَ علـــيهم فَكُـــلُّ مَكَـــانٍ بالسُّـــيُوفِ غَسِـــيلُ[3]

يصف خيله بالكثرة وقد أحسن عندما استخدم جمع الكثرة ليدلّ على ذلـك، ودلّ علـى صمودها وثباتها واستمراريتها مع فرسانها، وفي تشبيه ضرباتهم بالمطر دليل على عدم القدرة على دفعها أو ردّها[4].

([1]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 76.

([2]) المصدر السابق، 74/4

([3]) المتنبي: **الديوان**، 223/3

([4]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 227.

وهذه صورة شبّه جديدة، فقد اعتاد العرب على تشبيه الجيش بالسّحاب دليل الكثرة، أما وجه الشبه الجديد فهو الحمل، فالسحاب يحمل المطر والجيش يحمل السلاح، وكلاهما لا يرد.[1]

يرد.[1]

الخيل الشرسة

لمّا حقّق سيف الدّولة انتصاره، أخذ ثياب الطّغاة من ملوك العدوّ (الرّوم)، وجعلها أجلّة لخيله، ثم وطئ بحوافرها وجوههم، يقول:

أَجِلّتُهـــا مِـــن كُـــلِّ طـــاغٍ ثِيابُـــهُ وَمَوطِئُهـا مِـن كُـلِّ بـاغٍ مَلاغِمُـه[2]

قال العكبري: "وهذا مبالغة، ولا تتم هذه الصفة إلا بعد الإمعان في قتلهم وبلوغ الغايـة من الظهور عليهم"[3]، ولشدّة هذه الخيل وغلظتها فإنّها تعوّدت الجراح والطّعان حتّى أصـبحت أصبحت الرّماح تتكسر فيها، يقول:

نُصَـــرّقُهُ للطّعْـــنِ فَـــوْقَ حَـــوَادِرٍ قَـــدِ انْقَصَـــفَتْ فـــيهِنّ منـــهُ كِعَـــابُ[4]

وقد زاد كأنّه اخترع المعنى [5] وإنْ كان يلاحظ بيت أبي تمّام:

ونالـــــتْ ثارهـــــا الأكبـــــادُ منـــــه فأولَتْـــــه انـــــدقاقاً أو صـــــدوعاً"[6]

الممدوح وخيله

وقد تأتي فترة تخذل الخيل الممدوح، وتعجز عن حمله إلى أعدائه، فلا يهتمّ ويسير إليهم بنفسه بهمّةٍ لا مثيل لها، يقول:

---

[1] عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص316.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 55/4

([3]) **شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي**، 238/2. الملاغم: ما حول الفم مما يبلغه اللسان ويصل إليه. **اللسـان**، باب لغم.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 318/1. الحوادر: الخيل الغلاظ السمان. **اللسان**، باب حدر، الكعاب: عقدة ما بين الأنبـوبين مـن القضيب والقنا. **اللسان**، باب كعب.

([5]) الجرجاني: **الوساطة**، 329.

([6]) أبو تمّام: **الديوان**، 205/3.

لَــوْ كَلَّــتِ الخَيْــلُ حتّــى لا تَحَمِّلُــهُ تحَمَّلَتْــهُ إلــى أعْدائِــهِ الهِمَــمُ[1]

فقد جعل همّة الممدوح وعزيمته أقوى من كلّ الهمم، فقاسها بمقياس كمّي وكيفيّ، وعنى الشّاعر شجاعته وقوّة تحمله، ولم يقدمها في صورة تقريرية، بل أخرج صورة مبتكرة، لم تسمع الأذن بها أو تر العين مثلها[2].

وصف المتنبي ممدوحه بعدّة صفات، منها: إغاثة الملهوف، فمن ناداه مستغيثاً أسرع لركوب الخيل عرياً ولا يتمهل لإسراجها، حتّى صارت أفخاذهم حزماً لهم تمنعهم من الوقوع إذا أجروها، كما يمنع الحزام السّرج والراكب أن يقعها، يقول:

أو رَكِبُــوا الخَيْــلَ غَيــرَ مُســرَجَةٍ فــإنّ أفْخــاذَهُمْ لهَــا حُــزُمُ[3]

وفي ذلك دليل الفروسية وأنّ الفرسان قادرون على الثّبات عليها إن اضطروا، فهذا بيت جيد[4] وهو من إبداع المتنبي في المدح[5].

وقد أبدع المتنبي في وصف هذا الجيش الذي تضيق به الأرض قبل انتشاره، فكيف يصبح الحال إذا تفرّق للحرب والغارة:

تَضيقُ بِــهِ البَيْــداءُ مِــن قَبــلِ نَشــرِهِ وَمــا فُــضَّ بِالبَيــداءِ عَنــهُ خِتــامُ
حُــروفُ هِجــاءِ النــاسِ فيــهِ ثَلاثَــةٌ جَــوادٌ وَرُمــحٌ ذابِــلٌ وَحُســامُ[6]

"فقد استعار الفضّ والختم وهما للكتاب والجواب، لمّا جعل الجيش مثلهما، وهو تخيل بديع رائع، ولمّا جعل الجيش جواباً، جعل حروف هجائه هذه الأشياء " [7] دليل اقتدار واتساع في الصّنعة [8]

([1]) المتنبي، **الديوان**، 130/4

([2]) العشماوي، أيمن محمد زكي: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطوّرها الفني**، ص 192.

([3]) المتنبي، **الديوان**، 187/4

([4]) التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 454.

([5]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 205/1.

([6]) المتنبي، **الديوان**، 113/4

([7]) المصدر السابق، 113/4

([8]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 213/1.

عَدْو الخيل

وقد ساعدته الخيل في اللّحاق بالعدوّ، والتّمكّن منه بسرعتها في العدوّ، يقول:

تَبــرِي لَهُــنّ نَعــامُ الــدَوِّ مُســرَجَةً تُعــارِضُ الجُــدُلَ المُرخــاةَ بِــاللُّجُمِ[1]

شبّه الخيل بالنّعام في سرعة عَدْوها، ودلّ عليها بقوله: (مسرجة)، ثم "جعل الخيل تنبري للعيس، وتعارض أزمّتها بلجمها وأعنتها، أي تباريها في السّير، وإنّما أراد أنّ الإبل تباري الخيل وتعارض أعنتها بالزّمام، فقلب الكلام تفنناً ومبالغة في وجه الشبّه في المشبّه حتّى صار أكمل فيه من المشبّه به " [2]

ويقول في حسن مشيها وركضها:

رِجْلَاهُ فــي الرَّكضِ رِجْلٌ واليَدَانِ يَــدٌ وفِعْلُهُ ما تُــرِيــدُ الــكَــفُّ والــقَــدَمُ[3]

وصف المتنبي جَرْي الخيل بالمناقلة حيث ترفع الخيل رجليها معاً وتضعهما معاً كأنّهما رجل واجدة، وكذلك يداه، وهذا الجَرْي يغني يد ممدوحه من تحريك السَوط ورجله بالاستحثاث[4]

أظهر الشّاعر خيله الكريمة، الّتي تطيع صاحبها دون أن يحتاج إلى حَثّها وهذا دليل الفروسية. " فقد أبدع المتنبي ما شاء وأغرب، وأفصح عن الغرض وأعرب، ولو أنْصِف لعُلِّق شعره كالسّبع المعلّقات من الكعبة "[5]

([1]) المتنبي، **الديوان**، 287/4. الدّو: الصحراء الّتي لا نبات فيها. **اللسان**، باب دوا، الجدل: حبل من أدم لو شعر في عنق البعير. **اللسان**، باب جدل.

([2]) المتنبي، **الديوان**، 287/4

([3]) المصدر السابق، 85/4

([4]) المصدر السابق، 85/4

([5]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 183.

ورفع المتنبي ممدوحه إلى مكانة عالية، فكانت رؤيته أمنية العديدين، ولكن المتنبي يطلق صوت الحكمة مذكراً أنّ ما من لذّة خالصة من أذى يشوبها، فهذا حال الزّمان يقهر النّاس ويغلبهم، فمن يريد رؤية الممدوح فهذه أمنية محفوفة بالخوف والهيبة الّتي تنغّص لذّتها، يقول:

جَمَحَ الزّمانُ فَلا لَذيذٌ خالِصٌ ممّا يَشُوبُ ولا سُرُورٌ كامِلُ
حتّى أبو الفضلِ بن عبدَ اللهَ رُؤ يَتُهُ المُنى وهيَ المَقامُ الهَائلُ[1]

فقد شبّه الزّمان بالفرس الجموح الّتي تقهر خصمها بغلبتها، وقال ابن جني: " هذا خروج –مخلص– ما رُوي أغرب منه" [2]

ثانياً: الصّورة القائمة على الحواس

حاسة السمع والنظر

يكمل المتنبي في مدح جيش الممدوح الذي أثارت خيله الغبار حتّى ستر العيون، رغم تميّز خيله بحدة نظرها وصدقه، ولكنّها إذا أحسّت بشيء نصبت آذانها، فكأنّها تبصر بآذانها، يقول:

في جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيُونَ غبارُهُ فكأنّمَا يُبْصِرْنَ بالآذانِ[3]

وهذا من بديع التخيل[4]، فقد نقل عمل حاسة إلى حاسة أخرى، وهذا يدل على حنكة الخيل وحسن اختيار الممدوح لها وثقته بقدراتها. وفيه قال أبو عباس النّامي وهو أحد خصومه في مجلس سيف الدّولة: " كان قد بقي في الشّعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت أشتهي أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ما سُبق إليهما، وأحدهما:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 370/3 – 371.

([2]) المصدر السابق، 371/3. الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 166/1.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 310/4. ولعله نظر إلى قول البحتري:

ومُقدَّمِ الأذنينِ تحسب أنّه بهما رأى الشخصَ الذي لِأمَامِهِ

المصدر السابق، 310/4. ينظر: إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 311.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 310/4.

فـــي جَحْفَـــلٍ سَـــتَرَ العُيُـــونَ غبـــارُه فكأنّمَـــــا يُبْصِـــــرْنَ بـــــالآذانِ"[1]

([1]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 81.

الخيل في قصيدة الهجاء

الصّورة القائمة على الحركة

يسخر المتنبي من عدوّه؛ لأنّه يظنّ أنّه على حقّ، فلمّا قابله الممدوح بخيله تأكــدت أنّ إمامهم (الخارجي) إمام المبطلين، يقول:

وَجَـــيشَ أمّـــامٍ عَلـــى ناقَـــةٍ صَـــحيحِ الأمّامَـــةِ فـــي الباطِـــلِ

"وإنها لكلمة بارعة قوله قوله صحيح الإمامة في الباطل". [1]

فهذا هو المتنبي الذي كتب أكبر ملاحم العرب والإسلام، بأفخم أسلوب وأعذب بيان، وقد طَبَعَهُ بميسم الخلود الذي كان عنوان البطولة ورمز الفروسية العربية، سيف الدّولة[2].

الخيل في قصيدة الغزل

الصّورة القائمة على الحركة

ممّا ينسب لإبداع المتنبي " استعماله ألفاظ الغزل والنّسيب في أوصاف الحرب والجــدّ، وهو أيضاً ممّا لم يُسبق إليه وتفرّد به، وأظهر فيه الحذق بحسن النّقل، وأعــرب عــن جــودة التّصرف والتّلعب بالكلام " [3]

"ومع أنّ المتنبي كان صانع مذهب،إلا أنّه ضاع في خضم النّقد القديم، فلم يعطه النّقــاد حقه"[4]، فشجاعة الممدوح جعلت الحرب له، فهو يَقتل ولا يُقتل، ولشدّة حبها وعشــقها لــه، إن جاءها استبقته وأفنت من سواه من الخيل والفرسان، بل جعلتهم فداءً له، يقول:

شُـــجاعٌ كَـــأَنّ الحَـــربَ عاشِـــقَةٌ لَـــهُ إِذا زارَهـــا فَدَّتـــهُ بِالخَيـــلِ وَالرَّجْـــلِ[5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 157/3

([2]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص 288.

([3]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 1/ 209. البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 431. شعيب، محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، ص 99.

([4]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في الشعر المتنبي**، ص 46.

([5]) المتنبي، **الديوان**، 14/4

لشدّة عشقه لها، لا بدّ أن يزور عشيقته، وزيارته لها أمر كثير ومتكرر فاستخدم (إذا) ليدلّ على ذلك. [1] "وهذا تخيل مبتكر بديع". [2]

شبّه الخيل وفرسانها بسهول تحوّلت إلى جبال، فالأرض القفاز قد امتلأت بجيوش الممدوح، أمّا الخيل العالية، وما تحمله من فرسان وأسلحة ورماح فشبّهها بارتفاع الجبال، وهذا دليل الكثرة والشّجاعة، يقول:

والخَيلُ تَبكي جُلودُها عَرَقًا بِأَدمُعٍ ما تَسُحُّها مُقَلُ
سارَ وَلا قَفْرَ في مَواكِبِهِ كَأَنَّما كُلُّ سَبسَبٍ جَبَلُ[3]

شدّة الطّراد في أهوال الحرب جعلها تعرق، وشبّه عرق الخيل بالدّموع المنهمرة دون عيون أو جفون، إنّما من الجلود، وهذا يدل على الغزارة وشدّة الموقف. فاستخدم الدّموع الغزيرة الّتي تكون عادة ملازمة للعاشق المحب الذي يعاني لوعة الفراق.

بعضهم يعدّ استخدام ألفاظ الغزل في وقت الشدّة دليل ثقافة المتنبي واقتداره في الكلام، وبعضهم الآخر يعدّه تكلّفاً يؤذي الذّوق، إلا أنّ ذلك يحدّ من حرية الشّاعر ويلزمه ألفاظاً معينة لكل حالة، وهذا لا يخدم إبداع الشّاعر أو تجديده[4].

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 129.

([2]) المتنبي، **الديوان**، 14/4

([3]) المصدر السابق، 331/3. سبسب: المفازة، الأرض القفرة البعيدة. **اللسان**، باب سبسب.

([4]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص 217.

الفصل الثالث

السّمات الفنية عند الشّاعرين

المبحث الأول

اللغة والموسيقى والصّورة الفنية في شعر الشّاعرين

ومن خلال دراستي للنّماذج الشّعرية في صورة الخيل عند الشّاعرين، فإن أهم ما يمكن استنتاجه حول لغة الشّاعرين وصورهما الفنية وموسيقا الشعر لديهما هو:

اللغة عند أبي تمّام

"اللغة أداة تعبير عن الوجود ورمز له في آن، باعتبار أنّهـا إدراك حسّـي للأشـياء، وتجريد لها، وهي محاكاة للطّبيعة، تصوّر وترمز، فالكلمة – الفكرة يجب ألّا تبقى صورة ذهنية مجرّدة، ولكن يجب أن تحمّل بزخم إنسانيّ ناتج عن تجربة، لذلك ارتبطـت اللّغـة الشّـعرية بالمعاناة الشّعورية" [1]

وتلعب طبيعة الشّعر دوراً مهماً في طريقة اختيار الشّاعر لكلمة ما دون غيرها، فهناك ألفاظ ذات إيحاء وقدرة على نقل الإحساس من الشّاعر إلى المتلقي، " فالشّعر تعبير عن الحيـاة بخيرها وشرّها، بآمالها وآلامها، وتصوير للنّفس الإنسانية بفضائلها، ورذائلها، وجمالها وقبحها"، ولا ينعكس ذلك إلا بالألفاظ المنتقاة [2].

وقد حاول بعض النّقاد وضع قواعد للحكم من خلالها على جيّد الشّعر ورديئه، ومنهـا وجوب اجتماع صحة المعنى وعذوبة اللّفظ وصحّة وزن الشّعر لقبوله، ويتمّ إنكاره على قـدر نقص هذه الأجزاء. [3]

وصدق العبارة من الأمور المهمة الّتي يجب أن يشتمل عليها الشّعر، إضافةً إلى عـدم عُريَّه من معنى بديع وحسن الدّيباجة، وما خالف ذلك فليس بشعر في نظر النقاد [4].

([1]) عسّاف، ساسين: الصّورة الشعرية، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982،ص14– 15.

([2]) الخضراوي، فخري: **رحلة مع النقد الأدبي**، دار الفكر العربي، 1977، ص154–155.

([3]) ابن طباطبا، محمد بن أحمد: **عيار الشعر**، تح: طه الحاجري و محمد زغلول سلام، (د.ط)، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1956، ص15.

([4]) ابن طباطبا: **عيار الشعر**، ص16–17.

إلا أنّ أبا تمّام شاعرٌ عشق الإغراب، وطلبه في فنه، مزخرفاً ومزيناً شعره بِه، يقول:

خُـــذها مُثقَّفـــةَ القـــوافي، ربُّهـــا لســـوابغ النَّعْمـــاء غيـــر كَنُـــودِ
حَـــذَّاء تمـــلأ كـــل أذنٍ حكمـــةً وبلاغـــةً وتُـــدرُّ كـــل وريـــد
كالـــدّر والمرجـــان ألّـــفَ نظمـــه بالشّـــذر فـــي عنـــق الفتـــاة الـــرّود
كشـــقيقة البُـــردِ المـــنمن وشْـــيهُ فـــي أرضِ مَهْـــرَةَ أو بـــلاد تَزيـــد[1]

جعل أبو تمّام من أشعاره قلائد تُصاغ فيها الدّرر والمرجان، وشذور الـذّهب، وهـي كالبرود الموشية والمنمّقة بالنّقوش الجميلة [2].

وقد أشار أعلام النقد إلى قصده للغريب في قوله، وتكلّفه له، فقال ابن رشيق: إنّ أبا تمّام "يذهب إلى حزونة اللفظ، وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً ذكرها، يأتي للأشياء من بُعدٍ ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة "[3]، في حين يذكر ابن المعتز أنّ " أكثر ما له جيد والرديء والرديء الذي له إنّما هو شيء يستغلق لفظه فقط، فأمّا أن يكون في شعره شـيء يخلـو مـن المعاني اللّطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة، فلا "[4]. وذكر الجرجاني في حديثه عن تخيّـر أبـي تمّام للإغراب والبديع: " ولم يرض بهاتين حتّى اجتلب المعاني الغامضة، وقصـد الأغـراض الخفية، فاحتمل فيهما كلّ غثّ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل، فصار هذا الجنس من شـعره إذا قرع السّمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكدّ الخاطر[5]". فقارئ شعره يقـف حـائراً أمام طلاسمه وغموضه، لكنّ التفكير والكدّ في تحليل الصّور والمعاني يوصله إلـى روعتهـا، وجمالها، ودقّة التّصوير فيها، وهذا يتطلب منا الصّبر والمثابرة حتّى نصل إلى الإبداع والجزالة في شعر أبي تمّام[6]، ومن الأمثلة على غريبه في الشّعر:

يقولـــون إنّ الليـــثَ ليـــث خفيّـــة نواجـــذه مطـــرودةٌ ومخالبـــهُ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 397 – 398.
([2]) ضيف، شوقي: **الفن ومذهبه في الشعر العربي**، ص 227.
([3]) ابن رشيق: **العمدة**، 1 / 130.
([4]) **طبقات الشعراء**، ص 286. عباس إحسان: **تاريخ النقد الأدبي**، ص 118 – 119.
([5]) **الوساطة**، ص19.
([6]) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص 207.

وما اللّيث كلّ ليث إلا ابن عَثّرٍ يعيش فوقَ ناقةٍ وهو راهبهُ[1]

"ويحلّ هذا الطّلسم بقولنا: ليس الأسد سبع الغاب، ولكنّ الأسد الحقيقي هو الذي يحتمل بأس الممدوح ولو قليلاً (فوق ناقة) [2]، ومن إغرابه أيضاً:

وقد كانت الأرماح أبصرن قلبه فأرمدها ستر القضاء الممدّد[3]

"يتخيّل الشّاعر أنّ للرماح عيوناً أبصرت المقتل من (بابك الخرميّ)، ولكنّ قضاء الله الذي لم يكن قد حان بعد، مدّ بين عيون الرّماح وبين عيون قلب بابك ستراً أمرضها، فأضلّت الطّريق(ونجا بابك) [4]، وفيما أرى أنّ هذه الصّورة غاية في الجمال، بعيدة عن التّعقيد الشديد الذي توصف به.

وإذا ما بحثنا عن أسباب هذا الغموض في أسلوبه وألفاظه، نجده يعود إلى تعمّقه في مذاهب المتكلمين، وفي الفلسفة والمنطق، ممّا جعله يكثر من الأدلّة المنطقيّة المستمدّة من إحساسه العميق بتشابك الكون، ممّا أشاع الغموض في كثير من أبياته[5].

أمّا طه حسين، فيرى أنّ هذا التّعمق من المزايا والعيوب في نفس الوقت، لأنّه يدلّ على قوّة العقل، والقدرة على فهم الأشياء دون لُبس، ولكنّه في الوقت نفسه عيباً؛ لأنّه يضطره إلى الإغراب في المعاني ممّا لم يتعود النّاس عليه[6]، وبسبب إطلاع أبي تمّام على التّراث الشّعري الشّعري القديم، تراه مغرماً بالألفاظ البدوية الواردة في الأدب العربي، فأخذ الألفاظ الغريبة الحوشية، وردّدها في شعره، يقول:

وقد قلت لما اطلخمّ الأمر وانبعثت عشواء تاليةٌ غُبْساً دهاريسا[7]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 229 – 230.

([2]) المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ص 209.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 26.

([4]) المصدر السابق، 2 / 26.

([5]) ضيف، شوقي: **العصر العباسي الأول**، ص 278.

([6]) **من حديث الشعر والنثر**، ص 97.

([7]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 256.

شبّه الإنسان الحائر بالنّاقة التي خانها بصرها، فتبعت ذئاباً ضارية، وكذلك الإنسان في المصائب، يشتبه عليه الأمر فيلقي بنفسه في التّهلكة دون أن يدري[1]، فلفظة اطلخمّ من الألفاظ الألفاظ المنكرة الّتي جمعت بين الغرابة والغلظة، وكذلك دهاريس "[2]، وقوله:

صَهصَــلِقٌ فــي الصّــهيل تحسِــبُه أُشْــرِجَ حُلْقُومُــه علــى جَــرَسِ[3]

لم يخش أبو تمام استخدام المفردات الغريبة الصّلبة الجزلة ذات الجرس القوي مادامت في نظره ملائمةً ومعبرةً عن الإحساس الذي أوجدها، وكأنه بأسلوبه جعل الغريب مألوفاً كاستخدامه كلمة (صهصلق)[4].

أضف إلى ذلك تكراره القبيح للكلمة الواحدة في البيت الواحد[5]، كما قال:

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المُؤمِل منك إلا بالرضا[6]

ورُوي أنّ الموصلي قال له: " لقد شققت على نفسك، إنّ الشّعر لأقرب مما تظنّ" [7]

وقد تحامل عليه بعض النّقاد لإغرابه في الشعر، واتهمه آخرون بإفساد الشّعر، وعدم مناسبته لجماليات اللّغة العربية في الإبداع الشّعري[8].ولعلّ ذلك يعود إلى عداوتهم معه وتحالفهم وتحالفهم ضدّه في كثير من الأحيان.

([1]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص 77 – 78.

([2]) ابن الأثير: **المثل السائر**، 1 / 235.

([3]) أبو تمام: **الديوان**، 234/2– 239

([4]) الرباعي: **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، ص302. وقد أخذ أبو تمام وصفه لصوت فرسه من قول غيلان بن سلمة الثقفي يصف فرساً:

نَهْــد كتــيْس أقــبَّ مُعتــدل كأنّمــا فــي صــهيله جــرَس

الآمدي: **الموازنة**، 1 / 106.

فكلاهما جعل الصوت كالجرس لشدته.

([5]) فروخ،عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة**، ص 77 – 78. ينظر: مروّة، محمد: **أبو تمّام عصره حياته شعره**، ص 164– 165.

([6]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 307.

([7]) الجرجاني: **الوساطة**، ص72.

([8]) أبو الأنوار، محمد: **الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية**، ص295.

إلّا أنّ ذلك لا يمنع القول إنّ أبا تمّام هيّأ للشّعر الازدهار والتّجدد والإبداع مستنداً إلى ثقافة فلسفية واسعة، ومعرفة أوسع بالشّعر العربي القديم والحديث[1]، وقد يعود السّبب في إنكار إنكار النّاس هذا الإغراب، واعتباره عيباً، لتعوّدهم على المعاني القريبة في الشّعر وإيجاد الصّعوبة والحرج في فهم الألفاظ الغريبة[2]، فالنّاس بطبيعتهم يميلون إلى ما ألفوا، ويصدّون عمّا عمّا لم يألفوا[3].

تميّز أبو تمّام، ولعلّه أحد أسباب إغرابه وغموضه، بالشّغف بالبديع، فهو حامل لواء هذا الاتجاه بعد معلمه مسلم بن الوليد[4]، فأدخلوا التّجديد على الشّعر العربي، وعكسوا الرقيّ العقليّ العقليّ الذي شهدته الحضارة العربية العباسية، وأبرزوا الأصول التّراثيّة، وأفادوا منها [5]، فأصبحت القصائد تجمع بين ألوان البديع من طباق، وجناس، وتصوير، واستخراج لدقائق المعاني وخفاياها[6]، حيث أنّ أبا تمّام كان "يغوص على المعاني العقلية غوصاً، ويُعملُ فيها خياله البعيد، ويختار لها الألفاظ، ويُعنى ببديعها وجناسها، فتمّ له من معانيه العميقة إلى القاع، وخياله المرتفع إلى السماء، وألفاظه المتجانسة المزوّقة، نوع جديد من الشّعر لم يُسبق إليه[7]". إليه[7]". وإن كان متأثّراً بمن سبقوه كمسلم بن الوليد، وأبو نوّاس، وبشّار، بكثرة البديع والجناس، والجناس، وكثرة المعاني وغزارتها[8].

إلا أنّ استخدام أبي تمّام للبديع تجاوز المعلم، فتراه يكثر من هذا الوشي وألوانه، فيقول مادحاً خالد بن يزيد الشيباني:

يا موضع الشّدَنِيَّةِ الوَجْناء ومُصارعَ الإدلاج والإسراءِ

([1]) ضيف، شوقي: **العصر العباسي الأول**، ص 278.

([2]) حسين، طه: **من حديث الشعر والنثر**، ص 97.

([3]) مروّة، محمد: **أبو تمّام عصره حياته شعره**، ص 160 – 161.

([4]) المصدر السابق، ص 160 – 161.

([5]) التطاوي، عبد الله: **القضايا العباسية قضايا واتجاهات**، ص 109.

([6]) غوادرة، فيصل: **التمرد في العصر العباسي الأول**،ط1، الأردن: دار جهينة، 2005، ص 138.

([7]) الصولي: **أخبار أبي تمّام**، ص أهـ.

([8]) المصدر السابق، ص أهـ. ينظر: غوادرة، فيصل: **التمرد في العصر العباسي الأول**، ص 139.

سَـــيْلٌ طمَـــى لـــو لـــم يـــذُده ذائـــدٌ لتبطّحـــــــــت أولاه بالبطحـــــــــاءِ
وغَدَتْ بطون مِنًـــى مُنًـــى مـــن سَـــيْبِه وغدتْ حـــرًى منـــه ظهـــورُ حَـــرَاءِ[1]

فهو يبالغ في الجناس بين (يذده وذائد، تبطحت والبطحاء، مِنى ومُنى، حرى وحـــراء) وهذا في رأي شوقي ضيف، مهارة فائقة في استغلال الأمّاكن في الجناس[2]، وممّا يلفت النّظـــر النّظر في تصويره أنّه يلتفّ على هذا الجناس فيميّزه، ومن ذلك:

متى أنتَ عـــنْ ذُهليّـــةِ الحـــيّ ذاهـــلُ وقَلْبُـــكَ مِنهـــا مُـــدَّةَ الـــدَّهْرِ آهِـــلُ
تُطِلُّ الطُّلُولُ الـــدَّمْع فـــي كُـــل مَوْقِـــفٍ وتمثُـــلُ بالصّـــبرِ الـــدِّيارُ المواثِـــلُ
دوارسُ لـــمْ يجـــفُ الرّبيـــعُ ربوعَهـــا ولا مَـــرَّ فـــي أغفَالِهـــا وهْـــوَ غَافِـــلُ
فَقَـــدْ سَـــحبَتْ فيهـــا السَّـــحائِبُ ذَيْلَهَـــا وقَدْ أُخمِلَـــتْ بـــالنَّوْرِ فيهـــا الْخَمَائِـــلُ[3]

فالجمال ليس بالجناس وحده، إنّما في الصّورة الّتي وُضع فيها، حيث تـــرى " الطّلّـــول تطلّ الدّمع، والرّبيع لا يجفو الرّبوع ولا يمرّ بها غافلاً، ثم تلك السّحائب الّتي تجرّ أذيالها، وتلك الخمائل الّتي أُخملتْ بالنّور" [4]

كما طابق بين السّيف والكتب، والجدّ واللّعب، والبيض والسّود، في رســـمه للصّـــورة المشرقة يوم فتح عموريّة، فيقول:

السّـــيف أصـــدق إنبـــاءً مـــن الكتـــب في حـــدّه الحـــدّ بـــين الجَـــدِّ واللّعـــبِ
بيضُ الصّفائح لا سود الصّـــحائف فـــي متـــونهنَّ جـــلاء الشّـــكّ والرّيـــب[5]

ويظهر الطّباق عنده بصورة تخالف ما هو معروف، بما فيه من مبالغة وعمق وتعقيـــد، وهو ما يُعرف بـــ (نوافر الأضداد)، فهو معقّد بما يلوّنه من ألوان عقلية مختلفة، تجعل المقابلة معنوية أكثر منها لفظية، على نحو ما نرى في قوله:

مَطَـــرٌ يَـــذُوبُ الصَّـــحْوُ منـــه وبَعْـــدَه صَـــحْوٌ يَكـــادُ مِـــنَ الغَضَـــارة يُمْطِـــرُ

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 7 – 11.
([2]) **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص 227.
([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 / 112 – 114.
([4]) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص 227 – 230.
([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 40.

غَيْثَـــانِ فـــالأَنْوَاءُ غَيْـــثٌ ظـــاهِرٌ لـــكَ وجهـــهُ والصـــحوُ غيـــثٌ مضـــمرٌ
يـــا صـــاحِبَيَّ تَقصَّـــيا نَظرَيْكُمَـــا تريـــا وجـــوهَ الأرضِ كيـــفَ تصـــورُ
تريـــا نهـــاراً مشمســـاً قـــد شـــابهُ زهـــرُ الربـــا فكأنمـــا هـــو مقمـــرُ[1]

فيما سبق طباق جديد يعتمد على (نوافر الأضداد)، حيث يطابق بين الألفاظ والمعـــاني ليُخرج لنا صوراً عن الرّبيع غير مألوفة، فطابق " بين المطر الذي يذوب فيه الصّحو، والصّحو الذي يوشك أن يمطر، وبين الغيث الظّاهر الذي تدركه الحواس، والغيث المضمر الذي لا يدركه العقل، ثم هذا النّهار المشمس الذي يتدفق بالنّور والضّياء، والذي يتراءى له ليلاً مقمراً لكثرة ما انتشر على صفحة الأرض فيه من زهر ونور ونبات "[2]

الموسيقى عند أبي تمّام

هتمّ أبو تمّام بالموسيقى الداخليّة والخارجيّة في شعره، فاعتنى بـــوزن أبياتـــه، وقافيـــة قصائده، واختار الألفاظ بعناية، وجمع بينها بأسلوب خاص شكّل صوراً موسيقية جميلة.

ومن الأمور الّتي أثّرت في صورته تلك اهتمامه الشّديد بالزخرف اللّفظـــي والمعنـــوي بألوانه المختلفة، إضافةً إلى استعاراته البعيدة، ومعانيه المولّدة وصنعته وتكلّفه. [3]

كما حافظ على الشّكل الخارجي لبنية القصيدة، إلا أنّه غيّر تغييراً جوهرياً في العلاقات الداخلية وبخاصة في العلاقات الصوتية والدلالية.[4]

جعل أبو تمّام جودة المعنى وغرابته إلى جانبها ازدحام الشّعر بالمحسنات البديعية فـــي المقدمة، ممّا ترك عذوبة اللّفظ وجمال الموسيقى في المؤخرة، فلم يكن يحفل بهما إلا بقدر قليل، ولذا جاءت أشعاره ثقيلة على الأسماع والألسنة.[5]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 194.

([2]) خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، ص 126.

([3]) غوادره، فيصل حسين: **التمرد في الشعر العصر العباسي الأول**، ص143.

([4]) الزبيدي، صلاح مهدي: **دراسات في الشعر العباسي**، ط1، عمّان، الأردن: الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2004، ص 187.

([5]) الكفراوي، محمد عبد العزيز: **الشعر العربي بين الجمود والتطور**، ص 180.

فمبالغته في الزخرف أصبحت غاية يقصدها لذاتها، بعد أن كانت وسيلة لإضفاء الجمال والموسيقى، وأصبح أبو تمّام يرصّع بها كل بيت أو مقطوعة أو قصيدة حتى ملأ شعره بها.[1]

بها.[1]

في حين يرى طه حسين أن أبا تمّام يُعنى بالموسيقى وجمال اللّفظ، ولكنه أيضاً يُعنى بالمعنى بدقّة تجعله لا يُفهم، فيفسد الموسيقى، لأنّه كان يحسّ معناه إحساساً قوياً ويعجز عن مشاركتنا فيه. [2] فقد برز اهتمامه بالموسيقى وثرائها واضحاً من خلال اتّكائه على البديع، وخاصة الجناس، والطّباق، والتّرادف، والتّقسيم، كقوله:

أورَثَتْ (صَاغِرَى) صَغَاراً ورَغْماً وقَضَتْ (أَوْقَضَى) قُبَيْلَ الشُّرُوق
كَمْ أَفَاءَتْ مِنْ أَرْضِ قُرَّةَ مِن قُرَّ ةِ عَيْنٍ وَرَبْرَبٍ مَرْمُوق[3]

فتستطيع أن تسمع الموسيقى من خلال المجانسة في (صاغري، صغار، قضت، أوقضى) وففي ألفاظه موسيقى شديدة الرنين، وعندما تتصل هذه الألفاظ وتتداخل تكوّن أنغاماً صاخبة، فلا تُنقلُ الغزوات إلينا بمعانيها، إنّما تُنقلُ برنين ألفاظها، لتسمع أصوات السّياط تلهب ظهور الجياد المتعبة، فيقول:

ألهبَتْهَا السّيَاطُ حتّى إذا استَنَّتْ بإطلاقِهَا على النّاطلُوق[4]

فظهرت الموسيقى الدّاخلية من خلال اهتمامه بالجناس والتّقسيم.

وقد نوّع أبو تمّام في استخدامه لبحور الشعر وقوافيه، وأوزانه الطويلة والقصيرة بما يتلاءم مع الأغراض الشّعرية المختلفة التي طرقها في شعره.

كما أن استخدامة للتصريع والتوشيح في الموسيقى الخراجية للشعر عند أبي تمام.[1]

([1]) حجاب، محمد: **معالم الشعر وأعلامة (عصر الدّولة الموحدة)**، ص253-254.

([2]) **في حديث الشعر والنثر**، ص103.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 / 438- 442.

([4]) المصدر السابق، 2 / 433 -434.ينظر: حجاب، محمد: **معالم الشعر وأعلامه(عصر الدّولة الموحدة)**، ص253-254.

على أن طابع الشعر العام عنده يجعلنا نتعلق به، ونطرب لسماعه، ونذكره في ميـــدان الشّعر الكبير بالذّكر الجميل"[2]

الصّورة الفنية عند أبي تمّام

الصّورة عبارة عن شعور وجداني غامض، هي أداة توحيد بين أشياء الوجود، وامتلاكها وصهرها وإعادة تركيبها، فتُكشفُ لنا عارية دون غموض، فهي تمثل رؤية فكرية أو عاطفية في لحظة من الزّمن [3].

وقد كان للثّقافات المتنوعة الّتي أحاطت بالشّاعر، أثر كبير في أفكاره وخياله، فعـــزف عن المعاني السّطحية، وغاص وراء الفكرة مهما عمقت، وساعده في ذلك ذكاؤه الحادّ، وفكـــره الغوّاص، فكان تأثّره بها عميقاً قوياً [4].فحاول الابتكار والتّطوير من خلال ذوقه، ونَقَـــلَ إلينـــا مشاعره وأفكاره من خلال تجربته في الحياة.

اعتنت صور أبي تمّام بالإنسان في علاقته مع نفسه ومجتمعه، فاستخدامَ اللّغة في إحياء الفكر، وإرواء العقل، واستعان بالتّصوير لإيجاد المزج بين الألفاظ عن طريق الجناس والطّباق وغيرها، وأضاف إليها الألوان بالتّدبيج ؛ إيماناً بأنّ ألوان الطّبيعة انعكاس لألوان النّفس، فكانت صورته حرةً لا تتقيد بشكل مما منحها لوناً حسيّاً ملموساً[5].

فأحسن صبغ صوره إحساناً شديداً، فزيّن الجمال ولوّنه بشكل ينسينا ما فعله غيره مـــن الشّعراء في هذا الجانب [6].

([1]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله**، ص58–59. التصريع: التزامهم القافيـــة فـــي العـــروض والضرب من المطالع. **اللسان**، باب صرع. التوشيح: ينظمون أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً ويكثرون من أعاريضها المختلفة ويلتزمون قوافي عند تلك الأغصان. فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله** ص 58–59.

([2]) فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله** ، ص168.

([3]) عسّاف، ساسين: **الصّورة الشعرية**، ص26–27.

([4]) حجاب، محمد نبيه: **معالم الشعر وأعلامه**، ص250.

([5]) المصدر السابق، ص134–136 ينظر: التطاوي، عبد الله: **أبو تمّام صوت وأصداء**، ص38.

([6]) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص233.

رأى أبو تمّام الاشياء بحواسه ثمّ بعقله، حتّى يجد المعاني وينتقي الألفاظ، ويلائم بينها.

فخرج أبو تمّام بنوع جديد من الشّعر، أخرجه من رأسه لا من قلبه، مستمدّاً صوره من الواقع الملموس تارةً، ومن الخيال الخصيب تارةً أخرى، مبالغاً في بعض الأحيان بما يملأ النفس إعجاباً بشاعريته [1].التي استطاع من خلاله تحويل الحقيقة إلى خيال مبتكر.

وهذا يكشف عن شاعر عظيم متمكن، استقى صوره مما حوله، مستفيداً من التراث، مقلّداً ومبتكراً في آنٍ واحد.

وعلى الرّغم من ذلك كان للتّراث أثر كبير في شعر أبي تمّام، في الأغراض وموضوعات القصائد، والملامح العامّة للشّعر، ولعلّ هذا ما دفعه إلى حركته التّجديدية، وإبراز قدراته الخاصة خارج هذا الإطار المحدّد للقصيدة، فأبو تمّام يرى أنّ الشعر لا يموت بموت صاحبه [2]."

فقد أخذ الصّور القديمة وأضاف إليها صورة أخرى، مثلما جعل الحرب تلوك الجياد في قوله:

واكتستْ ضُمّرُ الجياد المذاكي من لباس الهيجا دماً وحميماً[3]

فلم ينقل الصّورة نقلاً كاملاً مكرّراً، بل اغترف من القديم وأضاف إليها خطوطاً جديدة تحوّلها إلى صور مبتكرة [4]."

وهذ يعكس اهتمام أبي تمّام بالثّقافة وكثرة اطّلاعه على كتب التّراث وأشعار العرب، وثقافات الشّعوب الأخرى من اليونان والفرس، وخير دليل كتب الاختيارات التي ألّفها أبو تمّام، مما دعا الحسن بن رجاء يقول كلما ذكر أبا تمّام، "ما رأيت أعلم بكل شيء منه [1]."

([1]) حجاب، محمد نبيه: **معالم الشعر وأعلامه**، ص250-251.

([2]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، ص113..

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 / 229.

([4]) نصرت، عبد الرحمن: **شعر الصراع مع الروم**، ص163-164.

ولا يجب أن ننسى أثر رحلاته وتنقلاته عبر العالم العربي، ممّا أتاح له فرصة الاتّصال بالخلفاء والوزراء، فضلاً عن الشّعراء والأدباء، فتفتحت عينيه على بيئات عديدة ومذاهب مختلفة، نهل منها أبو تمّام حتّى أبدع [2].

يقول طه حسين:" مما لا شك فيه أن هذا السفر المتصل إذا صادف عقلاً كعقل أبي تمّام، وقلباً كقلبه، وشعوراً رقيقاً حادّاً كشعوره، ترك في هذا القلب، وفي هذا العقل والشعور أشدّ الأثر وأحدّه، وظهر هذا كله في شعره" [3].

إضافة إلى الموهبة الفطرية والبديهة الحاضرة الّتي امتلكها أبو تمّام [4]، والّتي جعلته يستغلّ كلّ ما يسمعه، ويوظفه في شعره، وفيما أرى فإنّ هذا قمة الابداع، كقوله:

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً إن السّماءَ تُرجّى حين تحتجب[5]"

فقد أخذ المعنى من أفواه من لا يقصدون أن يخرجوا أدباً لأنفسهم[6].

وقد لعب التاريخ دوره في صورة أبي تمّام، فاستفاد من وقائع التاريخ وضمّنها شعره من خلال مدحه للممدوح أو قبيلته، كقوله:

هو المشهد الفَصْل الذي ما نجابِه لكسْرى بن كسرى لا سنامُ ولا صُلْبُ[7]

عرض أبو تمّام من خلال فنّه ظروف الدّولة التي عاش في ظلّها، وأهم حروبها ووقائعها حتّى أصبحت بعض قصائده أشبه بوثيقة تاريخيّة يمكن الاعتماد عليها.

نالت الطّبيعة نصيباً وافراً من وصف أبي تمّام لها، فكثير من عناصر صورته مستوحاة من البادية القريبة من العصر الجاهلي، كقوله:

([1]) الصولي، أبو بكر: **أخبار أبي تمّام**، ص171.

([2]) حجاب، محمد نبيه: **معالم الشعر وأعلامه**، ص248-249.

([3]) **من حديث الشعر والنثر**، ص99.

([4]) حجاب، محمد نبيه: **معالم الشعر وأعلامه**، ص247.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 446/4.

([6]) فروخ، عمر: **أبو تمّام**، ص67.

([7]) أبو تمّام: **الديوان**، 196/1.

رعتـــه الفيـــافي بعـــدما كـــان حِقْبـــةً رعاها وماءُ الـــروض ينهـــلُّ ســـاكبُهْ[1]

وصفه لها وصف حيّ يفجّر طاقات، ويجعلها معبرة عن الأحاسيس، فهو لا ينفصل عما يصوره، فقلبه نابض بها وإحساسه ناطق بتفاصيلها الخلّاقة [2].

أحسن الشّاعر المزاوجة بين الثّقافة العربيّة والثّقافات اليونانيّـــة والفارســـيّة وغيرهـــا، فأخرج صوراً تصل إلى النّفوس.

وقد تأثّر أبو تمّام بالقرآن الكريم، واعتمد علوم اللّغة مع الاحتفاظ بقدســـية القـــرآن[3]. وتأثّر ببعض سنن الإسلام وخاصة في قصيدة فتح عمّورية [4].

لكنّ أبا تمّام لم يرتض هذا الحدّ لأنّه يبغى التّجديد، فجعـــل الاســـتعارات فـــي صـــور مشخّصة أو مجسّمة حسّية متحركة، وقد أغرق في ذلك حتّى كان ذلك مثار اســـتنكار لخـــروج الشّاعر عن المألوف والمبالغة في الغموض المعيب أحياناً. [5] كقوله:

فضـــربت الشّـــتاء فـــي أخدعيـــه ضـــربةً غادرتـــه قـــوداً ركابـــا[6]

وعلى الرّغم من ذلك، لا يجب تقييد الشّاعر بعادات القدماء، بل يجب فتح المجال أمامه ليجدّد ويبتكر.[7] أمّا إساءة الشّاعر في بيت أو في قصيدة لا تسقطه من الشّعراء ولا تقدح فـــي شاعريته."[8]

بقي أبو تمّام ظاهرة في الشّعر العربي ومعلماً بارزاً من معالم هذا الشّعر، إلّا أنّه يحتاج إلى جهود متنوعة لتضعه في مكانه الصّحيح من تذوق الشّعر وإدراك ملكاته المبدعة. [9] ففـــي

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 230/1.

([2]) الزبيدي، صلاح مهدي: **دراسات في الشعر العباسي**، ص190-191.

([3]) المصدر السابق، ص129.

([4]) سلطان، جميل: **أبو تمّام**، ص55.

([5]) المصدر السابق، ص49.

([6]) أبو تمّام: **الديوان**، 166/1.

([7]) **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص235.

([8]) الجرجاني: **الوساطة**، ص430.

([9]) أبو الأنوار، محمد: **الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية**، ص328.

شعره تجد " الفكرة، والجمال اللّفظي، وجمال الصّورة، وحلاوة النّفس، والشّاعرية الفياضة، الّتي لم تتهيأ لشاعر قبله، ولا بعده " [1].

اللغة عند المتنبي

إن المتنبي شاعرٌ امتلك قدرات جبّارة في استثمار خصائص اللّغة وتطويع بيانها لخدمة أشعاره، فديوانه حافلُ بألفاظ وأساليب جديدة ومبدعة، وإنّما يدلّ ذلك على سعة الإطّلاع اللّغوي وكثرة المحفوظ.[2] فالشّعر فنّ المتنبي الخاص، به ارتقى سلم التّاريخ، وقد شغله على بقية الفنون، واستهلك أكثر من نشاطه العقلي والجمالي، ممّا جعل قصائده خالدة عبر الزّمان. [3]

والمتنبي كسائر شعراء عصره، تخيّر الألفاظ وانتقاها حتّى تلائم الأجواء الحربية الّتي يصفها، فتراوحت ألفاظه ما بين المعتادة المألوفة، والغريبة الوحشيّة والشّاذة البدويّة، وربما اختار الألفاظ الركيكة، ممّا عرضه لكثير من النّقد والرّفض، إلا أنّه لم يبدِ اهتماماً، بل تفاخر بغريبه في الشّعر قائلاً:

أَنــامُ مِــلءَ جُفــوني عَــن شَــوارِدِها وَيَســهَرُ الخَلــقُ جَرّاهــا ويختصــمُ[4]

فهو يأتي بالغريب الشّارد ثم يشعر بالسّرور إن عجز عنها القرّاء والباحثون، فينام ليله الطّويل.

فقد أشار بعض النّقاد إلى إغرابه الشّديد، واستهجنوه كالجرجاني، فقال: "قد جمع في أبياته ممّا احتذى به حَذْوَها بين البرد والغثاثة، وبين الثّقل والوخامة، فأبعد الاستعارة، وعوّض اللّفظ، وعقّد الكلام، وأساء التّرتيب، وبالغ في التّكلّف، وزاد على التّعمق، حتّى خرج إلى السّخف في بعض، وإلى الإحالة في بعض " [5]

([1]) البهبيتي، نجيب محمد: **أبو تمّام الطائي حياته وحياة شعره**، ص243.

([2]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص359.

([3]) عثمان، سهيل وكنعان، منير: **المحصول الفكري للمتنبي**، ط1، بيروت: دار الإرشاد، 1969، ص322.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 84/4

([5]) **الوساطة**، ص92.

وقال آخر: " إنّه يقبل السّاقط الرّدئ، كما يقبل النّادر البدْع، وفي ألفاظه تعقيد وتعويص"[1]

ومثله قول الثّعالبي" يجمع بين البديع النّادر والضّعيف السّاقط "، فيمحو محاسن الكلام ويكدّر صفوه، ويعقب حلاوته مرارة غير مستحبة [2]. فمن غريبة المستهجن قوله:

لِساحيهِ عَلى الأَجداثِ حَفشٌ كَأَيدي الخَيلِ أَبصَرَتِ المَخالي[3]

فاستخدم السّاحي والحفش، وكلاهما لفظ غير مألوف، ولعلّ ذلك يعود على أنّه عاش فترة لا بأس بها في الصّحراء العربية، وعاشر الاعراب وألفاظهم فألِفها، ثم استخدمها في شعره متفاخراً بمحصوله اللّغوي، وقدرته على تطويع اللّفظ كما يريد.

وقد يكون إغرابه ناتجُ عن اتّصاله منذ صغره بكبار العلماء والفلاسفة ورجال عرفوا بالزّندقة والإلحاد. [4]إضافةً لاطّلاعه الغزير على آثار الشّعراء الذين سبقوه، واحتذاءه شعرهم وألفاظهم بغريبها وتكلّفها [5].

فأكدّ ابن رشيق مذهبه في الإغراب قائلاً: " كان يأتي بالمستغرب ليدلّ على معرفته، إلا أنّ تكلّفه غير محمول على ضرورة يكون فيها عذر"[6]

وقد أكثر المتنبي من استعمال بعض أسماء الإشارة مثل(ذا) والضمائر والحروف، حتّى باتت ظاهرة عُرف بها شعره، دالة على التّكلّف، وربما وافقتْ موضعاً يليق بها، فاكتسبت قبولاً، فأمّا كثرتها فسخافة وضعف" [7]. كقوله:

فَبَعدَهُ وَإِلى ذا اليَومِ لَو رَكَضَتْ بِالخَيلِ في لَهَواتِ الطِفلِ ما سَعَلا[8]

([1]) الأصفهاني: **الواضح في مشكل شعر المتنبي**، ص27.

([2]) **يتيمة الدهر**، 164/1.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 145/3

([4]) البغدادي: **خزانة الأدب**، 363/2.

([5]) الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص9.

([6]) **العمدة**، 266/2.

([7]) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، 179/1. ينظر: الجرجاني: **الوساطة**، 95-97.

([8]) المتنبي: **الديوان**، 288/3

وقوله:

ضُـــرِبنَ إلَيْنَـــا بالسّـــياطِ جَهَالَـــةً فَلَمّـــا تَعَارَفْنَـــا ضُـــرِبنَ بهَـــا عَنّـــا[1]

ويرجع ذلك لتصنّعه للعبارة الصّوفية، فيقول شوقي ضيف: " إنّما يأتي مـــن اســـتعارته لطريقتهم في التعبير وما يتصل بها، فإنّ المتنبي حين عَدَلَ بشعره إلى العبارة الصوفية كان قد أسلم هذا الشّعر لصعوبات في التّركيب، كأن يكثر من الضّمائر أو من أسماء الإشـــارة أو مـــن حرف النّداء أو من التّصغير، فيبعث في التّعبير حالات غريبة من التّعقيد" [2]

ويظهر أنّ مثله الأعلى في أول أمره كان شعراء الصّنعة أمثال مسلم بن الوليد، وأبـــي تمّام، فقد كان يحتذي طريقتهما في الإغراب والتكلّف [3].

فارتقى سلم المجد على مراحل، ممّا زاد شعره تألقاً وروعة كما أمعن في قول الشـــعر، فقد استفاد من جيد شعر أبي تمّام فاكتسب منه قوة حيناً بعد حين، حتّى اشتدّ عـــوده الشـــعري فاستقلّ شيئاً فشيئاً، وكوّن لنفسه شخصيةً مستقلةً مميزة بأسلوبها الخاص [4].

فبإمكاننا أن نقسّم شعر المتنبي إلى قسمين: أحدهما على مذهب أبي تمّام الـــذي أســـس مذهب الصّنعة والتّكلّف، على أن طبيعة أبي الطيب المتمردة الجامحة رفضت الاستكانة لقيـــود الصّنعة لوقت طويل، فثار عليها محطماً إياها، منطلقاً إلى القسم الثاني من شعره الذي انشغل فيه بنفسه وآماله وآلامه.[5] واتّهم آخرون المتنبي باتّباع أسلوب أبي تمّام في كلّ شعره[6]. على أن

([1]) المتنبي: **الديوان** ، 301/4.

([2]) **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص318. ينظر: إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني فـــي شـــعر المتنبـــي**، ص360.

([3]) البرقوقي، عبد الرحمن وآخرون: **الغموض في شعر المتنبي، أبو الطيب المتنبي حياته وشـــعره**، بيـــروت: المكتبـــة الحديثة للطباعة والنشر، ص101.

([4]) حسين، الحاج حسين: **أعلام في الشعر العباسي**، ص442.

([5]) الكفراوي، محمد عبد العزيز: **الشعر العربي بين الجمود والتطوّر**، ص188-189.

([6]) البهبيتي، نجيب محمد: **أبو تمّام الطائي حياته وحياة شعره**، ص 233.

الوصف بالإغراب والبعد أمر نسْبيّ، فما يكون غريباً بعيداً عند قوم، قد يكون واضحاً قريباً عند آخرين. [1]

وقد كان للبيئة الّتي عاشها المتنبي أثر كبير في شعره، فنافسه عديد من الشّعراء والمتكسبين، والتّنافس يدفع نحو الإجادة والبروز والأخذ بأسباب الإبداع، والتّمكن اللّغوي ليحظى بمكانة رفيعة عند الممدوح. [2]

فقد عُرِفَ عنه الجودة والتّوفيق في صياغة المعاني لتخدم أغراضه الشّعرية [3] وما ساعده على تحقيق ذلك هو استقراره عند سيف الدّولة فترة طويلة، فكانت كفيلة بتهدئة نفس المتنبي الذي تفرّغ للإبداع وخمدت الثّورة في نفسه، كما أنّ علاقته الوطيدة بسيف الدّولة الشّجاع القائد المحارب قد ألهمت طبع الشّاعر وقوّت استعداده وألهبت عواطفه، وبخاصة أنّه فارس شجاع جريء. [4]

وقد أنصفه الجرجاني ودعا ألّا ننعى المتنبي" لبيتٍ شذّ، وكلمة ندرتْ، فليس من العدل أن ننسى محاسنه وقد ملأت الأسماع، وروائعه وقد بهرت النّاس.[5]

فقد امتاز أبو الطيب عن غيره من الشّعراء بالتّفوق والبراعة والسّبق في الاختراع والابتكار، إضافةً إلى شدّة إحساسه واستشفافه للانفعالات الخفية الّتي تعتمل النّفس البشرية، فهو قادر على دراسة النّفوس وترجمة استجاباتها للمثيرات المختلفة ممّا يدل على معرفته بخبايا القلوب[6].

وقد قسّم النقّاد شعر المتنبي إلى عدّة مراحل، تميّز فيها شعره بمميزات مختلفة في كل مرحلة، ففي أوائل شعره وُصف بالغرابة، وقدوته المتقدمين من الشّعراء مثل أبي تمّام، وبمرور

([1]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 373.

([2]) الشكعة، مصطفى: **أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين**، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1983، ص69.

([3]) المصدر السابق، ص82.

([4]) الجابر، مسعود محمود: **الشعر في رحاب سيف الدّولة الحمداني**، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994، ص70.

([5]) **الوساطة**، ص100-101

([6]) شعيب، عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، ص120

الزّمن مع تنقله من بيئة إلى أخرى، صقله المران وصار شعره متيناً، ثم نهج أسلوباً جعل شعره صالحاً لكل زمان ومكان، وبه انكشفت شخصية المتنبي كشاعر عظيم [1].

فقد كان فناناً على طريقته، وقد ظفر من المعاني الجميلة البسيطة، الصّحيحة القويمة المتينة[2]، التي نظمها في ألفاظ فخمة جزلة رفعته إلى أعلى مراتب الشّعراء.

ويظهر سرّ عبقرية المتنبي في اكتشافه سرّ استعمال المفردة العربية، وفن تركيب الكلمات، حتّى أصبحت المفردات كالجواهر بين يديه، ينتقي منها الجوهرة الّتي تناسب العقد الجميل وتزيّنه [3].

وممّا ينسب لإبداع المتنبي " استعماله ألفاظ الغزل والنّسيب في أوصاف الحرب والجدّ، وهو أيضاً ممّا لم يُسبق إليه وتفرّد به، وأظهر فيه الحذق بحسن النّقل، وأعرب عن جودة التّصرف والتّلعب بالكلام " [4]

الموسيقى عند المتنبي

تعدّ اللّغة نواة حركة وخزّان طاقات، فالكلمة تختزن أكثر من حروفها وموسيقاها، فخلف كل حرف أو مقطع تحمل دورة حياة خاصة، وإيقاع الكلمة يكشف عمّا يربط النّفس بالكلمة. [5]

فتعبّر الموسيقى عن المشاعر والأحاسيس في عالم النّفس الدّاخلي، من خلال الأصوات والأنغام، فالفنان الموسيقي، ينسّق الطّبيعة الخارجية بما يتلاءم مع حالته الشّعورية ويرتبط بها الإيقاع الذي قد يكون ترنماً عذباً وسهلاً أو تعبيراً عن تشنج أو توتر داخلي.[6]

([1]) عبود، مارون: **الرؤوس**، ص260 – 261

([2]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص179.

([3]) حسين، الحاج حسين: **أعلام في الشعر العباسي**، ص448–449.

([4]) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر**، 1/ 209. ينظر: البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 431 شعيب، محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، ص 99.

([5]) العشماوي، محمد زكي: **موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي**، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية، 1981، ص240

([6]) عساف، ساسين: **الصّورة الشعرية**، ص17–18

كان للمتنبي تشكيلاته الخاصة باللّغة، وصياغة تعتمد على براعة في استغلال عناصر الصّوت وملاءمتها للإيقاع والحسّ مستخدماً الطّباق والتّقسيم والمزاوجة والتّجنيس وما إليها، على الرّغم من أنّ الصّنعة عنده كانت "أكثر خفاءً يغلّفها إحساسٌ عميق يؤثر فيك لما فيها من براعة خاصة في التّشكيل [1]."

ولعلّ الاهتمّام بالموسيقى كان سمة شعراء عصر المتنبي، ويبدو أنّ التّقسيم أضحى النّهج الأثير عندهم، فقد كلف الشّعراء به فأعجب الممدوحين، فمن تقسيمات المتنبي:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشّ بَشّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرِّ صِلْ[2]

ومن حسن الحظ أنّ هذه التّقسيمة نادرة في الشّعر؛ لأنّها من النّوع الثّقيل الذي تشمئز منه النّفوس[3]. وقد استخدم هذا الأسلوب في قوله:

وَنَهبُ نُفوس أَهل النَّهبِ أَوْلى بِأَهلِ المجْدِ مِن نَهبِ القُماشِ[4]

وكذلك قوله:

صَدَمتَهُمْ بِخَميسٍ أَنتَ غُرَّتُهُ وَسَمهَرِيَّتُهُ فِي وَجهِهِ غَمَمُ
وَالأعوَجيّةُ مِلءُ الطّريقِ خَلفَهُم وَالمَشرَفِيّةُ مِلءُ اليَومِ فَوْقَهُمُ[5]

استخدم المتنبي ألفاظاً قوية شديدة معبرة، وعمد إلى الطّباق والتّقسيم لخلق موسيقى تعبر عن الحالة العاطفية الّتي يحسّها، وتنقل نغماً حادّاً سريعاً يتخيّل المرء فيه شدّة المعركة وضراوتها. [6] وهذا ما يميّز المتنبي، فشعره مليء بالقوّة والضّجيج الذي يشبه ما يعتمل به صدر الشّاعر من اضطراب وهياج، ويظهر ذلك من خلال صهيل الجياد، وقرقعة الرّماح وصليل السّيوف وجلبة الجيش في المعارك.

([1]) العشماوي، محمد زكي: **موقف الشعر من الفن والحياة**، ص250

([2]) المتنبي: **الديوان**، 209/3

([3]) نصرت، عبد الرحمن: **شعر الصراع مع الروم**، ص313.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 320/2

([5]) المصدر السابق، 139/4.

([6]) نافع، عبد الفتاح صالح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص211-212.

استطاع عن طريق النّغم الحماسي أن ينقل إحساساته، وأن يجعلنا نعيش المواقع دون أن نراها، ونسمع الأصوات، والصّرخات والصّهيل والطّعنات عبر هذه السّنين الطّويلة [1].

وكل ذلك من خلال" توظيف اللّغة توظيفاً خاصاً لتحقيق قيمة صوتية وإيقاعية هي في حد ذاتها قيمة جمالية، ممّا جعل الموسيقى الشّكل عند المتنبي هي موسيقى النّفس، فتحسّ بها دون أن تستطيع إدراكها أحياناً [2].

فالشّاعر يهتم بالإيقاع الدّاخلي الذي يزيد الصّورة جمالاً، كقوله:

لَهُ عَسكَراً خَيلٍ وَطَيرٍ إذا رَمى بِها عَسكَراً لَم يَبقَ إلّا جَماجِمُه [3]

فظهر جرس الكلمات ونغمة المفردات، من خلال سلسلة الأصوات التي ملأت البيت[4].

البيت[4].

فهذه صورة انبعثت منها أصوات العساكر تتحرك في عظمة ورهبة، وجلبة وصياح، من صهيل الخيل إلى أصوات الفرسان، وقعقعة السّلاح، وارتطام أجساد القتلى بالأرض، وتظهر الموسيقى الدّاخلية من خلال تكرار الحروف والكلمات، وما ينبعث عنها من أصوات متشابهة في أماكن متفرقة، أضف إلى ذلك التّنوع في عناصر الصّورة، فقد جعل للممدوح عسكرين وجعلهما سحابين يسقي أحدهما الآخر، ولا يخفى آثار الجناس في التّأثير على الدّلالة الصّوتية بتجانس النّغم وتشابهه [5].

وهذا ينفي اتّهام بعض النّقاد له بعدم اهتمامه بالجانب الموسيقي، أو وجود انحرافات موسيقية في شعره. [6].

([1]) نافع، عبد الفتاح صالح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص213.

([2]) العشماوي، محمد زكي: **موقف الشعر من الفن والحياة**، ص252.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 54/4.

([4]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص206.

([5]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص424.

([6]) فرّان، محمد يوسف: **أبو الطيب نشيد الصحراء الخالد**، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1990، ص93، 107، 130. ينظر: ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص341-342.

وقد اعتمد المتنبي أسلوب التكرار الذي يقوم على مبدأ الإعادة كوسيلة لأداء الوظيفة الشّعرية، وهو أساس الإيقاع في جميع صوره، ويعدّ أساس نظرية القافية في الشّعر[1].

ومن ذلك قوله:

ألا كُلَّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى فِدَا كُلِّ ماشِيَةِ الهَيْذَبَى[2]

فقد حاول المتنبي خلق علاقة تفاعلية بين المتلقي والنّص، من خلال إيهامه أنّه مقبل على غزل، ولكن سرعان ما ينتقل إلى كسر السّياق من خلال الشّطر الثّاني بإحداث صدمة تهزّ عوامل التّوقع لديه وتغيّر قناعاته لتماثل قناعات الشّاعر، وليكسب تعاطفه في موقفه من الحياة النّاجم عن تجربته الذّاتية [3].

الصّورة الفنية في شعر المتنبي

كان للعصر العباسي أثر في الصّور الشّعرية ؛ لكونه عصراً عُرف بالغلوّ والإسراف، والاتّجاه نحو الجدّة والإبداع والتّضخيم والتّعظيم، والتّحليق في سماء الخيال والاستعانة بالثّقافة والعلوم لرسم الصّورة الشّعرية [4].

وقد وُهب المتنبي ميّزات تفرّد بها عن غيره، أحدها أنّه لم يدع صورة شعرية إلا وحاول إخراجها بشكل جديد، فمرةً تخرج لوحةً تامةً رائعةً، ومرة مكثفة المعاني موجزة إلى أبعد الحدود، لذلك أكبرته العرب وعظمته لما اجتمع فيه من خواصهم في الكلام [5].

وقد احتلّ التّشبيه والاستعارة مكانة كبيرة في شعر المتنبي، فكلٌ منهما يعطينا لمحةً عن تجربة من تجارب الشّاعر، فاستعاراته لا تنتهي بانتهاء الصّورة، إنّما ارتبطت بحالته النفسية، وتأمّله العميق للحياة [6].

([1]) إبراهيم، نوال مصطفى: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ط1، عمّان: دار جرير للتوزيع والنشر، 2008، ص283

([2]) المتنبي: **الديوان**، 160/1.

([3]) إبراهيم، نوال مصطفى: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ص279-281

([4]) الكفراوي، محمد عبد العزيز: **الشعر العربي بين الجمود والتطوّر**، ص169-171

([5]) حسين، الحاج حسين: **أعلام في الشعر العباسي**، ص435.

([6]) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص212-215

إلّا أنّ بعض الدّارسين عدّ صوره صوراً خارجة عن المألوف، ولا تراعي وجوه الشبّه الّتي تعقد بين أجزاء الصّورة، على أنّ خروج المتنبي بصوره عن الشّكل المتعارف، إنّما هو سعيٌ إلى خلق إطار فني طموح هدفه التّجديد والتّمرّد [1]، من خلال قدرته على بناء الصّورة المعبرة بجمال ودقّة كما يريد، في تزاوج بين العالم الخارجي الذي يثيره الشّاعر ويصنعه على أول طريق الصّياغة الفنية، والعالم الدّاخلي الذي يجعله يستقبل معطيات الحسّ ويصوغها صياغة جديدة مستمدّة من قواه الخاصة ومن مكتسباته الثّقافية.[2]

وإنْ اعتمد المبالغة والتهويل مضيفاً إليها الكثير من خياله ومعالجته الجديدة للتّراث[3]، للتّراث[3]، فإنّه يستخدم أحياناً خيالاً خصباً نشيطاً، يجعله يرسم صوراً مبدعة، ويضفي عليها سحراً وقوة إقناع مكلّلة بالإدراك الحسّي، كقوله:

أَتـــوكَ يَجُـــرّونَ الحَديـــدَ كَـــأَنّهُمْ سَـــرَوا بِجِيـــادٍ مـــا لَهُـــنّ قَـــوائِمُ[4]

فتعاونت الذاكرة والخيال لخدمة أغراض الشّاعر وعواطفه، فلا فائدة من ثقافة واسعة إن لم يحتضنها عقل قادر على إعادة تكوين عناصرها وصهرها في قالبه الشّعري الخاص به.[5]

وقد أبدع المتنبي في تصوير المعارك والجيوش بما فيها من سلاح وخيول وغبار، فظهرت الصّور البطوليّة الملحميّة لممدوحيه، فجاءت كوثائق تاريخيّة لها قيمتها وأهميتها في عرض التّاريخ السّياسيّ والأدبيّ. [6]

اعتمد المتنبي على التّراث الجاهلي لإخراج صوره، فقد اطّلع أبو الطيب على شعر عديد من الشّعراء الجاهليين، ومن بعدهم الأمويين، وقد جعلها في أحيان كثيرة مثالاً يحتذي

([1]) العشماوي، أيمن محمد زكي: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني**، ص189. ينظر: نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص45.

([2]) عثمان، سهيل وكنعان، منير: **المحصول الفكري للمتنبي**، ص324-325 ينظر: نافع، عبد الفتاح: **الشعر العباسي قضايا وظواهر**، ص203.

([3]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، ص108.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 99/4

([5]) عثمان، سهيل وكنعان، منير: **المحصول الفكري للمتنبي**، ص326.

([6]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، ص109.

به[1]. فاعتمد للإنشاء صوره ألفاظاً من المعجم البدويّ وبخاصةً في مقدمة قصائده الغزليــة أو وصف الرّاحلة [2]. ولا عجب في ذلك، فقد عاش فترة لا بأس بها من حياته في بادية السّــماوة، السّماوة، فتعلّم فيها اللّغة والأدب والشّعر، وأخذ الفصاحة عن أهلها [3].

احتفظ المتنبي في ذاكرته بالتّجارب والمناظر من البيئة الصحراوية الّتي عاشها في سنيّ صباه، مما كان له أكبر الأثر في صورته الشّعرية، فأيام الطّفولة زمنٌ يختزن العواطف القويّــة والحب العميق تجاه الأشخاص والأماكن والرّوائح والأصوات، لا يمكن محو أثرها، فتظهر في صوره بكل وضوح، كقوله:

تَــذَكّرتُ مــا بَــينَ العُــذَيبِ وَبَــارِقِ مَجَــرِّ عَوالينــا وَمَجــرى السَــوابِقِ[4]

تبدو آثار الذّاكرة واضحةً وتكشف عن عمق تأثّر المتنبي وتقديره لتلك الأيام [5]. فالجوّ فالجوّ بارد، والثّلج قد غمر الدّروب، وسدّ السّبل فلا مخرج ولا مدخل [6].

إذ اعتمد الشّاعر على الجزيئات الموروثة للصورة وركبها من جديد ليخــرج صــورة مبتكرة كقوله:

لــه عســكرا خيــل وطيــر إذا رمــى بها عســكراً لــم تبــق إلا جماجمُــهُ[7]

"فقد ذكر هذا المعنى قديماً وحديثاً، وكذلك معنى أبو الطيب، فإنّه لمّا انتهى إليه سلك هذه الطريقة الّتي سلكها، إلا أنه عرج فيها إلى غير المقصد الذي قصدوه، فأغرب وأبدع [8]."

([1]) الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص9. ينظر: الفاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص618.

([2]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، ص117.

([3]) الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ص9.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 60/3

([5]) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص222–223.

([6]) نصرت، عبد الرحمن: **شعر الصراع مع الروم**، ص317.

([7]) المتنبي: **الديوان**، 54/4.

([8]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص76.

ونبعتْ صوره من الطبيعة وتجاربها المباشرة أو القديمة الّتي مرّت عليها سنين طويلة، فاحتفظ بها في ذاكرته واسترجعها عند ملاحظته لصورة مشابهة، وأخرج لنا شعراً جديداً من الابتكار والتفنن [1].

كما أنّه كان "من حفاظ اللغة، ورواة الشّعر، وكلّ ما في كلامه من الغريب مستقاة من الغريب المصنّف [2]. وقد ساعدته قدرته الفذّة على صقل المعاني وتجسيدها بشكل موحٍ يثيرُ النفس بالإعجاب والتقدير [3].

ومن أعظم التّجارب الّتي مرّ بها المتنبي تجربة الحرب والمعارك، فرسم فيها صوراً تتميز بدقّة التّصوير وبراعة الوصف، وجمال التّشابيه، ببيان ساحر، ومعانٍ سامية، ولعلّ السّبب في ذلك يعود إلى تجربةٍ شخصيةٍ للشّاعر، فقد كان فارساً مغواراً، شارك في وقائع عديدة إلى جانب ممدوحه الأعظم سيف الدّولة، فخلّدها عن طريق صوره الشّعرية أكثر مما يفعل رجال التّاريخ،

"فجمع في أبياته قيمة تاريخية وجغرافية عالية القدر، وتعد وثائق غاية في الخطورة لكتابة التاريخ السّياسيّ والتّحقيق الأدبيّ عن عصر سيف الدّولة [4].

ومنها انتقل الشّاعر من ذاته الفردية إلى الذّات الاجتماعية، يصف أحداث عصره وبيئته، ثم أخذ يبحث في نفسه، فكان فنّه صورة لنفسه المضطربة القلقة المتناقضة [5]. ممّا جعل التّشخيص يشيع في صوره، حيث يفيض على الأشياء من نفسه، ويفرغ عليها من أحاسيسه، فيجعلها تشاركه أحزانه وأفراحه، ونعيمه وبؤسه، فإذا بالحياة تدبّ في الطّبيعة من حوله [6].

([1]) عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ص227.

([2]) البغدادي: **خزانة الأدب**، 363/2.

([3]) فرّان، محمد يوسف: **أبو الطيب المتنبي نشيد الصحراء الخالد**، ص123-124.

([4]) المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب**، ص231. نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص227. نصرت، عبد الرحمن: **شعر الصراع مع الروم**، ص310. الفاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، ص616.

([5]) نافع، عبد الفتاح: **الشعر العباسي قضايا وظواهر**، ص203.

([6]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص410.

ولم يكن للحياة الفارهة والعيش الحضري أثر كبير في شعره، كتأثير البيئة الصحراوية الّتي عاش فيها فترة قصيرة من عمره، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة نفسه المتمرّدة العنيفة، وما فطر عليه من الغلظة والقسوة، فلا يميل إلى رقّة أو عذوبة في شعر أو غير شعر[1].

وللبيئة الاجتماعيّة والسياسيّة أثرٌ كبيرٌ في صقل شخصيته الشّعرية، فقد تلقّى علومه منذ الصّغر على أيدي كبار العلماء والأعلام في اللّغة والنّحو والشّعر[2].

وقد اطّلع المتنبي على ثقافات عصره كاليونان والفرس، ممّا ساعده على صنع صورٍ فذّة عبقرية[3].إضافة إلى كل ذلك، تأثره الواضح بأكبر تيار وهو الّتيار الإسلامي آنذاك، فقد اطّلع على القرآن الكريم، ولجأ إلى الاقتباس منه لرسم صوره، كما في قوله:

وَطَرْفٌ إنْ سَقَى العُشّاقَ كأساً بها نقصٌ سَقَانِيها دِهَاقَاً[4]

فيبدو تأثره واضحاً بقوله تعالى: " كأساً دهاقاً" [5] النبأ آية (34).

وهذا يدل على " رجل متعدد مناحي الثقافة، غزير مادة العقل، مغرماً بالبحث"[6]

وقد اعتمد المتنبي في التّصوير على حاسة البصر، فهو يرى ويصف ما كان يراه، فوصف أهوال الحرب وويلاتها، وقد شُغِف بالصّورة المفزعة، فانتقى المنظر الرهيب وعرضه، كتصوير رؤوس القتلى ودمائهم ووطء الخيل لها بقوائم من حديد.

ولعلّ هذا ما جعل بعض النّقاد يصفه بالغرابة والعجب، ففيه " جفاء الفرزدق، ورقّة جرير، ووصف الأخطل، وتفكير الفلاسفة، وخيال الشّعراء العظام، وهو الذي خطا بالشّعر أعظم

([1]) حسن، عباس: **المتنبي وشوقي دراسة ونقد وموازنة**، (د.ط)، مصر: دار المعارف، 1964، ص88.

([2]) الأصفهاني: **الواضح في مشكلات شعر المتنبي**، ص6. ينظر: بلاشير، ريجيس: **أبو الطيب المتنبي**، ص 42 – 43

([3]) حسين، طه: **مع المتنبي**، 26-30

([4]) المتنبي: **الديوان**، 3 / 41

([5]) التطاوي، عبد الله: **القصيدة العباسية قضايا واتجاهات**، ص118.

([6]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص397

خطوة، فجعل لغته لغة النّاس المألوفة"[1]. على أنّ بعضهم فضّل أبا تمّام عليه، بحجة أنّ الفكرة الشّعرية قد وصلت أوجها على يد أبي تمّام، فلمّا وصلت إلى المتنبي التبست بالفلسفة، وأنّه لم يشعر بالجمال كأبي تمّام ؛ لأنّه كان أكثر انشغالاً بمظاهر القوة في عصره[2]. ومهما اختلفت الآراء، فإننا لا نستطيع أنْ ننكر أنّ صور أبي تمّام وكذلك المتنبي ما زالت حيّةً أحسّ بها صاحباها إحساساً عميقاً ونقلاها إلينا بصياغة بديعة. فشعر كهذا سيبقى خالداً لا ينقص الزمن له مقداراً [3].

([1]) حسين، الحاج حسين: **أعلام في الشعر العباسي**، ص455.

([2]) البهبيتي، نجيب محمد: **أبو تمّام الطائي حياته وحياة شعره**، ص 243.

([3]) عبود، مارون: **الرؤوس**، ص264.

المبحث الثاني

صور المتنبي المتأثّرة بصور أبي تمّام

الخيل في قصيدة المديح

أولاً: الصّورة القائمة على الحركة

خيل السّقر

تعوّدت خيل المتنبي على السفر والتّرحال، حتّى أصبح غذاؤها الريح، وماؤها السّراب، لأنّها عراب مضمرة معودة قلّة العلف والماء، فيقول:

ولاقَـــى دون ثَـــاويهِم طِعَانـــاً يُلاقـــي عِنْـــدَهُ الـــذِّئبَ الغُـــرَابُ
وخـــيلاً تَغْتَـــذِي ريـــحَ المَـــوَامِي ويكفيهـــا مـــن المـــاءِ السَّـــرابُ[1]

وهذا دليل" قوّة الاحتمال والصّبر، ففي الصّورة عمق للفكرة، ورحابـة الخيـال ودقـة التّعبير والتّصوير، لا يتأتّى إلا لمثل المتنبي".[2] ولعلّه أفاد من قول أبي تمّام:

إنَّ الجيـــادَ علـــى عِلاَّتهـــا صُـــبُرُ ما إنْ تَشَكَّى الوَجا فـي حالـةِ الأيـنِ[3]

وصف الشّاعران خيلاهما بالصّبر وتحمّل المشاق، فهي لا تُظهر معاناتها حتّى توصـل فارسها إلى غايته.

الخيل المخلصة

جعل المتنبي بعض الأرض يغبط بعضها الآخر؛ لأنّ الممدوح حلّ فيها، كـذلك الخيـل تحسد بعضها بعضاً؛ لأنّها نالت شرف ركوب الممدوح لها، يقول:

وتغبطُ الأرضُ مِنْهـا حيـثُ حَـلَّ بـه وتَحْسُـدُ الخيـلُ منهـا أيّهـا ركِبَـا[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 1 / 212.

([2]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 347.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3/ 341.

([4]) استخدم الغبطة للأرض لاتصالها ببعضها البعض فهي كالمكان الواحد، أمّا الحسد للخيـل لأنهـا متفرقـة. المتنبـي: **الديوان**، 1 / 243.

وصدر البيت مأخوذ من قول أبي تمّام:

قَضَى طاهرَ الأثــوابِ لــمْ تَبْــقَ بُقعــة غداة ثــوَى إلا اشــتهت أنهــا قبــر[1]

وكما أنّ الخيل حريصة على صاحبها، فإنّ صاحبها حريص عليها، يُدافع عنها بسـيفه وشجاعته، ويَمنع عنها الطّعن أو الضّرب، يقول:

مُبَرْقِعِــي خَــيْلِهِم بــالبِيضِ مُتَّخِــذِي هامِ الكُمَــاةِ علــى أرْمــاحِهِمْ عَــذَبَا[2]

فكأنّهم أُلبسوا خيولهم براقع لحمايتها، وهم إنّما حموها بمنــازلتهم دونهــا أو لحــذقهم بالضّرب، حتّى أنّهم جعلوا رؤوس الأبطال على أطراف رماحهم[3]، وفي ذلك شــجاعة بالغــة وحنكة في القتال، عبّر الشّاعر عن صفائح الحديد التي على وجوه الخيل بالبيض، وهذا استعمال لم يستعمله أحد، والمعنى أنَّ هؤلاء لا براقع لخيلهم على الحقيقة تقي وجوههــا مــن السّــيوف والرّماح، ولكنّ بيضهم أي سيوفهم تُقام مقام البراقع في حفظ رؤوسها لنجدتهم، وحسن مراسهم في الحرب ولإحجام أعدائهم عن الإقدام عليهم"[4]، وهي صورة جميلة تدلّ على ذكاء المتنبي في في صنع صورة تليق بممدوحه، ولأبي تمّام في هذا المعنى:

أبــدَلتَ أرْؤسَــهم يــومَ الكريهــةِ مِــن قَنــا الظهــور قنــا الخِّطــيِّ مُــدَّعِمَا
مِــنْ كــلِّ ذي لِمــةٍ غطــتْ ضــفائرها صَدْرَ الفتاة فقد كــادتْ تُــرَى عَلَمــا"[5]

([1]) أبو تمّام، **الديوان**، 4 / 84. أمّا عجز البيت فمن قول علي بن الجهم:

وتطــــربُ الخيــــلُ إذا مــــا عــــلا مُتونهــــا فالخيــــل تستبشــــرُ

المتنبي: **الديوان**، 1 / 243.

وقال ابن دريد: ومَن له تخشع الملوك ومَن تزهى به الخيلُ حين يركبها " غير أنّ المتنبي اختصر ما ورد في بيتين، فهــو أولى بالاختصار ". التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 376 – 377.

(2) المتنبي: **الديوان**، 1 / 246

([3]) المصدر السابق، 1/ 246

([4]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني لديوان المتنبي**، ص 19.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 / 171. الخطيّ: الخط: أرض ينسب إليها الرّماح الخطيّة، فإذا جعلت النّسبة اسماً لازمــاً قلــتَ خطيّة ولم تذكر الرّماح. **اللسان**، باب خطط. وفي هذا المعنى قال جرير:

كــــأنّ رؤوسَ القــــومِ فــــوقَ رماحنــــا غــــداةَ الــــوغى تيجــــانُ كســــرى وقيصــــرا

قال مسلم بن الوليد:

يكسُــو الســيوفَ نفــوس النــاكثين بِــه ويجعــلُ الهــامَ تيجــان القنــا الــذُّبُلِ

المتنبي: **الديوان**، 1/ 264.

"فشبّه الضفائر المنشدة بالعلم، واحتاط بأن قال كادت، وأمّا الهام نفسها فلا تشبّه العذب، فالضفائر أشبع بالأعلام من الهام "[1] وهذا يدلّ على أنّ أوصاف أبي تمّام أدقّ وأوفى من أوصاف المتنبي.

الخيل الطويلة

اختار المتنبي في حروبه الفرس الوثّابة العالية، طويلة العنق، القوية، والكريمة، شديدة الخلق، إن ضربت الأرض بحافرها استغنت عن النّعل لصلابة خلقتها، يقول:

وقَادَ لها دِلّيْرُ كلّ طِمِرَّةٍ تُنِيفُ بِخَدَّيْها سَحُوقٌ من النَّخْلِ
وكلُّ جَوَادٍ تَلطِمُ الأرْضَ كَفُّهُ بَأغنى عن النّعْلِ الحديد من النَّعلِ[2]

فشبّه عنق الفرس بنخلة طويلة، وقد أشرف خدَّاها من فوقها، و إنّما أراد العلوّ، وأنّها ممتنعة لا يصل إليها أحد إلا بعد الجهد والتعب. وقد سمّى حافر الفرس كفّاً، وقد استعاره من الإنسان. وقد أفاد من صورة أبي تمّام:

هادِيهِ جِذْعٌ من الأراك وما خَلْفَ الصّلا منْه صَخْرةٌ جَلْسُ[3]

فكلاهما شبّه طول عنق خيله بنخلة طويلة.

علوّ المكانة بالفروسيّة

وفي مدح عضد الدّولة يظهره المتنبي كرجل مارد على فرس مارد، يقول:

ولم يَغِبْ غائبٌ خليفتُه جَيْشُ أبيه وجَدُّه الصَّاعِدْ
وكلُّ خَطِّيَّةٍ مُثَقَّفَةٍ يَهُزُّها مَارِدٌ على مَارِدْ[4]

وأرى أنَّ البيت السّابق شبيه بقول أبي تمّام:

([1]) التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 380.
([2]) المتنبي: **الديوان**، 4/ 12.
([3]) أبو تمام: **الديوان**، 2/ 225- 226
([4]) المتنبي: **الديوان**، 2 /178.

بـــأروع مَضّـــاءٍ علـــى كـــل أرْوَعٍ وأغلـــبَ مِقـــدَامٍ علـــى كـــلِّ أغلـــبِ[1]

فكلاهما يضع فارساً شجاعاً على خيل كريمة، قوية، صفاتها كصفات فارسها.

وقد جعل المتنبي ممدوحه كاملاً وجمع فيه عدّة صفات، يقول:

أطْعَنُهـــــا بالقَنـــــاةِ أضْـــــرِبُها بالسّـــــيفِ جَحْجَاحُهـــــا مُسَـــــوَّدُها
أفْرَسُـــــهَا فَارِســـــاً وأطْوَلُهـــــا بَاعـــــاً ومِغْوَارُهـــــا وسَـــــيِّدُها[2]

فهو الشّجاع عند الضّرب بالرّماح، كثير الغارة، السّيّد في قومه، الفارس عنـد ركوبـه الفرس، الكريم عند امتداد يده بالكرم [3]، يشتمل البيت على فساد الأقسام، وضعف النظـام."[4]، النظام."[4]، مثل قول أبي تمّام:

خلـــق كالمـــدام أو كرضـــاب المســـــــك أو كـــــالعبير أو كـــــالملاب[5]

فكلاهما خلق فساداً في الترتيب والتقسيم، فأبو تمّام قد جعل خُلْقَ ممدوحـه كالمـدام أو المسك، والمسك أطيب من المدام والعنبر. [6]

خيل النّصر والشّجاعة

لشدّة قوّة ممدوح المتنبي وهيبته، قدّم الشّاعر نصيحته للعدو بالابتعاد عنه حتّى وإن كان كالأسد قوةً وشجاعةً لأنّهم سيهلكون أمامه لا محالة، يقول:

إذا اعْـــوَجَّ القنـــا فـــي حامِليـــهِ وجـــاز فـــي ضـــلوعِهم الضُّـــلوعا
ونالـــتْ ثأرَهـــا الأكبـــادُ مِنْـــه فَأَوْلَتْـــهُ انْـــدِقَاقاً أو صُـــدُوعا
فَحِـــدْ فـــي مُلْتقـــى الخيْلَـــيْنِ عَنْـــهُ وإنْ كُنْـــتَ الخُبَعْثِنَـــةَ الشِّـــجيعا
إن اســـتَجرَأْتَ تَرمُقُـــهُ بعيـــداً فأنْـــتَ اســـتطَعْتَ شـــيئاً مـــا اسْـــتُطِيعا

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 / 153.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 30.

([3]) المصدر السابق، 2 / 30.

([4]) **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 139 – 140.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 4 / 45.

([6]) ابن وكيع، **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 139 – 140.

وإنْ مَـــارَيْتَني فاركَـــبْ حِصـــاناً وَمَثَّلْـــهُ تَخِـــرُّ لـــه صـــريعا[1]

يُحذّر المتنبي الأعداء أن يبتعدوا عن طريق ممدوحه إن اعوجّ القنا وإن كانوا شجعاناً، فإن تمكنوا من النّظر إليه فقط، فقد قدروا على شيء عظيم لم يقدر عليه أحد، ومـــن لا يســـتمع لنصيحة المتنبي فليجرب ويركب فرسه ويحاربه، فيجد نفسه قد سقط صريعاً قبـــل أن يلاقيـــه لهيبته وخوفاً منه[2] ومدح الشّاعر هنا مبطن بهجاء للعدو الذي مهما بلغت شجاعته فإنّـــه غيـــر قادر على مواجهة الممدوح، وفيه أيضاً مبالغة في تعظيم قوة الممدوح وهيبته، وإبـــراز لحـــب المتنبي للقوة ومظاهرها فهو بممدوحه يرهب أقوى الفرسان حتّى وإن لم يلاقوه.

ومثله قول أبي تمّام:

وإلّـــا فَأَعْلِمْـــهُ بأنّـــكَ سَـــاخِطٌ وَدَعْهُ فـــإنّ الخَـــوْفَ لا شـــكَّ قاتِلُـــهْ[3]

يوافق بيت المتنبي بيت أبي تمّام في المعنى، فكلاهما يحمل مشاعر الرهبة والخوف من الممدوح لقوّته وهيبته.

والبيت (ما استطيعا) مأخوذ من قول أبي تمّام:

أمَا وقـــدْ عِشْـــتَ يومـــاً بعـــد رُؤْيتـــهِ فافْخر فإنَـــك أنـــتَ الفـــارسُ النَّجـــدُ[4]

فكلاهما أعطى لممدوحه الحذق في الفروسية والقدرة على تحقيق الغاية، فهـــو كامـــل بنفسه، لا يحتاج إلى أحد.

وقد حاول آخرون من أعدائه التّحصن بنهر أرسناس خوفاً من أن يصرعهم الممـــدوح ولكنّه شجاع مقدام يقطع الماء بالسّفن والجسور، ويضرب بصدور خيله التي تحمـــل قومـــاً لا

([1]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 362– 363. الخبعثَنة: العظيم الشديد من الأسد. **اللسان**، باب خبن.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 2 / 362 – 363. جاز: سار فيه وسلك. **اللسان**، باب جوز، حد: مال وعدل عنه. **اللســـان**، بـــاب حيد، الخبعثنة: الناقة الحَريزة، ومن الرجال: القوي الشديد، وقيل العظيم الشديد من الأسد. **اللسان**، باب خـــبن، الشـــجيع: الشّجاع، شديد القلب في البأس. **اللسان**، باب شجع

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 /28.

([4]) المصدر السابق، 2 / 16.

يهابون الموت أو التلف بل يرون فيه السّلامة، حتّى أنّ الأمواج تنهزم أمام صدور خيله السّابحة فتتابع مسرعة كما تنهزم المواشي عند الغارة فتجفل مسرعة، يقول:

وَجَـــاوَزُوا أَرْسَنَاســـاً مُعْصِـــمِينَ بـــه وكيـــفَ يَعْصِـــمُهُم مـــا لـــيسَ يَنْعَصِـــمُ
ضَـــرَبْتَهُ بصـــدورِ الخيْـــلِ حَامِلَـــةً قَوْمـــاً إذا تَلِفـــوا قُـــدْماً فقـــدْ سَـــلِموا
تَجَفَّـــلُ المَـــوْجُ عـــنْ لَبَّـــاتِ خـــيلهم كمـــا تَجَفَّـــلُ تحـــتَ الغـــارةِ الـــنَّعَمُ[1]

"يريد المبالغة فعكس المعنى، فجعله لشدّة إقدامه وإلقاء نفسه في المهالك وقلّة إبقائه عليها من المتالف كأنه بذلك يبغي البقاء." [2]، وقد نظر في البيت الثاني إلى قول أبي تمّام:

يَســـــتعذبُون مَنَايـــــاهُم كـــــأنّهُم لا ييأسُـــون مـــن الـــدُّنيا إذا قُتِلـــوا[3]

عَدْو الخيل

استخدم المتنبي عَدوَ خيله ليسخر من أعدائه، فجعل خيل العدوّ تفرّ بأصحابها إن سمعوا نذير جيش الممدوح، وقبل أن يصلوا إليهم، فتتقدم خيل الممدوح مسرعة، تحمل فرسان مدججين بالسّلاح، يقول:

كُلّمـــا أعْجَلُـــوا النّـــذِيرَ مَســـيراً أعْجَلَـــتْهمْ جِيـــادُهُ الإعْجَـــالا
فَـــأَتَتْهُم خَـــوارِقَ الأَرْضِ ماتَحْـــ ـــمِلُ إلاّ الحَدِيْـــدَ والأَبْطـــالا[4]

تغمر الفرحة قلب الشّاعر لتحقيق النّصر، وتزداد فرحته بمعرفته للجهد الذي بذلته الخيل في الحرب وهي تطأ الأرض بقوّة خارقة، تحمل على ظهرها الأبطال والحديد، وهي تتبع العدوّ ولا تمكّنه من الهرب حتّى تمّ القضاء عليهم.

أظهر المتنبي كلّ ذلك من خلال الجناس وتتابع الحروف الذي خلق موسيقى لفظية نقلت إلينا إحساسه دون عناء.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 4 / 136. تجَفَّل: الإسراع في الذهاب. **اللسان**، باب جفل

([2]) الأزدي: **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 49.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 / 17.

([4]) المتنبي، **الديوان**، 255/3.

ولعلّه نظر في المعنى إلى قول أبي تمّام:

لَمَّـــا لَقَـــوك تَوَاكَلُـــوكَ وأعـــذَرُوا هَرَبـــاً فلـــمْ يـــنْفَعهُمُ الإعْـــذَارُ [1]

فمهما حاول العدوّ الهرب، سيجد خيل الممدوح خلفه ثمّ تنال منه.

غبار الخيل

تقبل الخيل وهي عابسة من المعركة "لطول سيرها وإثقالها بالدّروع والقنا وما قاست من شدّة الحروب" أمّا فارسها فيأتي ضاحكاً بعد أن حقّق النّصر، يقول:

أقْبَلْـــتَ تَبْسِـــمُ والجِيـــادُ عَـــوَابِسٌ يَخْبُـــبْنَ بـــالحَلَق المُضـــاعَفِ والقَنَـــا[2]

فجعل الخيل عابسة متعبة لجهدها في دعم فارسها، وتعبها دليل انتصارٍ وظفر بالعـــدوّ، وشجاعة فائقة. وقد نظر إلى قول أبي تمّام:

يغشى الوغى بالقنـــا والخيـــلُ عابســـةٌ والخيـــلُ لا عـــاجزٌ فيهـــا ولا وَكِـــلُ[3]

تكاد تكون الصّورة متشابهة، فكلا الخيلين عابسةٌ لشدّة سعيها نحو تحقيق النّصر، إلا أنّ المتنبي أضاف صورة الفارس إلى جانب خيله، فهو فرح مسرور بتلك النّتيجة التي تمّ تحقيقها، فهي صورةٌ أكثر إشراقاً وجمالاً.

مكاره في الخيل

كأي شيء مثالي يُخشى عليه التّلف أو المرض، فقد خَشِي المتنبي علـــى الخيـــل مـــن الحران أو داء العُقَّال، فشبّه ممدوحه بالخيل فيقول:

وقـــد يُلَقَّبِـــهُ المجـــنُونَ حاسِـــدُهُ إذا اختَلَطْنَ وبَعـــضُ العَقـــلِ عُقّـــالُ [4]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 170.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 336/4. الحلق: الدروع. **اللسان**، باب حلق.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 125/4.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 403/3

فممدوحه (فاتك) قائد شجاع، ولفرط شجاعته لُقِّبَ بالمجنون، والعقل في الحرب – حسب رأيه– ليس محموداً، فكان له بمنزلة العُقَّال الذي يمنعه من الإقدام، فالجنون أفضل من العقل في هذه الحال، "يقول ابن جني: ولم يفضل الجنون على العقل بأحسن من هذا". ووافقه في ذلك العكبري فقال: " كان (فاتك) يلقب بالمجنون، ففسره أبو الطيب تفسيراً أذهب قبحه وحسن عند المنكِر له أن يتلقّب بمثله".[1] وقد يعكس هذا القول حالته النفسية ورأيه عندما وصفه البعض بالجنون لاعتداده الشّديد بنفسه، وثقته بعظمته، واشتراطه على سيف الدّولة أن ينشده الشّعر قاعداً، على عكس عادة الشّعراء أمّام الأمراء، فأصرّ المتنبي على ترفّعه وأنفته، وهو يرى كل من حوله صغاراً.[2]

وقد نظر في لفظ البيت إلى قول أبي تمّام:

وإنْ يَبْنِ حِيطَاناً عليْه فإنّما أُولئِكَ عُقّالاتُهُ لا مَعَاقِلُهْ[3]

الخيل الضّامرة

استعان المتنبي بالخيل الضّامرة في سفره، وأحبّ ركوبها، يقول:

فَأَقبَلَها المُرُوجَ مُسَوِّماتٍ ضَوامِرَ لا هِزالَ وَلا شِيَارُ[4]

فضمور خيله لا عن هزال وإنّما عن قيام عليها واعتناء بها، ولكنّها ليست سمينة حسنة المنظر؛ لأنّها قد شعثّت واغبرّت بمواصلة المسير [5]. ولعلّه نظر في قول أبي تمّام:

وليالي الحَشَّاك والثّرثار قد جلبُوا الجياد لواحِقَ الأقْرَابِ[6]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 403/3

([2]) العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص 142.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 /28. وفي معناه إلى قول الكلابي:

ألا أيها المغتابُ عِرضِي تُعيبني تُسمينيَ المجنونَ في الجدّ واللعب

أنا الرجل المجنون والرجلُ الذي به تُتَّقى يوم الوَغى غِرَّ الحربِ

المتنبي، **الديوان**، 3 / 403.

([4]) المصدر السابق، 205/2.

([5]) المصدر السابق، 205/2–206.

([6]) أبو تمّام: **الديوان**، 1 /89.

فالضامرة من الخيل هي المفضّلة لدى الشّاعرين.

والخيل الطّويلة الهزيلة من كثرة الإسراج والإلجام هي المفضلة عند الفرسان، يقول:

قائـــدو كُـــلِّ شَـــطْبَةٍ وحِصَـــانٍ قَـــدْ بَراهَـــا الإســـراجُ والإلجـــامُ[1]

وفي هذا المعنى قال أبو تمّام:

بسَـــواهمٍ لُحـــق الأياطـــلِ شُـــزَّبٍ تعليقُهـــا الإســـرَاجُ والإلجَـــامُ[2]

فرسان المتنبي، وأبي تمّام، يحبون ركوب الفرس الضّامرة السّريعة، والشّبّه بينهما واضح في نهاية البيت.

تميّزت الخيل الضامرة بالشّجاعة والقوّة وعُرِف عنها قدرتها على التّحمل والصّبر، وما دامت كذلك، فإنّها تسير تحت حرّ الشّمس، حتّى حميت حدائد لجمها فصارت الحكم تَسِمُ أنوف الخيل، ولكنّ ذلك لم يوقفها، بل زاد سرعتها، فلمّا وصلت الماء شربت بلجمها، فَسُمِعَ لِلُجمِ نشيش في أشداقها لشدّة حرارة الحديد، ثم أخذت تجول بحثاً عن الغارة والقتال والسّيوف، ترعى في مكان خصيب، وهو يقصد رؤوس الأعداء، يقول:

وَشُـــزَّبٌ أَحمَـــتِ الشِّـــعرى شَـــكائِمَها وَوَسَّـــمَتها عَلـــى آنافِهـــا الحَكَـــمُ
حتّـــى وَرَدنَ بِســـمنينٍ بُحَيرَتِهـــا تَـــنِشُّ بِالمـــاءِ فـــي أَشـــداقِها اللُّجُـــمُ
وَأَصـــبَحَتْ بِقـــرى هِنْـــزِيطَ جائِلَـــةً تَرعى الظُّبَى في خَصيبٍ نَبْتُـــهُ اللِّمَـــمُ[3]

فأسقط الشّاعر على الخيل صفاته هو من حيث القوة والجَلَد والسّرعة، والخروج لهدف واحد هو قتل الأعداء. وقد أفاد من صورة أبي تمّام في قوله:

إنْ زارَ مَيـــداناً مَضَـــى ســـابقاً أو ناديـــاً قـــام إليـــه الجُلُـــوس[4]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 222/4.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 155/3.

([3]) المتنبي: **الديوان**، 134/4-135. ينظر: إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 216-217. الحكم: جمع حكمة: ما أحاط من اللحم بالحنك. **اللسان**، باب حكم. نشيش: صوت الماء عند الغليان والصّب. **اللسان**، نشش، الظبى: جمع ظبة، طرف السيف. **اللسان**، باب ظبظب، اللمم: جمع لمة، ما ألم بالمنكب من الشعر. **اللسان**، باب لمم.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 278/2

فقد أبرز كلّ منهما خيله بالتّفوق والسّبق دائماً، إلا أنّ المتنبي بالغ قليلاً، عندما جعل خيله تصل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة.

إنّ المتتبع لحياة المتنبي يعلم علم اليقين الحب الشّديد المتبادل بين المتنبي وسيف الدّولة، فبيّن الشّاعر بقريحته الشعرية سبب تعلقه بالممدوح، يقول:

قالوا هَل يُبَلِّغُكَ الثُّرَيّا فَقُلتُ نَعَمْ إِذا شِئتُ اسْتِفَالا
هُوَ المُغنِي المَذاكي وَالأَعادي وَبيضَ الهِنْدِ وَالسُّمرِ الطِّوَالا
وَقائِدُها مُسَوَّمَةً خِفافاً عَلى حَيٍّ تُصَبِّحُهُ ثِقالا
جَوائِلَ بِالقُنِيِّ مُثَقَّفاتٍ كَأَنَّ عَلى عَوامِلِها الذُّبالا[1]

فقد أفنى الممدوح الخيل والعدا بالطّراد في الحروب، فقادها خفافاً في الرّكض ثقالاً على الأعادي، محملة بالسّيوف والرّماح والثّقاف، وقد شبّه أسنتها في اللّمعان بالفتائل، فشجاعة الممدوح وهيبته هي سبب تعلق المتنبي بممدوحه ومهما حاول الحساد التّفريق بينهما فلن يفلحوا.

ولعلّه أفاد من قول أبي تمّام:

تُقاسِمنا بِها الجُرْدُ المَذاكي سِجَالَ الكَرِّ والدَّأبِ العَنيدِ
فَتُمسي في السَّوابِغِ مُحكماتٍ وتُمسي في السُّروجِ وفي اللُّبُودِ[2]

أفنى كلا الشاعرين الخيل في الحرب والقتال، ليلاً ونهاراً. ومن الملاحظ أنّ مدح المتنبي ليس فذّاً مبتكراً، ولكنه في الوقت ذاته ليس ساقطاً متهالكاً، إلا أنّه وبكل تأكيد أرفع وأبرع من شعر معاصريه وما كانوا يعرضوه على ممدوحيهم[3].

([1]) المتنبي، **الديوان**، 345/3. وقد احتذى في بيته قول أشجع:

بسيوفٍ وريـن من قيس غيلا ن ثِقال على العدوّ جِفافُ

ومن قول أبي زرعة:

إنّ عندي منها حسأمّا على الهام ثقيلاً وفي الأكفّ خفيفاً. التنيسي

ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، ص 506.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 34-35.

([3]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 202.

ثانياً: الصورة القائمة على اللّون

كان المدح من أهم الأغراض التي برز فيها المتنبي، ولم يستطع كشاعرٍ مبدعٍ إلّــا أن يلوّن صوره بالألوان التي تُضفي الحياة والجمال على صوره، فقال مادحاً عضد الدّولة:

شَمسٌ إذا الشَّمسُ لاقَتــهُ علَــى فَــرَسٍ تَــرَدَّدَ النُّــورُ فيهــا مِــن تَــرَدُّدِهِ[1]

فجعل الممدوح على خيله شمسٌ تمدّ الشّمس بالنّور، فهو أضوأ منها، وهذه صورة لطيفة وإن لم تخل من المبالغة، وهو إنّما أراد التّعبير عن المكانة العالية للممدوح وتفوقه على غيــره حتّى كادوا يختفون وراءه. ولعلّه نظر في قول أبي تمّام:

ضُــمِّخَ مــن لونــه فجــاء كــأنْ قــد كَسَــفَتْ فــي أديمــه الشّــمس[2]

اللّون الأبيض والأسود

فتغيّر الألوان جاء من تغير الأحوال التي أحدثها الممدوح بشجاعته وغلبته، فهو كالغرّة في وجه الفرس، يقول المتنبي:

صَــدَمتَهُمْ بِخَمــيسٍ أَنــتَ غُرَّتُــهُ وَسَــمهَرِيَّتُهُ فــي وَجهِــهِ غَمَــمُ [3]

إنّ الممدوح شريف في قومه، هو الوجه والطّلعة لجيشه الذي شبّهه بالفرس لقوّته، أمّــا رماحهم فشبّهها بالشَّعْرِ الكثيف لكثرتها. وقد تسمع النّغمة الحادّة السّريعة التي تجعلك تتخيّل شدّة المعركة وضراوتها، باصطدام الجيشين بالسّيوف وسقوط الأبطال والرّؤوس، فتتعالى الأصوات والصّرخات عبر هذه السّنين الطّويلة [4]، وهذا ما قد يجعلنا نقف صارخين بشــاعرية المتنبــي وفنه العظيم. وقد يكون المتنبي مطّلعاً على قول أبي تمّام:

ولأنــتَ أوضــحُ فــيهم مــن غُــرَّةٍ شَدَختْ وفــاز بهــا الجــوادُ الأدهــمُ[5]

---

(1) المتنبي، **الديوان**، 183/2.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 228/2.

([3]) المتنبي، **الديوان**، 139/4. غمم: أن يسيل الشعر حتّى يضيق الوجه والقفا. **اللسان**، باب غمم.

([4]) نافع، عبد الفتاح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ص 212 – 213.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 3 / 216. المصرم: قليل المال. ابن منظور: **اللسان**، باب صرم، شدخت الغرة: اتسعت في الوجه. **اللسان**، باب شدخ. فالأدهم هو الأسود من الخيل. **اللسان**، باب دهم.

أعمال الممدوح تميّزه عن غيره، واستخدم الشّاعران اللون الأبيض رمزاً للممدوح.

فأفعال الممدوح كالشّية من اللّون الأسود، فأفعاله متميّزة عن أفعال غيره، كما تزيّن الأدهم بالغرّة والتحجيل، يقول المتنبي:

أفاعيلُ الوَرَى مِنْ قَبْلُ دُهْمٌ وَفِعْلُكَ في فِعالهم شِياتُ[1]

ويشبه قول أبو تمّام:

قَوْمٌ إذا اسْوَدَّ الزّمان توضَّحُوا فيه وغُودِرَ وهو منهم أبلقُ[2]

أو قوله:

حتّى لو أنَّ اللّيالي صُوِّرَت لَفَدَتْ أفعالُه الغرُّ في آذانها شَنفا[3]

فكلاهما استخدم اللون الأسود ليدلّ على النّاس كلهم، أمّا اللون الأبيض فكان رمزاً للممدوح بعطائه وكرمه، وأفعاله العظيمة، فجاء الأبيض في منتصف الأسود مميّزاً ظاهراً.

اللّون الأحمر

من الطبيعيّ أن يظهر اللّون الأحمر في أرض المعركة، فاستخدمه المتنبي ليلوّن صوره الحماسيّة، يقول:

خَافِياتِ الألوانِ قدْ نَسجَ النَّقْعُ عليْها بَراقِعاً وجِلاَلا[4]

فكان للطبيعة أثر في إيحاء الشّاعر من خلال الصّورة البدوية، ألا ترى ما نسجه النقع من البراقع والجلال؟[5] ولعلّه نظر في قول أبي تمّام:

واكتسَتْ ضُمّرُ الجيادِ المذاكي من لباس الهيجا دماً وحَميماً[6]

([1]) المتنبي، **الديوان**، 346/1.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 397/4.

([3]) المصدر السابق، 363/3.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 255/3.

([5]) عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم**، ص 318.

(6) أبو تمّام: **الديوان**، 3/ 229.

جعل الشّاعران الدّم المنتشر في أرض المعركة يكسو الخيل بثوب يغطي كل جسمها، كناية عن شدّة المعركة.

ثالثاً: الصورة القائمة على الحواس

صوت الفرس

اجتمع كل ممدوحي المتنبي على حب الغزو وملاقاة العدوّ، فهم متمرسون في الحرب والأسفار حتّى تظنّ أنّ أحدهم يرمي بنفسه إلى التّهلكة، وكأنّ القتل حاجة له يبتغيها، فإن سمع صهيل خيله، كاد أن يقع من سرجه لشدّة ما أصابه من النّشاط والطّرب، يقول:

بِكُلِّ أَشعَثَ يَلقى المَوتَ مُبتَسِمًا حتّى كَأَنَّ لَهُ في قَتلِهِ أَرَبَا
قُحٍّ يَكادُ صَهيلُ الخَيلِ يَقذِفُهُ عن سَرجِهِ مَرَحًا بِالغَزوِ أَو طَرَبا[1]

جعل صوت الخيل إيذاناً ببدء المسير إلى الحرب وتحقيق طموح الممدوح في النّيل من عدوه، وقد ارتبط صوتها أيضاً بمشاعر الفرح والطّرب فهي ذات أثر طيب في نفس فارسها. ومن جيد ما قيل في معنى البيت الأول قول أبي تمّام:

مُسْتَرْسَلينَ إِلى الحَتُوفِ، كأنَّما بينَ الْحُتُوفِ وبَيْنَهمْ أرحامُ[2]

جعل الشّاعران ممدوحهما يستقبل الموت وكأنّه حياة له، فهو مقدام لا يهاب القتل والمواجهة، ففي مثل هذه المواقف، يتبين الشّجاع من الجبان.

([1])المتنبي: **الديوان**، 1/248-249.

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 155/3. وقول البحتري:

متسرعين إلى الحُتُوف كأنها وَفْرٌ بأرضِ عدوّهم يُتنهّبُ

المتنبي: **الديوان**، 1/ 249.

الخيل في قصيدة الفخر

أولاً: الصورة القائمة على الحركة

الفخر بالنّفس

يسخر المتنبي ممن يحاول التّفوق عليه في الشِّعْر ويجعله أحمق يلهو به ممدوحه (سيف الدّولة)، ويقول:

إذا شـــاءَ أنْ يَلْهُـــو بلِحيَـــةِ أحْمَـــقٍ أراهُ غُبَـــاري ثـــمّ قـــالَ لَـــهُ الحَـــق[1]

فشبّه نفسه بالخيل التي تثير الغبار في السّباق، ولا يستطيع أحد اللّحاق به، وقد ساعده في ذلك اختياره لكلمة (غُباري) التي تدل على البعد بينهما[2]، وفي ذلك فخر شديد بالنّفس قد يصل حد الغرور.

وفي هذا ينظر إلى قول أبي تمّام:

يـــا طالبـــاً مَسْـــعَاتَهُمْ لِينالَهـــا هَيْهَـــاتَ مِنْـــكَ غُبَـــارُ ذَاكَ المَوْكِـــبِ[3]

فكلاهما يقدر على الصّعب الممتنع الذي لا يقدر عليه غيره.

ويؤكّد المتنبي على رغبته العارمة في ركوب الخيل، والقتال، ولبس الدّروع؛ ليظهر شجاعة وتمكناً لا يظهره إلا الفارس، يقول:

مَفرَشـــي صَـــهوَةُ الحِصـــانِ ولَكِـــــنَّ قَميصـــي مَســـرودَةٌ مِـــن حَديـــدِ[4]

ولعلّه نظر فيه إلى قول أبي تمّام:

وكلاكمـــا اقْتَعـــد العُلـــى فركبْتهـــا فـــي الـــذِّروةِ العُلْيَـــا وجـــاء رديفـــا[5]

([1]) المتنبي: **الديوان**، 3/57-58.

([2]) المصدر السابق، 3/ 58.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 1/ 98.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 2/44.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 374.

يرى الشّاعران أنّ ركوب الخيل هو دليل المكانة العالية والشّجاعة والفروسية.

ثم بالغ في وصف شجاعته في موضع آخر حين أغار على العدوّ وحده، وأفزع الخيل وحده، ولم يثبط عزيمته بُعد جيشه أو بعد سيف الدّولة الذي يستجيشه على شجاعته الفائقة، فقد نهب نفوس أعدائه الذين كان هدفهم من الحرب نهب الأمتعة، يقول:

وَرَائِعُهـــا وَحيـــدٌ لـــمْ يَرُعْـــهُ تباعُـــدُ جيشـــه والمُسْـــتَجَاشِ
ونَهْـبُ نفـوس أهـل النَّهـب أولـى بأهـلِ المجـد مـن نهـب القُمـاشِ[1]

عظّمَ نفسه وجعلها من أشراف النّاس لأنّ نهب النّفوس أليق بالأشراف، وهذا من قول أبي تمّام:

إن الأسـودَ أسـودَ الغـابِ همّتهـا يومَ الكريهة في المسلوبِ لا السَّلَبِ[2]

"أخذه أبو الطيب، فلم يحسن في تكرير النّهب، وذكر القماش إذ هو من ألفاظ العامة والسّوقة"[3]

ولشجاعته وإقدام خيله فإنّهما يقابلان الموت بالصّدور والأعناق، فلا تنال الرّماح من أعجاز خيله؛ لأنّه لا يهرب أبداً، يقول:

مُحَرَّمَـةٌ أَكْفَـالُ خَيلـي عَلـى القَنـا مُحَلَّلَـةٌ لَبَاتُهـا وَالقَلائِـدُ[4]

وقد أفاد من قول أبي تمّام:

محرّمـة أكفـالُ خيلـك فـي الـوَغَى ومكلومـةٌ لبّاتهـا ونحورهـا[5]

تكاد الصّورة أن تكون متشابهة، فكلاهما ثابت في وجه العدوّ، يستقبل الضّربات بنحور خيله الشّجاعة.

([1]) المتنبي: **الديوان**، 319/2 – 320. رائع: مفزع. **اللسان**، باب روع، المستجاش: يطلب منه الجيش. **اللسان**، باب جيش، نهب: الغارة، أهل النهب: الجيش. **اللسان**، باب نهب، القماش: متاع البيت. **اللسان**، باب قلش

([2]) أبو تمّام: **الديوان**، 66/1.

([3]) البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ص 281 – 282.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 393/1– 394.

([5]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 222.

ولا عجب أن عشق المتنبي خيله، فهي أصيلة، وكثيراً ما قالوا: أنّ عتق وأصالة الخيل يظهر في جرْيها، فكان لجرْي الخيل نصيب في قصيدة الفخر في المتنبي، فهو يستخدمه ليفخر بأصالة خيله أو يشبّه نفسه بها، فهو كما ذكر سابقاً لا يجب الجلوس والتّرف، أو التّغزل بالنّساء والتّشبب بهن، إنّما هو من أهل السّفر والقتال المولعين بالخيل وركوبها، يقول:

ألا كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى فِدًا كُلِّ ماشِيَةِ الهَيْذَبَى[1]

فقد فضّل الخيل والنّياق على النساء، من خلال جعلهنّ رمزاً لقهر الصّعاب واجتياز الصّحراء المهلكة، والإرادة القوية التي لا تلين مهما واجهتها المهالك والمكائد [2]. فحشده الألفاظ الألفاظ الغريبة وأخرجها إخراجاً لغويّاً متقناً، ليحقّق لنفسه التّفوّق في أوساط اللغويين[3].

وهذا من قول أبي تمّام:

يَرى بالكعَابِ الرَّوْدِ طَلْعَةَ ثَائِرٍ وبالعِرْمَسِ الوجناءِ غُرَّةَ آيبِ[4]

وممدوحه مثله يحب ركوب الخيل والقتال عليها والإغارة على الأعداء.

الخيل السّابقة

سيف المتنبي يتعطّش لدماء أعدائه، ويسابق الموت إليهم، وكأنّه في سباق للخيل وقد تمّ الرّهان عليه، يقول:

يُسابِقُ سَيْفِي مَنَايَا العِبَادِ إليهم كَأَنَّهُمَا فِي رِهَانِ[5]

فسيفه يسبق آجال النّاس قبل انقضائها، وفي هذا تعطش ورغبة عارمة في النّيل من الأعداء وكأنّه لا يصبر أن يقتص الدّهر منهم، بل يتعجل عقابهم بسيفه، ومثله قول أبي تمّام:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 160/1. الهيذبى: ضرب في مشي الخيل فيه سرعة. **اللسان**، باب هذب، الخيزلي: مشية للفساد فيها استرخاء وتثاقل وتفكك وتراجع. **اللسان**، باب خزل

([2]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 329.

([3]) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص 335.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 202/1.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 323/4.

يكادُ حـــينَ يلاقـــي القِـــرْن مـــنْ حَنَـــقٍ قبْـــل السِّـــنانِ علَـــى حَوبَائِـــهِ يَـــرِدُ[1]

فكلاهما يتسابق للنّيل من أعدائه، ففيهما سرعة وحماسة شديدة.

الخيل ومظاهر الطبيعة

سخّر المتنبي الطبيعة وما فيها من ظواهر وحيوانات لخدمة صوره الفنيّة، فعلى الـــرغم من كوْن خيله مهراً صغيراً ما زال شعر الولادة عليه إلّا أنّه كان سابقاً، وإن بالغ المتنبي فـــي ذلك يقول:

بَـــزّ المَـــذاكي وهْـــوَ فـــي العَقـــائِق وزادَ فـــي السّـــاق علـــى النَّقـــانِق[2]

ويرى الأزدي الصواب أن يقول عن ساقه غليظة صلبة، فذَكَرُ النّعام ساقه دقيقة صلبة، كقول امرئ القيس: " له أيطلا ظبي وساقا نعامة "، أمّا ساق النعامة فهي صغيرة صلبة، عظمها غليظ، وذلك مستحب في الخيل[3]. وهو في ذلك مطّلع على قول أبي تمّام:

لـــــيس بَـــــديعاً منـــــه ولا عَجبـــــا أنْ يَطْـــــرقَ المـــــاء وِردُه خِمْـــــسُ
يَتـــرُكُ مـــا مَـــرَّ مُـــذ قُبيْـــلُ بـــه كـــأنّ أدنـــى عهـــدٍ بـــه الأمْـــسُ[4]

وعلى الرغم من صغر خيله إلا أنّه يفطن إلى مراد فارسه، أهو الجَدُّ والغارة أم اللّعـــب والميدان، يقول:

وزادَ فـــي الحِـــذْرِ علـــى العَقـــاعِقِ يُمَيّـــزُ الهَـــزْلَ مِـــنَ الحَقـــائِقِ[5]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2 /14.

ومثله قول عنترة:

وأنـــا المنيـــةُ فـــي المواقـــف كلهـــا والطعـــنُ منـــي ســـابقُ الآجـــال

المتنبي: **الديوان**، 323/4.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 96/3. بزّ: غلبَ وسلب. **اللسان**، باب بزز. العقائق: الشعر الذي يولد المولود وهو عليه. **اللســان**، باب عقق، النقانق: جمع نقنق: وهو الظليم (ذكر النعام). **اللسان**، باب نقق.

([3]) الأزدي، **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني**، ص 140 – 141.

([4])أبو تمّام: **الديوان**، 225/2–230.

([5]) المتنبي: **الديوان**، 96/3. اللعقاعق: جمع عقعق طائر معروف ذو لونين أبيض وأسود طويل الذنب، وهو نـــوع مـــن الغربان، يضرب به المثل في الحذر فيقال(احذر من عقعق). **اللسان**، باب عقق.

رفع الشّاعر من قيمة مهره وجعله كالإنسان الفطن الذي لا يحتاج كلاماً لـيفهم المـراد وهذا خير دليل على شدّة تعلق المتنبي بخيله. وقد أفاد من قول أبي تمّام:

وهـو إذا مـا ناجـاه فارسـه يَفهـم عنْـه مـا يَفهـم الإنْـسُ[1]

ثانياً: الصورة القائمة على الحواس

حاسة السّمع

جعلت دقّة السّمعِ الخيلَ تنذر قومها إن أحسّت بعدو أو سارق، فتصهل بقوة قد تـوحي لسامعها بالحمق، ولكنّها تخفي الحذق والمهارة، يقول المتنبي:

ويُنْـذِرُ الرَّكْـبَ بِكُـلِّ سَـارِقٍ يُرِيـكَ خُرْقـاً وَهْـوَ عَـيْنُ الحـاذِقِ[2]

فخيله حريصة على قومها كفارسها، والشّاعر يعطيها صفة الفهم والمكر وهذا إعلاء من مكانتها ليرفعها إلى مصافي بني البشر. وفيه نظر إلى قول أبي تمّام:

ذُو أوْلَـقٍ عنـد الجِـراء وإنّمـا مـن صـحة إفـراطُ ذاك الأوْلَـق[3]

الخيل في قصيدة الرثاء

أولاً: الصورة القائمة على الحركة

محاسن المرثي

أمّا غياب أبي الهيجاء فقد ترك في نفوس من حوله الحسرة والتّوجع وخيبة الأمل، فكان المرثي واعداً بالخير كسحاب واعدة بالرّيّ، ولمّا غاب عنهم بموته قبل أن يرويهم بعطائه، أبقى أنفسهم مثل أرض أجدبت لإخطاء السّحاب وعدم ريّها، يقول المتنبي:

بَـدا ولَـهُ وَعـدُ السَـحابَةِ بِـالرَّوَى وَصَـدٍّ وَفينـا غُلّـةُ البَلَـدِ المَحـلِ[4]

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 227

([2]) المتنبي: **الديوان**، 3/96-97.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/412.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 3/176. غلة: العطش. **اللسان**، باب غلل.

ولعلّه أفاد من قول أبي تمّام:

فيـــا بحـــر المنـــون ذهبـــتَ منـــه ببحر الجُـود فـي السّـنة الصّـلود[1]

فغياب الممدوح عندهما أدّى إلى القحط والجدب وقلّة المطر، وكلاهما يعنـي خسـارة العطاء والجود والخير بخسارة الممدوح.

عمّ السّكون والخمول بعد رحيل الممدوح، فيدعو المتنبي على الفرسان بعده ألّا يحملـوا رمحاً ولا تحمل القوائم خيلاً، فلا طعم لشيء بعده، يقول:

لا قَلّبَـــتْ أيـــدي الفَـــوَارِسِ بَعْـــدَهُ رُمحـــاً وَلا حَمَلَـــتْ جَـــوَاداً أَرْبَـــعُ[2]

وتكشف هذه الصّورة عن مشاعر صادقة وأحزان حقيقية تسكن قلب الشّاعر على الفقيد، بل ويجعلك تشعر بمثل مشاعره وكأنّك موجود إلى جانبه في مثل ذلك الموقف، وهذا يدل على قدرة شعريّة فذّة ولغة قوية ترسم صورة متقنة. وقد اشتمل رثاء المتنبـي علـى بعـض الآراء الفلسفية الّتي كانت بذوراً لبعض الفلاسفة بعده[3]. ولعلّه أفاد من قول أبي تمّام:

رأيـــتُ مُؤَمِّليـــك غِـــدت علـــيهم عَـــوادٍ أصـــعدتْهم فـــي كُـــؤود
وكلهـــم أعـــدّ اليـــأس وَقْفـــاً عليـــك ونـــصَّ راحلـــةَ القُعـــود[4]

فكلاهما يرى أنّ الأمور تتغيّر برحيل الممدوح، فعند أبي تمّام تظهر الحركة بعد رحيل ممدوحه، ولكن لاخير فيها.أمّا عند المتنبي فعمّ السكون، ويوجّه الشّاعر من خلاله دعوة لعـدم حمل السّلاح أو التّوجه للحرب، فتبرز لديه مشاعر الحزن والأسى على الفقيد أكثر منها عند أبي تمّام.

([1]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 56.

([2]) المتنبي: **الديوان**، 21/3.

([3]) حسين، طه: **مع المتنبي**، ص 214.

([4]) أبو تمّام: **الديوان**، 4/ 59.

الخيل في قصيدة الغزل

أولاً: الصورة القائمة على الحركة

فراق المحبوب

يصبّر المتنبي قلبه بنية زيارة ديار المحبوب، وهذه حاجة لا تنال إلا بقطع المسافات، فكأنّها حرب بين سنابك الخيل والطّرق، يقول:

وَما زِلْتُ أَطْوِي القلبَ قَبْلَ اجتِماعِنا على حاجَةٍ بَينَ السَّنَابِكِ وَالسُّبْلِ[1]

يعتذر المتنبي لقلبه على طول الفراق، ويترك الأمر بيد خيله، فهي الوحيدة القادرة على إنهاء الجفوة والتّباعد الحاصل بينه وبين محبوبه (الممدوح). فكانت رمزاً للأمل وتحقيق الآمال[2]. ولعلّه نظر إلى قول أبي تمّام:

إليك هَتَكنا جُنح ليلٍ كأنه قد اكتحَلتْ منه البلاد بأثمد
تقلقل بي أُدْمُ المهارَى وشُومُها على كل نَشزٍ مُتْلَئِبٍ وفدْفد[3]

فكلاهما جعل الخيل المتحكّمة في وضع حدٍّ للفراق، وإيصال العاشق إلى المحبوب بأسرع وقت. إلا أنّ المتنبي يُظهر نفسه بصورة العاجز، ويجعل الأمر كلّه بيد خيله، وهذ دليل علوّ شأن الخيل عنده، أمّا أبو تمّام فيظهر بعض التّحكم والقيادة.

وأينما توجه المتنبي فإنّ حبّ ممدوحه ساكن في قلبه الملوّع، وأينما كان الممدوح كان المتنبي ضيفه لأنّه يأكل مما زوّده به، يقول:

مُحِبُّكَ حَيثُما اتّجَهَتْ رِكابي وضَيفُكَ حيثُ كنتُ من البلادِ[4]

وهذا من قول أبي تمّام:

([1]) المتنبي: **الديوان**، 10/4.

([2]) إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ص 177.

([3]) أبو تمّام: **الديوان**، 2/ 30.

([4]) المتنبي: **الديوان**، 85/2.

ومـــا ســـافرتُ فـــي الآفـــاق إلّـــا ومـــن جـــدواكَ راحلتـــي وزادي[1]

وقوله أيضاً:

مقـــيم الظّـــن عنـــدك والأمـــاني وإنْ قلقـــت ركـــابي فـــي الـــبلاد[2]

فالرّاحلة هي الصّديقة في السفر، المعينة على الوصول إلى المحبوب.

([1]) أبو تمّام، **الديوان**، 374/1.

([2]) المصدر السابق، 374/1.

الخاتمة

شكّلت صورة الخيل في شعر أبي تمّام والمتنبي، ومدى التّأثير والتّأثر بينهما محور هذا البحث، فقد استعرضتُ هذه الصّورة، وحاولتُ الوقوف على منابعها، وأسباب ظهورها، ومدى تأثّر اللاحق بالسّابق، فخرجتُ من هذا كلّه بجملة من النّتائج، وهي:

- برزت صورة الخيل لدى أبي تمّام والمتنبي بوضوح في غرضيْن هما المديح، والفخر؛ لارتباطها بصفات الشّجاعة، والإقدام، والبطولة، تلاهما أغراض الرثاء والهجاء والغزل.

- جاءت صورة الخيل عند المتنبي أكثر من صورتها عند أبي تمّام؛ وذلك لملازمته سيف الدّولة في العديد من الحروب، وكونه فارساً مغواراً.

- قلّة صورة الخيل القائمة على الحواس عند أبي تمّام، فيما ظهرت بشكل واضح عند المتنبي، ويعود ذلك إلى اهتمّام المتنبي بإثارة الحواس؛ لجعل المتلقي يشعر معه، ويقف إلى جانبه في مواقفه المختلفة.

- الشخصية الأبرز عند رسم صورة الخيل عند أبي تمّام هي شخصية المعتصم بالله، في حين أنّها عند المتنبي شخصية سيف الدّولة الحمداني.

- تطوّر شعر المتنبي في ظل سيف الدّولة الحمداني، وتغيّر نهجه وأسلوبه، ليصبح شعره صالحاً لكل زمان ومكان.

- اعتمد المتنبي في بدايات رسمه لصورة الخيل على صور أبي تمّام والبحتري، ولمّا قوي عوده في قول الشّعر، انطلق يشقّ طريقاً لنفسه، حيث لا منافس له، مكوّناً صوره الشّعرية المستقلّة.

- شَغَفُ الشّاعرين بالغريب الوحشيّ، والألفاظ العويصة، والتكلّف المبالغ فيه، ويعود ذلك لاطّلاعهما الواسع على آثار الشّعراء الذين سبقوهما، وعلى الثقافات المختلفة الّتي تعايشت مع عصورهما.

- اهتمّ أبو تمّام بالبديع وألوانه اهتماما بالغاً، أثّر في عديد من الأحيان على اختياره للألفاظ بشكل سلبي، وأبعده قليلاً عن الاهتمّام بالجمال الموسيقي.

- إدخال المتنبي لألفاظ الغزل في وصف الحرب والبطولات، وكذلك وصف الخيل، وهو منهج تفرّد به، ولم يُسبق إليه.

- اهتمّام المتنبي بالموسيقى والإيقاع، من خلال تكرار بعض الأصوات، واستخدام ألوان البديع، لتنقل نغماً حادّاً سريعاً، يوصلنا إلى أرض المعركة لنرى مشاهدها، وشدّتها عبر السّنين.

- أكثرَ المتنبي من استخدام الألفاظ القوية والحروف الجهورية كالجيم والخاء والقاف، عند وصف المعارك.

- اتّهام المتنبي بالسّرقات الشّعرية بشكل مبالغ فيه، وفي الحقيقة أنّه شاعرٌ استفاد من صور وألفاظ القدماء، لإخراج صور أكثر جمالاً، وأكثر شيوعاً وخلوداً من السّابقة.

- خروج الصّورة عند أبي تمّام نابع من معانٍ عقلية، وخيال بعيد، وأحياناً واقعٍ قريب، بما يتلاءم مع ذوقه في الاستعارات والألوان البديعية، ممّا أدى إلى بُعد استعاراته وتشابيهه في بعض الأحيان.

- ارتباط شعر المتنبي بشخصيته وتجاربه الذاتيّة وحالته النّفسيّة، وهي شخصيّة مضطربة قلقة نتيجة للمعاناة والألم والقسوة الّتي واجهها في معظم مراحل حياته، ممّا انعكس على شعره.

- خروج صور المتنبي عن المألوف، وعدم مراعاتها أوجه الشبّه بين أجزاء الصّورة، أثناء سعيه للابتكار والتجديد.

- اعتماد المتنبي المبالغة والتهويل، وإضافة الكثير من الخيال في رسم صورة الخيل؛ لإظهار الممدوح وخيله وجيشه بهيئة العظماء.

- أظهرت المقطوعات الحربية التي ظهرت فيها صور الخيل جزءاً من المعارك والوقائع الحربية عند الشّاعرين الأمر الذي ساعد في كتابة جزء من تاريخ العبّاسيين وبطولاتهم.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري**، تح: السيد أحمد صقر، مصر: دار المعارف، 1961.

إبراهيم، نوال مصطفى: **المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي**، ط1، عمّان: دار جرير للتوزيع والنشر، 2008.

إبراهيم، الوصيف هلال: **التصوير البياني في شعر المتنبي**، ط1، القاهرة: مكتبة وهبة، 2006.

ابن الأثير، ضياء الدين: **المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر**، ط1، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مصر: مكتبة نهضة مصر، 1960.

ابن خلكان، شمس الدّين أحمد: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، (د. ط)، بيروت، لبنان: دار الثقافة، (د. ت).

ابن طباطبا، محمد بن أحمد: **عيار الشعر**، تح: طه الحاجري و محمد زغلول سلام، (د. ط)، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1956.

ابن المستوفى، أبو بركات شرف الدين المبارك: **النظام في شرح شعر المتنبي و أبي تمّام**، ط1، تح: خلف رشيد نعمان، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.

ابن المعتز: **طبقات الشّعراء**، تح: عبد الستار فراج، ط4، القاهرة: دار المعارف، (د. ت).

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: **لسان العرب، (د. ط)**، بيروت: دار صادر، (د.ت).

ابن نباته، جمال الدين: **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د. ط)، دار الفكر العربي، 1964.

أبو الأنوار، محمد: **الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية**، ط2، مصر: دار المعارف، 1987.

أبو تمّام: **الديوان**، شرح: الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عــزام، م3،(د، ط) مصــر: دار المعارف، (د، ت).

أبو الشوارب، محمد مصطفى: **شعرية التفــاوت مــدخل لقــراءة الشــعر العباســي**، (د، ط)، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (د، ت).

الأزدي، أحمد بن معقل، **مآخذ الأزدي على شرح ابن جني لديوان المتنبي**، (د. ط)، تح: عدنان محمود عبيدات، الأردن، الإربد: دار الكندي للتوزيع والنشر، 2005.

الأصبهاني، أبو فرج علي بن الحسين: **الأغاني**، (د. ط)، مؤسسة جمال للطباعة والنشــر، (د. ت).

الأصفهاني، أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن: **الواضح في مشكلات شعر المتنبــي**، تحقيــق: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ط1، القاهرة: دار السلام، 2009.

الأمين، السيد محسن: **أعيان الشيعة**، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1986.

الأيوبي، ياسين: **المتنبي في عيون قصائده**، ط 1، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، 2002.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: **إعجاز القرآن**، تح: السيد أحمد صقر، ط 5، القــاهرة، دار المعارف، **(د. ت)**.

البديعي، يوسف: **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، تح: مصطفى الســقا وآخــرون، (د. ط)، مصر: دار المعارف، 1963.

البديعي، يوسف: **هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمّام**، تع: محمود مصطفى، (د، ط)، مصر: مطبعة العلوم، 1934.

بروكلمان، كارل: **تاريخ الأدب العربي**، ط3، مصر: دار المعارف، **(د. ت)**.

البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، (د. ط)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، **(د. ت)**.

بلاشير، ريجيس: **أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي**، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ط2، دمشق: دار الفكر، 1985.

البهبيتي، نجيب محمد: **أبو تمّام الطائي حياته وحياة شعره**، (د، ط)، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1945.

التطاوي، عبد الله: **أبو تمّام صوت وأصداء**، (د. ط)، القاهرة: دار قباء للنشر والتوزيع، 1998.

القصيدة العباسية قضايا واتجاهات، (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، (د، ت).

النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي، (د، ط)، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، 1999.

التنيسي، ابن وكيع: **المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي**، تح: حمودي زين الدبن، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1993.

الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد المجيد، ط2، القاهرة: مطبعة السعادة، 1956.

الجابر، مسعود محمود: **الشعر في رحاب سيف الدّولة الحمداني**، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994

الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط3، دار إحياء الكتب العربية، (د. ت).

الجندي، إنعام: **المتنبي والثورة**، ط1، بيروت: دار الفكر العربي، 1992.

الحاج حسن، حسين: **أعلام في الشعر العباسي**، ط1، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1993.

حجاب، محمد: **معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول (عصر الدّولة الموحدة)**، ط2، مصر: دار المعارف، 1973.

حسن، عباس: **المتنبي وشوقي دراسة ونقد وموازنة**، (د. ط)، مصر: دار المعارف، 1964.

حسين، طه: **مع المتنبي**، ط12، دار المعارف، (د. ت).

من حديث الشعر والنثر، ط1، القاهرة: مطبعة الصاوي، 1936.

الحموي: **معجم البلدان**، (د. ط)، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت، (د. ت).

الخضراوي، فخري: **رحلة مع النقد الأدبي**، (د، ط)، دار الفكر العربي، 1977.

خليف، يوسف: **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، (د. ط)، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1981.

خليل، ياسين يوسف عايش: **الشعر في بلاد الشام والجزيرة من قيام الدّولة العباسية حتّى نهاية القرن الثالث الهجري**، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع، 1993.

الرّبابعة، حسن محمّد: **أدب الحرب عند المتنبي**، ط1، الأردن: مؤسسة رام للتكنولوجيا، 2004.

الرباعي، عبد القادر: **الصّورة الفنية في شعر أبي تمّام**، (د، ط)، إربد، الأردن: نشر بدعم من جامعة اليرموك، 1980.

الزبيدي، صلاح مهدي: **دراسات في الشعر العباسي**، ط1، عمّان، الأردن: الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2004.

الزركلي: **الأعلام**، ط5، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، (د. ت).

الساريسي، عمر: **الشعر في العصر العباسي المؤثرات والظواهر**، ط1، مكتبة الفلاح، دار حنين للنشر والتوزيع، 2006.

سليطين، فيصل: **أبو تمّام في دائرة الضوء**، ط1، دمشق: دار الينابيع، 2007.

شاكر، محمود محمد: **المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**،(د.ط)، القاهرة، مطبعة المدني، 1987.

الشكعة، مصطفى: أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1983.

شعيب، محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، مصر: دار المعارف، 1964.

شكري، عبد الرحمن: **دراسات في الشعر العربي**، جمع وتح: محمد رجب البيومي، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1994، 1415هـ.

شلبي، سعد إسماعيل: **مقدمة القصيدة عند أبي تمّام والمتنبي**، (د، ط)، مكتبة غريب، **(د. ت)**.

الصاوي: محمد إسماعيل عبد الله: **شرح ديوان جرير**، (د، ط)، بيروت، لبنان: الشركة اللبنانية للكتاب، دمشق، سوريا: مكتبية محمد حسين النوري، (د، ت).

الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: **أخبار أبي تمّام**، تح: خليل عساكر ومحمد عزام ونظير الإسلام الهندي، ط1، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937.

ضيف، شوقي: **العصر العباسي الأول**، ط6، مصر: دار المعارف، (د. ت).

الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط10، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).

عباس، إحسان: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ط4، بيروت، لبنان: دار الثقافة، 1983.

فن الشعر، (د. ط)، دار بيروت، 1955.

عبد الحافظ، صلاح: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي**، ط1، دار المعارف، 1983.

عبد الرحمن، نصرت: **شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتّى نهاية القرن الرابع)**، ط1، عمّان: دار مكتبة الأقصى، 1977.

عبد الله، محمد حسن: **الصّورة والبناء الشعري**، (د، ط)، القاهرة: دار المعارف، (د، ت).

عبود، مارون: **الرؤوس**، ط5، بيروت: دار مارون عبود، دار الثقافة، 1972.

عثمان، سهيل وكنعان، منير: **المحصول الفكري للمتنبي**، ط1، بيروت: دار الإرشاد، 1969.

عزام، عبد الوهاب: **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ط3، مصر: دار المعارف، (د.ت).

عسّاف، ساسين: **الصّورة الشعرية**، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982.

العشماوي، أيمن محمد زكي: **قصيدة المديح عند المتنبي وتطوّرها الفني**، (د. ط)، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999.

موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، (د. ط)، بيروت: دار النهضة العربية، 1981.

عطّار، مصطفى حسين: **مواقف من السّيرة النبوية**، ط1، مكتبة مشهور الضامن بركات: مكّة المكرمة، 1980م،

العقاد، عباس: **مطالعات في الكتب والحياة**، (د. ط)، مصر: المطبعة التجارية الكبرى، 1924.

العكبري: **شرح التبيان على ديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين**، ط1، المطبعة العامرة الشرفية، (د. ت).

علي، أسعد: **الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمّام**،، ط2، بيروت، دار الكتاب اللّبناني **(د. ت)**

غوادرة، فيصل حسين: **التمرد في العصر العباسي الأول**، ط1، عمّـان، الأردن: دار جهينـة، 2005.

الفاخوري، حنا: **تاريخ الأدب العربي**، (د. ط)، المطبعة البولسية، (د. ت).

فرّان، محمد يوسف: **أبو الطيب نشيد الصحراء الخالد**، ط1، بيـروت: دار الكتـب العلميـة، 1990.

فروخ، عمر: **أبو تمّام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله**، (د. ط)، بيروت، 1964.

تاريخ الأدب العربي، ط6، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، 1997.

القط، عبد القادر: **مفهوم الشعر عند العرب**، (د، ط) القاهرة: دار المعارف، 1982.

القيرواني، أبي علي الحسن ابن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط4، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، لبنان: دار الجيل للنشر والتوزيع، 1972.

كبّابة، وحيد صبحي: **الصّورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحـس**، (د، ط)، اتحـاد الكتاب العرب، 1999.

الكفراوي، محمد عبد العزيز: **الشّعر العربي بين الجمود والتّطور**، ط2، القـاهرة: دار نهضـة مصر للطبع والنشر، (د.ت).

مأمون الجنّان: **البحتري دراسة نقدية حول فنونه الشعرية**، ط1، بيروت، لبنـان: دار الكتـب العلمية، 1994م.

المتنبي: **الديوان**، شرح عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، لبنان: دار الكتـاب العربـي، 1399-1979.

المحاسني، زكي: **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سـيف الدّولة**، (د. ط)، مصر: دار المعارف، 1961.

المتنبي، ط4، مصر: دار المعارف، 1971.

المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران: **الموشح في مآخذ العلماء على الشّعراء**، ط2، القاهرة، 1385.

مروّة، محمد رضا: **أبو تمّام عصره – حياته – شعره**، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1990.

مصطفى، حسين: **مواقف من السيرة النبوية**، ط1، مكتبة مشهور الضامن بركات: مكّة المكرمة، 1980م.

المعري، أبو العلاء: **رسالة الغفران**، تحقيق وشرح: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط 9، القاهرة: دار المعارف، (د. ت).

المقدسي، أنيس: **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ط 18، دار العلم للملايين، 1994.

مندور، محمد: **فن الشعر**،(د، ط)، دار القلم، (د، ت).

نافع، عبد الفتاح: **الشعر العباسي قضايا وظواهر**، ط1، عمّان: دار جرير، 2008.

لغة الحب في شعر المتنبي، ط1، عمّان: دار الفكر للنّشر والتوزيع، 1983.

النّجار، الهادي عمر الفيتوري: **قصيدة الرّثاء في العصر العباسي حتّى نهاية القرن الثّالث الهجري**. رسالة دكتوراه. جامعة اليرموك. الأردن. 2004.

النّويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، (د. ط)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، (د. ت).

هارون، عبد السلام محمد: **همزيات أبي تمّام**، ط2، مصر: دار المعارف، 1953.

الواد، حسين: **اللغة الشّعر في ديوان أبي تمّام**، (د. ط)، دار الجنوب للنّشر، تونس،1997

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

The Horse _ Image in the Poetry of Abu Tamam and Al Motanaby: Comparative Study

By
Iman Zuheer Husain Shreem

Supervised by
Dr. Abd El-Khaleq Issa

This Thises is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arts in Arabic, Faculty of Graduate studies, at An-NajahNational University, Nablus, Palestine.
2013

The Horse _ Image in the Poetry of Abu Tamam and Al Motanaby: Comparative Study

By
Iman Zuheer Husain Shreem
Supervised by
Dr. Abd El-Khaleq Issa

Abstract

This study is important because it discusses an important poets. Although they have always been in the light spots and they works were the subject for many researches till the moment, no one paid the right attention to "The horse image" between Abo Tamam and Al Mutanabi in his work.

So this study is new and has a new subject.

The research is concerned a bout "The Horse image and its Impact in the poetry of Abo Tamam and Al Mutanabi, and the most important one is "The Horse image" in the Praise poem, that's because the "Praise Poem" is an important feature in Abo Tamam's and Al Mutanabi's works.

Investigating "The horse" image in Abo Tamam's and Al Mutanabi's poetry, formed a very clear point of view about the familiar image in Abo tamam poetry which is affected by the ancients poets and their poetry and another point of view about the innovative image in his poetry, which Generated from think of a net, and a nice artistic workman ship, the beyond the ordinary or the followed.

It also, formed a point of view about the familiar image in Al Mutanabi's poetry, which is affected by the ancients poets and the other cultures, and influenced in Abo Tamam image in its beginnings, and

formed another point of view about the innovative image in his poetry, which is issued from a rebel spirit, suffer oppression and pain in most stages of life.

Through the study between the poets, manifested it self a head of differences between them. Abo Tamam cared in commissioned Badaiya, while Al Mutanabi didn't bay the same amount of attention.

Although the loved the strangely brutal words, even that hurt meaning. The research concerned about the poets to internal and external music in their poetry, when Al Mutanabi show a great cares to the music through his strong words and voices that puts you in the heart of the battle over the years. In the other hand, the music in Abo Tamam poetry connected in most times to Al Badi colors. Although they similarity in the out technical picture, while Abo tamam used alBadaiya too much, and that hurt his image, but Al Mutanabi went toward exaggeration and hype, that refer to his personality and difficult nature of life.